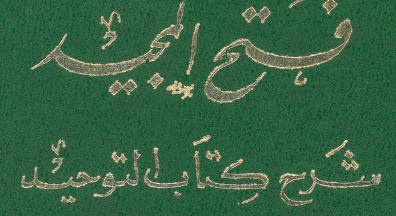


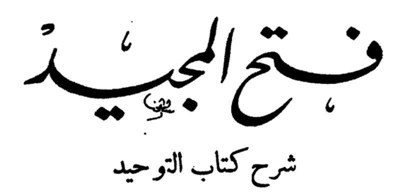



تأليف

الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ

نشر وتوزيع
رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد
بالمملكة العربية السعودية



شرح كتاب التوحيد

تأليف

الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ

المتوفى سنة ١٢٥٨ هـ

نشر وتوزيع
رئاسة ادارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد
بالمملكة العربية السعودية

نبذة مختصرة من ترجمة الشيخ عبد الرحمن بن حسن مؤلف فتح المجيد

قال الشيخ ابن بشر فى كتاب « عنوان المجد » فى حوادث سنة ١٢٤١ :

وفيها أقبل من مصر الشيخ العالم النحرير ، البحر الزاخر الغزير ، مفيد الطالبين ، المحفوف بعناية رب العالمين ، جامع أنواع العلوم الشرعية ، ومحقق العلوم الدينية ، والأحاديث النبوية ، والآثار السلفية ، وارث العلم كابراً عن كابر ، الذى صارت الأصاغر بإفادته شيوخاً أكابر ، قاضى قضاة الإسلام والمسلمين ، ومفتى فرق الأنام الموحدين ، وناصر سنة سيد المرسلين ، الموفق للصواب فى الجواب : الشيخ عبد الرحمن بن حسن ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، قدم على الإمام تركى بن عبد الله قدس الله روحه ، ففرح وأكرمه غاية الإكرام ، واغتبط بطلعته خاص المسلمين والعام ، فعظموه وقاموا بما يستحقه من الإعظام . وبذل نفسه للطالبين ، وانتفع بعلمه كثير من المستفيدين — ثم ذكر العلماء الأفاضل من آل الشيخ وغيرهم الذين استفادوا من الشيخ وانتفعوا بعلمه وتخرجوا عليه ، وهم جملة كثيرة . ثم قال : فضربت إليه آباط الإبل من أقطار نجد والأحسا ، وظهرت آثار البركات من تعليمه وفشا . كيف لا ، وهو من شجرة مباركة أضاء نور طالعها للمسلمين وفشا ، ولاح وميض برقه حين غشى ، فكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ، يهدى الله لنوره من يشاء . اللهم ياسميع الدعاء ، يا إله الأرض والسماء ، نسألك بأسمائك الحسنى أن تجزيهم عنا وعن المسلمين أحسن ما جزيت من دعا إلى توحيدك ، وأن تجعل العلم النافع فيهم وفى عقبهم باقياً إلى يوم لقائك وشهودك .

وقد صنف الشيخ عبد الرحمن بن حسن مصنفات فى الأصول والفروع ، أكثرها رداً على أهل المقالات ، ومن غلط منهم فى الصفات ، وله مصنف فيما يحل ويحرم من الحرير ، فمن طالعه دله على علمه الغزير ، رداً على من أباح لبس المحرمة الروغان ، التى ابتلى الناس بلبسها فى هذا الزمان ، واختصر شرح التوحيد للشيخ سليمان بن عبد الله بن شيخ الإسلام الذى سبق ذكره لأنه مات قبل أن يتمه .

وكان كثيراً ما يتعهد أهل بلدان نجد بالمراسلات والنصائح ، ويعلمهم ما يجب عليهم من أمر دينهم ، ويذكرهم نعمة هذا الدين ، واجتماع شمل أهل الإسلام عليهم ، وما منّ الله به على أهل نجد فى آخر هذا الزمان . والحمد لله أولاً وآخراً . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبةُ للمتقين ، ولا عُدْوان إلا على الظالمين ، كالمبتدعة والمشركين . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له ، إله الأولين والآخرين ، وقيُّوم السماوات والأرضين . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه أجمعين . اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصحابه ومَنْ تَبِعهم بإحسان إلى يوم الدين . وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فإن كتابَ التوحيد — الذى ألَّفه الإمام شيخُ الإسلام : محمد بن عبد الوهاب(1) أجزلَ الله له الأجر والثواب ، وغفر له ولمن أجابَ دعوته إلى يوم يقوم الحساب — قد جاء بديعاً فى معناه : من بيان التوحيد ببراهينه ، وجمع جُملا من أدلته لإيضاحه وتبيينه . فصار عَلماً للموحدين ، وحُجَّة على الملحدين . فانتفع به الخلق الكثير ، والجمُّ الغفير . فإن هذا الإمام رحمه الله فى مبدأ مَنشئه قد شرح الله صدره للحق المبين ، الذى بعث الله به المرسلين : من إخلاص العبادة بجميع أنواعها لله رب العالمين ، و إنكار ما كان عليه الكثير من شرك المشركين . فأعلى الله همته ، وقوّى عزيمته ، وتصدّى لدعوة أهل نجد إلى التوحيد ، الذى هو أساس الإسلام والإيمان ، ونهاهم عن عبادة الأشجار والأحجار ، والقبور والطواغيت والأوثان ، وعن الإيمان بالسَّحرَة والمنجِّمين والكُهّان . فأبطل الله بدعوته كل بدعة وضلالة يدعو إليها كل شيطان ، وأقام الله به عَلَم الجهاد ، وأدْحضَ به شُبَهَ المعارضين من أهل الشرك والعناد ، ودانَ بالإسلام أكثر أهل تلك البلاد ، الحاضر منهم والباد . وانتشرت دعوته ومؤلفاته فى الآفاق ، حتى أقرّ له بالفضل من كان من أهل الشقاق . إلا من استحوذ عليه الشيطان ، وكرّه إليه الإيمان ، فأصر على العناد والطغيان .

وقد أصبح أهل جزيرة العرب بدعوته ، كما قال قتادة رحمه الله عن حال أول هذه الأمة : « إن المسلمين لما قالوا : لا إله إلا الله ، أنكر ذلك المشركون وكبرت عليهم ، وضاق بها إبليس وجنوده . فأبى الله إلا أن يُمضيَها ويظهرها ، ويُفْلِجها وينصرها على من ناوأها . إنها كلمة من خاصم بها فَلَج ، ومن قاتل بها نُصر ، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة التى يقطعها الراكب فى ليال قلائل ، ويسير من الدهر ، فى فئام من الناس ، لا يعرفونها ولا يُقرُّون بها »

(1) ولد فى العيينة سنة ١١١٥ وتوفى بالدرعية سنة ١٢٠٦ رحمه الله .

وقد شرح الله صدور كثير من العلماء لدعوته ، وسرُّوا واستبشروا بطلعته ، وأثنوا عليه نثراً ونظما .

فمن ذلك ما قاله عالم صنعاء : محمد بن إسماعيل الأمير فى هذا الشيخ رحمه الله تعالى :

وقد جاءت الأخبارُ عنه بأنه ... يعيد لنا الشرعَ الشريف بما يبدى
ويَنشر جهراً ما طَوَى كل جاهل ... ومُبتدع منه ، فوافقَ ما عندى
ويَعمُر أركان الشريعة هادماً ... مشاهدَ ، ضلّ الناس فيها عن الرشد
أعادوا بها معنى سُواع ومثله ... يَغوث وَوَدٍّ ، بئس ذلك من وَد
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها ... كما يَهتفُ المُضطر بالصَّمَدِ الفرد
وكم عَقَروا فى سوحها من عَقيرة ... أهلّت لغير الله جَهراً على عمد
وكم طائفٍ حولَ القبور مُقبّل ... ومُستَلم الأركان منهنَّ بالأيدى

وقال شيخنا عالم الإحساء أبو بكر حسين بن غَنّام رحمه الله تعالى فيه :

لقد رفعَ المولى به رُتبة الهدى ... بوقتٍ به يعلَى الضلالُ ويَرفع
سقاه نمير الفهم مولاه ، فارتوَى ... وعام بتيار المعارف يقطع
فأحيا به التوحيد بعد اندراسه ... وأوهَى به من مطلع الشرك مهيع
سما ذِرْوة المجد التى ما ارتقى لها ... سواه ، ولا حاذَى فناها سَمَيْذَع
وشمَّر فى منهاج سنة أحمد ... يشيد ويحيي ما تعفَّى ، ويرفع
يناظر بالآيات والسنة التى ... أمرنا إليها فى التنازع نرجع
فأضحت به السمحاء يبسمُ ثَغرها ... وأمسى محياها يُضيء ويلمع
وعاد به نهج الغواية طامساً ... وقد كان مسلوكا به الناس تَرْتع
وجرّت به نجد ذيولَ افتخارها ... وحُقّ لها بالألمعِيّ ترفع
فآثاره فيها سَوامٍ سوافرٌ ... وأنواره فيها تضيء وتلمع

وأما كتابه المذكور فموضوعه فى بيان ما بعث الله به رسله : من توحيد العبادة ، وبيانه بالأدلة من الكتاب والسنة ، وذكر ما ينافيه من الشرك الأكبر ، أو ينافى كماله الواجب من الشرك الأصغر ونحوه ، وما يقرُب من ذلك أو يوصل إليه .

وقد تصدّى لشرحه حفيد المصنف ، وهو الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله تعالى فوضع عليه شرحاً أجاد فيه وأفاد ، وأبرز فيه من البيان ما يجب أن يطلب منه ويراد ، وسماه « تيسير العزيز الحميد ، في شرح كتاب التوحيد » .

وحيث أطلق « شيخ الإسلام » فالمراد به : أبو العباس أحمدُ بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية ، و « الحافظ » فالمراد به : أحمد بن حجر العسقلانى .

ولما قرأتُ شرحه رأيته أطنبَ فى مواضع ، وفى بعضها تكرار يستغنى بالبعض منه عن الكل ، ولم يكمله . فأخذت فى تهذيبه وتقريبه وتكميله ، وربما أدخلت فيه بعض النقول المستحسنة تتميما للفائدة ، وسميته « فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد » .

وأسأل الله أن ينفع به كل طالب للعلم ومستفيد ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وموصلا مَنْ سَعى فيه إلى جنات النعيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

قال المصنف رحمه الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

ابتدأ كتابه بالبسملة اقتداء بالكتاب العزيز، وعملا بحديث « كل أمر ذى بال لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطعُ » أخرجه ابن حبان من طريقين . قال ابن الصلاح والحديث حسن . ولأبى داود وابن ماجة « كل أمر ذى بالٍ لا يبدأ فيه بالحمد لله أو بالحمد فهو أقطع » ولأحمد « كل أمرٍ ذى بالٍ لا يُفتتح بذكر الله فهو أبترُ أو أقطع » وللدار قطنى عن أبى هريرة مرفوعاً « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أقطع » .

والمصنف قد اقتصر فى بعض نسخه على البسملة ، لأنها من أبلغ الثناء والذكر للحديث المتقدم . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقتصر عليها فى مراسلاته ، كما فى كتابه لِهرَقْلَ عظيم الروم . ووقع لى نسخة بخطه رحمه الله تعالى بدأ فيها بالبسملة ، وثنّى بالحمد والصلاة على النبى صلى الله عليه وآله وسلم وعلى هـذا : فالابتداء بالبسملة حقيقى ، وبالحمدلة نِسْبِيٌّ إضافى ، أى بالنسبة إلى ما بعد الحمد يكون مبدوءاً به .

والباء فى (بسم الله) متعلقة بمحذوف ، واختار كثيرمن المتأخرين كونه فعلاخاصاً متأخراً .
أما كونه فعلا ، فلأن الأصل فى العمل للأفعال .
وأما كونه خاصاً ، فلأن كل مبتدئ بالبسملة فى أمر يُضْمِرُ ما جَعل البسملة مبدأ له .
وأما كونه متأخراً ، فلدلالته على الاختصاص ، وأدخل فى التعظيم ، وأوفق للوجود ولأنّ أهمّ ما يُبدأ به ذكرُ الله تعالى .

وذكر العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : لحذف العامل فوائد . منها : أنه موطن لا ينبغى أن يتقدم فيه غير ذكر الله . ومنها : أن الفعل إذا حُذف صح الابتداء بالبسملة فى كل عمل وقولٍ وحركة . فكان الحذفُ أعمّ . انتهى ملخصاً .

وباء « بسم الله » للمصاحبة . وقيل : للاستعانة : فيكون التقدير : بسم الله أؤلف حالَ كونى مستعيناً بذكره ، متبركاً به . وأما ظهوره فى (اقرأ باسْمِ ربِّك) وفى (بِسْمِ اللهِ مَجْرِيْها) فلأنّ المقامَ يقتضى ذلك كما لا يخفى .

والاسم مشتق من السُّمُوّ وهو العلو . وقيل : من الوَسْم وهو العلامة ، لأن كل ما سُمِّى فقد نُوِّه باسمه ووُسِمَ .

قوله « الله » قال الكِسائى والفَرّاء : أصله الإلٰه ، حذفوا الهمزة وأدغموا اللام فى اللام ، فصارتا لاماً واحدة مشددة مُفَخَّمة . قال العلامة ابن القيم رحمه الله . الصحيح : أنه مشتق ، وأن أصله الإلٰه ، كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شَذّ . وهو الجامع لمعانى الأسماء الحسنى والصفات العُلى . والذين قالوا بالاشتقاق إنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى ، وهى الإلهية ، كسائر أسمائه الحسنى ، كالعليم ، والقَدير ، والسميع ، والبصير ، ونحو ذلك . فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب ، وهى قديمة . ونحن لا نعنى بالاشتقاق إلا أنها ملاقيةٌ لمصادرها فى اللفظ والمعنى . لا أنها متولدة منه تَوَلُّد الفَرْع من أصله . وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه : أصلا وفرعاً ، ليس معناه : أن أحدهما متولد من الآخر . و إنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة .

قال أبو جعفر بن جرير : « الله » أصله « الإله » أسقطت الهمزة التى هى فاء الاسم فالتقت اللام التى هى عين الاسم واللام الزائدة وهى ساكنة فأدغمت فى الأخرى ، فصارتا فى اللفظ لاماً واحدة مشدَّدة . وأما تأويل « الله » فإنه على معنى ما روى لنا عن عبد الله ابن عباس قال : « هو الذى يألهه كل شيء ويعبده كل خلق » وساق بسنده عن الضحاك عن عبد الله بن عباس قال : « الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين » فإن قال لنا قائل : وما دلَّ على أن الألوهية هى العبادة ، وأن الإله هو المعبود ، وأن له أصلا فى فَعِل ويَفْعَل ، وذكر بيت رؤبة بن العجاج :

لله دَرّ الغانياتِ المُــدَّهِ * سَبّحنَ واسترجعن من تألُّهى

يعنى من تَعَبّدِى وطلبى اللهَ بعملِى . ولا شك أن التألُّه التفعل ، من أله يأله ، وأن معنى « أله » إذا نطق به : عبدَ اللهَ . وقد جاء منه مصدر يدل على أن العرب قد نطقتَ به بفعل يفعَل بغير زيادة . وذلك ما حدثنا به سفيان بن وكيع — وساق السند إلى ابن عباس « أنه قرأ (ويَذَرَكَ وإلاهتَكَ) قال : عبادتك ، ويقول : إنه كان يُعبد ولا يعبُد » وساق بسند آخر عن ابن عباس «ويذرك وإلاهتك . قال : إنما كان فرعون يُعبد ولايعبد»

وذكر مثله عن مجاهد ، ثم قال : فقد بيّن قولُ ابن عباس ومجاهد هـذا : أن « أله » : عبد . وأن الإلاهة ، مصدره وساق حديثاً عن أبى سعيد مرفوعا « أن عيسى أسلمته أمه إلى الكتاب ليعلمه . فقال له المعلم : اكتب بسم الله . فقال عيسى : أتدرى ما الله ؟ الله إله الآلهة » .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : لهذا الاسم الشريف عشر خصائص لفظية ، وساقها . ثم قال : وأما خصائصه المعنوية فقد قال أعلم الخلق صلى الله عليه وسلم : « لا أُحْصِى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » وكيف نحصى خصائص اسم لمسماه كل كمال على الإطلاق ، وكل مدح وحمد ، وكل ثناء وكل مجد ، وكل جلال وكل كمال ، وكل عز وكل جمال ، وكل خير وإحسان ، وجود وفضل وبرّ فله ومنه ، فما ذكر هـذا الاسم فى قليل إلا كثّره ، ولا عند خوف إلا أزاله ، ولا عند كَرْبٍ إلا كشفه ، ولا عند همّ وغمّ إلا فرّجه ، ولا عند ضيق إلا وسّعه ، ولا تعلق به ضعيف إلا أفاده القوة ، ولا ذليل إلا أناله العزّ ، ولا فقير إلا أصاره غنياً ، ولا مستوحش إلا آنسه ، ولا مغلوب إلا أيده ونصره ، ولا مضطر إلا كشف ضره ، ولا شريد إلا آواه . فهو الاسم الذى تكشف به الكربات ، وتستنزل به البركات ، وتجاب به الدعوات ، وتقال به العثرات ، وتستدفع به السيئات ، وتستجلب به الحسنات . وهو الاسم الذى قامت به الأرض والسماوات ، وبه أنزلت الكتب ، وبه أرسلت الرسل ، وبه شرعت الشرائع ، وبه قامت الحدود ، وبه شرع الجهاد ، وبه انقسمت الخليقة إلى السعداء والأشقياء ، وبه حقّت الحاقة ، ووقعت الواقعة ، وبه وُضعت الموازين القسط ونصب الصراط ، وقام سوق الجنة والنار ، وبه عبد رب العالمين وحمد ، وبحقه بعثت الرسل ، وعنه السؤال فى القبر ويوم البعث والنشور ، وبه الخصام وإليه المحاكمة ، وفيه الموالاة والمعاداة ، وبه سَعِد من عرفه وقام بحقه ، وبه شَقِيَ من جهله وترك حقه ، فهو سر الخلق والأمر ، وبه قاما وثبتا ، وإليه انتهيا ، فالخلق به وإليه لأجله ، فما وجد خلق ولا أمر ولا ثواب ولا عقاب إلا مبتدئاً منه منتهياً إليه . وذلك موجبه ومقتضاه (٣ : ١٩١ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطلاً ، سُبْحانَكَ ! فَقِنا عذابَ النارِ) إلى آخر كلامه رحمه الله تعالى .

قوله « الرحمن الرحيم » قال ابن جرير : حدثنى السَّرِىُّ بن يحيى حدثنا عثمان بن زُفَر

(الحمدُ للهِ ، وصَلى اللهُ على محمد وعلى آلهِ وسلم)

قال سمعت العَرْزَمِيَّ يقول : « الرحمن بجميع الخلق ، والرحيم بالمؤمنين » . وساق بسنده عن أبى سعيد — يعنى الخدرىّ — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن عيسى بن مريم قال : الرحمن : رحمن الآخرة والدنيا . والرحيم : رحيم الآخرة » .

قال بن القيم رحمه الله تعالى : فاسمه « الله » دل على كونه مألوهاً معبوداً . يألهه الخلائق : محبة وتعظيما وخضوعا ، ومفزعا إليه فى الحوائج والنوائب . وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنين لكمال الملك والحمد ، وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه : مستلزم لجميع صفات كماله ، إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحى ، ولا سميع ، ولا بصير ، ولا قادر ، ولا متكلم ، ولا فعال لما يريد ، ولا حكيم فى أقواله وأفعاله . فصفات الجلال والجمال : أخص باسم « الله » ، وصفات الفعل والقدرة والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة وتدبير أمر الخليقة : أخص باسم « الرب » ، وصفات الإحسان والجود والبر والحنان والمنة والرأفة واللطف : أخص باسم « الرحمن » .

وقال رحمه الله أيضاً : « الرحمن » دال على الصفة القائمة به سبحانه « والرحيم » دال عَلَى تعلقها بالمرحوم . وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى : (٣٣ : ٤٣ وكان بالمؤمنينَ رَحيما) ، (٩ : ١١٧ إنَّه بهم رءوفٌ رَحيم) ولم يجىء قطُّ رحمانٌ بهم .

وقال : إن أسماء الرب تعالى هى أسماء ونعوت ، فإنها دالة عَلَى صفات كماله ، فلا تنافى فيها بين العلمية والوصفية . فالرحمن اسمه تعالى ووصفه . فمن حيث هو صفة جرى تابعاً لاسم الله ومن حيث هو اسم ورد فى القرآن غير تابع ، بل ورد الاسم العلم ، كقوله تعالى : (٢٠ : ٥ الرَّحْمنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى) انتهى ملخصاً .

قوله : « الحمد لله » معناه : الثناء بالكلام عَلَى الجميل الاختيارى عَلَى وجه التعظيم . فمورده : اللسان والقلب . والشكر يكون باللسان والجنان والأركان . فهو أعمُّ من الحمد متعلقاً ، وأخص منه سبباً ؛ لأنه يكون فى مقابلة النعمة ، والحمد أعم سبباً وأخص متعلقاً ؛ لأنه يكون فى مقابلة النعمة وغيرها . فبينهما عموم وخصوص وجهى ، يجتمعان فى مادة وينفرد كل واحد عن الآخر فى مادة .

قوله « وصلى الله عَلَى محمد وعَلَى آله وسلم » أصح ما قيل فى معنى صلاة الله عَلَى عبده : ما ذكره البخارى رحمه الله تعالى عن أبى العالية قال : « صلاة الله عَلَى عبده ثناؤه عليه عند الملائكة » وقرره ابن القيم رحمه الله ونصره فى كتابيه « جلاء الأفهام » و « بدائع الفوائد » .

قلت : وقد يراد بها الدعاء ، كما فى المسند عن على مرفوعا « الملائكة تصلى على أحدكم ما دام فى مصلاه : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه » .

قوله « وعلى آله » أى أتباعه على دينه . نص عليه الإمام أحمد هنا . وعليه أكثر الأصحاب . وعلى هذا : فيشمل الصحابة وغيرهم من المؤمنين .

كتاب التوحيـــــد

﴿ كتاب التوحيد ﴾

كتاب : مصدر كتب يكتب كتابا وكتابة وكتبا ، ومدار المادة على الجمع . ومنه : تكتب بنو فلان : إذا اجتمعوا . والكتيبة : لجماعة الخيل ، والكتابة بالقلم : لاجتماع الكلمات والحروف . وسمى الكتاب كتاباً : لجمعه ما وُضع له .

والتوحيد نوعان : توحيد فى المعرفة والإثبات . وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات وتوحيد فى الطلب والقصد ، وهو توحيد الإلهية والعبادة .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : وأما التوحيد الذى دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب فهو نوعان : توحيد فى المعرفة والإثبات ، وتوحيد فى الطلب والقصد . فالأول هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه ، وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمته ، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جدَّ الإفصاح ، كما فى أول سورة الحديد ، وسورة طه ، وآخر الحشر ، وأول تنزيل : السجدة ، وأول آل عمران ، وسورة الإخلاص بكمالها ، وغير ذلك .

النوع الثانى : ما تضمنته سورة (قُلْ يا أيُّها الكافِرون) وقوله تعالى : (٣ : ٦٤ قُلْ يا أهلَ الكتابِ تَعالَوْا إلى كلمةٍ سواء بَيْننا وبَينكمُ أنْ لا نَعْبدَ إلا اللهَ ولا نُشرِكَ بِهِ شيْئًا ولا يتَّخذَ بعْضُنا بعْضاً أرْباباً منْ دُونِ اللهِ ، فإنْ توَلّوْا فقولوا : اشْهدُوا بأنّا مُسْلمُون) وأول سورة تنزيل الكتاب ، وآخرها . وأول سورة المؤمن ، ووسطها ، وآخرها . وأول سورة الأعراف ، وآخرها . وجملة سورة الأنعام ، وغالب سور القرآن . بل كل سورة فى القرآن فهى متضمنة لنوعى التوحيد ، شاهدة به داعية إليه .

فإن القرآن إما خبر عنَ الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله ، فهو التوحيد العلمى الخبرى وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخَلْع ما يعبد من دونه ، فهو التوحيد الإرادى الطلبى ، وإما أمر ونهى ، وإلزام بطاعته وأمره ونهيه ، فهو حقوق التوحيد ومكملاته ،

وإما خبر عن إكرام أهل التوحيد وما فعل بهم فى الدنيا وما يكرمهم به فى الآخرة ، فهو جزاء توحيده ، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم فى الدنيا من النكال وما يَحُلّ بهم فى العُقبَى من العذاب ، فهو جزاء منْ خَرج عن حكم التوحيد . فالقرآن كله فى التوحيد وحقوقه وجزائه ، وفى شأن الشرك وأهله وجزائهم . انتهى .

قال شيخ الإسلام : التوحيد الذى جاءت به الرسل إنما يتضمن إثبات الإلهية لله وحده بأن يشهد أن لا إله إلا الله : لا يعبد إلا إياه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يوالى إلا له ، ولا يعادى إلا فيه ، ولا يعمل إلا لأجله . وذلك يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات . قال تعالى : (٢ : ١٦٣ وَإلٰهكُمْ إلهٌ واحدٌ لا إله إلاّ هو الرَّحمٰنُ الرحيم) وقال تعالى : (١٦ : ٥١ وقالَ اللهُ : لا تتَّخذوا إلٰهَيْن اثْنَيْن إنما هو إلهٌ واحدٌ فإيّايَ فارْهبُون) وقال تعالى : (٢٣ : ١١٧ ومنْ يدعُ مَع اللهِ إلٰهاً آخر لا برهانَ له به فإنما حسابُه عند ربِّه إنه لا يُفلِحُ الكافرون) وقال تعالى : (٤٣ : ٤٥ واسْأل منْ أرْسلنا مِنْ قَبلكَ مِنْ رُسُلنا : أجَعلْنا منْ دُونِ الرحمٰن آلهة يُعْبدُون ؟) وأخبر عن كل نبى من الأنبياء أنهم دعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وقال : (٦٠ : ٤ قَدْ كانتْ لكم أسْوَةٌ حسنةٌ فى إبراهيم والذين معهُ ، إذْ قالوا لقَوْمهم : إنّا بُرآء منكم ومما تعْبدُونَ مِنْ دُون اللهِ . كَفرْنا بكم وبَدَا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاء أبداً حتى تُؤْمِنوا باللهِ وحده) وقال عن المشركين : (٣٧ : ٣٥ ، ٣٦ إنهم كانوا إذا قيلَ لهم : لا إله إلا الله يستكبرون . ويقولون : أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعرٍ مجنون) وهذا فى القرآن كثير .

وليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية ، وهو اعتقاد : أن الله وحدهُ خلق العالم ، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف . ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد . وأنهم إذا شهدوا هذا وفنوا فيه ، فقد فنوا فى غاية التوحيد ، فإن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ، ونزهه عن كل ما يُنزَّه عنه ، وأقرَّ بأنه وحده خالق كل شىء : لم يكن موحداً حتى يشهد أن لا إله إلا الله وحده . فيقرّ بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة : ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له . و « الإله » هو المألوه المعبود الذى يستحق العبادة . وليس هو الإله بمعنى القادر على الاختراع . فإذا فسر المفسر

« الإله » بمعنى القادر على الاختراع ، واعتقد أن هذا المعنى هو أخص وصف الإله ، وجعل إثبات هذا هو الغاية فى التوحيد ـ كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية . وهو الذى يقولونه عن أبى الحسن وأتباعه ـ لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذى بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن مشركى العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شىء ، وكانوا مع هذا مشركين . قال تعالى : (١٢ : ١٠٦ وَما يؤمنُ أكثرهُمْ باللهِ إلا وَهُمْ مُشركون) قال طائفة من السلف : « تسألهم : من خلق السموات والأرض ؟ فيقولون : الله . وهم مع هذا يعبدون غيره » قال تعالى : (٢٣ : ٨٤ — ٨٩ قلْ : لمن الأرضُ ومنْ فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله . قل : أفلا تَذَكَّرُون ؟ : قل : منْ رَبُّ السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون : الله . قلْ : أفلا تتقون ؟ قلْ : منْ بيده ملكوت كلِّ شىء وهو يجير ولا يُجارُ عليه إن إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : الله . فأنَّى تُسْحَرون ؟) فليس كل من أقرَّ بأن الله تعالى ربُّ كل شىء وخالقه يكون عابداً له دون ما سواه ، داعياً له دون ما سواه راجياً له خائفاً منه دون ما سواه ، يوالى فيه ويعادى فيه ، ويطيع رسله ، ويأمر بما أمر به وينهى عما نهى عنه : وعامّة المشركين أقرُّوا بأن الله خالق كل شىء . وأثبتوا الشفعاء الذين يشركونهم به ، وجعلوا له أنداداً . قال تعالى : (٣٩ : ٤٣ ، ٤٤ أم اتخذوا من دون الله شُفعاء ؟ قل : أوَلَوْ كانوا لا يملكون شيئاً ولا يَعْقلون ؟ قل : لله الشفاعةُ جميعاً ، له ملك السمواتِ والأرض) وقال تعالى : (١٠ : ١٨ ويعبدون من دون الله مالا يضرُّهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل . أتنبِّئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون) وقال تعالى : (٦ : ٩٤ ولقَدْ جِئْتُمُونا فرادَى كما خلقناكم أول مَرةٍ وتركتُم ما خوّلناكم وراء ظُهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زَعَمْتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضلَّ عنكم ما كنتم تزعمون) وقال تعالى : (٢ : ١٦٥ ومنَ الناسِ مَنْ يتخذ من دون الله أنداداً يحبُّونهم كحبِّ الله) . ولهذا كان من اتباع هؤلاء من يسجد للشمس والقمر والكواكب ويدعوها ، ويصوم وينسك لها ويتقرب إليها ثم يقول : إن هذا ليس بشرك . إنما الشرك إذا اعتقدت أنها المدبرة لى . فإذا جعلتها سبباً وواسطة لم أكن مشركا . ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن هذا شرك . انتهى كلامه .

وقوله تعالى : (٥١ : ٥٦ وَمَا خَلَقْتُ الْجِن وَالْإِنْس إلا لِيَعْبُدُونِ) .

قوله : وقول الله تعالى : (٥١ : ٥٦ وماخلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون) بالجر عطف على التوحيد . ويجوز الرفع على الابتداء .

قال شيخ الإسلام : العبادة هى طاعة الله بامتثال ما أمر الله به على ألسنة الرسل .

وقال أيضا : العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه ، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

قال ابن القيم : ومدارها على خمس عشرة قاعدة . من كملها كمل مراتب العبودية . وبيان ذلك : أن العبادة منقسمة على القلب واللسان والجوارح . والأحكام التى للعبودية خمسة : واجب ومستحب وحرام ومكروه ومباح . وهن لكل واحد من القلب واللسان والجوارح .

وقال القرطبى : أصل العبادة التذلل والخضوع. وسُمِّيت وظائف الشرع على المكلفين عبادات . لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى .

ومعنى الآية : أن الله تعالى أخبر أنه ما خلق الجن والإنس إلا لعبادته . فهذا هو الحكمة فى خلقهم .

قلت : وهى الحكمة الشرعية الدينية .

قال العماد بن كثير : وعبادته هى طاعته بفعل المأمور وترك المحظور . وذلك هو حقيقة دين الإسلام : لأن معنى الإسلام : الاستسلام لله تعالى ، المتضمن غاية الانقياد والذل والخضوع . انتهى .

وقال أيضا فى تفسير هـذه الآية : ومعنى الآية : أن الله خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له . فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء . ومن عصاه عذبه أشد العذاب . وأخبر أنه غير محتاج إليهم . بل هم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم وهو خالقهم ورازقهم . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه فى الآية : « إلا لآمرهم أن يعبدونى وأدعوهم إلى عبادتى » وقال مجاهد : « إلا لآمرهم وأنهاهم » اختاره الزجاج وشيخ الإسلام . قال : ويدل على هذا قوله : (٧٥ : ٣٦

وقوله : (١٦ : ٣٦ ولَقَدْ بَعَثْنا فى كلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً : أَنِ اعْبُـدُوا اللّهَ

أيحسبُ الإنسان أن يتركَ سُدًى) قال الشافعى : « لا يؤمر ولا ينهى » وقال فى القرآن فى غير موضع : (اعبدوا ربكم) ، (اتقوا ربكم) فقد أمرهم بما خلقوا له ، وأرسل الرسل بذلك وهذا المعنى هو الذى قصد بالآية قطعاً ، وهو الذى يفهمه جماهير المسلمين و يحتجون بالآية عليه .

وقال : وهذه الآية تشبه قوله تعالى : (٤ : ٦٤ وما أرسلنا من رسولٍ إلا ليطاعَ بإذنِ الله) ثم قد يطاع وقد يعصى . وكذلكَ ما خلقهم إلا لعبادته . ثم قد يَعبدون وقد لا يعبدون . وهو سبحانه لم يقل : أنه فعلَ الأول . وهو خَلقهم ليفعل بهم كلهم . الثانى : وهو عبادته ولكن ذكر أنه فعل الأول ليفعلوا هم الثانى ، فيكونوا هم الفاعلين له ، فيحصل لهم بفعله سعادتهم ، ويحصل ما يحبه و يرضاه منه ولهم . انتهى .

و يشهد لهذا المعنى : ما تواترت به الأحاديث .

فمنها : ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً : لو كانت لك الدنيا وما فيها ومثلها معها أكنت مفتدياً بها ؟ فيقول : نعم . فيقول: قد أردتُ منك أهون من هذا وأنت فى صلب آدم : أن لا تشرك — أحسبه قال : ولا أدخلك النار — فأبيت إلا الشرك » فهذا المشرك قد خالف ما أراده الله تعالى منه : من توحيده وأن لا يشرك به شيئاً . فخالف ما أراده الله منه فأشرك به غيره . وهذه هى الإرادة الشرعية الدينية كما تقدم .

فبين الإرادة الشرعية الدينية والإرادة الكونية القدرية عموم وخصوص مطلق . يجتمعان فى حق المخلص المطيع . وتنفرد الإرادة الكونية القدرية فى حق العاصى . فافهم ذلك تنجُ من جهالات أربابِ الكلام وتابعيهم .

قال : (وقوله ١٦ : ٣٦ ولقد بعثنا فى كل أمةٍ رسولاً أن اعبدو الله واجتنبوا الطاغوت) الطاغوت : مشتق من الطغيان ، وهو مجاوزة الحدِّ ، قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « الطاغوت الشيطان » . وقال جابر رضى الله عنه : الطواغيت كهان كانت تنزل عليهم الشياطين » رواهما ابن أبى حاتم . وقال مالك « الطاغوت : كل ما عُبد من دون الله » .

وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .

قلت : وذلك المذكور بعضُ أفراده ، وقد حدّه العلامة ابن القيم حداً جامعاً فقال : الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده : من معبود أو متبوع أو مطاع . فطاغوت كل قوم : من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله . فهذه طواغيت العالم . إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم أعرض عن عبادة الله تعالى إلى عبادة الطاغوت ، وعن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طاعة الطاغوت ومتابعته .

وأما معنى الآية : فأخبر تعالى أنه بعث فى كل طائفة من الناس رسولا بهذه الكلمة (أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) أى : اعبدوا الله وحده واتركوا عبادة ما سواه ، كما قال تعالى : (٢ : ٢٥٦ فمنْ يكفرْ بالطاغوت ويؤمنْ بالله فقد استمسكَ بالعرْوة الوُثقى لا انفصام لها) وهذا معنى « لا إله إلا الله » فإنها هى العروة الوثقى .

قال العماد ابن كثير فى هذه الآية : وكلهم — أى الرسل — يدعو إلى عبادة الله وينهى عن عبادة ما سواه ، فلم يزل سبحانه يرسل إلى الناس بذلك منذ حدث الشرك فى بنى آدم فى قوم نوح الذين أرسل إليهم ، وكان أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، الذى طبقت دعوته الإنس والجن فى المشارق والمغارب ، وكلهم كما قال الله تعالى : (٢١ : ٨٥ وما أرْسلنا من قبلكَ من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول : (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء ؟) فمشيئة الله تعالى الشرعية عنهم منفية ؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسن رسله ، وأما مشيئته الكونية — وهى تمكينهم من ذلك قدراً — فلا حجة لهم فيها ، لأنه تعالى خلق النارَ وأهلها من الشياطين والكفرة ، وهو لا يرضى لعباده الكفر ، وله فى ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة . ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة فى الدنيا بعد إنذار الرسل ، فلهذا قال : (١٦ : ٣٦ فمنهم منْ هدَى اللهُ ومنهم من حقتْ عليه الضلالة) انتهى .

وقوله : (١٧ : ٢٣ ، ٢٤ وَقَضَى رَبُّكَ أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا : أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا ، وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ،

قلت : وهذه الآية تفسير الآية التي قبلها . وذلك قوله : (فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) فتدبر .

ودلت هذه الآية على أن الحكمة في إرسال الرسل : دعوتهم أممهم إلى عبادة الله وحده ، والنهي عن عبادة ما سواه ، وأن هذا هو دين الأنبياء والمرسلين ، وإن اختلفت شريعتهم ، كما قال تعالى : (٥ : ٥١ لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعة ومنهاجا) وأنه لابد في الإيمان من عمل القلب والجوارح .

قال : وقوله تعالى : (١٧ : ٢٣ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) قال مجاهد : (قضى) « يعني : وصى » . وكذا قرأ أُبَيُّ بن كعب وابنُ مسعود وغيرهم . ولابن جرير عن ابن عباس (وقضى ربك) « يعني : أمر » .

وقوله تعالى : (أن لاتعبدوا إلا إياه) المعنى : أن تعبدوه وحده دون ما سواه ، وهذا معنى « لا إله إلا الله » .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : والنفي المحض ليس توحيداً . وكذلك الإثبات بدون النفي . فلا يكون التوحيد إلا متضمناً للنفي والإثبات . وهذا هو حقيقة التوحيد .

وقوله : (وبالوالدين إحساناً) أي : وقضى أن تحسنوا بالوالدين إحساناً ، كما قضى بعبادته وحده لا شريك له . كما قال تعالى في الآية الأخرى : (٣١ : ١٤ أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير) .

وقوله : (إما يبلغن عندك الكبر ، أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أفٍّ ، ولا تنهرهما) أي : لا تسمعهما قولا سيئا ، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيء (ولاتنهرهما) أي : لايصدر عنك إليهما فعل قبيح ، كما قال عطاء بن أبي رباح : « لا تنفض يديك عنهما » .

ولما نهاه عن الفعل القبيح والقول القبيح أمره بالفعل الحسن والقول الحسن ، فقال : (وقل لهما قولا كريما) أي : ليناً طيباً بأدب وتوقير . وقوله : (واخفض لهما جناح الذُّلِّ من

وَقُلْ: رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا).

وقوله: (٤: ٣٦ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا): (٦: ١٥١ — ١٥٣

الرحمة) أي: تواضع لهما (وقل: ربِّ ارحمهما) أي: في كبرهما وعند وفاتهما (كما ربياني صغيرا). وقد ورد في برِّ الوالدين أحاديثُ كثيرة. منها: الحديث المروى من طُرقٍ عن أنس وغيره «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صعد المنبر قال: آمين، آمين، آمين، فقالوا: يا رسول الله، على ما أمّنت؟ قال: أتاني جبريل فقال: يا محمد رَغِمَ أنفُ امرئٍ ذُكرتَ عنده فلم يصلِّ عليك، قل: آمين، فقلت: آمين. ثم قال: رغم أنفُ امرئٍ دخل عليه شهر رمضان، ثم خرج ولم يغفر له، قل: آمين، فقلت: آمين. ثم قال: رغم أنفُ امرئٍ أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة، قل: آمين. فقلت: آمين». وروى الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم «رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف رجل أدرك والديه ـ أحدهما أو كلاهما ـ لم يدخل الجنة» قال العماد ابن كثير: صحيح من هذا الوجه. وعن أبي بكْرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين. وكان متكئاً فجلس، فقال: ألا وقولُ الزور، ألا وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليتهُ سكتَ» رواه البخاري ومسلم. وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رضَى الربِّ في رضى الوالدين، وسخطه في سخط الوالدين» رواه الترمذي، وصححه ابن حبان والحاكم. وعن أبي أسِيدٍ الساعدي رضي الله عنه قال: «بينا نحن جلوس عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل من بني سَلَمة فقال: يا رسول الله، هل بقي من برِّ أبوي شيء أبرُّهما به بعد موتهما؟ فقال: نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما» رواه أبو داود وابن ماجة. والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جداً.

وقوله: (٤: ٣٦ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) قال العماد ابن كثير رحمه الله في هذه الآية: يأمر الله تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له، فإنه الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الحالات، وهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئا من مخلوقاته. انتهى.

قُلْ : تعَالَوْا أَتلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُم عليكُم : أَنْ لا تُشرِكُوا به شَيْئًا وَبالوَالِدَيْنِ إِحْسَـــانًا ، وَلاَ تَقتُلُوا أَوْلادكُمْ من إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ،

وهذه الآية هى التى تسمى آية الحقوق العشرة ، وفى بعض النسخ المعتمدة من نسخ هذا الكتاب تقديم هذه الآية على آية الأنعام ، ولهذا قدمتها لمناسبة كلام ابن مسعود الآتى لآية الأنعام ؛ ليكون ذكره بعدها أنسب .

وقوله تعالى : (٦ : ١٥١ — ١٥٣ قل : تعالَوْا أتلُ ماحرّم ربُّكم عليكم : أن لا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا — الآيات) .

قال العماد ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم : (قل) لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ، وحرموا ما رزقهم الله : (تعالوا) أى : هلموا وأقبلوا (أتل) أقص عليكم (ماحرم ربكم عليكم) حقاً ، لا تخرُّصاً ولاظنا ، بل وحياً منه وأمراً من عنده (أن لا تشركوا به شيئاً) وكأن فى الكلام محذوفا دل عليه السياق ، تقديره : وصاكم أن لا تشركوا به شيئاً ، ولهذا قال فى آخر الآية : (ذلكم وصاكم به) اهـ .

قلت : فيكون المعنى : حرّم عليكم ما وصاكم بتركه من الإشراك به . وفى المغنى لابن هشام فى قوله تعالى : (أن لا تشركوا به شيئاً) سبعة أقوال ، أحسنها : هذا الذى ذكره ابن كثير ، ويليه : بيّن لكم ذلك لئلا تشركوا ، فحذفت الجملة من أحدهما ، وهى(وصاكم) وحرف الجر وما قبله من الأخرى . ولهذا إذا سئلوا عما يقول لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يقول : « اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً . واتركوا ما يقول آباؤكم » كما قال أبو سفيان لهرقل وهذا هو الذى فهمه أبو سفيان وغيره من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم: « قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا » .

وقوله تعالى : (وبالوالدين إحسانا) قال القطبى : الإحسان إلى الوالدين : برهما وحفظهما وصيانتهما ، وامتثال أمرهما ، وإزالة الرق عنهما ، وترك السلطنة عليهما . و « إحسانا » نصب على المصدرية ، وناصبه فعل من لفظه ، تقديره : وأحسنوا بالوالدين إحسانا .

وقوله : (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) الإملاق : الفقر ، أى : لا تئدوا بناتكم خشية العيلة والفقر ؛ فإنى رازقهم وإياكم ، وكان منهم من يفعل ذلك

وَلا تقربُوا الفَواحش مَا ظَهَرَ مِنهـا وَمَا بطَنَ ، وَلا تقتُلوا النَّفسَ التي حرَّم اللهُ إلّا بالْحقِّ . ذٰلكمْ وَصّاكم بهِ لعَلَّكم تعقلُونَ ، وَلاَ تقربُوا مَالَ اليَتيم إلاّ بالّتِي هِيَ أحْسَنُ حَتَّى يبْلغَ أشُـدّه ، وَأوفُوا الْكَيْلَ

بالذكور خشية الفقر ، ذكره القرطبي . وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه « قلت : يارسول الله ، أىُّ الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك . قلت : ثم أىٌّ ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يَطعمَ معك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزنى بحليلة جارك . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٥ : ٦٨ — ٧٠ والذين لايدعون مع الله إلهـاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يَلْقَ أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات . وكان الله غفوراً رحيما) » .

وقوله : (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) قال ابن عطية : هذا نهىٌ عام عن جميع أنواع الفواحش ، وهى المعاصى . و « ظهر » و « بطن » حالتان تستوفيان أقسام ما جلتا له من الأشياء . انتهى .

وقوله : (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق) فى الصحيحين : عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعا « لا يحلُّ دم امرئٍ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيِّبُ الزانى ، والنفس بالنفس ، والتاركُ لدينه المفارق للجماعة » .

وقوله : (ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) قال ابن عطية : « ذلكم » إشارة إلى هذه المحرمات ، والوصية الأمر المؤكد المقرر . وقوله : (لعلكم تعقلون) « لعل » للتعليل : أى إن الله تعالى وصانا بهذه الوصايا لنعقلها عنه ونعمل بها . وفى تفسير الطبرى الحنفى : ذكر أولا « تعقلون » ثم « تذكرون » ثم « تتقون » ؛ لأنهم إذا عقلوا تذكروا ، فإذا تذكروا خافوا واتقوا .

وقوله : (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده) قال ابن عطية : هذا نهىٌ عام عن القرب الذى يعمُّ وجوه التصرف ، وفيه سد الذريعة . ثم استثنى مايحسن وهو السعى فى نمائه ، قال مجاهد : « التى هى أحسن : التجارة فيه » وقوله : (حتى يبلغ

وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ . ذَٰلِكُمْ

أشده) قال مالك وغيره : هو الرشد وزوال السفه مع البلوغ . روى نحو هذا عن زيد بن أسلم والشعبي وربيعة وغيرهم .

وقوله : (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) قال ابن كثير : يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء (لا نكلف نفساً إلا وسعها) أى : من اجتهد بأداء الحق وأخذه ، فإن أخطأ بعد استفراغ الوسع وبذل جهده فلا حرج عليه .

وقوله : (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) هذا أمر بالعدل فى القول والفعل على القريب والبعيد . قال الحنفى : العدل فى القول فى حق الولى والعدو لا يتغير فى الرضى والغضب ، بل يكون على الحق وإن كان ذا قربى ، فلا يميل إلى الحبيب والقريب (٥ : ٨ ولا يجرمنكم شنآنُ قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى) .

وقوله : (وبعهد الله أوفوا) قال ابن جرير : وبوصية الله تعالى التى وصاكم بها أوفوا . وإيفاء ذلك . بأن يطيعوه فيما أمرهم به ونهاهم عنه . وأن يعملوا بكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذلك هو الوفاء بعهد الله ، وكذا قال غيره .

وقوله : (ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه .

وقوله : (وَأَنَّ هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) قال القرطبى : هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدم ؛ فإنه نهى وأمر وحذر عن اتباع غير سبيله على ما بينته الأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف ، و « أنَّ » فى موضع نصب : أى : أتلو أنَّ هذا صراطى ، عن الفراء والكسائى ، ويجوز أن يكون خفضاً : أى وصاكم به وبأن هذا صراطى ، قال والصراط : الطريق الذى هو دين الإسلام . و« مستقيما » نصب على الحال ، ومعناه : مستويا قيِّما لا اعوجاج فيه ، فأمر باتباع طريقه الذى طرقه على لسان محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه ، ونهايته الجنة ، وتشعبت منه طرق ، فمن سلك الجادّة نجا ، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار . قال الله تعالى : (ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) أى : تميل . انتهى .

وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون) .

قال ابن مسعود : « من أراد أن ينظرَ إلى وصيَّةِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم

وروى الإمام أحمد والنسائي والدارمي وابن أبي حاتم والحاكم — وصححه — عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً بيده . ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما ، ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ، ثم قال : وهذه السبل ليس منها سبيل إلا وعليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل — الآية) » وعن مجاهد : (ولا تتبعوا السبل) قال : « البدع والشهوات » .

قال ابن القيم رحمه الله : ولنذكر في الصراط المستقيم قولا وجيزاً ، فإن الناس قد تنوعت عباراتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته ، وحقيقته شيء واحد ، وهو طريق الله الذي نصبه لعباده موصلا إليه ، ولا طريق إليه سواه ، بل الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا طريقه الذي نصبه على ألْسُن رسله ، وجعله موصلا لعباده إليه ، وهو إفراده بالعبادة ، وإفراد رسله بالطاعة ، فلا يشرك به أحداً في عبادته ، ولا يشرك برسوله صلى الله عليه وسلم أحداً في طاعته فيجرد التوحيد ، ويجرد متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا كله مضمون « شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » فأي شيء فسّر به الصراط المستقيم فهو داخل في هذين الأصلين . ونكتة ذلك : أن تحبه بقلبك ، وترضيه بجهدك كله ، فلا يكون في قلبك موضع إلا معمورا بحبه ، ولا يكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته . فالأول يحصل بتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، والثاني يحصل بتحقيق شهادة أن محمداً رسول الله . وهذا هو الهدى ودين الحق ، وهو معرفة الحق والعمل به ، وهو معرفة ما بعث الله به رسوله والقيام به ، وقل ما شئت من العبارات التي هذا آخِيَّتُها وقطب رحاها . قال : وقال سهل بن عبد الله : عليكم بالأثر والسنة ، فإني أخاف ؛ أنه سيأتي عن قليل زمان إذا ذكر إنسان النبي صلى الله عليه وسلم والاقتداء به في جميع أحواله ذمّوه ونفّروا عنه وتبرأوا منه وأذلوه وأهانوه اهـ .

قوله : قال ابن مسعود : « من أراد أن ينظر إلى وصية محمد صلى الله عليه وسلم التي

التي عليها خاتمهُ فَليقرَأ قوله تعالى : (قل : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئا — إلى قوله : وأن هذا صراطي مستقيما — الآية » .

وعن مُعاذِ بن جبلٍ رضي الله عنه قال : « كنتُ رَديفَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم

عليها خاتمه فليقرأ (قل : تعالوا أتلُ ما حرم ربكم عليكم ـ إلى قوله : وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ـ الآية » .

قوله : « ابن مسعود » هو عبد الله بن مسعود بن غافل ـ بمعجمة وفاء ـ بن حبيب الهذلي أبو عبد الرحمن ، صحابي جليل من السابقين الأولين ، وأهل بدر وأحد والخندق و بيعة الرضوان ، ومن كبار علماء الصحابة . أمّره عمر على الكوفة ، ومات سنة اثنتين وثلاثين رضي الله عنه .

وهذا الأثر رواه الترمذي وحسنه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم » والطبراني بنحوه ، وقال بعضهم : معناه : من أراد أن ينظر إلى الوصية التي كأنها كتبت وخُتم عليها فلم تُغيّر ولم تبدّل فليقرأ (قل تعالوا ـ إلى آخر الآيات) شبهها بالكتاب الذي كتب ثم ختم فلم يزد فيه ولم ينقص . فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يوص إلا بكتاب الله ، كما قال فيما رواه مسلم « و إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله » وقد روى عُبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث ؟ ثم تلا قوله : (قل تعالوا أتلُ ما حرم ربكم عليكم) حتى فرغ من الثلاث الآيات ثم قال : ومن وفّى بهن فأجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله : إن شاء آخذه و إن شاء عفا عنه » رواه ابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، ومحمد بن نصر في الاعتصام .

قلت : ولأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يوص أمته إلا بما وصاهم الله تعالى به على لسانه وفي كتابه الذي أنزله (١٦ : ٨٩ تِبياناً لكلِّ شيء ، وَهُدًى ورحمةً وَبُشرَى للمسلمين) وهذه الآيات وصية الله تعالى ، ووصية رسوله صلى الله عليه وسلم .

قوله : وعن معاذ بن جبل قال : كنتُ رَديفَ النبي صلى الله عليه وسلم على حمار ، فقال لي : يا معاذ ، أتدري ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله

على حمارٍ فقال لى : يا مُعاذُ ، أتدرِى ماحقُّ الله على العبادِ : وماحقُّ العبادِ على

ورسوله أعلم ، قال حق الله على العباد : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله : أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً . قلت : يا رسول الله ، أفلا أبشر الناس ؟ قال : لا تبشرهم فيتَّكلوا » أخرجاه فى الصحيحين .

هذا الحديث فى الصحيحين من طرق ، وفى بعض رواياته نحو مما ذكره المصنف .

و « معاذ بن جبل » رضى الله عنه : هو ابن عمرو بن أوس الأنصارى الخزرجى أبو عبد الرحمن ، صحابى مشهور من أعيان الصحابة ، شهد بدراً وما بعدها . وكان إليه المنتهى فى العلم والأحكام والقرآن رضى الله عنه ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « معاذ يحشر يوم القيامة أمام العلماء بِرَتْوة » أىَ : بخطوة . قال فى القاموس : والرَّتْوَة : الخطوة وشرفٌ من الأرض ، وسُويعة من الزمان ، والدعوة ، والفطرة ورمية بسهم ، أو نحو ميل أو مَدَى البصر . والراتى : العالم الربانى . انتهى . وقال فى النهاية : إنه يتقدم العلماء برتوة . أى : برمية سهم . وقيل : بميل . وقيل : مَدّ البصر . وهذه الثلاثة أشبه بمعنى الحديث .

مات معاذ سنة ثمانى عشرة بالشام فى طاعون عِمْواس . وقد استخلفه النبى صلى الله عليه وسلم على أهل مكة يوم الفتح يعلمهم دينهم .

قوله : « كنت رديف النبى صلى الله عليه وسلم » فيه : جواز الإرداف على الدابة وفضيلة معاذ رضى الله عنه .

قوله : « على حمار » فى رواية اسمه « عُفير » قلت : أهداه إليه المقوقس صاحب مصر . وفيه : تواضعه صلى الله عليه وسلم لركوب الحمار والإرداف عليه ، خلافاً لما عليه أهل الكبر .

قوله : « أتدرى ما حق الله على العباد ؟ » أخرج السؤال بصيغة الاستفهام ؛ ليكون أوقع فى النفس ، وأبلغ فى فهم المتعلم . « وحق الله على العباد » هو ما يستحقه عليهم . « وحق العباد على الله » معناه : أنه متحقق لا محالة ؛ لأنه قد وعدهم ذلك جزاء لهم على توحيده (٣٠ : ٦ وَعْدَ اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ) .

قال شيخ الإسلام : كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق إنعام وفضل ، وليس هو استحقاق مقابلة ، كما يستحق المخلوق على المخلوق ، فمن الناس من يقول : لا معنى للاستحقاق

الله ؟ قلت : اللهُ ورسوله أعلم . قال : حقُّ الله على العبادِ : أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً ، وحقُّ العبادِ على الله : أنْ لا يُعذِّبَ من لا يُشْرِكُ به شيئاً . قلت :

إلا أنه أخبر بذلك ووعده صدق ، ولكن أكثر الناس يثبتون استحقاقاً زائداً على هذا ، كما دل عليه الكتاب والسنة . قال تعالى : (٣٠ : ٤٧ وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين) لكن أهل السنة يقولون : هو الذى كتب على نفسه الرحمة . وأوجب على نفسه الحق لم يوجبه عليه مخلوق . والمعتزلة يدعون أنه واجب عليه بالقياس على المخلوق ، وأن العباد هم الذين أطاعوه بدون أن يجعلهم مطيعين له ، وأنهم يستحقون الجزاء بدون أن يكون هو الموجب ، وغلطوا فى ذلك . وهذا الباب غلطت فيه الجبرية ، والقدرية أتباع جهم والقدرية النافية .

قوله : « قلت : الله ورسوله أعلم » فيه : حسن الأدب من المتعلم ، وأنه ينبغى لمن سئل عما لا يعلم أن يقول ذلك ، بخلاف أكثر المتكلفين .

قوله : « أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا » أى : يوحدوه بالعبادة . ولقد أحسن العلامة ابن القيم رحمه الله حيث عرّف العبادة بتعريف جامع ، فقال :

وعبادة الرحمن : غاية حبه   مع ذل عابده ، هما قطبان
وعليهما فلك العبادة دائر   ما دار ، حتى قامت القطبان
ومداره بالأمر — أمر رسوله —   لا بالهوى والنفس والشيطان

قوله : « ولا يشركوا به شيئا » أى : يوحدوه بالعبادة ، فلا بد من التجرد من الشرك فى العبادة ، ومن لم يتجرد من الشرك لم يكن آتياً بعبادة الله وحده ، بل هو مشرك قد جعل لله نداً . وهذا معنى قول المصنف رحمه الله .

وفيه : « أن العبادة هى التوحيد ؛ لأن الخصومة فيه » وفى بعض الآثار الإلهية : « إنى والجن والإنس فى نبأ عظيم ، أخلق ويُعبد غيرى ، وأرزق ويُشكر سواى . خيرى إلى العباد نازل ، وشرهم إلىّ صاعد . أتحبب إليهم بالنعم ، ويتبغضون إلىّ بالمعاصى » .

وقوله : « وحق العباد على الله : أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا » قال الحافظ : اقتصر على نفى الإشراك ؛ لأنه يستدعى التوحيد بالاقتضاء ، ويستدعى إثبات الرسالة باللزوم ،

يا رسول الله ، أفلا أُبَشِّر الناسَ ؟ قال : لا تُبشِّرْهُمْ فَيَتَّكلوا » أخرجاه في الصحيحين .

إذ من كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كذب الله ، ومن كذب الله فهو مشرك .
وهو مثل قول القائل : من توضأ صحت صلاته ، أي : مع سائر الشروط اهـ .

قوله : « أفلا أبشر الناس ؟ » فيه : استحباب بشارة المسلم بما يسره ، وفيه : ما كان عليه الصحابة من الاستبشار بمثل هذا . قاله المصنف رحمه الله .

قوله : « لا تبشرهم فيتكلوا » أي : يعتمدوا على ذلك فيتركوا التنافس في الأعمال .

وفي رواية : « فأخبر بها معاذ عند موته تَأَثُّمًا » أي : تحرُّجًا من الإثم . قال الوزير أبو المظفر : لم يكن يكتمها إلا عن جاهل يحمله جهله على سوء الأدب بترك الخدمة في الطاعة ، فأما الأكياس الذين إذا سمعوا بمثل هذا زادوا في الطاعة ، ورأوا أن زيادة النعم تستدعي زيادة الطاعة ، فلا وجه لكتمانها عنهم .

وفي الباب من الفوائد غير ما تقدم : الحث على إخلاص العبادة لله ، وأنها لا تنفع مع الشرك ، بل لا تسمى عبادة ، والتنبيه على عظمة حق الوالدين ، وتحريم عقوقهما ، والتنبيه على عظمة الآيات المحكمات في سورة الأنعام ، وجواز كتمان العلم للمصلحة .

قوله : « أخرجاه » أي البخاري ومسلم . و « البخاري » رحمه الله : هو الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بَرَدِزْبة الجعفي مولاهم ، الحافظ الكبير ، صاحب الصحيح والتاريخ والأدب المفرد وغير ذلك من مصنفاته . روى عن أحمد بن حنبل والحميدي وابن المديني وطبقتهم . وروى عنه مسلم والنسائي والترمذي والفِرَبْري ، روى الصحيح . ولد سنة أربع وتسعين ومائة ، ومات سنة ست وخمسين ومائتين .

و « مسلم » رحمه الله : هو ابن الحجاج بن مسلم أبو الحسين القشيري النيسابوري ، صاحب الصحيح والعلل والوحدان وغير ذلك . روى عن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأبي خيثمة وابن أبي شيبة وطبقتهم . وروى عن البخاري . وروى عنه الترمذي وإبراهيم ابن محمد بن سفيان راوي الصحيح وغيرهما . ولد سنة أربع ومائتين ، ومات سنة إحدى وستين ومائتين بنيسابور رحمهما الله .

فيه مسائلُ : الأولى : الحِكمةُ في خلق الجنِّ والإنس .

الثانيةُ : أن العبادة هي التوحيدُ ، لأن الخصومة فيه .

الثالثة : أنَّ مَنْ لم يأتِ به لم يعْبدِ الله . ففيه معنى قوله : وَلا أَنْتُمْ عابدُون ما أَعْبُدُ) .

الرابعة : الحكمةُ في إرسال الرُّسل .

الخامسة : أنَّ الرسالة عمّت كل أمة .

السادسة : أن دين الأنبياء واحد .

السابعة : المسألة الكبيرةُ : أن عبادة الله لا تحصلُ إلا بالكُفر بالطاغوتِ ففيه معنى قوله : (فَمَنْ يكفُر بالطاغوت ويؤمنْ بالله فقد استمسكَ بالعروةِ الوثقى) .

الثامنة : أن الطاغوت عامٌّ في كل ما عُبدَ من دون الله .

التاسعة : عِظَمُ شأنِ ثلاثِ الآياتِ المحكمات في سورة الأنعام عند السلف ، وفيها عشر مسائل : أولها : النهي عن الشرك .

العاشرة : الآياتُ في سورة الإسراء ، وفيها ثماني عشرة مسألة ، بدأها الله بقوله : (ولا تجعَلْ مع الله إلهاً آخرَ فتقعدَ مذموماً مخذولاً) وختمها بقوله : (ولا تجعَلْ مع الله إلهاً آخرَ فتُلْقَى في جهَنَّم ملوماً مدْحوراً) ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله : (ذلك مما أوحى إليك ربُّك من الحكمة) .

الحادية عشرة : آية سورة النساء التي تسمَّى آية الحقوق العشرة ، بدأها الله تعالى بقوله : (واعبدُوا اللهَ ولا تُشركوا به شيئاً) .

الثانية عشرة : التنبيه على وَصيَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته .

الثالثة عشرة : معرفة حق الله علينا .

الرابعة عشرة : معرفة حقِّ العباد عليه إذا أدّوْا حقَّه .

الخامسة عشرة : أنَّ هذه المسألة لا يعرفُها أكثرُ الصحابة .

السادسة عشرة : جوازُ كتمانِ العلم للمصلحة .

السابعة عشرة : استحبابُ بشارةِ المسلم بما يَسرُّه .

الثامنة عشرة : الخوفُ من الاتِّكالِ على سعة رحمة الله .

التاسعة عشرة : قولُ المسئولِ عما لا يعلم : « الله ورسوله أعلم » .

العشرون : جوازُ تخصيصِ بعض الناسِ بالعلم دون بعض .

الحادية والعشرون : تواضُعه صلى الله عليه وسلم لركوبِ الحمار ، مع الإردافِ عليه .

الثانية والعشرون : جوازُ الإردافِ على الدَّابة .

الثالثة والعشرون : فضيلةُ مُعاذِ بن جبل .

الرابعة والعشرون: عِظَمُ شأنِ هذه المسألة .

باب

(فضل التوحيد وما يُكفر من الذنوب)

وقول الله تعالى : (٦ : ٨٢ الذينَ آمنوا ولم يَلبسوا إيمانَهُم بظلم أُولئك لهم الأمنُ وَهُمْ مُهتدون) .

قوله : « باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب » « باب » خبر مبتـدأ محذوف تقديره : هذا . قلت : ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره : هذا . و « ما » يجوز أن تـكون موصولة والعائد محذوف ، أى : و بيان الذى يكفره من الذنوب ، ويجوز أن تـكون مصدرية ، أى : وتـكفيره الذنوب ، وهذا الثانى أظهر .

قوله : وقول الله تعالى : (٦ : ٨٢ الذين آمنوا ولم يَلْبَسوا إيمانَهم بِظُلم أولئك لهم الأمنُ وهم مهتدون) قال ابن جرير ، حدثنى المثنى — وساق بسنده — عن الربيع ابن أنس قال : « الإيمان : الإخلاص لله وحده » .

وقال ابن كثير فى الآية : أى هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده ، ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة ، المهتدون فى الدنيا والآخرة . وقال زيد بن أسلم وابن إسحاق : هذا من الله على فصل القضاء بين إبراهيم وقومه .

وعن ابن مسعود : « لما نزلت هذه الآية قالوا : فأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بذلكم ، ألم تسمعوا إلى قول لقمان : (إن الشرك لظلم عظيم) ؟ » وساقه البخارى بسنده فقال : حدثنا عمر بن حفص بن غياث حدثنا أبى حدثنا الأعمش حدثنى إبراهيم عن علقمة عن عبد الله رضى الله عنه قال : « لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) قلنا : يارسول الله ، أينا لا يظلم نفسه ؟ قال : ليس كما تقولون ، لم يلبسوا إيمانهم بظلم : بشرك . أوَلَم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه : (يا بُنيَّ ، لاتشرك بالله ؛ إن الشرك لظلم عظيم ؟) » .

ولأحمد بنحوه عن عبد الله : « لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يارسول الله ، فأيّنا لا يظلم نفسه ؟

قال : إنه ليس الذى تعنون . ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : (يا بنى ، لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم) ؟ إنما هو الشرك » وعن عمر أنه فسره بالذنب ، فيكون المعنى : الأمن من كل عذاب . وقال الحسن والكلبى : « أولئك لهم الأمن ، فى الآخرة : وهم مهتدون : فى الدنيا » .

قال شيخ الإسلام : والذى شق عليهم : أنهم ظنوا أن الظلم المشروط عدمه هو ظلم العبد نفسه ، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه، فبين لهم النبى صلى الله عليه وسلم ما دلهم على أن الشرك ظلم فى كتاب الله ، فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم ، فإن من لم يلبس ايمانه بهذا الظلم كان من أهل الأمن والاهتداء ، كما كان من أهل الاصطفاء فى قوله :(٣٥: ٣٢ ثم أورثنا الكتابَ الذين اصْطَفَيْنا من عبادنا ، فمنهم ظالمٌ لنفسه ، ومنهم مُقْتَصِدٌ ، ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذن الله . ذلك هو الفضل الكبير) وهذا لا ينفى أن يؤاخذ أحدهم بظلمه لنفسه بذنب إذا لم يتب كما قال تعالى (٩٩ : ٦ ، ٧ فمن يَعْمَلْ مثقالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَهْ . ومن يعمل مثقالَ ذرة شرًّا يَرَهْ) وقد سأل أبو بكر الصديق رضى الله عنه النبى صلى الله عليه وسلم فقال « يا رسول الله ، أينا لم يعمل سوءاً ؟ فقال : يا أبا بكر ، ألست تنصَب ؟ ألست تحزن ؟ أليس يصيبك اللأواء ؟ فذلك ما تجزون به » فبيّن أن المؤمن الذى إذا مات دخل الجنة قد يجزى بسيئاته فى الدنيا بالمصائب . فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة : الشرك ، وظلم العباد ، وظلمه لنفسه بما دون الشرك كان له الأمن التام والاهتداء التام ، ومن لم يسلم من ظلمه لنفسه كان له الأمن والاهتداء المطلق ، بمعنى : أنه لا بد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك فى الآية الأخرى . وقد هداه الله إلى الصراط المستقيم الذى تكون عاقبته فيه إلى الجنة ، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه . وليس مراد النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « إنما هو الشرك » أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام ؛ فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر مُعَرَّضون للخوف ، لم يحصل لهم الأمن التام والاهتداء التام الذى يكونون بهما مهتدين إلى الصراط ، المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم ، من غير عذاب يحصل لهم . بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط ، ومعهم أصل نعمة الله عليهم ، ولا بد

لهم من دخول الجنة . وقوله : « إنما هو الشرك » إن أراد الأكبر فمقصوده : أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما أوعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة . و إن كان مراده جنس الشرك ، يقال : ظلم — العبد نفسه — كبخله لحب المال ببعض الواجب — هو شرك أصغر ، وحبه ما يبغضه الله تعالى حتى يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر ونحو ذلك . فهذا فاته من الأمن والاهتداء بحسبه . ولهذا كان السلفُ يُدخلون الذنوبَ فى هذا الشرك بهذا الاعتبار . انتهى ملخصاً .

وقال ابن القيم رحمه الله : قوله : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) قال الصحابة : « وأينا يا رسول الله لم يُلبس إيمانه بظلم ؟ قال : ذلك الشرك . ألم تسمعوا قول العبد الصالح (إن الشرك لظلم عظيم) ؟ » لما أشكل عليهم المراد بالظلم فظنوا أن ظلم النفس داخل فيه ، وأن من ظلم نفسه — أىّ ظلم كان — لم يكن آمناً ولا مهتدياً : أجابهم صلوات الله وسلامه عليه بأن الظلم الرافع للأمن والهداية على الإطلاق هو الشرك . وهذا والله هو الجوابُ الذى يشفى العليل ويروى الغليل ؛ فإن الظلم المطلق التام هو الشرك ، الذى هو وضع العبادة فى غير موضعها . والأمن والهدى المطلق : هما الأمن فى الدنيا والآخرة ، والهدى إلى الصراط المستقيم . فالظلم المطلق التام رافع للأمن وللاهتداء المطلق التام . ولا يمنع ذلك أن يكون مطلق الظلم مانعاً من مطلق الأمن ومطلق الهدى . فتأمله . فالمطلق للمطلق ، والحصة للحصة . اهـ ملخصاً .

قوله : عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ورُوحٌ منه ، والجنةَ حقٌّ والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » ، أخرجاه .

عبادة بن الصامت بن قيس الأنصارى الخزرجى ، أبو الوليد ، أحد النقباء ، بَدْرىٌّ مشهور . مات بالرملة سنة أربع وثلاثين ، وله اثنتان وسبعون . وقيل : عاش إلى خلافة معاوية رضى الله عنه .

« منْ شَهِدَ أَن لا إِلٰه إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شريكَ لهُ .

قوله : « من شهد أن لا إله إلا الله » أى : من تكلم بها عارفاً لمعناها ، عاملا بمقتضاها ، باطناً وظاهراً ، فلا بد فى الشهادتين من العلم واليقين والعمل بمدلولها ، كما قال الله تعالى (٤٧ : ١٩ فاعلم أنه لا إله إلا الله) وقوله : (٤٣ : ٨٦ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا يقين ولا عمل بما تقتضيه : من البراءة من الشرك ، و إخلاص القول والعمل : قولِ القلب واللسان ، وعملِ القلب والجوارح فغير نافع بالإجماع .

قال القرطبى فى المفهم على صحيح مسلم : « بابٌ لا يكفى مجرد التلفظ بالشهادتين ، بل لا بد من استيقان القلب » هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غُلاة المرْجِئة ، القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كاف فى الإيمان . وأحاديث هذا الباب تدل على فساده . بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها . ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق ، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح . وهو باطل قطعاً اه .

وفى هذا الحديث ما يدل على هذا ، وهو قوله : « من شهد » فإن الشهادة لا تصح إلا إذا كانت عن علم ويقين و إخلاص وصدق .

قال النووى : هذا حديث عظيم جليل الموقع ، وهو أجمع — أو من أجمع — الأحاديث المشتملة على العقائد ، فإنه صلى الله عليه وسلم جمع فيه ما يُخرج من ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها . فاقتصر صلى الله عليه وسلم فى هذه الأحرف على ما يباين جميعهم اه .

ومعنى « لا إله إلا الله » لا معبود بحق إلا الله ، وهو فى غير موضع من القرآن . ويأتيك فى قول البقاعى صريحاً قوله : « وحده » تأكيد للإثبات ، « لا شريك له » تأكيد للنفى . قاله الحافظ . كما قال تعالى : (٢ : ١٦٣ وإلٰهكم إله واحد لا إلٰه إلا هو الرحمٰنُ الرحيمُ) وقال : (٢١ : ٢٥ وما أرسلنا مِن قَبلِكَ من رسولٍ إلا نُوحِي إليه أنه لا إلٰه إلا أنا فاعبدون) وقال : (٧ : ٦٥ و إلى عادٍ أخاهم هوداً ، قال : ياقوم اعبدوا الله ، ما لكم من إلٰه غيرُه) فأجابوه رداً عليه بقولهم : (٧ : ٧٠ أجئتنا لِنَعْبُدَ اللهَ وحده ،

وَنَذَرَ ما كان يعبدُ آباؤنا ؟) وقال تعالى (٢٢ : ٦٢ ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العليُّ الكبير) .

فتضمن ذلك نفى الإلٰهية عما سوى الله ، وهى العبادة ، و إثباتَها لله وحده لا شريك له ، والقرآنُ من أوله إلى آخره يبين هذا و يقرره و يرشد إليه .

فالعبادة بجميع أنواعها إنما تصدر عن تألُّه القلب بالحب والخضوع والتذلل ، رَغَباً وَرَهباً . وهذا كله لا يستحقه إلا الله تعالى ، كما تقدم فى أدلة هذا الباب وما قبله فمن صرف من ذلك شيئاً لغير الله فقد جعله لله نِدًّا ، فلا ينفعه مع ذلك قول ولا عمل .

ذكر كلام العلماء فى معنى « لا إله إلا الله »

قد تقدم كلام ابن عباس . وقال الوزير أبو المظفر فى الإفصاح : قوله : « شهادة أن لا إله إلا الله » يقتضى أن يكون الشاهد عالماً بأنه لا إله إلا الله ، كما قال تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله) قال : واسم « الله » مرتفع بعد « إلا » من حيث إنه الواجب له الإلهية ، فلا يستحقها غيره سبحانه . قال : وجملة الفائدة فى ذلك : أن تعلم أن هذه الكلمة مشتملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ، فإنك لما نفيت الإلهية وأثبت الإيجاب لله سبحانه كنت ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله .

وقال ابن القيم فى البدائع رداً لقول من قال : إن المستثنى مخرج من المستثنى منه . قال ابن القيم : بل هو مخرج من المستثنى منه وحكمه ، فلا يكون داخلا فى المستثنى ؛ إذ لو كان كذلك لم يدخل الرجل فى الإسلام بقوله : « لا إله إلا الله » لأنه لم يثبت الإلهية لله تعالى ، وهذه أعظم كلة تضمنت بالوضع نفى الإلٰهية عما سوى الله ، وإثباتها له بوصف الاختصاص . فدلالتها على إثبات إلٰهيته أعظم من دلالة قولنا ، « الله إله » ولا يستريب أحد فى هذا ألبتة . انتهى بمعناه .

وقال أبو عبد الله القرطبى فى تفسيره « لا إله إلا الله » : أى لا معبود إلا هو .

وقال الزمخشرى : « الإله » من أسماء الأجناس كالرجل والفرس ، يقع على كل معبود بحق أو باطل ، ثم غلب على المعبود بحق .

وقال شيخ الإسلام : « الإله » هو المعبود المطاع ؛ فإن الإله هو المألوه ، والمألوه هو الذى يستحق أن يعبد ، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التى تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب ، المخضوع له غاية الخضوع ، قال : فإن الإله هو المحبوب المعبود الذى تألهه القلوب بحبها ، وتخضع له وتذل له وتخافه وترجوه ، وتنيب إليه فى شدائدها ، وتدعوه فى مهماتها ، وتتوكل عليه فى مصالحها ، وتلجأ إليه وتطمئن بذكره ، وتسكن إلى حبه وليس ذلك إلا لله وحده ، ولهذا كانت « لا إله إلا الله » أصدق الكلام ، وكان أهلها أهل الله وحزبه ، والمنكرون لها أعداءه وأهل غضبه ونقمته ، فإذا صحت صح بها كل مسألة وحال وذوق ، وإذا لم يصححها العبد فالفساد لازم له فى علومه وأعماله .

وقال ابن القيم : « الإله » هو الذى تألهه القلوب محبة وإجلالا وإنابة ، وإكراما وتعظيما ، وذلا وخضوعاً ، وخوفاً ورجاء وتوكلا .

وقال ابن رجب : « الإله » هو الذى يطاع فلا يعصى ، هيبة له وإجلالا ، ومحبة وخوفاً ورجاء ، وتوكلا عليه ، وسؤالا منه ودعاء له ولا يصلح هذا كله إلا لله عز وجل . فمن أشرك مخلوقاً فى شىء من هذه الأمور التى هى من خصائص الإلهية كان ذلك قدحاً فى إخلاصه فى قول : «لا إله إلا الله» وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك .

وقال البقاعى : « لا إله إلا الله » أى : انتفاء عظيما أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم . فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة ، وإنما يكون علماً إذا كان نافعاً ، وإنما يكون نافعاً إذا كان مع الإذعان والعمل بما تقتضيه ، وإلا فهو جهل صِرف .

وقال الطيبى : « الإله » فِعال بمعنى مفعول ، كالكتاب بمعنى المكتوب ، من أله إلٰهة : أى عبد عبادة ، قال الشارح : وهذا كثير فى كلام العلماء ، وإجماع منهم .

فدلت : « لا إله إلا الله » على نفى الإلٰهية عن كل ما سوى الله تعالى كائناً ما كان ، وإثبات الإلٰهية لله وحده ، دون كل ما سواه وهذا هو التوحيد الذى دعت إليه الرسل ودل عليه القرآن من أوله إلى آخره ، كما قال تعالى عن الجن (٧٢ : ١ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أنه استمع نفرٌ من الجنِّ فقالوا إنَّا سمعنا قرآناً عجباً ، يَهْدِى إلى الرُّشد فآمَنَّا به . ولن نُشرِكَ بربِّنَا أحداً) فلا إله إلا الله لا تنفع إلا من عرف مدلولها نفياً وإثباتاً ، واعتقد ذلك وقبله

وأنّ محمداً عبدهُ ورسوله .

وعمل به . وأما من قالها من غير علم واعتقاد وعمل ، فقد تقدم فى كلام العلماء : أن هذا جهل صرف ، فهى حجة عليه بلا ريب .

فقوله فى الحديث : « وحده لا شريك له » تأكيد و بيان لمضمون معناها ، وقد أوضح الله ذلك و بينه فى قصص الأنبياء والمرسلين فى كتابه المبين ، فما أجهل عُبَّاد القبور بحالهم ! وما أعظم ما وقعوا فيه من الشرك المنافى لكلمة الإخلاص « لا إله إلا الله » فإن مشركى العرب ونحوهم جحدوا « لا إله إلا الله » لفظاً ومعنى ، وهؤلاء المشركون أقروا بها لفظاً وجحدوها معنى فتجد أحدهم يقولها وهو يأله غير الله بأنواع العبادة ، كالحب والتعظيم ، والخوف والرجاء ، والتوكل والدعاء ، وغير ذلك من أنواع العبادة ، بل زاد شركهم على شرك العرب بمراتب فإن أحدهم إذا وقع فى شدة أخلص الدعاء لغير الله تعالى ، ويعتقدون أنه أسرع فرجاً لهم من الله ، بخلاف حال المشركين الأولين ، فإنهم كانوا يشركون فى الرخاء ، وأما فى الشدائد فإنما يخلصون لله وحده ، كما قال تعالى : (٢٩ : ٦٥ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين . فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) . فبهذا يتبين أن مشركى أهل هذه الأزمان أجهل بالله و بتوحيده من مشركى العرب ومن قبلهم .

وقوله « وأن محمداً عبده و رسوله » أى : وشهد بذلك ، وهو معطوف على ما قبله على نية تكرار العامل ، ومعنى « العبد » هنا : المملوك العابد ، أى : أنه مملوك لله تعالى . والعبودية الخاصة وصفه كما قال تعالى : (٣٩ : ٣٦ أليس الله بكاف عبده ؟ فأعلى مراتب العبد العبودية الخاصة والرسالة ، فالنبى صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق فى هاتين الصفتين الشريفتين ، وأما الربوبية والإلهية فهما حق الله تعالى ، لا يَشْركه فى شىء منهما مَلَكٌ مُقرب ، ولا نبيٌّ مرسل .

وقوله : « عبده و رسوله » أتى بهاتين الصفتين وجمعهما دفعاً للإفراط والتفريط ؛ فإن كثيراً ممن يدعى أنه من أمته أفرط بالغلو قولا وفعلا ، وفرط بترك متابعته ، واعتمد على الآراء المخالفة لما جاء به ، وتعسف فى تأويل أخباره وأحكامه ، بصرفها عن مدلولها ، والصدوف عن الانقياد لها مع اطراحها ، فإن شهادة أن محمداً رسول الله تقتضى الإيمان به ،

وَأَنَّ عِيسَىٰ عبدُ اللهِ ورسوله .

وتصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، والانتهاء عما عنه نهى وزجر ، وأن يعظم أمره ونهيه ولا يقدم عليه قول أحد كائناً من كان والواقع اليوم وقبله — ممن ينتسب إلى العلم من القضاة والمفتين — خلاف ذلك ، والله المستعان .

وروى الدارمى فى مسنده عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه أنه كان يقول : « إنا لنجد صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين . أنت عبدى ورسولى . سميته المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب بالأسواق ، ولا يجزى بالسيئة مثلها ، ولكن يعفو ويتجاوز ، ولن أقبضه حتى يقيم الملة المتعوجة بأن يشهد أن لا إله إلا الله ، يفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صما وقلوباً غلفاً » قال عطاء بن يسار : وأخبرنى أبو واقد الليثى : أنه سمع كعباً يقول مثل ما قال ابن سلام .

قوله : « وأن عيسى عبد الله ورسوله » أى :خلافاً لما يعتقده النصارى : أنه الله ،أوابن الله، أوثالث ثلاثة . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً (٢٣ : ٩١ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله) فلابد أن يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله على علم ويقين بأنه مملوك لله ، خلقه من أنثى بلا ذكر . كما قال تعالى : (٣ : ٥٩ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) فليس رباً ولا إلهاً . سبحان الله عما يشركون . قال تعالى : (١٩ : ٢٩ — ٣٦ فأشارت إليه ، قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبياً ؟ قال : إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً ، وجعلنى مباركاً أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ، وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً ، والسلام علىَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً ، ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، وإن الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم) وقال : (٤ : ١٧٢ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً) ويشهد المؤمن أيضاً ببطلان قول أعدائه اليهود : إنه ولد بغى ، لعنهم الله تعالى . فلا يصح إسلام أحد علم ما كانوا يقولونه حتى يبرأ من قول الطائفتين جميعا فى عيسى عليه السلام ، ويعتقد ما قاله الله تعالى فيه : إنه عبد الله ورسوله .

وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه .

قوله « وكلمته » إنما سمي عيسى عليه السلام كلمته ؛ لوجوده بقوله تعالى : « كن » كما قاله السلف من المفسرين . قال الإمام أحمد فى الرد على الجهمية « بالكلمة التى ألقاها إلى مريم حين قال له « كن » فكان عيسى بكن وليس عيسى هو « كن » ولكن بكن كان فكن من الله تعالى قول ، وليس « كن » مخلوقا ، وكذب النصارى والجهمية على الله فى أمر عيسى » انتهى .

قوله « ألقاها إلى مريم » قال ابن كثير : خلقه بالكلمة التى أرسل بها جبريل إلى مريم فنفخ فيها من روحه بأمر ربه عز وجل ، فكان عيسى بإذن الله عز وجل ؛ فهو ناشئ عن الكلمة التى قال له : « كن فكان » والروح التى أرسل بها : هو جبريل عليه السلام .

وقوله « وروح منه » قال أبيّ بن كعب « عيسى روح من الأرواح التى خلقها الله تعالى واستنطقها بقوله (٧ : ١٧٢ ألست بربكم ؟ قالوا : بلى) بعثه الله إلى مريم فدخل فيها » رواه عبد بن حميد وعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ، وابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهم . قال الحافظ : ووصفه بأنه منه ، فالمعنى أنه كائن منه ، كما فى قوله تعالى (٤٥ : ١٢ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه) فالمعنى أنه كائن منه ، كما أن معنى الآية الأخرى : أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه : أى أنه مكون ذلك وموجده بقدرته وحكمته .

قال شيخ الإسلام : المضاف إلى الله تعالى إذا كان معنى لا يقوم بنفسه ولا بغيره من المخلوقات وجب أن يكون صفة لله تعالى قائمة به ، وامتنع أن تكون إضافته إضافة مخلوق مربوب . وإذا كان المضاف عيناً قائمة بنفسها كعيسى وجبريل عليهما السلام وأرواح بنى آدم امتنع أن تكون صفة لله تعالى ؛ لأن ما قام بنفسه لا يكون صفة لغيره .

لكن الأعيان المضافة إلى الله تعالى على وجهين :

أحدهما : أن تضاف إليه لكونه خلقها وأبدعها ، فهذا شامل لجميع المخلوقات ، كقولهم : سماء الله ، وأرض الله . فجميع المخلوقين عبيد الله ، وجميع المال مال الله .

الوجه الثانى : أن يضاف إليه لما خصه به من معنى يحبه ويأمر به ويرضاه ، كما خص البيت العتيق بعبادة فيه لا تكون فى غيره . وكما يقال فى مال الخمس والفىء : هو مال الله

والجَنَّةَ حقٌّ ، والنارَ حقٌّ . أدخله الله الجنةَ عَلَى ما كانَ من العمل »
أخرجاه . ولهما فى حديث عِتْبان :

ورسوله . ومن هذا الوجه : فعباد الله هم الذين عبدوه وأطاعوا أمره . فهذه إضافة تتضمن ألوهيته وشرعه ودينه ، وتلك إضافة تتضمن ربوبيته وخلقه . اهـ ملخصاً

وقوله (والجنة حق والنار حق) أى وشهد أن الجنة التى أخبر بها الله تعالى فى كتابه أنه أعدها للمتقين حق ، أى ثابتة لا شك فيها ، وشهد أن النار التى أخبر بها تعالى فى كتابه أنه أعدها للكافرين حق كذلك ثابتة ، كما قال تعالى (٥٧ : ٢١ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ، أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) وقال تعالى (٢ : ٢٤ فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) وفى الآيتين ونظائرهما دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن ، خلافا للمبتدعة . وفيهما الإيمان بالمعاد .

وقوله « أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » هذه الجملة جواب الشرط ، وفى رواية « أدخله الله من أى أبواب الجنة الثمانية شاء » .

قال الحافظ : معنى قوله « على ما كان من العمل » أى من صلاح أو فساد ، لأن أهل التوحيد لا بد لهم من دخول الجنة . ويحتمل أن يكون معنى قوله «على ما كان من العمل» أن يدخل أهل الجنة على حسب أعمال كل منهم فى الدرجات .

قال القاضى عياض : ما ورد فى حديث عُبادة يكون مخصوصاً لمن قال ما ذكره صلى الله عليه وسلم وقرن بالشهادتين حقيقة الإيمان والتوحيد الذى ورد فى حديثه ، فيكون له من الأجر ما يرجح على سيئاته ، ويوجب له المغفرة والرحمة ، ودخول الجنة لأول وهلة .

قال : ولهما فى حديث عتبان « فإن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله ، يبتغى بذلك وجه الله » .

قوله « ولهما » أى : البخارى ومسلم فى صحيحيهما بكماله . وهذا طرف من حديث طويل أخرجه الشيخان .

و « عتبان » بكسر المهملة بعدها مثناة فوقية ثم موحدة : ابن مالك بن عمرو بن العجلان الأنصارى ، من بنى سالم بن عوف ، صحابى مشهور ، مات فى خلافة معاوية .

وأخرج البخارى فى صحيحه بسنده عن قتادة قال : حدثنا أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم ــ ومعاذ رديفه على الرحل ــ قال « يامعاذ . قال : لبيك يارسول الله وسعديك . قال : يامعاذ ، قال : لبيك يارسول الله وسعديك . قال : يامعاذ ، قال : لبيك يارسول الله وسعديك ــ ثلاثا ــ قال : ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله تعالى على النار . قال : يارسول الله ، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال : إذاً يتكلوا ، فأخبر بها معاذ عند موته تأثُّما » . وساق بسند آخر : حدثنا معتمر قال : سمعت أبى ، قال : سمعت أنساً قال : ذكر لى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جَبل « من لقى الله لايشرك به شيئاً دخل الجنة . قال : ألا أبشر الناس ؟ قال : لا ؛ إنى أخاف أن يتكلوا » .

قلت : فتبين بهذا السياق معنى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنها تتضمن ترك الشرك لمن قالها بصدق ويقين وإخلاص .

قال شيخ الإسلام وغيره فى هذا الحديث ونحوه : إنها فيمن قالها ومات عليها ، كما جاءت مقيدة بقوله « خالصاً من قلبه غير شاك فيها بصدق ويقين » فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله تعالى جملة ، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصا من قلبه دخل الجنة ؛ لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحاً ، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك ؛ فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه « يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، وما يزن خردلة ، وما يزن ذرة » وتواترت بأن كثيراً ممن يقول : لا إله إلا الله يدخل النار ثم يخرج منها ، وتواترت بأن الله حرم على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون لله وتواترت بأنه يحرم على النار من قال : لا إله إلا الله ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال ، وأكثر من يقولها لايعرف الإخلاص ، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليداً أو عادة ، ولم تخالط حلاوة الإيمان بشاشة قلبه . وغالب من يفتن عند الموت وفى القبور أمثال هؤلاء ، كما فى الحديث

« سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته » وغالب أعمال هؤلاء إنما هي تقليد واقتداء بأمثالهم ، وهم من أقرب الناس من قوله تعالى (٤٣ : ٢٣ إنا وجدنا آباءنا على أُمَّةٍ و إنا على آثارهم مُقْتَدُون)

وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث ، فإنه إذا قالها بإخلاص و يقين تام لم يكن فى هذه الحال مصراً على ذنب أصلا ، فإن كان كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شىء ، فإذاً لا يبقى فى قلبه إرادة لما حرم الله ولا كراهة لما أمر الله . وهذا هو الذى يحرم على النار و إن كانت له ذنوب قبل ذلك ، فإن هذا الإيمان وهذا الإخلاص ، وهذه التو بة وهذه المحبة وهذا اليقين ، لا تترك له ذنباً إلا مُحى عنه كما يمحو الليل النهار ، فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر ، فهذا غير مُصِرّ على ذنب أصلا ، فيغفر له و يحرم على النار . و إن قالها على وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر ، ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك ، فهذه الحسنة لا يقاومها شىء من السيئات فيرجح بها ميزان الحسنات ، كما فى حديث البطاقة فيحرم على النار . ولكن تنقص درجته فى الجنة بقدر ذنو به ، وهذا بخلاف من رجحت سيئاته بحسناته ومات مُصِراً على ذلك ، فإنه يستوجب النار . و إن قال : لا إلهُ إلا الله وخلص بها من الشرك الأكبر . لكنه لم يمت على ذلك ، بل أتى بعدها بسيئات رجحت على حسنة توحيده ، فإنه فى حال قولها كان مخلصاً لكنه أتى بذنوب أوهَنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته ، وقو يت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك ، بخلاف المخلص المستيقن ، فإن حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته ، ولا يكون مصراً على سيئات ، فإن مات على ذلك دخل الجنة .

و إنما يُخاف على المخلص أن يأتى بسيئة راجحة فيضعف إيمانه فلا يقولها بإخلاص و يقين مانع من جميع السيئات ، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر ، فإن سلم من الأكبر بقى معه من الأصغر ، فيضيف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك فيرجح جانب السيئات فإن السيئات تضعف الإيمان واليقين ، فيضعف قول « لا إله إلا الله » فيمتنع الإخلاص بالقلب ، فيصير المتكلم بها كالهاذى أو النائم ، أو من يحسّن صوته بآية من القرآن من غير ذوق طعم وحلاوة ، فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين ، بل يأتون بعدها بسيئات تنقض ذلك . بل يقولونها من غير يقين وصدق و يموتون على ذلك ، ولهم سيئات كثيرة

تمنعهم من دخول الجنة . فإذا كثرت الذنوب ثقل على اللسان قولها ، وقسا القلب عن قولها ، وكره العمل الصالح وثقل عليه سماع القرآن ، واستبشر بذكر غير الله ، واطمأن إلى الباطل ، واستحلى الرَّفَثَ ، ومخالطة أهل الغفلة ، وكره مخالطة أهل الحق ، فمثل هذا إذا قالها بلسانه ما ليس فى قلبه ، وبفيه ما لا يصدقه عمله .

قال الحسن : « ليس الإيمان بالتحلِّي ولا بالتمنى ، ولكن ما وَقَر فى القلوب وصدقته الأعمال . فمن قال خيرا وعمل خيرا قبل منه ، ومن قال خيراً وعمل شراً لم يقبل منه » .

وقال بكر بن عبد الله المزَنِيُّ : « ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ، ولكن بشيء وَقَر فى قلبه » .

فمن قال : لا إله إلا الله ولم يقم بموجبها ، بل اكتسب مع ذلك ذنوباً ، وكان صادقا فى قولها موقناً بها ، لكن له ذنوب أضعفت صدقه ويقينه وانضاف إلى ذلك الشرك الأصغر العمل ، فرجحت هذه السيئات على هذه الحسنة ، ومات مصراً على الذنوب ، بخلاف من يقولها بيقين وصدق ، فإنه إما أن لا يكون مصراً على سيئة أصلا ، ويكون توحيده المتضمن لصدقه ويقينه رجّح حسناته ، والذين يدخلون النار ممن يقولها : إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التام المنافيين للسيئات أو لرجحانها ، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات رجحت على حسناتهم ، ثم ضعف لذلك صدقهم ويقينهم ، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدق ويقين تام ؛ لأن الذنوب قد أضعفت ذلك الصدق واليقين من قلوبهم ، فقولها من مثل هؤلاء لا يقوى على محو السيئات ، فترجح سيئاتهم على حسناتهم . انتهى ملخصا .

وقد ذكر هذا كثير من العلماء ، كابن القيم وابن رجب وغيرهم .

قلت : وبما قرره شيخ الإسلام تجتمع الأحاديث .

قال : وفى الحديث دليل على أنه لا يكفى فى الإيمان النطق من غير اعتقاد وبالعكس .

وفيه : تحريم النار على أهل التوحيد الكامل ، وفيه : أن العمل لا ينفع إلا إذا كان خالصا لوجه الله تعالى على ما شرعه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم .

(تنبيه) قال القرطبى فى تذكرته : قوله فى الحديث « من إيمان » أى من أعمال الإيمان التى هى من أعمال الجوارح ، فيكون فيه دلالة على أن الأعمال الصالحة من

وعن أبى سعيدٍ الخُدْرِىِّ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال موسَى: يارَب ، علمنى شَيئاً أذكرك وأدعوك به . قال : قلْ يا موسَى: لا إلٰه إلاَّ الله . قال : يارَبِّ كلُّ عبادِك يقولون هذا . قال : يا موسى ، لو أنَّ السَّمٰوَاتِ

من الإيمان ، والدليل على أنه أراد الإيمان ما قلناه ، ولم يرد مجرد الإيمان الذى هو التوحيد ونفى الشركاء والإخلاص بقول لا إله إلا الله : ما فى الحديث نفسه من قول « اخرجوا — ثم بعد ذلك يقبض سبحانه قبضة فيخرج قوما لم يعملوا خيراً قط » يريد بذلك : التوحيد المجرد من الأعمال . اهـ ملخصاً من شرح سنن ابن ماجه .

قال المصنف رحمه الله : وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال موسى عليه السلام : يا رب ، علمنى شيئاً أذكرك وأدعوك به . قال : قل يا موسى : لا إله إلا الله . قال : يا رب ، كل عبادك يقولون هذا . قال : يا موسى ، لو أن السموات السبع وعامرهن غيرى ، والأرضين السبع فى كفة ، ولا إله إلا الله فى كفة ، مالت بهن لا إله إلا الله » رواه ابن حبان والحاكم وصححه .

« أبو سعيد » اسمه : سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصارى الخزرجى ، صحابى جليل ، وأبوه كذلك . استصغر أبو سعيد بأحد ، وشهد ما بعدها . مات بالمدينة سنة ثلاث — أو أربع أو خمس — وستين . وقيل : سنة أربع وسبعين .

قوله « أذكرك » أى أثنى عليك به ، « وأدعوك » أى أسألك به .

قوله « قل يا موسى : لا إله إلا الله » فيه : أن الذاكر بها يقولها كلها ، ولا يقتصر على لفظ الجلالة ، ولا على « هو » كما يفعله غلاة جهال المتصوفة ، فإن ذلك بدعة وضلالة .

قوله « كل عبادك يقولون هذا » ثبت بخط المصنف بالجمع ، والذى فى الأصول « يقول » بالإفراد مراعاة للفظة « كل » وهو فى المسند من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ الجمع كما ذكره المصنف على معنى « كل » ومعنى قوله « كل عبادك يقولون هذا » أى إنما أريد شيئا تخصنى به من بين عموم عبادك ، وفى رواية — بعد قوله « كل عبادك يقولون هذا — قل : لا إله إلا الله ، قال : لا إله إلا أنت يا رب ، إنما أريد شيئاً تخصنى به » .

السَّبْعَ وَعامِرَهنَّ غيرى ، والأرضينَ السَّبْعَ فى كِفة ، ولا إله إلاَّ الله فى كِفةٍ ، مالت بهنَّ لا إله إلا الله » .

ولما كان بالناس — بل بالعالم كله — من الضرورة إلى لا إله إلا الله ما لا نهاية له ، كانت من أكثر الأذكار وجوداً ، وأيسرها حصولا ، وأعظمها معنى ، والعوام والجهال يعدلون عنها إلى الدعوات المبتدعة التى ليست فى الكتاب ولا فى السنة .

قوله « وعامرهن غيرى » هو بالنصب عطف على السموات ، أى لو أن السموات السبع ومن فيهن من العمار غير الله تعالى ، والأرضين السبع ومن فيهن وُضعوا فى كفة الميزان ولا إله إلا الله فى الكفة الأخرى ، مالت بهن لا إله إلا الله .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم « أن نوحاً عليه السلام قال لابنه عند موته : آمرك بلا إله إلا الله . فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت فى كِفَّة ، ولا إله إلا الله فى كفة رَجحتْ بهنَّ لا إله إلا الله ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كُنَّ حَلْقة مُبْهَمة لَقَصَمَتْهُن لا إله إلا الله » .

قوله « فى كِفة » هو بكسر الكاف وتشديد الفاء ، أى كفة الميزان .

قوله «مالت بهن» أى رجحت . وذلك لما اشتملت عليه من نفى الشرك ، وتوحيد الله الذى هو أفضل الأعمال . وأساس الملة والدين ، فمن قالها بإخلاص ويقين ، وعمل بمقتضاها ولوازمها وحقوقها ، واستقام على ذلك ، فهذه الحسنة لا يوازنها شىء ، كما قال الله تعالى (٤٦ : ١٣ إن الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) .

ودل الحديث على أن « لا إله إلا الله » أفضل الذكر ، كحديث عبد الله بن عمرو مرفوعا : « خير الدعاء دعاء يوم عرفة ، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » رواه أحمد والترمذى ، وعنه أيضاً مرفوعاً : « يُصاحُ برجل من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا ، كل سجل منها مدى البصر ثم يقال : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلَمَك كَتَبتى الحافظون ؟ فيقول : لا يارب . فيقال : أفلك عذر أو حسنة ؟ فيهاب الرجل فيقول : لا . فيقال : بلى ، إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها : أشهد

رواه ابن حِبان والحاكم وصححه.

وللترمذى وحسنه عن أنس : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالى : يا ابن آدمَ ، لو أتيتَنى بقُرَابِ الأرْضِ خطايا ثم لقيتنى لا تشركُ بى شيئاً لأتيتك بقُرابها مغفرة »

أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.. فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : إنك لا تظلم ، فتوضع السجلات فى كفة ، والبطاقة فى كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » رواه الترمذى — وحسنه — والنسائى وابن حبان والحاكم . وقال : صحيح على شرط مسلم ، وقال الذهبى فى تلخيصه : صحيح .

قال ابن القيم رحمه الله : فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها ، وإنما تتفاضل بتفاضل ما فى القلوب ، فتكون صورة العملين واحدة ، و بينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض . قال : وتأمل حديث البطاقة التى توضع فى كفة و يقابلها تسعة وتسعون سجلا كل سجل منها مدى البصر ، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات ، فلا يعذب . ومعلوم أن كل موحد له هذه البطاقة ، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه .

قوله « رواه ابن حبان والحاكم » ابن حبان اسمه : محمد بن حبان — بكسر المهملة وتشديد الموحدة — ابن أحمد بن حبان بن معاذ ، أبو حاتم التميمى البُسْتى الحافظ صاحب التصانيف : كالصحيح والتاريخ ، والضعفاء ، والثقات وغير ذلك . قال الحاكم : كان من أوعية العلم فى الفقه واللغة والحديث والوعظ ومن عقلاء الرجال . مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة بمدينة بُسْت — بضم الموحدة وسكون المهملة .

وأما الحاكم فاسمه : محمد بن عبد الله بن محمد النيسابورى أبو عبد الله الحافظ و يعرف بابن البَيِّع . ولد سنة إحدى وعشرين وثلثمائة . وصنف التصانيف ، كالمستدرك ، وتاريخ نيسابور وغيرهما ، ومات سنة خمس وأربعمائة .

قال المصنف رحمه الله : وللترمذى ، وحسنه ، عن أنس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالى : يا ابن آدم ، إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشركُ بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » .

ذكر المصنف رحمه الله الجملة الأخيرة من الحديث ، وقد رواه الترمذى بتمامه فقال : عن أنس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تبارك وتعالى : يا ابن آدم ، إنك مادعوتنى ورَجَوْتَنى غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالى ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى ، يا ابن آدم ، إنك لوأتيتنى — الحديث »

« الترمذى » اسمه : محمد بن عيسى بن سَوْرة — بفتح المهملة — بن موسى بن الضحاك السلمى أبو عيسى ، صاحب الجامع وأحد الحفاظ ، كان ضرير البصر ، روى عن قتيبة وهنّاد والبخارى وخلق . مات سنة تسع وسبعين ومائتين .

و « أنس » : هو ابن مالك بن النصر الأنصارى الخزرجى ، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم . خدمه عشر سنين ، وقال له « اللهم أكثر ماله وولده ، وأدخله الجنة » مات سنة اثنتين — وقيل : ثلاث وتسعين — وقد جاوز المائة .

والحديث قد رواه الإمام أحمد من حديث أبى ذرّ بمعناه ، وهذا لفظه « ومن عمل قُراب الأرض خطيئة ثم لقينى لا يشرك بى شيئاً جعلت له مثلها مغفرة » ورواه مسلم ، وأخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم .

قوله « لو أتيتنى بقراب الأرض » بضم القاف ، وقيل : بكسرها والضم أشهر وهو ملؤها أو ما يقارب ملأها .

قوله « ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً » شرطٌ ثقيل فى الوعد بحصول المغفرة ، وهو السلامة من الشرك : كثيره وقليله ، صغيره وكبيره . ولا يسلم من ذلك إلا من سلّم الله تعالى ، وذلك هو القلب السليم ، كما قال تعالى (٢٦ : ٨٩ يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم) .

قال ابن رجب : من جاء مع التوحيد بقُراب الأرض خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة إلى أن قال — فإن كَمُل توحيد العبد وإخلاصه لله تعالى فيه ، وقام بشروطه بقلبه ولسانه وجوارحه ، أو بقلبه ولسانه عند الموت ، أوجب ذلك مغفرة ماقد سلف من الذنوب كلها ،

ومنعه من دخول النار بالكلية فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه أخرجت منه كل ماسوى الله: محبة وتعظيما، وإجلالا، ومهابة، وخشية وتوكلا؛ وحينئذ تحترق ذنوبه وخطاياه كلها، وإن كانت مثل زبَد البحر. اه ملخصاً.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى فى معنى الحديث: ويُعفى لأهل التوحيد المحض الذى لم يشربوه بالشرك ما لا يعفى لمن ليس كذلك، فلو لقى الموحد الذى لم يشرك بالله شيئاً ألبتة ربَّه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده؛ فإن التوحيد الخالص الذى لايشوبه شرك لا يبقى معه ذنب، لأنه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه، وخوفه ورجائه وحده مايوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب الأرض فالنجاسة عارضة، والدافع لها قوى. اه.

وفى هذا الحديث: كثرة ثواب التوحيد، وسَعة كرم الله وجوده ورحمته، والرد على الخوارج الذين يكفّرون المسلم بالذنوب، وعلى المعتزلة القائلين بالمنزلة بين المنزلتين، وهى الفسوق، ويقولون: ليس بمؤمن ولا كافر، ويخلد فى النار. والصواب قول أهل السنة: أنه لايُسلب عنه اسم الإيمان، ولا يُعطاه على الإطلاق، بل يقال: هو مؤمن عاص، أو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته. وعلى هذا يدل الكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال «لما أُسرىَ برسول الله صلى الله عليه وسلم انتُهى به إلى سِدرة المنتهى، فأُعطِىَ ثلاثاً: أعطِىَ الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئاً: المقحِمات» رواه مسلم.

قال ابن كثير فى تفسيره: وأخرج الإمام أحمد والترمذى وابن ماجة والنسائى عن أنس ابن مالك قال «قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (٧٤: ٥٦ هو أهلُ التقوى وأهل المغفرة) وقال: قال ربكم: أنا أهلٌ أن أُتَّقى فلا يُجعل معى إله، فمن اتقى أن يجعل معى إلهاً كان أهلاً أن أغفر له».

قال المصنف رحمه الله: تأمل الخمس اللواتى فى حديث عُبادة، فإنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان تبين لك معنى قوله «لا إله إلا الله» وتبين لك خطأ المغرورين.

وفيه: أن الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل «لا إله إلا الله» والتنبيه لرجحانها بجميع

المخلوقات ، مع أن كثيرا ممن يقولها يخف ميزانه . وفيه : إثبات الصفات خلافا للمعطلة . وفيه : أنك إذا عرفت حديث أنس وقوله فى حديث عتبان «إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله ، يبتغى بذلك وجه الله » تبين لك أن ترك الشر ليس قولها باللسان فقط .

فيه مسائل :

الأولى : سَعة فضل الله .

الثانية : كثرة ثواب التوحيد عند الله .

الثالثة : تكفيره مع ذلك للذنوب .

الرابعة : تفسير الآية (٨٢) التى فى سورة الأنعام .

الخامسة : تأمل الخمس اللواتى فى حديث عبادة .

السادسة : أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عِتبان وما بعده ، تبين لك معنى قول « لا إله إلا الله » وتبين لك خطأ المغرورين .

السابعة : التنبيه للشرط الذى فى حديث عتبان .

الثامنة : كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه عَلَى فضل لا إله إلا الله .

التاسعة : التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات ، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه .

العاشرة : النص عَلَى أن الأرضين سبع كالسموات

الحادية عشرة : أن لهن عُمّاراً .

الثانية عشرة : إثبات الصفات ، خلافا للأشعرية .

الثالثة عشرة : أنك إذا عرفت حديث أنس ، عرفت أن قوله فى حديث عتبان : « فإن الله حَرَّمَ عَلَى النار من قال : لا إله إلا الله ، يبتغى بذلك وجه الله » أن ترك الشرك ، ليس قولها باللسان .

الرابعة عشرة : تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عبدى الله ورسوليه .

الخامسة عشرة : معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله

السادسة عشرة : معرفة كونه روحاً منه .

السابعة عشرة : معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار .

الثامنة عشرة : معرفة قوله « عَلَى ما كان من العمل » .

التاسعة عشرة : معرفة أن الميزان له كفتان .

العشرون : معرفة ذكر الوجه .

باب

(مَن حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب)

وقول الله تعالى (١٦ : ١٢٠ إنَّ إبراهيمَ كانَ أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من

قوله « باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب » أى : ولا عذاب .

قلت : تحقيقه : تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصى .

قال الله تعالى (١٦ : ١٢٠ إن إبراهيم كان أُمّةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين) وصف إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات التى هى الغاية فى تحقيق التوحيد .

الأولى : أنه كان أمة ، أى قدوةً و إمامًا معلما للخير . وماذاك إلا لتسكميله مقام الصبر واليقين اللذين تُنال بهما الإمامة فى الدين .

الثانية : قوله « قانتاً » قال شيخ الإسلام : القنوت دوام الطاعة ، والمصلى إذا أطال قيامه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت . قال تعالى (٣٩ : ٩ أمَّنْ هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائماً يحذَرُ الآخرة و يرجو رحمة ربه) ملخصاً .

الثالثة : أنه كان حنيفاً . قلت : قال العلامة ابن القيم « الحنيف » المقبل على الله . المعرِض عن كل ما سواه . اه .

الرابعة : أنه ماكان من المشركين ، أى لصحة إخلاصه وكمال صدقه ، و بُعده عن الشرك .

قلت : يوضِّح هذا قوله تعالى (٦٠ : ٤ قد كانت لكم أُسْوَةٌ حسنة فى إبراهيم والذين معه) أى على دينه من إخوانه المرسلين ، قاله ابن جرير رحمه الله تعالى (إذ قالوا لقومهم : إنَّا بُرءاء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبَدَا بيننا و بينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحدَه ، إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنَّ لك وما أملك لك من الله من شىء) وذكر تعالى عن خليله عليه السلام أنه قال لأبيه آزرَ (١٩ : ٤٨ ، ٤٩ وأعتزِلُكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى ، عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيًا . فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهَبْنا له إسحاقَ و يعقوبَ ، وكلا جعلنا نبيًا) فهذا هو

المشركين) وقال : (٢٣ : ٥٩ والذين هم بِرَبِّهِمْ لا يُشركون).

عن حُصَين بن عبد الرحمن قال : «كنت عند سعيد بن جبير فقال :

تحقيقُ التوحيد . وهو البراءةُ من الشرك وأهله واعتزالُهم ، والكفر بهم وعداوتهم وبُغْضُهم . فالله المستعان .

قال المصنف رحمه الله فى هذه الآية : (إن إبراهيم كان أمة) لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين (قانتاً لله) لا للملوك ولا للتجار المترفين (حنيفاً) لا يميناً ولا شمالا ، كفعل العلماء المفتونين (ولم يك من المشركين) خلافاً لمن كثَّر سوادهم وزعم أنه من المسلمين . اه

وقد روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (إن إبراهيم كان أمة) على الإسلام . ولم يكن فى زمانه أحد على الإسلام غيره .

قلت : ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم : من أنه كان إماما يقتدى به فى الخير .

قال : وقوله تعالى (٢٣ : ٥٧ — ٥٩ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربّهم لا يشركون) .

وصف المؤمنين السابقين إلى الجنة ، فأثنى عليهم بالصفات التى أعظمُها : أنهم بربهم لا يشركون . ولما كان المرء قد يَعرض له ما يَقْدحُ فى إسلامه : من شرك جَلِيٍّ أوخفى نفى ذلك عنهم ، وهذا هو تحقيق التوحيد ، الذى حَسُنت بهم أعمالهم ، وكملت ونفعتهم .

قلت : قوله « حسنت وكملت » هذا باعتبار سلامتهم من الشرك الأصغر ، وأما الشرك الأكبر فلا يقال فى تركه ذلك ، فتدبر . ولو قال الشارح : صحت ، لكان أقوم .

قال ابن كثير : (والذين هم بربهم لا يشركون) أى لا يعبدون مع الله غيره ، بل يوحدونه ويعلمون أنه : لا إله إلا الله ، أحد صمد ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأنه لا نظير له .

قال المصنف : عن حُصين بن عبد الرحمن قال : «كنت عند سَعيد بن جُبير فقال :

أيُّكم رأى الكوكب الذى انقضَّ البارحةَ ؟ فقلتُ : أنا ، ثم قلتُ :

أيُّكم رأى الكوكب الذى انقضَّ البارحة ؟ فقلت : أنا . ثم قلت : أما إنى لم أكن فى صلاة ، ولكنى لدغتُ . قال : فما صنعتَ ؟ قلت ارتقيتُ . قال فما حملك على ذلك ؟ قلت : حديث حدثناه الشَّعبى . قال : وما حدثكم ؟ قلت : حدثنا عن بُريدة بن الْحُصَيْب أنه قال : لا رُقْيَةَ إلا من عين أو حُمَةٍ . قال : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : عُرِضَت علىَّ الأمم ، فرأيت النبىَّ ومعه الرهْطُ ، والنبى ومعه الرجل والرجلان ، والنبى وليس معه أحد . إذ رُفع لى سواد عظيم ، فظننت أنهم أمتى ، فقيل لى : هذا موسى وقومه . فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لى : هذه أمتك ، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، ثم نَهضَ فدخل منزله ، فخاض الناسُ فى أولئك . فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحِبُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولُدِوا فى الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً ، وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه ، فقال : هم الذين لا يَسْتَرْقُون ولا يَكْتَوُون ولا يتطيَّرون ، وعلى ربهم يتوكلون . فقام عُكَّاشة ابن مُحَصَّن ، فقال : يا رسول الله ، ادعُ الله أن يجعلنى منهم ، قال : أنت منهم ، ثم قام رجل آخر ، فقال : ادعُ الله أن يجعلنى منهم ، فقال : سبقك بها عُكَّاشة »

هكذا أورده المصنف غير مَعزُوّ ، وقد رواه البخارى مختصراً ومطولا ، ومسلم ، واللفظ له ، والترمذى والنسائى .

قوله « عن حصين بن عبد الرحمن » هو السلمى ، أبو الهذيل الكوفى ، ثقة . مات سنة ست وثلاثين ومائة ، وله ثلاث وتسعون سنة .

و « سعيد بن جبير » هو الإمام الفقيه من جِلَّة أصحاب ابن عباس ، روايته عن عائشة وأبى موسى مرسلة . وهو كوفى مولًى لبنى أسَد ، قُتل بين يدى الحجاج سنة خمس وتسعين ، ولم يكمل الخمسين .

قوله « انقض » هو بالقاف والضاد المعجمة أى سقط ، « والبارحة » هى أقرب ليلة مضت . قال أبو العباس ثعلب : يقال قبل الزوال : رأيت الليلة ، و بعد الزوال : رأيت البارحة ، وكذا قال غيره . وهى مشتقة من بَرِح : إذا زال .

أَمَا إنى لم أَكن فى صلاةٍ ، ولـكنى لُدِغْت ؛ قال : فما صنعتَ ؟ قلت : ارتقيت . قال : فما حَمَلك على ذلك ؟ قلتُ : حديث حدثناه الشَّعبى ، قال : وما حدثـكم ؟ قلت : حدثنا عن بُرَيدة بن الْحُصَيب أنه قال : لا رُقيةَ إلا من عين أو حُمَة .

قوله « أما إنى لم أكن فى صلاة » قال فى مغنى اللبيب : « أما » بالفتح والتخفيف على وجهين : أحدهما : أن تـكون حرف استفتاح بمنزلة « ألا » فإذا وقعت « أنّ » بعدها كسرت . الثانى : أن تـكون بمعنى حقاً ، أو أحق . وقال آخرون : هى كلمتان الهمزة للاستفهام ، و « ما » اسم بمعنى شىء ، أى أذلك الشىء حق . فالمعنى أحق هـذا ؟ وهو الصواب . و « ما » نصب على الظرفية ، وهذه تفتح « أن » بعدها . انتهى .

والأنسب هنا هو الوجه الأول ، والقائل هو حصين ، خاف أن يظن الحاضرون أنه رآه وهو يصلى ، فنفى عن نفسه إيهام العبادة . وهذا يدل على فضل السلف ، وحرصهم على الإخلاص و بعدهم عن الرياء ، والتزين بما ليس فيهم .

قوله « ولـكنى لدغت » بضم أوله وكسر ثانيه . قال أهل اللغة : يقال لدغته العقرب وذوات السموم : إذا أصابته بسمها ، وذلك بأن تأبِره بشوكتها .

قوله « قلت : ارتقيت » . لفظ مسلم « استرقيت » أى طلبت من يرقينى .

قوله « فما حملك على ذلك ؟ » فيه طلب الحجة على صحة المذهب .

قوله « حديث حدثناه الشعبى » اسمه : عامر بن شُراحيل الهمدانى ، ولد فى خلافة عمر وهو من ثقات التابعين وفقهائهم مات سنة ثلاث ومائة .

قوله « عن بريدة » بضم أوله وفتح ثانيه تصغير بردة : ابن الحصيب — بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين — ابن الحارث الأسلمى ، صحابى شهير . مات سنة ثلاث وستين . قاله ابن سعد .

قوله « لا رقية إلا من عين أوحمة » وقد رواه أحمد وابن ماجة عنه مرفوعا ورواه أحمد وأبو داود والترمذى عن عمران بن حصين به مرفوعاً . قال الهيثمى : رجال أحمد ثقات .

و « العين » هى إصابة العائن غيره بعينه . « والحمة » بضم المهملة وتخفيف الميم — سم

قال: قد أحسنَ من انتهى إلى ما سمع .

ولـكن حـدثنا ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسـلمَ أنه قال : « عُرضت عليَّ الأمم ، فرأيت النبيَّ ومعه الرهط ، والنبيَّ ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد إذ رُفِع لى سوادٌ عظيم ، فظننتُ أنهم أمتى

العقرب وشبهها . قال الخطابى : ومعنى الحديث : لا رقية أشفى وأولى من رقية العين . والحمة . وقد رقى النبى صلى الله عليه وسلم ورُقِى .

قوله : « وقد أحسن من انتهى إلى ماسمع » أى من أخذ بما بلغه وعمل به فقد أحسن ، بخلاف من يعمل بجهل ، أو لا يعمل بما يعلم ، فإنه مسىء آثم . وفيه فضيلة علم السلف وحسن أدبهم .

قوله : « ولـكن حدثنا ابن عباس » هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم ، دعا له فقال « اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل » فـكان كذلك مات بالطائف سنة ثمان وستين .

قال المصنف رحمه الله : وفيه عمق علم السلف لقوله « قد أحسن ما انتهى إلى ما سمع » ولـكن كذا وكذا . فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثانى .

قوله : « عُرضت على الأمم » وفى الترمذى والنسائى من رواية عَبثر بن القاسم عن حصين ابن عبد الرحمن « أن ذلك كان ليلة الإسراء » قال الحافظ : فإن كان ذلك محفوظا كان فيه قوة لمن ذهب إلى تعدد الإسراء ، وأنه وقع بالمدينة أيضاً . قلت : وفى هذا نظر .

قوله : « فرأيت النبى ومعه الرهط » والذى فى صحيح مسلم « الرهيط » بالتصغير لا غير ، وهم الجماعة دون العشرة ، قال النووى .

قوله : « والنبى ومعه الرجل والرجلان ، والنبى وليس معه أحد» فيه الرد على من احتج بالـكثرة .

قوله : « إذ رفع لى سواد عظيم » المراد هنا الشخص الذى يُرى من بعيد .

قوله : «فظننت أنهم أمتى» لأن الأشخاص التى ترىَ فى الأفق لا يدرك منها إلا الصورة وفى صحيح مسلم « ولـكن انظر إلى الأفق » ولم يذكره المصنف ، فلعله سقط من الأصل الذى نقل الحديث منه ، والله أعلم .

فقيل لى : هـــذا موسى وقومه ، فنظرتُ فإذا سوادٌ عظيم ، فقيل لى : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنةَ بغير حساب ولا عذاب . ثم نهض فدخـــل منزله . فخاض الناسُ فى أُولئك ، فقال بعضُهم : فلعلهمُ الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال بعضهم : فلعلهم الذين وُلِدُوا فى ، الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً ، وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه ، فقال : هم الذين لا يَسْتَرْقون ،

قوله : « فقيل لى : هذا موسى وقومه » أى موسى بن عمران ، كليم الرحمن . وقومه : أتباعه على دينه من بنى إسرائيل .

قوله : « فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لى : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عتاب » أى لتحقيقهم التوحيد ، وفى رواية ابن فضيل « ويدخل الجنة من هؤلاء من أمتك سبعون ألفاً » . وفى حديث أبى هريرة فى الصحيحين « أنهم تضىء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر » وروى الإمام أحمد والبيهقى فى حديث أبى هريرة « فاستزدت ربى فزادنى مع كل ألف سبعين ألفاً » قال الحافظ : وسنده جيد .

قوله : « ثم نهض» أى قام ، قوله «فخاض الناس فى أولئك » «خاض» بالخاء والضاد المعجمتين . وفى هذا إباحة المناظرة والمباحثة فى نصوص الشرع على وجه الاستفادة وبيان الحق ، وفيه عُمق علم السلف لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل . وفيه حرصهم على الخير . ذكره المصنف .

قوله : « فقال: هم الذين لا يسترقون » هكذا ثبت فى الصحيحين وهو كذلك فى حديث ابن مسعود فى مسند أحمد . وفى رواية لمسلم « ولا يرقون » قال شيخ الإسلام ابن تيمية : هذه الزيادة وهمٌ من الراوى ، لم يقل النبى صلى الله عليه وسلم « ولا يرقون » وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الرُّقى « من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه » وقال : « لا بأس بالرُّقى ما لم تكن شركا » قال : وأيضاً فقد رقى جبريلُ النبى صلى الله عليه وسلم ورقى النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه قال : والفرق بين الراقى والمسترق : أن المسترقى سائل

ولا يكتوون . ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون .

مستعط ملتفت إلى غير الله بقلبه ، والراقى محسن . قال : وإنما المراد وصف السبعين ألفاً بتمام التوكل ، فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يكويهم ، وكذا قال ابن القيم .

قوله : « ولا يكتوون » أى لا يسألون غيرهم أن يكويهم ، كما لا يسألون غيرهم أن يرقيهم استسلاماً للقضاء ، وتلذذاً بالبلاء .

قلت : والظاهر أن قوله « لا يكتوون » أعم من أن يسألوا ذلك أو يفعلوا ذلك باختيارهم . أما الكى فى نفسه فجائز ، كما فى الصحيح عن جابر بن عبد الله « أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث إلى أبى بن كعب طبيباً ، فقطع له عرقاً وكواه » .

وفى صحيح البخارى عن أنس « أنه كوى من ذات الجنب والنبى صلى الله عليه وسلم حى » وروى الترمذى وغيره عن أنس « أن النبى صلى الله عليه وسلم كوى أسعد بن زُرارة من الشوكة » .

وفى صحيح البخارى عن ابن عباس مرفوعاً « الشفاء فى ثلاث : شربة عسل ، وشرطة محجم ، وكيّة نار ، وأنا أنهى أمتى عن الكى » وفى لفظ « وما أحب أن أكتوى » .

قال ابن القيم رحمه الله : قد تضمنت أحاديث الكى أربعة أنواع ، أحدها : فعله ، والثانى : عدم محبته ، والثالث : الثناء على من تركه ، والرابع : النهى عنه . ولا تعارُض بينها بحمد الله ، فإن فعله له يدل على جوازه ، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه . وأما الثناء على تركه فيدل على أن تركه أولى وأفضل ، وأما النهى عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة .

قوله : « ولا يتطيرون » أى لا يتشاءمون بالطيور ونحوها . وسيأتى إن شاء الله تعالى بيان الطيرة وما يتعلق بها فى بابها .

قوله : « وعلى ربهم يتوكلون » ذكر الأصل الجامع الذى تفرعت عنه هذه الأفعال والخصال ، وهو التوكل على الله ، وصدق الالتجاء إليه ، والاعتماد بالقلب عليه ، الذى هو نهاية تحقيق التوحيد الذى يثمر كل مقام شريف : من المحبة والرجاء والخوف ، والرضا به رباً وإلهاً ، والرضا بقضائه .

واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلا ؛ فإن مباشرة الأسباب فى الجملة أمر فطرى ضرورى ، لا انفكاك لأحد عنه ، بل نفس التوكل : مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالى (٦٥ : ٣ ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أى كافيه . وإنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها ، توكلا على الله تعالى ، كالاكتواء والاسترقاء ، فتركهم له لكونه سبباً مكروها ، لا سيما والمريض يتشبث — فيما يظنه سبباً لشفائه — بخيط العنكبوت .

وأما مباشرة الأسباب والتداوى على وجه لا كراهة فيه ، فغير قادح فى التوكل ، فلا يكون تركه مشروعاً ؛ لما فى الصحيحين عن أبى هريرة مرفوعاً « ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء ، علِمه مَن علمه ، وجهله من جهله » . وعن أسامة بن شريك قال : « كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم وجاءت الأعراب ، فقالوا : يا رسول الله ، أنتداوى ؟ قال : نعم ، يا عباد الله تداووا ، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء ، غير داء واحد . قالوا : وما هو ؟ قال : الهرم » رواه أحمد ،

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : وقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات ، وإبطال قول من أنكرها ، والأمر بالتداوى ، وأنه لا ينافى التوكل ، كما لا ينافيه دفع ألم الجوع والعطش ، والحر والبرد : بأضدادها ، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التى نصبها الله تعالى مقتضية لمسبباتها قدراً وشرعاً ، وإن تعطيلها يقدح فى نفس التوكل ، كما يقدح فى الأمر والحكمة . ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى فى التوكل . فإن تركها عجز ينافى التوكل الذى حقيقته اعتماد القلب على الله تعالى فى حصول ما ينفع العبد فى دينه ودنياه ، ودفع ما يضره فى دينه ودنياه ، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب ، وإلا كان معطلا للحكمة والشرع ، فلا يجعل العبد عجزه توكلا ولا توكله عجزاً .

وقد اختلف العلماء فى التداوى : هل هو مباح ، وتركه أفضل ، أو مستحب أو واجب ؟

فالمشهور عن أحمد الأول ، لهذا الحديث وما فى معناه ، والمشهور عند الشافعية الثانى ، حتى ذكر النووى فى شرح مسلم : أنه مذهبهم ومذهب جمهور السلف وعامة الخلف ، واختاره الوزير أبو المظفر ، قال : ومذهب أبى حنيفة : أنه مؤكد حتى يدانى به الوجوب ، قال :

فقام عُكَّاشة بن مِحْصَن.

فقال : ادعُ الله أن يَجْعَلَنى منهم . قال : أنت منهم ، ثم قام رجلٌ آخرُ فقال : ادعُ الله أن يجعلنى منهم . فقال : سبقك بها عُكَّاشة » .

فيه مسائل :

الأولى : معرفةُ مراتبِ الناسِ فى التوحيد .

الثانية : ما معنى تحقيقه .

الثالثة : ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يكُ من المشركين .

الرابعة : ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك .

ومذهب مالك : أنه يستوى فعله وتركه ، فإنه قال : لا بأس بالتداوى ، ولا بأس بتركه .

وقال شيخ الإسلام : ليس بواجب عند جماهير الأئمة ، وإنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعى وأحمد .

قوله : «فقام عكاشة بن مِحصن» هو بضم العين وتشديد الكاف ، و «محصن» بكسر الميم وسكون الحاء وفتح الصاد المهملتين — ابن حُرثان — بضم المهملة وسكون الراء بعدها مثلثة — الأسدى ، من بنى أسد بن خزيمة . كان من السابقين إلى الإسلام ومن أجمل الرجال . هاجر وشهد بدراً وقاتل فيها ، واستشهد فى قتال الرِّدَّة مع خالد بن الوليد بيد طليحة الأسدى سنة اثنتى عشرة ، ثم أسلم طليحة بعد ذلك وجاهد الفرس يوم القادسية مع سعد ابن أبى وقاص واستشهد فى وقعة الجسر المشهورة .

قوله : « فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم ، قال : أنت منهم » وللبخارى فى رواية : « فقال : اللهم اجعله منهم » وفيه : طلب الدعاء من الفاضل .

قوله : « ثم قام رجل آخر » ذكره مبهماً ، ولا حاجة بنا إلى البحث عن اسمه .

قوله : « فقال : سبقك بها عكاشة » قال القرطبى : لم يكن عند الثانى من الأحوال ما كان عند عكاشة ، فلذلك لم يجبه ، إذ لو أجابه لجاز أن يطلب ذلك كل من كان حاضراً فيتسلسل الأمر ، فسدَّ الباب بقوله ذلك . اهـ

الخامسة : كون ترك الرُّقيةِ والكيِّ من تحقيق التوحيد .

السادسة : كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل .

السابعة : عُمقُ عِلم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل .

الثامنة : حرصهم على الخير .

التاسعة : فضيلة هذه الأمة بالكميَّة والكيفيَّة .

العاشرة : فضيلة أصحاب موسى .

الحادية عشرة : عرضُ الأمم عليه ، عليه الصلاة والسلام .

الثانية عشرة : أن كل أُمَّةٍ تُحْشَر وحدها مع نبيها .

الثالثة عشرة : قِلَّة من استجابَ للأنبياء .

الرابعة عشرة : أن من لم يجبْه أحدٌ يأتى وحده .

الخامسة عشرة : ثمرة هذا العلم ، وهو عدمُ الاغترار بالكثرةِ ، وعدم الزُّهد فى القلَّة

السادسة عشرة : الرخْصة فى الرُّقية من العين والحُمَة .

السابعة عشرة : عمقُ علم السلفِ لقوله « قد أحسن من انتهى إلى ماسمع . ولكن كذا وكذا » فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثانى .

الثامنة عشرة : بُعد السلفِ عن مَدْح الإنسان بما ليس فيه .

التاسعة عشرة : « قوله أنت منهم » علَمٌ من أعلام النبوة .

العشرون : فضيلة عكاشة

الحادية والعشرون : استعمال المعاريض

الثانية والعشرون : حسن خُلقِه صلى الله عليه وسلم .

باب الخوف من الشرك

قول الله عز وجل : (٤ : ٤٨ و١١٦ إنَّ الله لا يغفرُ أن يشركَ به ويغفرُ ما دون ذلك لمن يشاء)

قال المصنف رحمه الله تعالى : وفيه استعمال المعاريض وحسن خلقه صلى الله عليه وسلم.

قوله ﴿ باب الخوف من الشرك ﴾

وقول الله تعالى: (٤:٤٨و١١٦إن الله لا يغفرُ أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء).

قال ابن كثير : أخبر تعالى أنه (لا يغفر أن يشرك به) أى لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) أى : من الذنوب لمن يشاء من عباده . انتهى .

فتبين بهذه الآية أن الشرك أعظم الذنوب ؛ لأن الله تعالى أخبر أنه لا يغفره لمن لم يتب منه ، وما دونه من الذنوب فهو داخل تحت المشيئة: إن شاء غفره لمن لقيه به ، وإن شاء عذبه به ، وذلك يوجب للعبد شدة الخوف من الشرك الذى هذا شأنه عند الله ؛ لأنه أقبح القبيح وأظلم الظلم ، وتنقّصٌ لرب العالمين ، وصرف خالص حقه لغيره ، وعدلُ غيره به ، كما قال تعالى: (٦ : ١ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر ، مناف له من كل وجه ، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين ، والاستكبار عن طاعته ، والذل له ، والانقياد لأوامره الذى لا صلاح للعالم إلا بذلك ، فمتى خلا منه خرب وقامت القيامة ، كما قال صلى الله عليه وسلم : «لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض: الله الله» رواه مسلم. ولأن الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس فى خصائص الإلهية : من ملك الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، الذى يوجب تعلق الدعاء ، والخوف والرجاء والتوكل وأنواع العبادة كلها بالله وحده ، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبَّهه بالخالق ، وجعل من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً شبيهاً بمن له الحمد كله ، وله الخلق كله ، وله الملك كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، وبيده الخير كله ، فأزمّة الأمور كلها بيده سبحانه ومرجعها إليه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع . الذى إذا فتح للناس رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم . فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير

وقال الخليل عليه السلام : (١٤ : ٣٥ واجْنُبني و بَنِيَّ أن نعبدَ الأصنام) .

بالذات : بالقادر الغني بالذات . ومن خصائص الإلهية : الكمال المطلق من جميع الوجوه ، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه . وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده ، والتعظيم والإجلال ، والخشية والدعاء ، والرجاء والإنابة ، والتوكل والتوبة والاستعانة ، وغاية الحب مع غاية الذل : كل ذلك يجب عقلا وشرعاً وفطرة أن يكون لله وحده ، ويمتنع عقلا وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره . فمن فعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ، ولا مثيل له ، ولا ندّ له ، وذلك أقبح التشبيه وأبطله . فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه وتعالى أنه لا يغفره ، مع أنه كتب على نفسه الرحمة . هذا معنى كلام ابن القيم رحمه الله.

وفي الآية رد على الخوارج المكفرين بالذنوب ، وعلى المعتزلة القائلين بأن أصحاب الكبائر يخلدون في النار ، وليسوا عندهم بمؤمنين ولا كفار .

ولا يجوز أن يحمل قوله : (و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء) على التائب ، فإن التائب من الشرك مغفور له كما قال تعالى : (٣٩ : ٥٣ قل: يا عبادِيَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً) فهنا عم وأطلق ؛ لأن المراد به التائب ، وهناك خص وعلّق ؛ لأن المراد به من لم يتب . هذا ملخص قول شيخ الإسلام .

قوله : « وقال الخليل عليه السلام (١٤ : ٣٥ واجنبني و بنيَّ أن نعبد الأصنام) الصنم: ما كان منحوتاً على صورة ، والوثن: ما كان موضوعاً على غير ذلك» . ذكره الطبري عن مجاهد.

قلت : وقد يسمى الصنم وثناً كما قال الخليل عليه السلام (٢٩ : ١٧ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً — الآية) ويقال : إن الوثن أعم ، وهو قوي ، فالأصنام أوثان ، كما أن القبور أوثان .

قوله : (واجنبني و بنيَّ أن نعبد الأصنام) أي : اجعلني و بنيَّ في جانب عن عبادة الأصنام ، و باعد بيننا و بينها ، وقد استجاب الله تعالى دعاءه ، وجعل بنيه أنبياء وجنّبهم عبادة الأصنام . وقد بين ما يوجب الخوف من ذلك بقوله : (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) فإنه هو الواقع في كل زمان . فإذا عرف الإنسان أن كثيراً وقعوا في الشرك الأكبر وضلوا بعبادة الأصنام : أوجب ذلك خوفه من أن يقع فيما وقع فيه الكثير من الشرك الذي لا يغفره الله .

وفى الحديث : أخوفُ ماأخافُ عليكم الشركُ الأصغرُ ، فسُئل عنه؟ فقال :الرياء» .

قال إبراهيم التيمى : ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم ؟ رواه ابن جرير وابن أبى حاتم .

فلا يأمن الوقوع فى الشرك إلا من هو جاهل به و بما يخلصه منه : من العلم بالله و بما بعث به رسوله من توحيده ، والنهى عن الشرك به .

قال المصنف : وفى الحديث « أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، فسئل عنه ؟ فقال : الرياء » أورد المصنف هذا الحديث مختصراً غير معزو . وقد رواه الإمام أحمد والطبرانى والبيهقى ، وهذا لفظ أحمد : حدثنا يونس حدثنا ليث عن يزيد — يعنى ابن الهاد — عن عمرو عن محمود بن لَبيد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء . يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ؟ » .

قال المنذرى : ومحمود بن لبيد رأى النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يصح له منه سماع فيما أرى . وذكر ابن أبى حاتم : أن البخارى قال : له صحبة ، ورجحه ابن عبد البر والحافظ . وقد رواه الطبرانى بأسانيد جيدة عن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج . مات محمود سنة ست وتسعين . وقيل : سنة سبع وتسعين ، وله تسع وتسعون سنة .

قوله : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » هذا من شفقته صلى الله عليه وسلم بأمته ورحمته ورأفته بهم ، فلا خير إلا دلهم عليه وأمرهم به ، ولا شر إلا بيّنه لهم وأخبرهم به ونهاهم عنه ، كما قال صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه : « ما بعث الله من نبى إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم — الحديث » فإذا كان الشرك الأصغر مخوفاً على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كمال علمهم وقوة إيمانهم ، فكيف لا يخافه وما فوقه من هو دونهم فى العلم والإيمان بمراتب ؟ خصوصاً إذا عرف أن أكثر علماء الأمصار اليوم لا يعرفون من التوحيد إلا ما أقر به المشركون ، وما عرفوا معنى الالهية التى نفتها كلمة الإخلاص عن كل ما سوى الله .

وأخرج أبو يعلى وابن المنذر عن حذيفة بن اليمان عن أبى بكر عن النبى صلى الله عليه

وعن ابن مسعود رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَن مات وهو يدعو من دون الله نِدًّا دخل النار » رواه البخارى .

وسلم قال : « الشرك أخفى من دبيب النمل . قال أبو بكر : يا رسول الله ، وهل الشرك إلا ما عبد من دون الله ، أو ما دعى مع الله ؟ قال : ثكلتك أمك ، الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل » الحديث . وفيه « أن تقول : أعطانى الله وفلان ، والند أن يقول الإنسان : لولا فلان لقتلنى فلان » اهـ . من الدر .

قال المصنف : وعن ابن مسعود رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار » رواه البخارى .

قال ابن القيم رحمه الله : الند : الشبيه ، يقال : فلان ند فلان ، وند يده ، أى مثله وشبيهه اهـ . قال تعالى : (٢ : ٢٢) فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) .

قوله : « من مات وهو يدعو من دون الله نداً » أى يجعل لله نداً فى العبادة ، يدعوه و يسأله و يستغيث به دخل النار . قال العلامة ابن القيم رحمه الله :

والشرك فاحذره ، فشرك ظاهر ذا القسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ النـد للرحمن أيـاً كان ، من حجر ومن إنسان
يدعوه ، أو يرجوه ، ثم يخافه ويحبـه كمحبة الديان

واعلم ان اتخاذ الند على قسمين :

الأول : أن يجعله لله شريكا فى أنواع العبادة أو بعضها كما تقدم ، وهو شرك أكبر .

والثانى : ما كان من نوع الشرك الأصغر كقول الرجل : ما شاء الله وشئت ، ولولا الله وأنت . وكيسير الرياء ؛ فقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قال له رجل : « ما شاء الله وشئت قال : أجعلتنى لله نداً ؟ بل ما شاء الله وحده » رواه أحمد وابن أبى شيبة والبخارى فى الأدب المفرد والنسائى وابن ماجة . وقد تقدم حكمه فى باب فضل التوحيد .

وفيه : بيان أن دعوة غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك جلى ، كطلب الشفاعة من الأموات ، فإنها ملك لله تعالى و بيده ، ليس بيد غيره منها شىء ، وهو الذى يأذن للشفيع أن يشفع فيمن لاقى الله بالإخلاص والتوحيد من أهل الكبائر . كما يأتى تقريره فى باب الشفاعة إن شاء الله تعالى .

ولمسلم عن جابر رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَن لقىَ الله لا يشركُ به شيئاً دخل الجنة ، ومَنْ لَقِيَهُ يشرك به شيئاً دخل النار »

قال المصنف رحمه الله تعالى : ولمسلم عن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من لقى الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة . ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار » .

« جابر » : هو ابن عبد الله بن عمرو بن حَرام — بمهملتين — الأنصارى ثم السلمى — بفتحتين — صحابى جليل هو وأبوه . ولأبيه مناقب مشهورة رضى الله عنهما مات بالمدينة بعد السبعين ، وقد كف بصره ، وله أربع وتسعون .

قوله « من لقى الله لا يشرك به شيئاً » قال القرطبى : أى لم يتخذ معه شريكا فى الإلٰهية ، ولا فى الخلق ، ولا فى العبادة . ومن المعلوم من الشرع المجمع عليه عند أهل السنة : أن من مات على ذلك فلا بد له من دخول الجنة ، وإن جرت عليه قبل ذلك أنواع من العذاب والمحنة ، وأن من مات على الشرك لايدخل الجنة ولا يناله من الله رحمة ، ويخلد فى النار أبد الآباد ، من غير انقطاع عذاب ، ولا تصرُّم آماد .

وقال النووى : أما دخول المشرك النار فهو على عمومه ، فيدخلها ويخلد فيها ، ولا فرق فيه بين الكتابى اليهودى والنصرانى ، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة ، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره ، ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجحده وغير ذلك . وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به . لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصرا عليها دخل الجنة أولا ، وإن كان صاحب كبيرة مات مصراً عليها فهو تحت المشيئة . فإن عفا الله عنه دخل الجنة أولا ، وإلا عذب فى النار ثم أخرج من النار وأدخل الجنة .

وقال غيره : اقتصر على نفى الشرك لاستدعائه التوحيد بالاقتضاء ، واستدعائه إثبات الرسالة باللزوم ؛ إذ من كذب رسل الله فقد كذب الله ، ومن كذب الله فهو مشرك ، وهو كقولك: من توضأ صحت صلاته ، أى مع سائر الشروط . فالمراد : من مات حال كونه مؤمناً بجميع ما يجب الإيمان به : إجمالا فى الإجمالى ، وتفصيلا فى التفصيلى . انتهى .

فيه مسائل :

الأولى : الخوفُ من الشرك .

الثانية : أن الرياء من الشرك .

الثالثة : أنه من الشرك الأصغر .

الرابعة : أنه أخوفُ ما يُخاف منه على الصالحين .

الخامسة : قُرب الجنة والنار .

السادسة : الجمع بين قربهما في حديث واحد.

السابعة : أنه مَنْ لقيه لايُشرك به شيئاً دخل الجنة . ومن لَقيهُ يُشرِك به شيئاً دخل النار، ولوكان من أعبد الناس .

الثامنة : المسألة العظيمة : سؤالُ الخليل له ولِبَنِيه وقَايَةَ عبادَةِ الأصنام .

التاسعة : اعتباره بحال الأكثر لقوله : (رَبِّ إنهنَّ أَضْلَلْنَ كثيراً من الناس) .

العاشرة : فيه تفسير « لا إله إلا الله » ، كما ذكره البخاري .

الحادية عشرة : فضيلة من سلم من الشرك .

باب

(الدعاء إلى شهادة أن لا إلٰه إلا الله)

وقول الله تعالى : (١٢ : ١٠٨ قل : هٰذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتبعني . وسبحان الله وما أنا من المشركين) .

قوله : « باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله »

لما ذكر المصنف رحمه الله التوحيد وفضله ، وما يوجب الخوف من ضده . نَبَّه بهذه الترجمة على أنه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه ، بل يجب عليه أن يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما هو سبيل المرسلين وأتباعهم . كما قال الحسن البصري لما تلا قوله تعالى (٤١ : ٣٣ ومَنْ أَحْسَنُ قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال : إنني من المسلمين) فقال « هذا حبيب الله ، هذا وليُّ الله ، هذا صفوة الله ، هذا خِيرة الله ، هذا أحب أهل الأرض إلى الله؛ أجاب الله فى دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته ، وعمل صالحاً فى إجابته ، وقال : إنني من المسلمين . هذا خليفة الله » .

قال رحمه الله : وقوله (١٢ : ١٠٨ قل : هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني . وسبحان الله وما أنا من المشركين) .

قال أبو جعفر بن جرير : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) يامحمد (هذه) الدعوة التى أدعو إليها ، والطريقة التى أنا عليها ، من الدعاء إلى توحيد الله ، وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان والانتهاء إلى طاعته وترك معصيته (سبيلي) وطريقتي ، ودعوتي (أدعو إلى الله) تعالى وحده لاشريك له (على بصيرة) بذلك ويقين علم منى به (أنا ، و) يدعو إليه على بصيرة أيضاً (من اتبعني) وصدقني وآمن بي (وسبحان الله) يقول له تعالى ذكره : وقل تنزيهاً لله تعالى وتعظيما له : من أن يكون له شريك فى ملكه أو معبود سواه فى سلطانه (وما أنا من المشركين) يقول : وأنا برىء من أهل الشرك به . لست منهم ولاهم منى . انتهى .

قال فى شرح المنازل : يريد أن تصل باستدلالك إلى أعلى درجات العلم وهى البصيرة التى تكون نسبة المعلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئى إلى البصر ، وهذه هى الخصيصة التى اختص بها الصحابة عن سائر الأمة ، وهى أعلى درجات العلماء . قال تعالى (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) أى أنا وأتباعى على بصيرة . وقيل (من اتبعنى) عطف على المرفوع فى (أدعو) أى أنا أدعو إلى الله على بصيرة ، ومن اتبعنى كذلك يدعو إلى الله تعالى على بصيرة ، وعلى القولين : فالآية تدل على أن أتباعه هم أهل البصائر الداعون إلى الله تعالى ، ومن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة ، وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى .

قال المصنف رحمه الله : فيه مسائل : منها التنبيه على الإخلاص ؛ لأن كثيراً ولو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه . ومنها : أن البصيرة من الفرائض . ومنها : أن من دلائل حسن التوحيد أنه تنزيه لله تعالى عن المسبة ومنها : أن من قُبح الشرك كونه مَسبة لله تعالى . ومنها : إبعاد المسلم عن المشركين لا يصير منهم ولو لم يشرك .

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى فى معنى قوله تعالى (١٦ : ١٢٥ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة — الآية) ذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو : فإنه إما أن يكون طالباً للحق محباً له ، مؤثراً له على غيره إذا عرفه . فهذا يُدعَى بالحكمة ، ولا يحتاج إلى موعظة وجدال . و إما أن يكون مشتغلا بضد الحق ، لكن لو عرفه آثره واتبعه . فهذا يحتاج إلى الموعظه بالترغيب والترهيب . و إما أن يكون معانداً معارضاً . فهذا يُجادَل بالتى هى أحسن . فإن رجع و إلا انتُقِلَ معه إلى الجدال إن أمكن . انتهى .

قال : وعن ابن عباس رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذا إلى اليمن قال له : إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب . فليكن أول ماتدعوهم إليه : شهادة أن لا إله إلا الله — وفى رواية : إلى أن يوحِّدوا الله — فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمسَ صلوات فى كل يوم وليلة . فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله

معاذاً إلى اليمن قال له : إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب . فليكن أوّل ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله — وفى رواية : إلى أن يُوحِّدوا الله —

افترض عليهم صدقةً تؤخذ من أغنيائهم فَتُرَدُّ على فقرائهم . فإن هم أطاعوك لذلك فإيَّاك وكرائم أموالهم . واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » أخرجاه .

قال الحافظ : كان بعثُ معاذ إلى اليمن سنة عشر ، قبل حج النبى صلى الله عليه وسلم كما ذكره المصنف — يعنى البخارى فى أواخر المغازى — وقيل : كان ذلك فى آخر سنة تسع عند مُنْصَرَفه صلى الله عليه وسلم من تَبُوك . رواه الواقدى بإسناده إلى كعب بن مالك . وأخرجه ابن سعد فى الطبقات عنه ، واتفقوا على أنه لم يزل على اليمن إلى أن قدم فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، ثم توجه إلى الشام فمات بها .

قال شيخ الإسلام : ومن فضائل معاذ رضى الله عنه : أنه صلى الله عليه وسلم بعثه إلى اليمن مُبَلغاً عنه . ومُفقهاً ومعلماً وحاكماً .

قوله « إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب » قال القرطبى : يعنى به اليهود والنصارى؛ لأنهم كانوا فى اليمن أكثر من مشركى العرب أو أغلب . وإنما نبهه على هذا ليتهيأ لمناظرتهم .

وقال الحافظ : هو كالتوطئة للوصية ليجمع همته عليها .

قوله « فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله » « شهادة » رفع على أنه اسم « يكن » مؤخر « أول » خبرها مقدم . ويجوز العكس .

قوله « وفى رواية : إلى أن يوحدوا الله » هذه الرواية ثابتة فى كتاب التوحيد من صحيح البخارى . وأشار المصنف بذكر هذه الرواية إلى التنبيه على معنى « شهادة أن لا إله إلا الله » فإن معناها توحيد الله بالعبادة ونفى عبادة ما سواه . وفى رواية « فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله » وذلك هو الكفر بالطاغوت ، والإيمان بالله ، كما قال تعالى (٢ : ٢٥٦ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعُروة الوثقى لا انفصام لها) والعروة الوثقى هى : « لا إله إلا الله » وفى رواية البخارى « فقال : ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله » .

فإن هُمْ أطاعوك لذلك فأعلِمْهُمْ أن الله افترض عليهم خمسَ صلواتٍ في كل يوم

قلت : لا بد فى شهادة أن لا إله إلا الله من سبعة شروط ، لا تنفع قائلها إلا باجتماعها، أحدها : العلم المنافى للجهل . الثانى : اليقين المنافى للشك . الثالث : القبول المنافى للرد . الرابع : الانقياد المنافى للترك . الخامس : الإخلاص المنافى للشرك . السادس : الصدق المنافى للكذب . السابع : المحبة المنافية لضدها .

وفيه دليل على أن التوحيد — الذى هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه — هو أول واجب ، ولهذا كان أول ما دعت إليه الرسل عليهم السلام (أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره) وقال نوح (أن لا تعبدوا إلا الله) وفيه معنى « لا إله إلا الله » مطابقة .

قال شيخ الإسلام : وقد عُلم بالاضطرار من دين الرسول صلى الله عليه وسلم واتفقت عليه الأمة أن أصل الإسلام وأول ما يؤمر به الخلق : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فبذلك يصير الكافر مسلماً ، والعدوّ ولياً ، والمباح دمه وماله معصوم الدم والمال ، ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل فى الإيمان ، وإن قاله بلسانه دون قلبه فهو فى ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان . قال : وأما إذا لم يتكلم بها مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين باطناً وظاهراً ، عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير العلماء . اهـ

قال المصنف رحمه الله تعالى : وفيه : أن الإنسان قد يكون عالماً وهو لا يعرف معنى « لا إله إلا الله » أو يعرفه ولا يعمل به .

قلت : فما أكثر هؤلاء — لا كثّرهم الله تعالى .

قوله « فإن هم أطاعوك لذلك » أى شهدوا وانقادوا لذلك « فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات » فيه : أن الصلاة أعظم واجب بعد الشهادتين قال النووى ما معناه : إنه يدل على أن المطالبة بالفرائض فى الدنيا لا تكون إلا بعد الإسلام ولا يلزم من ذلك أن لا يكونوا مخاطبين بها ، ويزاد فى عذابهم بسببها فى الآخرة . والصحيح : أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، المأمور به والمنهى عنه . وهذا قول الأكثرين . اهـ

وليلةٍ ، فإن هُمْ أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترضَ عليهم صَدَقةً تؤخذُ من أغنيائهم فترد على فقرائهم .

فإنْ هم أطاعوك لذلك فإيّاك وكرائمَ أموالهم ، واتّقِ دَعوةَ المظلوم ،

قوله « فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم » فيه : دليل على أن الزكاة أوجب الأركان بعد الصلوات ، وأنها تؤخذ من الأغنياء وتصرف إلى الفقراء . وإنما خص النبي صلى الله عليه وسلم الفقراء لأن حقهم في الزكاة آكد من حق بقية الأصناف الثمانية .

وفيه : أن الإمام هو الذي يتولى قبض الزكاة وصرفها : إما بنفسه أو نائبه ، فمن امتنع من أدائها إليه أُخذت منه قهراً .

وفي الحديث : دليل على أنه يكفي إخراج الزكاة في صنف واحد ، كما هو مذهب مالك وأحمد .

وفيه : أنه لا يجوز دفعها إلى غني ، ولا إلى كافر غير المؤلَّف ، وأن الزكاة واجبة في مال الصبي والمجنون ، كما هو قول الجمهور ؛ لعموم الحديث .

قلت : والفقير إذا أُفرد في اللفظ تناول المسكين وبالعكس ، كنظائره . كما قرره شيخ الإسلام .

قوله « وإياك وكرائم أموالهم » بنصب « كرائم » على التحذير، جمع كريمة . قال صاحب المطالع : هي الجامعة للكمال الممكن في حقها : من غزارة لبن ، وجمال صورة ، وكثرة لحم وصوف . ذكره النووي . قلت : وهي خيار المال وأنفسه وأكثره ثمنا .

وفيه : أنه يحرم على العامل في الزكاة أخذ كرائم المال ، ويحرم على صاحب المال إخراج شرار المال ، بل يخرج الوسط . فإن طابت نفسه بالكريمة جاز .

قوله « واتق دعوة المظلوم » أي اجعل بينك وبينها وقاية بالعدل وترك الظلم ، وهذان الأمران يقيان مَن رُزِقَهما من جميع الشرور دنيا وأخرى .

وفيه : تنبيه على التحذير من جميع أنواع الظلم .

فإنه ليس بينها و بين الله حِجاب » أخرجاه .

قوله : « فإنه » أى الشأن « ليس بينها و بين الله حجاب » هذه الجملة مفسرة لضمير الشأن . أى : فإنها لا تحجب عن الله فيقبلها .

وفى الحديث أيضا : قبول خبر الواحد العدل ، ووجوب العمل به ، و بعث الإمام العمال لجباية الزكاة ، وأنه يعظ عماله وولاته ، و يأمر بتقوى الله تعالى ، و يعلمهم ، و ينهاهم عن الظلم ، و يعرفهم سوء عاقبته . والتنبيه على التعليم بالتدريج . قاله المصنف .

قلت : و يبدأ بالأهم .

واعلم أنه لم يذكر فى الحديث الصوم والحج ، فأشكل ذلك على كثير من العلماء .

قال شيخ الإسلام : أجاب بعض الناس : أن بعض الرواة اختصر الحديث ، وليس كذلك ؛ فإن هذا طعن فى الرواة ؛ لأن ذلك إنما يقع فى الحديث الواحد ، مثل حديث وَفْد عبد القيس ، حيث ذكر بعضهم الصيام ، وبعضهم لم يذكره ، فأما الحديثان المنفصلان فليس الأمر فيهما كذلك . ولكن عن هذا جوابان :

أحدهما : أن ذلك بحسب نزول الفرائض ، وأول ما فرض الله الشهادتان. ثم الصلاة . فإنه أمر بالصلاة فى أول أوقات الوحىّ ، ولهذا لم يذكر وجوب الحج كعامة الأحاديث ، إنما جاء فى الأحاديث المتأخرة .

الجواب الثانى : أنه كان يذكر فى كل مقام ما يناسبه . فذكر تارة الفرائض التى يقاتل عليها كالصلاة والزكاة ، ويذكر تارة الصلاة والصيام لمن لم يكن عليه زكاة ، ويذكر تارة الصلاة والزكاة والصوم : فإما أن يكون قبل فرض الحج ، و إما أن يكون المخاطب بذلك لا حج عليه . وأما الصلاة والزكاة فلهما شأن ليس لسائر الفرائض ؛ ولهذا ذكر الله تعالى فى كتابه القتال عليهما ، لأنهما عبادتان ظاهرتان ، بخلاف الصوم فإنه أمر باطن من جنس الوضوء والاغتسال من الجنابة ، ونحو ذلك مما يؤتمن عليه العبد ، فإن الإنسان يمكنه ألاّ ينوى الصوم وأن يأكل سراً ، كما يمكنه أن يكتم حدثه وجنابته ، وهو صلى الله عليه وسلم يذكر فى الأعمال الظاهرة التى يقاتل الناس عليها ، ويصيرون مسلمين بفعلها . فلهذا علق ذلك بالصلاة والزكاة دون الصوم ، وإن كان واجباً كما فى آيتى براءة نزلت بعد فرض

ولهما عن سَهْل بن سَعْدٍ رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يومَ خَيْبَرَ :

الصيام باتفاق الناس . وكذلك لما بعث معاذاً إلى اليمن لم يذكر فى حديثه الصوم ، لأنه تبعٌ وهو باطن ، ولا ذكر الحج لأن وجوبه خاص ليس بعام ، ولا يجب فى العمر إلا مرة . انتهى بمعناه .

قوله « أخرجاه » أى البخارى ومسلم ، وأخرجه أيضاً أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة .

قال : ولهما عن سهل بن سعد رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خَيبر : « لأُعطينّ الرايةَ غداً رجلاً يحبُّ الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه فباتَ الناس يَدُوكون ليلتهم : أيُّهم يُعطاها ، فلما أصبحوا غَدَوْا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلهم يرجو أن يُعطاها ، فقال : أين علىّ بن أبى طالب ؟ فقيل : هو يشتكى عينيه ؟ فأرسلوا إليه ، فأُتِىَ به ، فبَصق فى عينه ودعا له ، فبرأ كأن لم يكن به وَجَع ، فأعطاه الراية ، وقال : انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حُمْرِ النعَم » ، و « يَدُوكون » أى : يخوضون .

قوله : « عن سهل بن سعد » أى ابن مالك بن خالد الأنصارى الخزرجى الساعدى ، أبى العباس صحابى شهير ، وأبوه صحابى أيضاً . مات سنة ثمان وثمانين وقد جاوز المائة .

قوله: « قال يوم خيبر » وفى الصحيحين عن سَلَمَة بن الأكوع قال: « كان على رضى الله عنه قد تخلف عن النبى صلى الله عليه وسلم فى خيبر ، وكان أرمد ، فقال : أنا أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فخرج على رضى الله عنه فلحق بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فلما كان مساء الليلة التى فتحها الله عز وجل فى صباحها قال صلى الله عليه وسلم : لأعطين الراية — أو ليأخذن الراية — غداً رجل يحبه الله ورسوله — أو قال: يحب الله ورسوله — يفتح الله على يديه . فإذا نحن بعلىّ وما نرجوه ، فقالوا : هذا على ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم الراية ففتح الله عليه » .

« لأُعطِيَنَّ الرايةَ غدًا رجلاً يُحِبُّ اللهَ ورسولَه ، ويُحِبُّهُ اللهُ ورسوله يَفْتَحُ اللهُ على يديه ، فباتَ الناسُ يدُوكون ليلتهم : أيُّهُمْ يُعطاها . فلما أصبحوا غَدَوْا عَلَى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، كلهم يرجو أن يُعطاها . فقال :

قوله : « لأعطين الراية » قال الحافظ : فى رواية بريدة « إنى دافع اللواء إلى رجل يحبه الله ورسوله » وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادفهما ، لكن روى أحمد والترمذى من حديث ابن عباس « كانت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم سوداء ، ولواؤه أبيض » ومثله عند الطبرانى عن بريدة ، وعند ابن عدى عن أبى هريرة وزاد « مكتوب فيه : لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

قوله : « يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » فيه فضيلة عظيمة لعلى رضى الله عنه .

قال شيخ الإسلام : ليس هذا الوصف مختصاً بعلى ولا بالأئمة ، فإن الله ورسوله يحب كل مؤمن تقى يحب الله ورسوله ، لكن هذا الحديث من أحسن ما يحتج به على النواصب الذين لا يتولونه ، أو يُكفّرونه أو يُفسّقونه ، كالخوارج ، لكن هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة الذين يجعلون النصوص على فضائل الصحابة كانت قبل ردتهم ، فإن الخوارج تقول فى عليّ مثل ذلك ، لكن هذا باطل ، فإن الله تعالى ورسوله لا يطلق مثل هذا المدح على من يعلم الله أنه يموت كافراً .

وفيه : إثبات صفة المحبة ، خلافاً للجهمية ومن أخذ عنهم .

قوله : « يفتح الله على يديه » صريح فى البشارة بحصول الفتح ، فهو علم من أعلام النبوة .

قوله : « فبات الناس يدوكون ليلتهم » بنصب « ليلتهم » . و « يدوكون » قال المصنف يخوضون أى فيمن يدفعها إليه وفيه : حرص الصحابة على الخير واهتمامهم به ، وعلو مرتبتهم فى العلم والإيمان .

قوله : « أيهم » هو برفع « أى » على البناء ، لإضافتها وحذف صدر صلتها .

قوله : « فلما أصبحوا غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها » وفى رواية أبى هريرة عند مسلم أن عمر قال : « ما أحببت الإمارة إلا يومئذ » .

قال شيخ الإسلام : إن فى ذلك شهادة النبى صلى الله عليه وسلم لعلى بإيمانه باطناً وظاهراً وإثباتاً لموالاته لله تعالى ورسوله ، ووجوب موالاة المؤمنين له . وإذا شهد النبى

أين عليّ بن أبي طالب ؟ فقيل : هو يشتكي عينيه ، فأرسلوا إليه ، فأُتيَ به . فَبَصَقَ في عينيه ، ودعا له فبرَأ كأن لم يكن به وجَع ، فأعطاه الراية فقال : انفذْ عَلَى رِسلِكَ

صلى الله عليه وسلم لمعين بشهادة ، أو دعا له أحب كثير من الناس أن يكون له مثل تلك الشهادة ، ومثل ذلك الدعاء ، وإن كان النبي يشهد بذلك لخلق كثير ، ويدعو لخلق كثير . وهذا كالشهادة بالجنة لثابت بن قيس وعبد الله بن سلام ، وإن كان شهد بالجنة لآخرين ، والشهادة بمحبة الله ورسوله للذى ضرب فى الخمر .

قوله : « فقال : أين علي بن أبي طالب ؟ » فيه سؤال الإمام عن رعيته ؛ وتفقد أحوالهم .

قوله : « فقيل هو يشتكي عينيه » أي من الرمد ، كما فى صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص فقال : « ادعوا لى علياً فأتى به أرمد » الحديث ، وفى نسخة صحيحة بخط المصنف « فقيل : هو يشتكي عينيه ، فأرسل إليه » مبنى للفاعل ، أو هو ضمير مستتر فى الفعل راجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن يكون مبنياً لما لم يسم فاعله . ولمسلم من طريق إياس بن سلمة ابن الأكوع عن أبيه قال : « فأرسلنى إلى عليّ ، فجئت به أقوده أرمد » .

قوله : « فبصق » بفتح الصاد ، أي تفل .

قوله : « ودعا له فبرأ » هو بفتح الراء والهمزة ، أي عوفى فى الحال عافية كاملة كأن لم يكن به وجع من رمد ولا ضعف بصر .

وعند الطبراني من حديث عليّ : « فما رمدت ولا صدعت منذ دفع النبي صلى الله عليه وسلم إليّ الراية » .

وفيه : دليل على الشهادتين .

قوله : « فأعطاه الراية » قال المصنف : فيه : الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع ، ومنعها عمن سعى .

وفيه : أن فعل الأسباب المباحة أو الواجبة أو المستحبة لا ينافى التوكل .

قوله : « فقال : انفذ على رسلك » بضم الفاء ، أي امض ، و « رسلك » بكسر الراء وسكون السين ، أي على رفقك من غير عجلة ، و « ساحتهم » فناء أرضهم وهو ما حولها .

حتى تَنْزِلَ بساحتهم، ثم ادْعُهُمْ إلى الإسلام. وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حَقِّ الله تعالى فيه .

وفيه : الأدب عند القتال ، وترك العجلة والطيش والأصوات التي لا حاجة إليها .

وفيه : أمر الإمام عماله بالرفق من غير ضعف ولا انتقاض عزيمة ، كما يشير إليه قوله : «ثم ادعهم إلى الإسلام» أي الذي هو معنى : شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ، وإن شئت قلت : الإسلام : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وما اقتضته الشهادتان من إخلاص العبادة لله وحده ، وإخلاص الطاعة لرسوله صلى الله عليه وسلم .

ومن هنا طابق الحديث الترجمة كما قال تعالى لنبيه ورسوله : (٣ : ٦٤ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : الإسلام هو الاستسلام لله ، وهو الخضوع له ، والعبودية له . كذا قال أهل اللغة .

وقال رحمه الله تعالى . ودين الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله . هو الاستسلام له وحده ، فأصله في القلب ، والخضوع له وحده بعبادته وحده دون ما سواه . فمن عبده وعبد معه إلهاً آخر لم يكن مسلماً . ومن استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً ، وفي الأصل : هو من باب العمل ، عمل القلب والجوارح ، وأما الإيمان فأصله : تصديق القلب وإقراره ومعرفته فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب . انتهى .

فتبين أن أصل الإسلام هو التوحيد ونفي الشرك في العبادة ، وهو دعوة جميع المرسلين وهو الاستسلام لله تعالى بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة فيما أمرهم به على ألسن رسله ، كما قال تعالى عن نوح أول رسول أرسله (٧١ : ٣ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) .

وفيه مشروعية الدعوة قبل القتال ، لكن إن كانوا قد بلغتهم الدعوة جاز قتالهم ابتداء ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أغار على بني المصطلق وهم غارون وإن كانوا لم تبلغهم الدعوة وجبت دعوتهم .

قوله : « وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه » أي في الإسلام إذا أجابوك إليه فأخبرهم بما يجب من حقوقه التي لا بد لهم من فعلها ، كالصلاة والزكاة ، كما في حديث

فوالله لأَنْ يَهْدِىَ الله بك رجلاً واحدًا ، خير لك من حُمْرِ النَّعَم » . «يدوكون» أى يخوضون

أبى هريرة « فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها » ولما قال عمر لأبى بكر فى قتاله مانعى الزكاة : « كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ؟ قال أبو بكر : فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها » .

وفيه : بعثُ الإمام الدعاةَ إلى الله تعالى ، كما كان النبى صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون يفعلون ، كما فى المسند عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال فى خطبته : « ألا إنى والله ما أرسل عُمّالى إليكم ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم . ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسننكم » .

وقوله: « فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم » «أن» مصدرية واللام قبلها مفتوحه لأنها لام القسم . و « أن » والفعل بعدها فى تأويل مصدر ، رفع على الابتداء والخبر « خير » و « حمر » بضم المهملة وسكون الميم ، جمع أحمر . و « النعم » بفتح النون والعين المهملة ، أى خير لك من الإبل الحمر . وهى أنفسُ أموال العرب .

قال النووى : وتشبيه أمور الآخرة بأمور الدنيا إنما هو للتقريب إلى الأفهام ، وإلا فذرَّة من الآخرة خير من الأرض بأسرها وأمثالها معها .

فيه مسائل :

الأولى : أن الدعوة إلى الله طريقُ من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثانية : التنبيه عَلَى الإخلاص . لأن كثيراً لو دعا إلى الحق ، فهو يدعو إلى نفسه .

الثالثة : أن البصيرةَ من الفرائض .

الرابعة : من دلائل حُسْن التوحيد : أنه تنزيه الله تعالى عن المسبَّة .

الخامسة : أنَّ مِن قُبح الشرك كونه مَسَبّة لله .

السادسة : وهي من أهمها — إبعادُ المسلم عن المشركين لا يصير منهم ولو لم يشرك .

السابعة : كون التوحيد أول واجب .

الثامنة : أن يُبدأ به قبل كل شيء ، حتى الصلاة .

التاسعة : أن معنى « أن يُوَحِّدوا الله » معنى شهادة : أن لا إله إلا الله .

العاشرة : أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب ، وهو لا يعرفها ، أو يعرفها ولا يعمل بها .

الحادية عشرة : التنبيه عَلَى التعليم بالتدريج .

الثانية عشرة : البُداءة بالأهم فالأهم .

الثالثة عشرة : مصرِف الزكاة .

الرابعة عشرة : كشفُ العالِم الشبهةَ عن المتعلم

الخامسة عشرة : النَّهي عن كرائم الأموال .

السادسة عشرة : اتقاء دعوة المظلوم .

السابعة عشرة : الإخبار بأنها لا تُحْجَب .

الثامنة عشرة : من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء .

التاسعة عشرة : قوله « لأعطين الراية — الخ » علَم من أعلام النبوة .

العشرون : تَفْلُه في عَيْنَيه علَم من أعلامها أيضاً .

الحادية والعشرون : فضيلة عليّ رضى الله عنه .

الثانية والعشرون : فضل الصحابة فى دَوْكهم تلك الليلة وشُغلهم عن بشارة الفتح .

الثالثة والعشرون : الإيمانُ بالقَدَر ، لحصولها لمن لم يَسْعَ لها ومَنْعِها عمن سعى .

الرابعة والعشرون : الأدب فى قوله « عَلَى رِسْلِكَ » .

الخامسة والعشرون : الدعوة إلى الإسلام قبل القتال .

السادسة والعشرون : أنه مشروع لمن دُعوا قبل ذلك وقوتلوا .

السابعة والعشرون : الدعوة بالحكمة لقوله : « أخبرهم بما يجب » .

الثامنة والعشرون : المعرفة بحقِّ الله فى الإسلام .

التاسعة والعشرون : ثوابُ من اهتدى عَلَى يديه رجلٌ واحد .

الثلاثون : الحَلِفُ عَلَى الفُتْيا .

باب

(تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله)

وقول الله تعالى : (١٧ :٥٧ أُولَٰئِكَ الذين يدعون يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلةَ

وفيه فضيلة من اهتدى على يديه رجل واحد ، وجواز الحلف على الخبر والفتيا ولو لم يستحلف .

قوله : « باب تفسير التوحيد ، وشهادة أن لا إله إلا الله » .

قلت : هذا من عطف الدال على المدلول .

فإن قيل : قد تقدم فى أول الكتاب من الآيات ما يبين معنى « لا إله إلا الله » وما تضمنته من التوحيد كقوله تعالى : (١٧ : ٢٣ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) وسابقها ولاحقها . وكذلك ما ذكره فى الأبواب بعدها . فما فائدة هذه الترجمة ؟

قيل : هذه الآيات المذكورات فى هذا الباب فيها مزيد بيان بخصوصها لمعنى كلمة الإخلاص وما دلت عليه : من توحيد العبادة . وفيها : الحجة على من تعلق على الأنبياء والصالحين يدعوهم ويسألهم ؛ لأن ذلك هو سبب نزول بعض هذه الآيات ، كالآية الأولى (١٧ : ٥٦ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه) أكثر المفسرين على أنها نزلت فيمن يعبد المسيح وأمه ، والعُزيرَ والملائكة ، وقد نهى الله عن ذلك أشد النهى ، كما فى هذه الآية من التهديد والوعيد على ذلك . وهذا يدل على أن دعاءهم من دون الله شرك بالله ، ينافى التوحيد ، وينافى شهادة أن لا إله إلا الله ؛ فإن التوحيد أن لا يدعى إلا الله وحده . وكلمة الإخلاص نفت هذا الشرك ، لأن دعوة غير الله تأليه وعبادة له . و « الدعاء مخ العبادة »

وفى هذه الآية : أن المدعو لا يملك لداعيه كشف ضر ولا تحويله من مكان إلى مكان، ولا من صفة إلى صفة . ولو كان المدعو نبياً أو ملكا . وهذا يقرر بطلان دعوة كل مدعو من دون الله كائناً من كان ؛ لأن دعوته تخون داعيه أحوج ما كان إليها ، لأنه أشرك مع الله من لا ينفعه ولا يضره . وهذه الآية تقرر التوحيد ، ومعنى : لا إله إلا الله .

وقوله تعالى (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) يبين أن هذا سبيل الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم من المؤمنين . قال قتادة : « تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه»

أَيُّهُم أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رحمتَهُ ويخافون عذابه ، إنَّ عذابَ ربك كان مَحْذُورا) .

وقوله : (٤٣ : ٢٦ — ٢٨ وإذ قال إبراهيمُ لأبيـه وقومه إننى بَرَاءٌ مما تعبدون . إلا الذى فطَرَنى فإنه سَيهدين . وجعلها كلمةً باقيَةً فى عَقِبِه لعلهم يرجعون) .

وقرأ ابن زيد (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسـيلة أيهم أقرب) قال العماد ابن كثير : وهذا لا خلاف فيه بين المفسرين . وذكره عن عدة من أئمة التفسير .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : فى هذه الآية ذكر المقامات الثلاث : الحب ، وهو ابتغاء القرب إليه والتوسل إليه بالأعمال الصالحة ، والرجاء والخوف . وهذا هو حقيقة التوحيد وحقيقة دين الإسلام كما فى المسند عن بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم : « والله يا رسول الله ما أتيتك إلا بعد ما حلفتُ عدد أصابعى هذه : أن لا آتيك . فبالذى بعثك بالحق ، ما بعثك به ؟ قال : الإسلام ؟ قال : وما الإسلام ؟ قال : أن تسلم قلبك ، وأن تُوجِّه وجهك إلى الله ، وأن تصلى الصلوات المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة » وأخرج محمد بن نصر المروزى من حديث خالد بن معدان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن للإسلام صُوًى ومناراً كمنار الطريق . من ذلك : أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » وهذا معنى قوله تعالى : (٣١ : ٢٢ ومن يُسْلِم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى و إلى الله عاقبة الأمور) .

وقوله تعالى : (٤٣ : ٢٦ — ٢٨ و إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون . إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية فى عقبه) أى « لا إله إلا الله » .

فتدبر كيف عبَّر الخليل عليه السلام عن هذه الكلمة العظيمة بمعناها الذى دلت عليه ووضعت له : من البراءة من كل ما يعبد من دون الله من المعبودات الموجودة فى الخارج : كالكواكب والهيا كل والأصنام التى صورها قوم نوح على صور الصالحين : ودٍّ وسُوَاع وَيَغُوثَ وَيَعُوق وَنسْرا ، وغيرها من الأوثان والأنداد التى كان يعبدها المشركون بأعيانها. ولم يستثن من جميع المعبودات إلا الذى فطره ، وهو الله وحده لا شريك له ، فهذا هو الذى

وقوله : (٩ : ٣١ اتَّخَذُوا أَحْبارهم ورُهْبانهم أرْباباً من دُون الله) الآية .

دلت عليه كلمة الإخلاص مطابقة . كما قال تعالى : (٢٢ : ٦٢ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل) فكل عبادة يقصد بها غير الله : من دعاء وغيره فهى باطلة ، وهى الشرك الذى لا يغفره الله ، قال تعالى : (٤٠ : ٧٣ ، ٧٤ ثم قيل لهم : أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟ قالوا : ضلوا عنا ، بل لم نكن ندعوا من قبلُ شيئاً . كذلك يُضِلُّ الله الكافرين) .

وقوله تعالى : (٩ : ٣١ اتخذوا أحبارهم ورُهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم) .

وفى الحديث الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية على عَدِىٍّ بن حاتم الطائى : فقال : « يا رسول الله ، لسنا نعبدهم . قال : أليس يُحِلّون لكم ما حرم الله فتحلونه ، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ قال : بلى . قال النبى صلى الله عليه وسلم : فتلك عبادتهم » .

فصارت طاعتهم فى المعصية عبادة لغير الله وبها اتخذوهم أرباباً ، كما هو الواقع فى هذه الأمة ، وهذا من الشرك الأكبر المنافى للتوحيد الذى هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله .

فتبين بهذه الآية أن كلمة الإخلاص نفت هذا كله لمنافاته لمدلول هذه الكلمة . فأثبتوا ما نفته من الشرك وتركوا ما أثبتته من التوحيد .

وقوله تعالى : (٢ : ١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) فكل من اتخذ نداً لله يدعوه من دون الله ويرغب إليه ويرجوه لما يؤمله منه من قضاء حاجاته وتفريج كرباته — كحال عُبَّاد القبور والطواغيت والأصنام — فلا بد أن يعظِّموهم ويحبوهم لذلك ؛ فإنهم أحبوهم مع الله . وإن كانوا يحبون الله تعالى ويقولون «لا إله إلا الله» ويصلون ويصومون ، فقد أشركوا بالله فى المحبة بمحبة غيره وعبادة غيره . فاتخاذهم الأنداد يحبونهم كحب الله يبطل كل قول يقولونه وكل عمل يعملونه ؛ لأن المشرك لا يقبل منه عمل . ولا يصح منه . وهؤلاء وإن قالوا « لا إله إلا الله » فقد تركوا كل قيد قيِّدت به هذه الكلمة العظيمة : من العلم بمدلولها . لأن المشرك جاهل بمعناها ، ومن جهله بمعناها جعل لله شريكا فى المحبة وغيرها ، وهذا هو الجهل المنافى للعلم بما دلت عليه من الإخلاص ، ولم يكن

صادقاً فى قولها ؛ لأنه لم ينف ما نفته من الشرك ، ولم يثبت ما أثبتته من الإخلاص ، وترك اليقين أيضاً ؛ لأنه لو عرف معناها وما دلت عليه لأنكره أو شكّ فيه ، ولم يقبله وهو الحق ، ولم يكفر بما يعبد من دون الله ، كما فى الحديث : « بل آمن بما يعبد من دون الله باتخاذه الندّ » ومحبته له وعبادته إياه من دون الله ، كما قال الله تعالى : (والذين آمنوا أشد حباً لله) لأنهم أخلصوا له الحب فلم يحبوا إلا إياه ، ويحبون من أحب ويخلصون أعمالهم جميعاً لله ، ويكفرون بما عبد من دون الله فبهذا يتبين لمن وفقه الله تعالى لمعرفة الحق وقبوله دلالة هذه الآيات العظيمة على معنى شهادة أن لا إله إلا الله ، وعلى التوحيد الذى هو معناها الذى دعا إليه جميع المرسلين ، فتدبر .

قال : وقول الله تعالى: (١٧ : ٥٧ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب — الآية) يتبين معنى هذه الآية بذكر ما قبلها ، وهو قوله تعالى : (قل ادعُوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) .

قال ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى : (قل) يا محمد للمشركين الذين عبدوا غير الله (ادعوا الذين زعمتم من دونه) من الأصنام والأنداد ، وارغبوا إليهم (فإنهم لا يملكون كشف الضر عنكم) أى بالكلية (ولا تحويلا) أى ولا أن يحولوه إلى غيركم .

والمعنى : أن الذى يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له ، الذى له الخلق والأمر . قال العوفى عن ابن عباس فى الآية : « كان أهل الشرك يقولون : نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً ، وهم الذين يدعون . يعنى الملائكة والمسيح وعزيراً » .

روى البخارى فى الآية عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « ناس من الجن كانوا يُعبدون فأسلموا » وفى رواية : « كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم » .

وقول ابن مسعود هذا : يدل على أن الوسيلة هى الإسلام ، وهو كذلك على كلا القولين.

وقال السدى عن أبى صالح عن ابن عباس فى الآية قال : « عيسى وأمه وعزيراً » وقال مغيرة عن إبراهيم : كان ابن عباس يقول فى هذه الآية : « هم عيسى وعزير والشمس والقمر » وقال مجاهد : « عيسى وعزير والملائكة » .

وقوله : (يرجون رحمته ويخافون عذابه) لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء ، فكل داع دعا دعاء عبادة أو استغاثة لا بد له من ذلك : فإما أن يكون خائفاً ، وإما أن يكون راجياً ، وإما أن يجتمع فيه الوصفان .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى فى هذه الآية ، لما ذكر أقوال المفسرين : وهذه الأقوال كلها حق ، فإن الآية تعم من كان معبوده عابداً لله ، سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر ، والسلف فى تفسيرهم يذكرون جنس المراد بالآية على نوع التمثيل ، كما يقول الترجمان لمن سأله : ما معنى الخبز ؟ فيريه رغيفاً ، فيقول : هذا . فالإشارة إلى نوعه لا إلى عينه ، وليس مرادهم بذلك تخصيص نوع دون نوع مع شمول الآية . فالآية خطاب لكل من دعا من دون الله مدعواً ، وذلك المدعو يبتغى إلى الله الوسيلة ويرجو رحمته ويخاف عذابه ، فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد تناولته هذه الآية ، كما تتناول من دعا الملائكة والجن ؛ فقد نهى الله تعالى عن دعائهم ، وبيّن أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله ، لا يرفعونه بالكلية ولا يحوّلونه من موضع إلى موضع ، كتغيير صفته أو قدره ، ولهذا قال (ولا تحويلا) فذكر نكرة تعم أنواع التحويل فكل من دعا ميتا أو غائبا من الأنبياء والصالحين أو دعا الملائكة فقد دعا من لا يغيثه ولا يملك كشف الضر عنه ولا تحويله اه .

وفى هذه الآية رد على من يدعو صالحا ويقول : أنا لا أشرك بالله شيئا ، الشرك عبادة الأصنام .

قال : وقوله (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى برآء مما تعبدون إلا الذى فطرنى — الآية) . قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء ، ووالد من بعث بعده من الأنبياء ، الذى تنتسب إليه قريش فى نسبها ومذهبها : أنه تبرأ من أبيه وقومه فى عبادتهم الأوثان فقال : (إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون) أى أن هذه الكلمة وهى عبادة الله وحده لاشريك له ، وخلع ما سواه من الأوثان ، وهى « لا إله إلا الله » جعلها فى ذريته يقتدى به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عليه السلام (لعلهم يرجعون) أى : إليها .

قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم فى قوله : (وجعلها كلمة باقية فى عقبة لعلهم يرجعون يعنى « لا إله إلا الله » لا يزال فى ذريته من يقولها .

وروى ابن جرير عن قتادة (إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى) قال : كانوا يقولون : الله ربنا (٤٣ : ٨٧ ولئن سألتهم من خلقهم لَيَقُولُنَّ الله) فلم يبرأ من ربه . رواه عبد بن حميد . وروى ابن جرير وابن المنذر عن قتادة (وجعلها كلمة باقية فى عقبه) قال : « الإخلاص والتوحيد ، لا يزال فى ذريته من يعبد الله ويوحده » .

قلت : فتبين أن معنى « لا إله إلا الله » توحيد الله بإخلاص العبادة له والبراءة من كل ما سواه .

قال المصنف رحمه الله : وذكر سبحانه أن هذه البراءة ، وهذه الموالاة هى شهادة أن لا إله إلا الله .

وفى هذا المعنى يقول العلامة الحافظ ابن القيم رحمه الله فى الكافية الشافية :

وإذا تولاه امرؤ دون الورى طرًّا تولاه العظيم الشأن

قال : وقوله تعالى : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله — الآية) .

الأحبار : هم العلماء ، والرهبان : هم العبَّاد . وهذه الآية قد فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لعَدِىّ بن حاتم ، وذلك « أنه لما جاء مسلما دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه هذه الآية . قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم . فقال : بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال ، وحللوا لهم الحرام فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم » رواه أحمد والترمذى وحسنه ، وعبد بن حميد وابن أبى حاتم والطبرانى من طرق .

قال السدى : استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم . ولهذا قال تعالى : (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) فإن الحلال ما أحله الله ، والحرام ما حرمه الله ، والدين ما شرعه الله .

فظهر بهذا أن الآية دلت على أن من أطاع غير الله ورسوله ، وأعرض عن الأخذ بالكتاب والسنة فى تحليل ما حرم الله ، أو تحريم ما أحله الله ، وأطاعه فى معصية الله ، واتبعه فيما لم يأذن به الله ، فقد اتخذه رباً ومعبوداً وجعله لله شريكاً ، وذلك ينافى التوحيد الذى هو دين الله الذى دلت عليه كلمة الإخلاص « لا إله إلا الله » فإن الإله هو المعبود ، وقد سمى الله تعالى طاعتهم

عبادة لهم ، وسماهم أرباباً ، كما قال تعالى (٣ : ٨٠ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً) أى شركاء لله تعالى فى العبادة (أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون؟) وهذا هو الشرك فكل معبود رب ، وكل مطاع ومتبع على غير ما شرعه الله ورسوله فقد اتخذه المطيع المتبع رباً ومعبوداً ، كما قال تعالى فى آية الأنعام (٦ : ١٢١ وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) وهذا هو وجه مطابقة الآية للترجمة ، ويشبه هذه الآية فى المعنى قوله تعالى : (٤٢ : ٢١ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) والله أعلم .

قال شيخ الإسلام فى معنى قوله : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً حيث أطاعوهم فى تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين . أحدهما : أن يعلموا أنهم بدّلوا دين الله فيتبعون على هذا التبديل ، فيعتقدون تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله ، اتباعاً لرؤسائهم ، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل ، فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركا ، وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم . فكان من اتبع غيره فى خلاف الدين مع علمه أنه خلاف للدين ، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله ، مشركا مثل هؤلاء .

الثانى : أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتاً ، لكنهم أطاعوهم فى معصية الله ، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصى التى يعتقد أنها معاص ، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب ، كما قد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنما الطاعة فى المعروف » .

ثم ذلك المحرِّم للحلال والمحلل للحرام إن كان مجتهداً قصده اتباع الرسول لكن خفى عليه الحق فى نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع ، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه بل يثيبه على اجتهاده الذى أطاع به ربه . ولكن من علم أن هذا أخطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول . فهذا له نصيب من هذا الشرك الذى ذمه الله ، لا سيما إن اتبع فى ذلك هواه ونصره باليد واللسان ، مع علمه أنه مخالف للرسول . فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه ، ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد فى خلافه ، وإنما تنازعوا فى جواز التقليد للقادر على الاستدلال . وإن كان عاجزاً عن إظهار الحق الذى يعلمه . فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين النصارى ،

فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق لايؤاخذ بما عجز عنه ، وهؤلاء كالنجاشي وغيره . وقد أنزل الله فى هؤلاء الآيات من كتابه كقوله تعالى : (٣ : ١٩٩ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم) وقوله : (٥ : ٨٣ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق — الآية) وقوله (٧: ١٥٩ ومن قوم موسى أمّة يهدون بالحق و به يعدلون) وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل وقد فعل ما يقدر عليه مثله : من الاجتهاد فى التقليد . فهذا لا يؤخذ إن أخطأ كما فى القِبْلة . وأما من قلد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه ، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق ، فهذا من أهل الجاهلية ، و إن كان متبوعه مصيباً لم يكن عمله صالحا ، وإن كان متبوعه مخطئاً كان آثما . كمن قال فى القرآن برأيه ، فإن أصاب فقد أخطأ ، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار . وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذى تقدم فيه الوعيد ، ومن جنس عبدة الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة ، فإن ذلك لما أحب المال منعه من عبادة الله وطاعته وصار عبداً له ، وكذلك هؤلاء فيكون فيهم شرك أصغر ، ولهم من الوعيد بحسب ذلك . وفى الحديث : « إن يسير الرياء شرك » وهذا مبسوط عند النصوص التى فيها إطلاق الكفر والشرك على كثير من الذنوب . انتهى .

وقال أبو جعفر بن جرير فى معنى قول الله تعالى : (وتجعلون له أنداداً) أى وتجعلون لمن خلق ذلك أنداداً وهم الأكفاء من الرجال تطيعونهم فى معاصى الله . انتهى .

قلت : كما هو الواقع من كثير من عباد القبور .

قال: وقوله (٢: ١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله— الآية) .

قال العماد ابن كثير رحمه الله : يذكر الله حال المشركين به فى الدنيا ومآلهم فى الدار الآخرة ، حيث جعلوا لله أنداداً ؛ أى أمثالا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه : لا إله إلا هو ، ولا ضد له ، ولا ندّ له ، ولا شريك معه . وفى الصحيحين عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه قال : « قلت يا رسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نِدًّا وهو خَلَقَكَ » .

الله والذين آمنوا أشدُّ حباً لله) .

وقوله: (والذين آمنوا أشد حباً لله) ولحبهم لله تعالى وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم لا يشركون به شيئاً ، بل يعبدونه وحده ، ويتوكلون عليه ، ويلجأون فى جميع أمورهم إليه ، ثم توعّد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك . قال تعالى: (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوّة لله جميعاً) قال بعضهم : تقدير الكلام ، لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوّة لله جميعاً ، أى إن الحكم له وحده لا شريك له ؛ فإن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه (وأن الله شديد العقاب) كما قال تعالى : (٨٩ : ٢٥ ، ٢٦ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد) يقول : لو علموا ما يعاينون هنالك وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوا عما هم فيه من الضلال ، ثم أخبر عن كفرهم بأعوانهم وتبرّأ المتبوعين من التابعين ، فقال تعالى (إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا) تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم فى الدار الدنيا ، فتقول الملائكة : (٢٨ : ٦٣ تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون) ويقول : (٣٤ : ٤١ قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) والجن أيضاً يتبرأون منهم ويتنصلون من عبادتهم لهم ، كما قال تعالى : (٤٦ : ٥ ، ٦ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) . انتهى كلامه .

روى ابن جرير عن مجاهد فى قوله تعالى : (يحبونهم كحب الله) مباهاة ومضاهاة للحق سبحانه بالأنداد (والذين آمنوا أشد حباً لله) من الكفار لأوثانهم .

قال المصنف رحمه الله تعالى: ومن الأمور المبينة لتفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله: آية البقرة فى الكفار الذين قال الله تعالى فيهم : (وما هم بخارجين من النار) ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله ، فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيما ، فلم يدخلهم فى الإسلام ، فكيف بمن أحب الندّ أكبر من حب الله ؟ فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ؟ اهـ .

ففى الآية بيان أن من أشرك مع الله تعالى غيره فى المحبة فقد جعله شريكا لله فى العبادة واتخذه نداً من دون الله ، وأن ذلك هو الشرك الذى لا يغفره الله تعالى ، كما قال

تعالى فى أولئك : (وما هم بخارجين من النار) وقوله: (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرَوْنَ العذاب) المراد بالظلم هنا الشرك ، كقوله (٧ : ٨٢ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) كما تقدم ، فمن أحب الله وحده ، وأحب فيه وله فهو مخلص ، ومن أحبه وأحب معه غيره ، فهو مشرك كما قال تعالى : (٢ : ٢١ ، ٢٢ يا أيها الناس اعبدو ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ما معناه : فمن رغب إلى غير الله فى قضاء حاجة أو تفريج كربة ، لزم أن يكون محباً له ، ومحبته هى الأصل فى ذلك . انتهى .

فكلمة الإخلاص « لا إله إلا الله » تنفى كل شرك فى أى نوع كان من أنواع العبادة ، وتثبت العبادة بجميع أفرادها لله تعالى ، وقد تقدم بيان أن « الإله » هو المألوه الذى تألهه القلوب بالمحبة وغيرها من أنواع العبادة ، فلا إله إلا الله ، نفت ذلك كله عن غير الله ، وأثبتته لله وحده ، فهذا هو ما دلت عليه كلمة الإخلاص مطابقة ، فلا بد من معرفة معناها واعتقاده ، وقبوله ، والعمل به باطناً وظاهراً ، والله أعلم .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : فتوحيد المحبوب أن لا يتعدد محبو به ، أى مع الله تعالى بعبادته له ، وتوحيد الحب أن لا يبقى فى قلبه بقية حب حتى يبذلها له ، فهذا الحب — و إن سمى عشقا — فهو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرة عينه ، وليس لقلبه صلاح ولا نعيمُ إلا بأن يكون الله ورسوله أحب إليه من كل ما سواهما ، وأن تكون محبته لغير الله تابعة لمحبة الله تعالى ، فلا يحب إلا الله ، ولا يحب إلا لله ، كما فى الحديث الصحيح « ثلاث من كن فيه » الحديث ومحبة رسولى الله صلى الله عليه وسلم هى من محبة الله ، ومحبة المرء إن كانت لله فهى من محبته ، وإن كانت لغير الله فهى منقصة لمحبة الله مضعفة لها ، و يُصَدِّقُ هذه المحبة بأن تكون كراهيته لأبغض الأشياء إلى محبو به — وهو الكفر — بمنزلة كراهيته لإلقائه فى النار أو أشد ، ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة ، فإن الإنسان لا يُقدِّم على محبة نفسه وحياته شيئاً ، فإذا قدم محبة الإيمان بالله على نفسه بحيث لو خُيِّر بين الكفر و بين إلقائه فى النار لاختار أن يلقى فى النار ولا يكفر ، كان أحب إليه من نفسه ، وهذه المحبة هى فوق ما يجده العشاق المحبون من محبة محبو بيهم بل لا نظير لهذه المحبة ، كما لا مثل لمن تعلقت به

وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَن قال : لا إله إلا الله وكفر بما يُعْبَدُ من دون الله ، حَرُم ماله ودمُه .

وهى محبة تقتضى تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد . وتقتضى كمال الذل والخضوع والتعظيم والإجلال والطاعة والانقياد ظاهراً وباطناً . وهذا لا نظير له فى محبة المخلوق، ولو كان المخلوق من كان . ولهذا من أشرك بين الله و بين غيره فى هذه المحبة الخاصة كان مشركا شركا لا يغفره الله كما قال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دونه أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله) والصحيح : أن معنى الآية : أن الذين آمنوا أشد حباً لله من أهل الأنداد لأندادهم . كما تقدم أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلا ، كما لا يماثل محبوبهم غيره . وكل أذى فى محبة غيره فهو نعيم فى محبته . وكل مكروه فى محبة غيره فهو قرة عين فى محبته . ومن ضرب لمحبته الأمثال التى فى محبة المخلوق للمخلوق : كالوصل ، والهجر والتجنى بلا سبب من المحب ، وأمثال ذلك مما يتعالى الله عنه علواً كبيراً ، فهو مخطىء أقبح الخطأ وأفحشه ، وهو حقيق بالإبعاد والمقت . اهـ .

وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد من دون الله حَرُم ماله ودمه وحسابه على الله » قوله : فى الصحيح : أى صحيح مسلم عن أبى مالك الأشجعى عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم — فذكره .

وأبو مالك : اسمه سعد بن طارق . كوفى ثقة . مات فى حدود الأربعين ومائة . وأبوه طارق بن أشيَم — بالمعجمة والمثناة التحتية وزن أحمر — ابن مسعود الأشجعى ، صحابى له أحاديث قال مسلم : لم يرو عنه غير ابنه . وفى مسند الإمام أحمد عن أبى مالك قال : وسمعته يقول للقوم « من وحّد الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل» ورواه الإمام أحمد من طريق يزيد بن هارون . . . خبرنا أبو مالك الأشجعى عن أبيه . ورواه أحمد عن عبد الله بن إدريس قال : سمعت أبا مالك قال : قلت لأبى — الحديث . ورواية الحديث بهذا اللفظ تفسر « لا إله إلا الله » .

قوله : « من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله » اعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم علق عصمة المال والدم فى هذا الحديث بأمرين . الأول : قول « لا إله إلا الله » عن

علم ويقين ، كما هو قيد فى قولها فى غير ما حديث كما تقدم . والثانى : الكفر بما يعبد من دون الله فلم يكتف باللفظ المجرد عن المعنى ، بل لا بد من قولها والعمل بها .

قلت : وفيه معنى (٢ : ٢٥٦ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) .

قال المصنف رحمه الله تعالى : وهذا من أعظم مايبين معنى : لا إله إلا الله ، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصما للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الإقرار بذلك ، بل ولا كونه لايدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله ، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه . فيالها من مسألة ما أجلها وياله من بيان ما أوضحه ، وحجة ما أقطعها للمنازع . انتهى .

قلت : وهذا هو الشرط المصحح لقوله : « لا إله إلا الله » فلا يصح قولها بدون هذه الخمس التى ذكرها المصنف رحمه الله أصلا . قال تعالى (٨ : ٣٩ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) وقال : (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) وأمر بقتالهم حتى يتوبوا من الشرك ويخلصوا أعمالهم لله تعالى ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإن أبوا عن ذلك أو بعضه قوتلوا إجماعا .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة مرفوعاً « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، ويؤمنوا بى ، وبما جئت به ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » وفى الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة . فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » وهذان الحديثان تفسير الآيتين : آية الأنفال ، وآية براءة . وقد أجمع العلماء على أن من قال : « لا إله إلا الله » ولم يعتقد معناها ولم يعمل بمقتضاها ، أنه يقاتل حتى يعمل بما دلت عليه من النفى والإثبات .

قال أبو سليمان الخطابى رحمه الله فى قوله : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا :

وحسابه عَلى الله عز وجل » .

لا إله إلا الله » معلوم أن المراد بهذا : أهل عبادة الأوثان ، دون أهل الكتاب ، لأنهم يقولون : لا إله إلا الله » وثم يقاتلون ولا يرفع عنهم السيف .

وقال القاضي عياض : اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال : « لا إله إلا الله » تعبير عن الإجابة إلى الإيمان ، وأن المراد بذلك : مشركو العرب ، وأهل الأوثان ، فأما غيرهم ممن يقرُّ بالتوحيد ، فلا يكتفَى فى عصمته بقول : « لا إله إلا الله » إذ كان يقولها فى كفره . انتهى ملخصاً .

وقال النووى : لا بد مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم كما جاء فى الرواية « ويؤمنوا بى و بما جئت به » .

وقال شيخ الإسلام ، لما سئل عن قتال التتار فقال : كل طائفة ممتنعة عن التزام شرائع الإسلام الظاهرة من هؤلاء القوم أو غيرهم ، فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه ، و إن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه . كما قاتل أبو بكر والصحابة رضى الله عنهم مانعى الزكاة . وعلى هذا اتفق الفقهاء بعدهم . قال : فأيما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات ، أو الصيام ، أو الحج ، أو عن التزام تحريم الدماء ، أو الأموال ، أو الخمور ، أو الميسر ، أو نكاح ذوات المحارم ، أو عن التزام جهاد الكفار ، أو غير ذلك من التزام واجبات الدين ومحرماته التى لا عذر لأحد فى جحودها أو تركها ، التى يكفر الواحد بجحودها . فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها و إن كانت مقرة بها ، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء . قال : وهؤلاء عند المحققين ليسوا بمنزلة البغاة ، بل هم خارجون عن الإسلام . انتهى .

قوله « وحسابه على الله » أى الله تبارك وتعالى هو الذى يتولى حساب الذى يشهد بلسانه بهذه الشهادة ، فإن كان صادقاً جازاه بجنات النعيم ، وإن كان منافقاً عذبه العذاب الأليم . وأما فى الدنيا فالحكم على الظاهر ، فمن أتى بالتوحيد ولم يأت بما ينافيه ظاهراً والتزم شرائع الإسلام وجب الكفّ عنه .

قلت : وأفاد الحديث أن الإنسان قد يقول : « لا إله إلا الله » ولا يكفر بما يعبد من

وشرحُ هذه الترجمةِ : ما بعدها من الأبواب .

فيه أكبر المسائل وأهمها : وهى تفسير التوحيد ، وتفسير الشهادة : وبيَّنها بأمور واضحةٍ .

منها : آيةُ الإسراء بيَّنَ فيها الردَّ عَلَى المشركين الذين يَدْعون الصالحين ففيها : بيانُ أنَّ هذا هو الشركُ الأكبر .

ومنها : آية براءة ، بَيَّن فيها أنَّ أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دُون الله ، وبَيَّنَ أنهم لم يُؤمروا إلا بأن يَعبدُوا إلهًا واحدًا ، مع أن تفسيرها الذى لا إشكال فيه : طاعةُ العلماء والعبَّادِ فى المعصيةِ ، لادُعاؤهم إياهم .

ومنها : قول الخليل عليه السلام للكفار (إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى) فاستثنى من المعبودين رَبَّهُ ، وذكر سبحانه أنَّ هذه البراءة وهذه

دون الله ، فلم يأت بما يعصم دمه وماله كما دل على ذلك الآيات المحكمات والأحاديث .

قوله « وشرحُ هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب » قلت : وذلك أن ما بعدها من الأبواب فيه ما يبين التوحيد ويوضح معنى « لا إله إلا الله » وفيه أيضاً بيان أشياء كثيرة من الشرك الأصغر والأكبر وما يوصل إلى ذلك من الغلو والبدع ، مما تركه من مضمون : « لا إله إلا الله » فمن عرف ذلك وتحققه تبين له معنى « لا إله إلا الله » وما دلت عليه من الإخلاص ونفى الشرك ، وبضدها تتبين الأشياء ، فبمعرفة الأصغر من الشرك يعرف ما هو أعظم منه من الشرك المنافى للتوحيد ، وأما الأصغر فإنما ينافى كماله ، فمن اجتنبه فهو الموحِّد حقاً ، وبمعرفة وسائل الشرك والنهى عنها لتجتنب تعرف الغايات التى نهى عن الوسائل لأجلها ، فإن اجتناب ذلك كله يستلزم التوحيد والإخلاص بل يقتضيه . وفيه أيضاً من أدلة التوحيد : إثبات الصفات ، وتنزيه الرب تعالى عما لا يليق بجلاله . وكل ما يعرّف بالله من صفات كماله وأدلة ربوبيته يدل على أنه هو المعبود وحده ، وأن العبادة لا تصلح إلا له ، وهذا هو التوحيد ، ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله

الموالاة : هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله ، فقال : (وَجَعَلها كلمةً باقية في عَقِبِهِ لعلَّهم يرجعون) .

ومنها : آية البقرةِ في الكفار الذين قال فيهم : (وَمَا هُمْ بخارجينَ مِنَ النارِ) ذكر أنهم يُحبُّون أندادهم كحبِّ الله . فدلَّ علَى أنهم يحبون الله حباً عظيما ولم يُدْخلهم في الإسلام فكيف بمن أحبَّ النِّدَّ أكبر من حُبِّ الله ؟ فكيف بمن لم يُحِبَّ إلا النِّدَّ وحده ؟ ولم يُحِبَّ الله ؟

ومنها : قوله صلى الله عليه وسلم : « من قال : لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه . وحسابه علَى الله » وهذا من أعظم ما يبين معنى « لا إله إلا الله » فإنه لم يجعل التلفُّظَ بها عاصماً للدَّم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الإقرارَ بذلك ، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل لا يَحْرُمُ ماله ودمُه حتى يُضيفَ إلى ذلك الكفرَ بما يُعْبد من دون الله فإن شكَّ أو توقَّفَ لم يَحْرُمْ ماله ودمُه .

فيالها من مسألةٍ ما أعْظَمها وأجَلَّها ، وياله من بيانٍ ما أوْضَحَهُ ، وحجَّةٍ ما أقطَعَهَا للمنازع .

باب

(من الشركِ : لبس الحلقة والخيط ونحوهما ، لرفع البلاء أو دفعه)

وقول الله تعالى : (٣٩ : ٣٨ قل : أفرأيتم ما تدعون من دون الله ، إن أرادنى الله بضرٍ هل هنَّ كاشفات ضرِّه ، أو أرادنىَ برحمةٍ هل هنَّ مُمسكات رحمته ؟ قُلْ : حسبىَ الله عليه يتوكل المتوكلون) .

قوله : « باب من الشرك : لبس الحلقة والخيط ونحوهما ، لرفع البلاء أو دفعه » .

رفْعه : إزالته بعد نزوله . ودفعه : منعه قبل نزوله .

قال : « وقول الله تعالى (٣٩ : ٣٨ قل : أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنىَ الله بضر هل هن كاشفات ضره ؟ أو أرادنِىَ برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟) » .

قال ابن كثير : أى لا تستطيع شيئاً من الأمر (قل حسبى الله) أى الله كافى من توكل عليه (عليه يتوكل المتوكلون) كما قال هود عليه السلام حين قال قومه : (١١ : ٥٤-٥٦ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بســوء . قال . إنى أُشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها . إن ربى على صراط مستقيم) قال مقاتل فى معنى الآية : فسألهم النبى صلى الله عليه وسلم فسكتوا . أى لأنهم لا يعتقدون ذلك فيها .

وإنما كانوا يدعونها على معنى أنها وسائط وشفعاء عند الله لا على أنهم يكشفون الضر ويجيبون دعاء المضطر ، فهم يعلمون أن ذلك لله وحده . كما قال تعالى : (١٦ : ٥٣ ، ٥٤ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون) .

قلت : فهذه الآية وأمثالها تبطل تعلق القلب بغير الله فى جلب نفع أو دفع ضر ، وأن ذلك شرك بالله وفى الآية بيان أن الله تعالى وَسَم أهل الشرك بدعوة غير الله والرغبة إليه من دون الله . والتوحيد ضد ذلك . وهو أن لا يدعو إلا الله ، ولا يرغب إلا إليه ، ولا يتوكل إلا عليه ، وكذا جميع أنواع العبادة لا يصلح منها شىء لغير الله . كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، وإجماع سلف الأمة وأئمتها ، كما تقدم .

عن عِمران بن حُصَين رضى الله عنه: « أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا فى يده حَلقة من صُفر ، فقال : ما هذه ؟ قال : من الواهنة . فقال : انزِعها ، فإنها ، لا تَزيدك إلا وهَنًا »

قال : « عن عمران بن حصين « أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا فى يده حلقة من صُفر . فقال : ما هذه ؟ قال : من الواهنة . قال : انزعها ، فإنها لا تزيدك إلا وَهَنًا ، فإنك لو مِتّ وهى عليك ما أفلحت أبداً » . رواه أحمد بسند لا بأس به » .

قال الإمام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد حدثنا المبارك عن الحسن قال: أخبرنى عمران ابن حصين « أن النبي صلى الله عليه وسلم أبصر على عَضُد رجل حلقة — قال : أراها من صفر — فقال : ويحك ، ما هذه ؟ قال : من الواهنة . قال : أمَا إنها لا تزيدك إلا وَهَنًا . انبذها عنك فإنك لو مت وهى عليك ما أفلحت أبداً » رواه ابن حبان فى صحيحه ، فقال : « فإنك إن مت وُكِلت إليها » والحاكم وقال : صحيح الإسناد . وأقره الذهبى .

وقال الحاكم : أكثر مشايخنا على أن الحسن سمع من عمران ، وقوله فى الإسناد : « أخبرنى عمران » يدل على ذلك .

وقوله : « عن عمران بن حصين » أى ابن عبيد بن خلف الخزاعى، أبو نجيد — بنون وجيم . مصغر — صحابى ابن صحابى . أسلم عام خيبر ، ومات سنة اثنتين وخمسين بالبصرة .

قوله : « رأى رجلا » وفى رواية الحاكم « دخلتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عضدى حلقة صفر ، فقال : ما هذه ؟ » الحديث فالمبهم فى رواية أحمد هو عمران راوى الحديث .

قوله : « ما هذه ؟ » يحتمل أن الاستفهام للاستفصال عن سبب لبسها ، و يحتمل أن يكون للإنكار . وهو أظهر .

قوله : « من الواهنة » قال أبو السعادات : الواهنة : عرق يأخذ فى المنكب وفى اليد كلها ، فيُرقى منها . وقيل : هو مرض يأخذ فى العضد ، وهى تأخذ الرجال دون النساء ، نهى عنها ، لأنه إنما اتخذها على أنها تعصمه من الألم ، وفيه اعتبار المقاصد .

قوله : « انزعها ، فإنها لا تزيدك إلا وهناً » النزع : هو الجذب بقوة ، أخبر أنها لا تنفعه ،

فإنك لومِت وهى عليك ما أفلحت أبداً »

رواه أحمد بسند لا بأس به .

بل تضره وتزيده ضعفاً . وكذلك كل أمر نهى عنه ، فإنه لا ينفع غالباً وإن نفع بعضه فضره أكبر من نفعه .

قوله « فإنك لو مت وهى عليك ما أفلحت أبداً » لأنه شرك . والفلاح : هو الفوز والظفر والسعادة .

قال المصنف رحمه الله تعالى : فيه شاهد لـكلام الصحابة : أن الشرك الأصغر أكبر الـكبائر ، وأنه لم يعذر بالجهالة ، وفيه الإنـكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك .

قوله « رواه أحمد بسند لا بأس به » هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حسان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسم بن مازن ابن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل بن قاسط بن هُنْب بن أفصى بن دُعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نِزار بن معدّ بن عدنان— الإمام العالم أبو عبد الله الباهلى ، ثم الشيبانى المروزى ، ثم البغدادى ، إمام أهل عصره ، وأعلمهم بالفقه والحديث ، وأشدهم ورعاً ومتابعة للسنة ، وهو الذى يقول فيه بعض أهل السنة : عن الدنيا ما كان أصبره ، وبالماضين ما كان أشبهه ، أتته الدنيا فأباها ، والشُّبه فنفاها ، فخُرِجَ به من مرو وهو حمل ، فوُلد ببغداد سنة أربع وستين ومائة فى شهر ربيع الأول . وطلب أحمد العلم سنة وفاة مالك ، وهى سنة تسع وسبعين ، فسمع من هشيم وجرير بن عبد الحميد وسفيان ابن عيينة ومعتمر بن سليمان ويحيى بن سعيد القطان ومحمد بن إدريس الشافعى ويزيد بن هرون وعبد الرزاق وعبد الرحمن بن مهدى ، وخلق لا يحصون بمكة والبصرة والـكوفة وبغداد واليمن وغيرها من البلاد . روى عنه ابناه : صالح وعبد الله ، والبخارى ومسلم وأبو داود وإبراهيم الحربى وأبو زرعة الرازى وأبو زرعة الدمشقى وعبد الله بن أبى الدنيا وأبو بكر الأثرم وعثمان بن سعيد الدارمى وأبو القاسم البغوى ، وهو آخر من حدث عنه ، وروى عنه من شيوخه عبد الرحمن بن مهدى والأسود بن عامر . ومن أقرانه : على بن المدينى ويحيى ابن معين ، قال البخارى : مرض أحمد ليلتين خلتا من ربيع الأول ومات يوم الجمعة لاثنتى

وله عن عُقبة بن عامر مرفوعاً .

« مَن تعلّق تميمة فلا أتم الله له ، ومَن تعلق ودعة فلا ودَع الله له »

عشرة خلت منه . وقال حنبل : مات يوم الجمعة فى ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين وله سبع وسبعون سنة . وقال ابنه عبد الله والفضل بن زياد : مات فى ثانى عشر ربيع الآخر رحمه الله تعالى .

قوله « وله عن عقبة بن عامر مرفوعاً « من تعلق تميمة فلا أتم الله له . ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له » وفى رواية « من تعلق تميمة فقد أشرك » الحديث الأول رواه الإمام أحمد كما قال المصنف ، ورواه أيضاً أبو يعلى ، والحاكم وقال: صحيح الإسناد ، وأقره الذهبى .

قوله « وفى رواية » أى من حديث آخر رواه أحمد . فقال : حدثنا عبد الصمد ابن عبد الوارث حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا يزيد بن أبى منصور عن دجين الحجرى عن عقبة بن عامر الجهنى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل إليه رهط، فبايع تسعة وأمسك عن واحد ، فقالوا: يارسول الله ، بايعت التسعة وأمسكت عن هذا؟ فقال: إن عليه تميمة ، فأدخل يده فقطعها ، فبايعه وقال: من تعلق تميمة فقد أشرك » ورواه الحاكم بنحوه ، ورواته ثقات .

قوله « عن عقبة بن عامر » صحابى مشهور ، فقيه فاضل. ولِيَ إمارة مصر لمعاوية ثلاث سنين . ومات قريباً من الستين .

قوله « من تعلق تميمة » أى علقها متعلقاً بها قلبه فى طلب خير أو دفع شر .

قال المنذرى : خرزة كانوا يعلقونها لتدفع عنهم الآفات ، وهذا جهل وضلالة ؛ إذ لا مانع ولا دافع غير الله تعالى .

وقال أبو السعادات : التمائم جمع تميمة ، وهى خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم، يتقون بها العين فى زعمهم ، فأبطلها الإسلام .

قوله « فلا أتمَّ الله له » دعاء عليه .

قوله « ومن تعلق وَدَعَةً » بفتح الواو وسكون المهملة . قال فى مسند الفردوس : شىء يخرج من البحر يشبه الصدف يتقون به العين .

قوله «فلا ودع الله له» بتخفيف الدال: أى لا جعله فى دعة وسكون.قال أبو السعادات: وهذا دعاء عليه .

وفى رواية « مَن تعلق تميمة فقد أشرك »

ولابن أبى حاتم عن حذيفة «أنه رأى رجلا فى يده خَيط من الُحمى فقطعه وتلا قوله : (١٢ : ١٠٦ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) .

قوله « وفى رواية : من تعلق تميمة فقد أشرك » قال أبو السعادات : إنما جعلها شركا لأنهم أرادوا دفع المقادير المكتوبة عليهم ، وطلبوا دفع الأذى من غير الله الذى هو دافعه .

قال المصنف رحمه الله : ولابن أبى حاتم عن حذيفة « أنه رأى رجلا فى يده خيط من الحمى فقطعه ، وتلا قوله تعالى (١٢ : ١٠٦ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) » .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن الحسين بن إبراهيم بن أشكاب حدثنا يونس بن محمد حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم الأحول عن عروة قال : « دخل حذيفة على مريض ، فرأى فى عضده سيراً ، فقطعه أو — انتزعه — ثم قال (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)» .

وابن أبى حاتم: هو الإمام أبو محمد عبدالرحمن بن أبى حاتم محمد بن إدريس الرازى التميمى الحنظلى الحافظ، صاحب الجرح والتعديل والتفسير وغيرها . مات سنة سبع وعشرين وثلاثمائة.

وحذيفة : هو ابن اليمان. واسم اليمان . حُسيل بمهملتين مصغراً — ويقال: حِسل — بكسر ثم سكون — العبسى — بالموحدة — حليف الأنصار ، صحابى جليل من السابقين، ويقال له : صاحب السر وأبوه أيضا صحابى . مات حذيفة فى أول خلافة علىّ رضى الله عنه سنة ست وثلاثين .

قوله « رأى رجلا فى يده خيط من الحمى » أى عن الحمى . وكان الجهال يعلقون التمائم والخيوط ونحوها لدفع الحمى وروى وكيع عن حذيفة « أنه دخل على مريض يعوده فلمس عضده ، فإذا فيه خيط ، فقال : ما هذا ؟ قال شىء رُقى لى فيه ، فقطعه وقال : لو مت وهو عليك ما صليت عليك » وفيه : إنكار مثل هذا ، وإن كان يعتقد أنه سبب ، فالأسباب لا يجوز منها إلا ما أباحه الله تعالى ورسوله مع عدم الاعتماد عليها . وأما التمائم والخيوط والحروز والطلاسم ونحو ذلك ، مما تعلقه الجهال فهو شرك يجب إنكاره وإزالته بالقول والفعل ، وإن لم يأذن فيه صاحبه .

قوله « وتلا قوله: (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) » استدل حذيفة رضى الله

فيه مسائل :

الأولى : التغليظ فى لُبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك .

الثانية : أن الصحابى لو مات وهى عليه ما أفلح ، فيه شاهد لكلام الصحابة : أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر .

الثالثة : أنه لم يعذر بالجهالة .

الرابعة : أنها لا تنفع فى العاجلة بل تضر ، لقوله : « لا تزيدك إلا وهَنًا »

الخامسة : الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك .

السادسة : التصريح بأن من تعلّق شيئًا وُكِل إليه .

السابعة : التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك .

الثامنة : تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التى فى الشرك الأكبر على الأصغر ، كما ذكر ابن عباس فى آية البقرة .

التاسعة : أن تعليق الودع عن العين من ذلك .

العاشرة : الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا أُتمّ له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له أى ترك الله له .

عنه بالآية على أن هذا شرك . ففيه صحة الاستدلال على الشرك الأصغر بما أنزله الله فى الشرك الأكبر ؛ لشمول الآية له ، ودخوله فى مسمى الشرك ، وتقدم معنى هذه الآية عن ابن عباس وغيره فى كلام شيخ الإسلام وغيره . والله أعلم .

وفى هذه الآثار عن الصحابة : ما يبين كمال علمهم بالتوحيد وما ينافيه أو ينافى كماله .

باب

(ما جاء فى الرُّقى والتمائم)

فى الصحيح عن أبى بشير الأنصارى رضى الله عنه : أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره . فأرسل رسولا : أن لا يبقين فى رقبة بعير قلادة من وتر أو قِلادة إلا قُطِعت » .

قوله « باب ما جاء فى الرقى والتمائم

أى : من النهى وما ورد عن السلف فى ذلك .

قوله « فى الصحيح عن أبى بشير الأنصارى « أنه كان مع النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره فأرسل رسولا : أن لا يبقين فى رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت» هذا الحديث فى الصحيحين » .

قوله « عن أبى بشير » بفتح أوله وكسر المعجمة ، قيل : اسمه قيس بن عبيد ، قاله ابن سعد ، وقال ابن عبد البر : لا يوقف له على اسم صحيح ، وهو صحابى ، شهد الخندق ، ومات بعد الستين . ويقال : إنه جاوز المائة .

قوله « فى بعض أسفاره » قال الحافظ : لم أقف على تعيينه .

قوله « فأرسل رسولا » هو زيد بن حارثة . روى ذلك الحارث بن أبى أسامة فى مسنده ، قاله الحافظ .

قوله « أن لا يبقين » بالمثناة التحتية والقاف المفتوحتين ، و « قلادة » مرفوع على أنه فاعل . و « الوتر » بفتحتين : واحد أوتار القوس . وكان أهل الجاهلية إذا اخلولق الوتر أبدلوه بغيره ، وقلدوا به الدواب ، اعتقاداً منهم أنه يدفع عن الدابة العين .

قوله « أو قلادة إلا قطعت » معناه : أن الراوى شك هل قال شيخه : قلادة من وتر أو قال: قلادة وأطلق ولم يقيده ؟ ويؤيد الأول ما روى عن مالك « أنه سئل عن القلادة ؟ فقال : ما سمعت بكراهتها إلا فى الوتر » ولأبى داود « ولا قلادة » بغير شك .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنَّ الرُّقَى والتمائمَ والتِّوَلَةَ شِرْكٌ » رواه أحمد وأبو داود .

قال البغوى فى شرح سنة : تأول مالك أمره عليه الصلاة والسلام بقطع القلائد على نه من أجل العين . وذلك أنهم كانوا يشدون تلك الأوتار والتمائم والقلائد و يعلقون عليها العوذ ، يظنون أنها تعصمهم من الآفات . فنهاهم النبى صلى الله عليه وسلم عنها وأعلمهم أنها لا ترد من أمر الله شيئاً .

قال أبو عبيد : كانوا يقلدون الإبل الأوتار ؛ لئلا تصيبها العين ، فأمرهم النبى صلى الله عليه وسلم بإزالتها ؛ إعلاماً لهم بأن الأوتار لا ترد شيئاً . وكذا قال ابن الجوزى وغيره .

قال الحافظ : و يؤيده حديث عقبة بن عامر ، رفعه « من تعلق تميمة فلا أتم الله له » رواه أبو داود . وهى ما علق من القلائد خشية العين ونحو ذلك . انتهى .

قال المصنف وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » رواه أحمد وأبو داود . وفيه قصة .

ولفظ أبى داود : عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت « إن عبد الله رأى فى عنقى خيطاً ، فقال . ما هذا ؟ قلت : خيط رقى لى فيه . قالت : فأخذه ثم قطعه ، ثم قال : أنتم آل عبد الله لأغنياء عن الشرك . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » فقلت : لقد كانت عينى تقذف ، وكنت أختلف إلى فلان اليهودى ، فإذا رقى سكنت . فقال عبد الله : إنما ذاك عمل الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فإذا رقى كف عنها . إنما كان يكفيك أن تقولى كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أذهِب الباس ، رب الناس ، واشف أنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً » ورواه ابن ماجة وابن حبان ، والحاكم وقال : صحيح ، وأقره الذهبى .

قوله « إن الرقى » قال المصنف « هى التى تسمى العزائم ، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك ، فقد رخص فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من العين والحمة » يشير إلى أن الرقى الموصوفة بكونها شركا هى التى يستعان فيها بغير الله ، وأما إذا لم يذكر فيها إلا أسماء الله وصفاته وآياته ، والمأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فهذا حسن : جائز ، أو مستحب .

« التمائم » : شيء يُعلق على الأولاد من العين ، ولكن إذا كان المعلق من القرآن فَرَخَّص فيه بعض السلف . وبعضهم لم يرخص فيه ، ويجعله من المنهى عنه ، منهم ابن مسعود رضي الله عنه .

قوله « فقد رخص فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من العين والحمة » كما تقدم ذلك في باب من حقق التوحيد . وكذا رخص في الرقى من غيرها ، كما في صحيح مسلم عن عوف بن مالك « كنا نرقى في الجاهلية ، فقلنا : يا رسول الله ، كيف ترى في ذلك ؟ فقال: اعرضوا عليّ رقاكم ، لا بأس بالرقى مالم تكن شركا » وفي الباب أحاديث كثيرة .

قال الخطابي : وكان عليه الصلاة والسلام قد رَقى ورُقِي ، وأمر بها وأجازها ، فإذا كانت بالقرآن وبأسماء الله فهي مباحة أو مأمور بها ، وإنما جاءت الكراهة والمنع فيما كان منها بغير لسان العرب ، فإنه ربما كان كفراً أو قولا يدخله شرك .

قلت : من ذلك ما كان على مذاهب الجاهلية التي يتعاطونها ، وأنها تدفع عنهم الآفات ويعتقدون أن ذلك من قبل الجن ومعونتهم . وبنحو هذا ذكر الخطابي .

وقال شيخ الإسلام : كل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقى به ، فضلا عن أن يدعو به ، ولو عرف معناه ؛ لأنه يكره الدعاء بغير العربية ، وإنما يرخص من لا يحسن العربية ، فأما جعل الألفاظ الأعجمية شعاراً فليس من دين الإسلام .

وقال السيوطي : وقد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاث شروط : أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته ، وباللسان العربي وما يعرف معناه ، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى .

قوله : « التمائم » قال المصنف « شيء يعلق على الأولاد من العين » وقال الخلخالي : التمائم : جمع تميمة ، وهي ما يعلق بأعناق الصبيان من خرزات وعظام لدفع العين ، وهذا منهي عنه ، لأنه لا دافع إلا الله ، ولا يطلب دفع المؤذيات إلا بالله وبأسمائه وصفاته .

قال المصنف « لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف ، وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهي عنه . منهم ابن مسعود » .

اعلم أن العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم اختلفوا في جواز تعليق التمائم التي

و « الرقى » : هى التى تسمى العزائم ، وخص منه الدليل ماخلا من الشرك رخص فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من العين والحُمَة .

و «التولة» : شىء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها ، والرجل إلى امرأته .

من القرآن وأسماء الله وصفاته ، فقالت طائفة : يجوز ذلك ، وهو قول عبد الملك بن عمرو ابن العاص وهو ظاهر ماروى عن عائشة ، وبه قال أبو جعفر الباقر وأحمد فى رواية . وحملوا الحديث على التمائم التى فيها شرك .

وقالت طائفة : لا يجوز ذلك ، وبه قال ابن مسعود وابن عباس . وهو ظاهر قول حذيفة وعقبة بن عامر وابن عُكيم ، وبه قال جماعة من التابعين ، منهم أصحاب ابن مسعود وأحمد فى رواية اختارها كثير من أصحابه ، وجزم بها المتأخرون ، واحتجوا بهذا الحديث ومافى معناه .

قلت : هذا هو الصحيح لوجوه ثلاثة تظهر للمتأمل . الأول : عموم النهى ولا مخصص للعموم ، الثانى : سد الذريعة ، فإنه يفضى إلى تعليق ماليس كذلك ، الثالث : أنه إذا علق فلا بد أن يمتهنه المعلق بحمله معه فى حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك .

وتأمل هذه الأحاديث وما كان عليه السلف رضى الله تعالى عنهم يتبين لك بذلك غربة الإسلام ، خصوصاً إن عرفت عظيم ما وقع فيه الكثير بعد القرون المفضلة من تعظيم القبور واتخاذ المساجد عليها والإقبال إليها بالقلب والوجه ، وصرف جل الدعوات والرغبات والرهبات وأنواع العبادات التى هى حق الله تعالى إليها من دونه ، كما قال تعالى (١٠:١٠٦، ١٠٧ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين ، وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) ونظائرها فى القرآن أكثر من أن تحصر .

قوله « التولة » قال المصنف « هى شىء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها ، والرجل إلى امرأته) وبهذا فسرها ابن مسعود راوى الحديث ، كما فى صحيح ابن حبان والحاكم « قالوا : يا أبا عبد الرحمن ، هذه الرقى والتمائم قد عرفناها ، فما التولة ؟ قال : شىء تصنعه النساء يتحببن به إلى أزواجهن » .

وعن عبد الله بن عُكَيم مرفوعاً « من تعلق شيئًا وُكِلَ إليه » رواه أحمد والترمذى .

قال الحافظ : التولة — بكسر المثناة وفتح الواو واللام مخففاً — شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها ، وهو ضرب من السحر والله أعلم .

وكان من الشرك لما يراد به من دفع المضار وجلب المنافع من غير الله تعالى .

قال المصنف « وعن عبد الله بن عكيم مرفوعاً « من تعلق شيئاً وكل إليه » رواه أحمد والترمذى » ورواه أبو داود والحاكم ، وعبد الله بن عكيم : هو بضم المهملة مصغراً . ويكنى أبا معبد ، الجهنى الكوفى . قال البخارى : أدرك زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا يعرف له سماع صحيح . وكذا قال أبو حاتم . قال الخطيب : سكن الكوفة وقدم المدائن فى حياة حذيفة . وكان ثقة . وذكر ابن سعد عن غيره : أنه مات فى ولاية الحجاج .

قوله « من تعلق شيئا وكل إليه » التعلق يكون بالقلب ، ويكون بالفعل ، ويكون بهما « وكل إليه » أى وكله الله إلى ذلك الشيء الذى تعلقه ، فمن تعلق بالله وأنزل حوائجه به ، والتجأ إليه ، وفوض أمره إليه ، كفاه وقرب إليه كل بعيد ويسر له كل عسير ، ومن تعلق بغيره أو سكن إلى رأيه وعقله ودوائه وتمائمه ونحو ذلك ، وكله الله إلى ذلك وخذله ، وهذا معروف بالنصوص والتجارب ، قال تعالى (٦٥ : ٣ ومن يتوكل على الله فهو حسبه) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هشام بن القاسم حدثنا أبو سعيد المؤدب حدثنا من سمع عطاء الخراسانى قال « لقيت وهب بن منبه وهو يطوف بالبيت ، فقلت : حدثنى حديثاً أحفظه عنك فى مقامى هذا وأوجز . قال : نعم ، أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود : يا داود ، أما وعزتى وعظمتى ، لا يعتصم بى عبد من عبادى دون خلقى ، أعرف ذلك من نيته ، فتكيده السموات السبع ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن : إلا جعلت له من بينهن مخرجا . أما وعزتى وعظمتى لا يعتصم عبد من عبادى بمخلوق دونى ، أعرف ذلك من نيته : إلا قطعت أسباب السماء من يده ، وأسخت الأرض من تحت قدميه ، ثم لا أبالى بأىّ أوديتها هلك » .

وروى أحمد عنْ رُويفع قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم «يارُويفع ، لعل الحياة ستطول بك ، فأخبر الناس : أنَّ من عقد لحيته

قال المصنف : وروى الإمام أحمد عن رويفع قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا رويفع ، لعل الحياة ستطول بك ، فأخبر الناس أن من عقد لحيته أو تقلد وتراً أو استنجى برجيع دابة أو عظم ، فإن محمداً برىء منه . »

الحديث رواه الإمام أحمد عن يحيى بن إسحاق والحسن بن موسى الأشيب كلاهما عن ابن لهيعة . وفيه قصة اختصرها المصنف . وهذا لفظ الحسن : حدثنا ابن لهيعة حدثنا عياش بن عباس عن شُيَيم بن بيتان قال : حدثنا رويفع بن ثابت قال : « كان أحدنا فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ جمل أخيه على أن يعطيه النصف مما يغنم وله النصف حتى إن أحدنا ليصير له النصل والريش ، وللآخر القدح . ثم قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث » ثم رواه أحمد عن يحيى بن غيلان حدثنى الفضل حدثنا عياش بن عباس : أن شُيَيم بن بيتان أخبره أنه سمع شيبان القتبانى ـ الحديث . ابن لهيعة فيه مقال .

وفى الإسناد الثانى : شيبان القتبانى . قيل : فيه مجهول . وبقية رجالها ثقات .

قوله « لعل الحياة ستطول بك » فيه عَلَم من أعلام النبوة ، فإن رويفعاً طالت حياته إلى سنة ست وخمسين فمات ببرقة من أعمال مصر أميراً عليها ، وهو من الأنصار . وقيل : مات سنة ثلاث وخمسين .

قوله « فأخبر الناس » دليل على وجوب إخبار الناس ، وليس هذا مختصاً برويفع ، بل كل من كان عنده علم ليس عند غيره مما يحتاج إليه الناس وجب إعلامهم به ، فإن اشترك هو وغيره فى علم ذلك فالتبليغ فرض كفاية . قاله أبو زرعة فى شرح سنن أبى داود .

قوله «أن من عقد لحيته » بكسر اللام لاغير ، والجمع لحى بالكسر والضم . قاله الجوهرى.

قال الخطابى : أما نهيه عن عقد اللحية فيفسر على وجهين . أحدهما : ما كانوا يفعلونه فى الحرب ، كانوا يعقدون لحاهم ، وذلك من زىٍّ بعض الأعاجم يفتلونها ويعقدونها . قال أبو السعادات : تكبراً وعجباً ، ثانيهما : أن معناه معالجة الشعر ليتعقد ويتجعد ، وذلك من فعل أهل التأنيث . قال أبو زرعة بن العراقى : والأولى حمله على عقد اللحية فى الصلاة ، كما دلت عليه رواية محمد بن الربيع . وفيه « أن من عقد لحيته فى الصلاة » .

أو تقلد وَتَرًا . أو استنجى بِرَجيع دابة أو عظم فإن محمداً برىء منه » .

وعن سعيد بن جُبير قال : « مَن قطع تميمة من إنسان كان كعِدل رقبة » . رواه وكيع .

وله عن إبراهيم قال « كانوا يكرهون التمائم كلها ، من القرآن وغير القرآن »

قوله « أو تقلد وترا » أى جعله قلادة فى عنقه أو عنق دابته . وفى رواية محمد بن الربيع « أو تقلد وترا — يريد : تميمة » .

فإذا كان هذا فيمن تقلد وترا . فكيف بمن تعلق بالأموات ، وسألهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات ، الذى جاء النهى عنه وتغليظه فى الآيات المحكمات ؟

قوله « أو استنجى برجيع دابة أو عظم فإن محمداً برىء منه » قال النووى : أى برىء من فعله ، وهذا خلاف الظاهر . والنووى كثيراً ما يتأول الأحاديث بصرفها عن ظاهرها ، فيغفر الله تعالى له .

وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعاً « لا تستنجوا بالروث ولا العظام ، فإنه زادُ إخوانكم من الجن » وعليه لا يجزى الاستنجاء بهما كما هو ظاهر مذهب أحمد ، لما روى ابن خزيمة والدارقطنى عن أبى هريرة « أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى أن يستنجى بعظم أو روث ، وقال : إنهما لا يطهران » .

قوله « وعن سعيد بن جبيْر قال : من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة . رواه وكيع » هذا عند أهل العلم له حكم الرفع ؛ لأن مثل ذلك لا يقال بالرأى ، ويكون هذا مرسلا ؛ لأن سعيداً تابعى . وفيه : فضل قطع التمائم لأنها شرك .

ووكيع : هو ابن الجراح بن وكيع الكوفى ، ثقة إمام ، صاحب تصانيف ، منها الجامع وغيره . روى عنه الإمام أحمد وطبقته . مات سنة سبع وتسعين ومائة .

قوله وله عن إبرهيم قال : « كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن » وإبراهيم هو الإمام إبراهيم بن يزيد النخعى الكوفى ، يكنى أبا عمران ، ثقة من كبار الفقهاء . قال المِزِّى : دخل على عائشة ، ولم يثبت له سماع منها . مات سنة ست وتسعين ، وله خمسون سنة أو نحوها .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الرقى والتمائم .

الثانية : تفسير التولة .

الثالثة : أن هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناء .

الرابعة : أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك .

الخامسة : أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء : هل هى من ذلك أم لا ؟

السادسة : أن تعليق الأوتار على الدواب عن العين من ذلك .

السابعة : الوعيد الشديد على من تعلق وتراً .

الثامنة : فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان .

التاسعة : أن كلام إبراهيم لا يخالف ماتقدم من الاختلاف ، لأن مراده أصحاب عبد الله .

قوله « كانوا يكرهون التمائم » إلى آخره ، مراده بذلك : أصحاب عبد الله بن مسعود ، كعلقمة والأسود وأبي وائل والحارث بن سويد ، وعبيدة السلمانى ومسروق والربيع بن خثيم وسويد بن غفلة وغيرهم ، وهم من سادات التابعين وهذه الصيغة يستعملها إبراهيم فى حكاية أقوالهم ، كما بين ذلك الحفاظ كالعراقى وغيره .

باب

(من تبرَّك بشجر أو حجر ونحوهما)

وقول الله تعالى : (٥٣ : ١٩ ، ٢٠ أفرأيتم اللات والعُزَّى ، ومَناة الثالثة الأخرى)

قوله « باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما » كبقعة وقبر ونحو ذلك ، أى فهو مشرك

قوله « وقول الله تعالى (٥٣ : ١٩ — ٢٣ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى — الآيات وكانت اللات لثقيف ، والعزى لقريش و بنى كنانة ، ومناة لبنى هلال . وقال ابن هشام : كانت لهذيل وخزاعة .

فأما « اللات » فقرأ الجمهور بتخفيف التاء ، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحميد وأبو صالح ورويس عن يعقوب بتشديد التاء .

فعلى الأولى : قال الأعمش : سموا اللات من الإله ، والعزى من العزيز . قال ابن جرير : وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله تعالى ، فقالوا : اللات مؤنثة منه ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً . قال : وكذا العزى من العزيز

وقال ابن كثير : اللات كانت صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف ومن تبعها يفتخرون به على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش . قال ابن هشام : فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة ، فهدمها وحرقها بالنار .

وعلى الثانية . قال ابن عباس « كان رجلا يلت السويق للحاج ، فلما مات عكفوا على قبره » ذكره البخارى . قال ابن عباس « كان يبيع السويق والسمن عند صخرة ويسلؤه عليها ، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظاماً لصاحب السويق » . وعن مجاهد نحوه وقال « فلما مات عبدوه » رواه سعيد بن منصور ؟ وكذا روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس « أنهم عبدوه » و بنحو هذا قال جماعة من أهل العلم .

قلت : لا منافاة بين القولين ؛ فإنهم عبدوا الصخرة والقبر تأليها وتعظيما .

ولمثل هذا بنيت المشاهد والقباب على القبور واتخذت أوثاناً . وفيه : بيان أن أهل الجاهلية كانوا يعبدون الصالحين والأصنام .

وأما « العزى » فقال ابن جرير : كانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة — بين مكة والطائف — كانت قريش يعظمونها . كما قال أبو سفيان يوم أُحد « لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم » وروى النسائي وابن مردويه عن أبي الطفيل قال : « لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة — وكانت بها العزى ، وكانت على ثلاث سمرات — فقطع السمرات ، وهدم البيت الذى كان عليها ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره . فقال : ارجع ، فإنك لم تصنع شيئاً ، فرجع خالد ، فلما أبصرته السدنة أمعنوا فى الجبل وهم يقولون : يا عزى يا عزى ، فأتاها خالد ، فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها فعممها بالسيف فقتلها . ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : تلك العزى » قلت : وكل هذا وما هو أعظم منه يقع فى هذه الأزمنة عند ضرائح الأموات وفى المشاهد .

وأما « مَناة » فكانت بالمشلَّل عند قُديد ، بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها ويهلون منها للحج وأصل اشتقاقها من اسم الله المنان ، وقيل : لكثرة ما يُمنَى — أى يُراق — عندها من الدماء للتبرك بها .

قال البخاري رحمه الله ، فى حديث عروة عن عائشة رضى الله عنها « إنها صنم بين مكة والمدينة » قال ابن هشام « فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا فهدمها عام الفتح » فمعنى الآية كما قال القرطبي : إن فيها حذفاً تقديره : أفرأيتم هذه الآلهة : أنفعت أو ضرت حتى تكون شركاء لله تعالى ؟..

وقوله (ألكم الذكر وله الأنثى) قال ابن كثير : أتجعلون له ولداً وتجعلون ولده أنثى وتختارون لكم الذكور ؟ وقوله (تلك إذاً قِسمة ضِيزَى) أى جور وباطلة . فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التى لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفها ، فتنزهون أنفسكم عن الإناث وتجعلونهن لله تعالى . وقوله (إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) أى من تلقاء أنفسكم (ما أنزل الله بها من سلطان) أى من حجة (إن تتبعون إلا الظن) أى ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم (وما تهوى الأنفس)

عن أبى واقد الليثى قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حُنين،

وإلا حظ أنفسهم فى رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين. قوله (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) قال ابن كثير: واقد أرسل الله تعالى إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاءوهم ولا انقادوا له. اه

ومطابقة الآيات للترجمة من جهة أن عباد هذه الأوثان إنما كانوا يعتقدون حصول البركة منها بتعظيمها ودعائها والاستعانة بها والاعتماد عليها فى حصول مايرجونه منها ويؤملونه ببركتها وشفاعتها وغير ذلك، فالتبرك بقبور الصالحين كاللات، وبالأشجار والأحجار كالعزى ومناة من ضمن فعل أولئك المشركين مع تلك الأوثان، فمن فعل مثل ذلك واعتقد فى قبر أو حجر أو شجر فقد ضاهى عبّاد هذه الأوثان فيما كانوا يفعلونه معها من هذا الشرك، على أن الواقع من هؤلاء المشركين مع معبوديهم أعظم مما وقع من أولئك. فالله المستعان.

قوله «عن أبى واقد الليثى قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حُنين، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سِدْرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أكبر، إنها السنن، قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون) لتركبُن سَنَن من كان قبلكم». رواه الترمذى وصححه.

أبو واقد: اسمه الحارث بن عوف، وفى الباب عن أبى سعيد وأبى هريرة. قاله الترمذى وقد رواه أحمد وأبو يعلى وابن أبى شيبة والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى بنحوه.

قوله «عن أبى واقد» قد تقدم ذكر اسمه فى قول الترمذى. وهو صحابى مشهور. مات سنة ثمان وستين، وله خمس وثمانون سنة.

قوله «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين» وفى حديث عمرو بن عوف وهو عند ابن أبى حاتم وابن مردويه والطبرانى قال «غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح، ونحن ألف ونيف حتى إذا كنا بين حنين والطائف — الحديث».

ونحن حُدَثاء عهد بكفر ، وللمشركين سِدرة يَعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها ذاتُ أنواط ، فمررنا بسدرة ، فقلنا : يارسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، إنها السنن .

قوله « ونحن حدثاء عهد بكفر » أى قريبٌ عهدنا بالكفر ، ففيه : دليل على أن غيرهم ممن تقدم إسلامه من الصحابة لا يجهل هذا ، وأن المنتقل من الباطل الذى اعتاده قلبه لا يأمن أن يكون فى قلبه بقية من تلك العادة . ذكره المصنف رحمه الله .

قوله « وللمشركين سدرة يعكفون عندها » العكوف : هو الإقامة على الشيء فى المكان ومنه قول الخليل عليه السلام (٢١ : ٥٢ ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟) وكان عكوف المشركين عند تلك السدرة تبركا بها وتعظيما لها وفى حديث عمرو « كان يناط بها السلاح فسميت ذات أنواط . وكانت تعبد من دون الله » .

قوله « وينوطون بها أسلحتهم » أى : يعلقونها عليها للبركة .

قلت : ففى هذا بيان أن عبادتهم لها بالتعظيم والعكوف والتبرك ، وبهذه الأمور الثلاثة عبدت الأشجار ونحوها .

قوله « فقلنا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط » قال أبو السعادات : سألوه أن يجعل لهم مثلها فنهاهم عن ذلك . وأنواط جمع نوط ، وهو مصدر سمى به المنوط . ظنوا أن هذا أمر محبوب عند الله وقصدوا التقرب به ، وإلا فهم أجل قدراً من أن يقصدوا مخالفة النبى صلى الله عليه وسلم .

قوله « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر » وفى رواية « سبحان الله ! » والمراد تعظيم الله تعالى وتنزيهه عن هذا الشرك بأى نوع كان ، مما لا يجوز أن يطلب أو يقصد به غير الله . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يستعمل التكبير والتسبيح فى حال التعجب ، تعظيما لله وتنزيها له إذا سمع من أحد ما لا يليق بالله مما فيه هَضْم للربوبية أو الإلٰهية .

قوله « إنها السُّنن » بضم السين : أى الطرق .

قلتم ، والذى نفسى بيده ، كما قالت بنو إسرائيل لموسى: (٧ : ١٣٨ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كما لهم آلهة .

قوله « قلتم ، والذى نفسى بيده ، كما قالت بنو إسرائيل لموسى:(اجعل لنا إلها كما لهم آلهة)» شبه مقالتهم هذه بقول بنى إسرائيل ، بجامع أن كلا طاب أن يجعل له ما يأله ويعبده من دون الله ، وإن اختلف اللفظان . فالمعنى واحد ، فتغيير الاسم لا يغير الحقيقة .

ففيه : الخوف من الشرك ، وأن الإنسان قد يستحسن شيئاً يظن أنه يقربه إلى الله ، وهو أبعد ما يبعده من رحمته ويقربه من سخطه ، ولا يعرف هذا على الحقيقة إلا من عرف ما وقع فى هذه الأزمان من كثير من العلماء والعباد مع أرباب القبور ، من الغلو فيها وصرف جل العبادة لها ، ويحسبون أنهم على شىء ، وهو الذنب الذى لا يغفره الله .

قال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل الشافعى المعروف بابن أبى شامة فى كتاب البدع والحوادث : ومن هذا القسم أيضاً ما قد عَمَّ الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة : تخليق الحيطان والعُمُد ، وإسراج مواضع مخصوصة فى كل بلد ، يحكى لهم حاك أنه رأى فى منامه بها أحداً ممن شهر بالصلاح والولاية ، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم لفرائض الله تعالى وسننه ، ويظنون أنهم متقربون بذلك ، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن فى قلوبهم فيعظمونها ، ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لها ، وهى من عيون وشجر وحائط وحجر . وفى مدينة دمشق من ذلك مواضع متعددة كعوينة الحمى خارج باب توما ، والعمود المخلق داخل باب الصغير ، والشجرة الملعونة خارج باب النصر فى نفس قارعة الطريق ، سهل الله قطعها واجتثاثها من أصلها ، فما أشبهها بذات أنواط الواردة فى الحديث . انتهى .

وذكر ابن القيم رحمه الله نحو ما ذكره أبو شامة ، ثم قال : فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله ولو كانت ما كانت ، ويقولون : إن هذا الحجر وهذه الشجرة ، وهذه العين تقبل النذر ، أى تقبل العبادة من دون الله ، فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له ، وسيأتى ما يتعلق بهذا الباب عند قوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد » .

قال : إنكم قوم تجهلون) لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كان قبلكم» رواه الترمذي وصححه.

وفي هذه الجملة من الفوائد : أن ما يفعله من يعتقد في الأشجار والقبور والأحجار من التبرك بها والعكوف عندها والذبح لها هو الشرك ، ولا يغتر بالعوام والطغام ، ولا يستبعد كون الشرك بالله تعالى يقع في هذه الأمة ، فإذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسناً وطلبوه من النبي صلى الله عليه وسلم حتى بين لهم أن ذلك كقول بني إسرائيل (٧ : ١٣٨ اجعل لنا إلٰها كما لهم آلهة) فكيف لا يخفى على من هو دونهم في العلم والفضل بأضعاف مضاعفة مع غلبة الجهل و بعد العهد بآثار النبوة ؟ ! بل خفي عليهم عظائم الشرك في الإلٰهية والربوبية ، فأكثروا فعله واتخذوه قربة .

وفيها : أن الاعتبار في الأحكام بالمعاني لا بالأسماء ، ولهذا جعل النبي صلى الله عليه وسلم طلبتهم كطلبة بني إسرائيل ، ولم يلتفت إلى كونهم سموها ذات أنواط . فالمشرك مشرك و إن سمى شركه ما سماه . كمن يسمى دعاء الأموات والذبح والنذر لهم ونحو ذلك تعظيما ومحبة ، فإن ذلك هو الشرك ، و إن سماه ما سماه . وقس على ذلك .

قوله : « لتركبن سنن من كان قبلكم » بضم الموحدة وضم السين أي طرقهم ومناهجهم. وقد يجوز فتح السين على الإفراد أي طريقهم . وهذا خبر صحيح . والواقع من كثير من هذه الأمة يشهد له .

وفيه : عَلم من أعلام النبوة من حيث إنه وقع كما أخبر به صلى الله عليه وسلم .

وفي الحديث : النهي عن التشبه بأهل الجاهلية وأهل الكتاب فيما كانوا يفعلونه ، إلا ما دلّ الدليل على أنه من شريعة محمد صلى الله عليه وسلم .

قال المصنف رحمه الله : « وفيه : التنبيه على مسائل القبر ، أما مَن رَبُّك ؟ فواضح . وأما : « من نبيك ؟ » فمن إخباره بأنباء الغيب . وأما : « ما دينك ؟ » فمن قولهم (اجعل لنا إلٰها) الخ . وفيه : أن الشرك لا بد أن يقع في هذه الأمة خلافاً لمن ادعى خلاف ذلك ، وفيه : الغضب عند التعليم ، وأن ما ذم الله به اليهود والنصارى فإنه ما قاله لنا لنحذره . قاله المصنف رحمه الله .

وأما ما ادعاه بعض المتأخرين من أنه يجوز التبرك بآثار الصالحين فممنوع من وجوه : منها : أن السابقين الأولين من الصحابة ومَن بعدهم لم يكونوا يفعلون ذلك مع غير

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية النجم .

الثانية : معرفة صورة الأمر الذى طلبوا .

الثالثة : كونهم لم يفعلوا .

الرابعة : كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك ، لظنهم أنه يحبه .

الخامسة : أنهم إذا جهلوا هذا ، فغيرهم أولى بالجهل .

السادسة : أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم .

السابعة : أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعذرهم الأمر ، بل ردعليهم بقولهم : « الله أكبر إنها السنن ، لتتبعن سَنَن مَن كان قبلكم » فغلَّظَ الأمر بهذه الثلاث .

الثامنة : الأمر الكبير ، وهو المقصود : أنه أخبر أن طَلِبتهم كطَلِبة بنى إسرائيل لما قالوا لموسى (اجعل لنا إلهاً)

التاسعة : أن نفْيَ هذا من معنى « لا إله إلا الله » مع دِقته وخفائه على أولئك .

العاشرة : أنه حلف على الفُتيا ، وهو لا يحلف إلا لمصلحة .

الحادية عشرة : أن الشرك فيه أكبر وأصغر ، لأنهم لم يرتدُّوا بهذا .

الثانية عشرة : قولهم « ونحن حُدَثاء عهد بكفر » فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك.

النبي صلى الله عليه وسلم ، لا فى حياته ولا بعد موته . ولو كان خيراً لسبقونا إليه ، وأفضل الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم . وقد شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن شهد له بالجنة ، وما فعله أحد من الصحابه والتابعين مع أحد من هؤلاء السادة ، ولا فعله التابعون مع ساداتهم فى العلم والدين وهم الأسوة ، فلا يجوز أن يقاس على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدٌ من الأمة ، وللنبى صلى الله عليه وسلم فى حال الحياة خصائص كثيرة لا يصلح أن يشاركه فيها غيره .

ومنها : أن فى المنع عن ذلك سداً لذريعة الشرك كما لا يخفى .

الثالثة عشرة : التكبير عند التعجب ، خلافاً لمن كرهه .

الرابعة عشرة : سد الذرائع :

الخامسة عشرة : النهى عن التشبه بأهل الجاهلية .

السادسة عشرة : الغضب عند التعليم .

السابعة عشرة : القاعدة الكلية لقولها « إنها السنن » ،

الثامنة عشرة : أن هذا عَلَم من أعلام النبوّة ، لكونه وقع كما أخبر .

التاسعة عشرة : أن ماذمّ الله به اليهود والنصارى فى القرآن أنه لنا .

العشرون : أنه متقرّرٌ عندهم أن العبادات مبناها على الأمر ، فصار فيه : التنبيه على مسائل القبر . أما « مَن ربك ؟ » فواضح ، وأما « مَن نبيك ؟» فمن إخباره بأنباء الغيب ، وأما « ما دينك ؟ » فمن قولهم « اجعل لنا » إلى آخره .

الحادية والعشرون : أن سُنة أهل الكتاب مذمومة كسنَّة المشركين .

الثانية والعشرون : أن المنتقل من الباطل الذى اعتاده قلبــه لا يؤمن أن يكون فى قلبه بقية من تلك العادة ، لقولهم « ونحن حدثاء عهد بكفر » .

باب

(ما جاء فى الذبح لغير الله)

وقول الله تعالى (٦ : ١٦٢ ، ١٦٣ قل : إن صلاتى و نُسكى ومَحيایَ ومماتِى لله ربِّ العالَمِين ، لاشريك له ، وبذلك أمرتُ ، وأنا أولُ المسلمين) .

قوله : « باب ما جاء فى الذبح لغير الله » أى : من الوعيد ، وأنه شرك بالله .

قوله : وقول الله تعالى : (٦ : ١٦٢ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله ربِّ العالمين لا شريك له) الآية .

قال ابن كثير : يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون له : بأنه أخلص لله صلاته وذبيحته ؛ لأن المشركين يعبدون الأصنام ويذبحون لها ، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه ، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى.

قال مجاهد : النسك الذبح فى الحج والعمرة . وقال الثورى عن السدى عن سعيد بن جبير : (ونسكى) : ذبحى . وكذا قال الضحاك . وقال غيره (ومحياى ومماتى) أى : وما آتيه فى حياتى وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح (لله رب العالمين) خالصاً لوجهه (لا شريك له و بذلك) الإخلاص (أمرت وأنا أول المسلمين) أى من هذه الأمة لأن إسلام كل نبى متقدم .

قال ابن كثير : وهو كما قال ، فإن جميع الأنبياء قبله كانت دعوتهم إلى الإسلام ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له . كما قال تعالى (٢١ : ٢٥ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وذكر آيات فى هذا المعنى .

ووجه مطابقة الآية للترجمة : أن الله تعالى تعبّد عباده بأن يتقربوا إليه بالنسك ، كما تعبّدهم بالصلاة وغيرها من أنواع العبادات ، فإن الله تعالى أمرهم أن يخلصوا جميع أنواع العبادة له دون كل ما سواه ، فإذا تقربوا إلى غير الله بالذبح أو غيره من أنواع العبادة فقد جعلوا لله شريكا فى عبادته ، وهو ظاهر فى قوله (لا شريك له) نفى أن يكون لله تعالى شريك فى هذه العبادات ، وهو بحمد الله واضح .

وقوله : (فَصلِّ لربِّك وانحر)

عن على رضى الله عنه قال : « حدثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع

قوله : « فصلّ لربك وانحر » قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين ، وهما الصلاة والنسك ، الدالتان على القرب والتواضع والافتقار وحسن الظن ، وقوة اليقين ، وطمأنينة القلب إلى الله وإلى عِدَته ، عكسَ حال أهل الكِبْر والنُّفرة ، وأهل الغِنى عن الله الذين لا حاجة لهم فى صلاتهم إلى ربهم ، والذين لا ينحرون له خوفاً من الفقر ، ولهذا جمع بينهما فى قوله : (قل : إن صلاتى ونسكى — الآية) والنسُك : الذبيحة لله تعالى ابتغاء وجهه . فإنهما أجلّ ما يُتقرّب به إلى الله ، فإنه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب ؛ لأن فعل ذلك سبب للقيام بشكر ما أعطاه الله تعالى من الكوثر . وأجلُّ العبادات البدنية : الصلاة ، وأجل العبادات المالية : النحرُ وما يجتمع للعبد فى الصلاة لا يجتمع له فى غيرها ، كما عرفه أربابُ القلوب الحية ، وما يجتمع له فى النحر إذا قارنه الإيمان والإخلاص ، من قوة اليقين وحسن الظن : أمر عجيب ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم كثير الصلاة ، كثير النحر . اهـ

قلت : وقد تضمنت الصلاة من أنواع العبادات كثيراً ، فمن ذلك : الدعاء والتكبير ، والتسبيح والقراءة ، والتسميع والثناء ، والقيام والركوع ، والسجود والاعتدال ، وإقامة الوجه لله تعالى ، والإقبال عليه بالقلب ، وغير ذلك مما هو مشروع فى الصلاة ، وكل هذه الأمور من أنواع العبادات التى لا يجوز أن يُصرف منها شىء لغير الله ، وكذلك النسك يتضمن أموراً من العبادة كما تقدم فى كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى .

قوله « وعن على بن أبى طالب قال : « حدثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات : لعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من آوى مُحدِثاً ، ولعن الله من غيّر منار الأرض » رواه مسلم من طرق ، وفيه قصة .

ورواه الإمام أحمد كذلك عن أبى الطفيل قال « قلنا لعلى: أخبرنا بشىء أسرّه إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ماأسرّ إلىّ شيئاً كتمه الناس، ولكن سمعته يقول : لعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من آوى محدثاً ، ولعن الله من لعن والديه ، ولعن الله من غيّر تخوم الأرض — يعنى : المنار » .

كلمات : لعن الله مَن ذبح لغير الله .

وعلى بن أبى طالب : هو الإمام أمير المؤمنين أبو الحسن الهاشمى ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وزوج ابنته فاطمة الزهراء . وكان من سبق السابقين الأولين ، ومن أهل بدر وبيعة الرضوان ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، ورابع الخلفاء الراشدين، ومناقبه مشهورة رضى الله عنه . قتله ابن ملجم الخارجى فى رمضان سنة أربعين .

قوله « لعن الله » اللعن: البعدُ عن مظانّ الرحمة وموطنها . قيل : واللعين الملعون : من حَقت عليه اللعنة ، أو دُعِىَ عليه بها .

قال أبو السعادات : أصل اللعن : الطرد والإبعاد من الله ، ومن الخلق: السب والدعاء .

قال شيخ الإسلام رحمه الله ما معناه : إن الله تعالى يلعن من استحق اللعنة بالقول كما يصلّى سبحانه على من استحق الصلاة من عباده . قال تعالى(٣٣:٤٣:٤٤ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليُخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما . تحيّتهم يوم يلقَوْنه سلام) وقال (٣٣ : ٦٤ إن الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيرا) وقال (٣٣:٦١ ملعونين أينما ثُقِفوا أُخِذُوا وقُتّلوا تقتيلا) والقرآن كلامه تعالى أوحاه إلى جبريل عليه السلام وبلّغه رسولَه محمداً صلى الله عليه وسلم ، وجبريل سمعه منه كما سيأتى فى الصلاة إن شاء الله تعالى ، فالصلاة ثناء الله تعالى كما تقدم. فالله تعالى هو المصلى وهو المثيب ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، وعليه سلف الأمة . قال الإمام أحمد رحمه الله : « لم يزل الله متكلما إذا شاء »

قوله « من ذبح لغير الله » قال شيخ الإسلام رحمه الله فى قوله تعالى (٢:١٧٣ وما أُهِلّ به لغير الله) ظاهره : أنه ماذبح لغير الله ، مثل أن يقول: هذا ذبيحة لكذا . وإذا كان هذا هو المقصود فسواء لفظ أو لم يلفظ ، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه للحم ، وقال فيه : باسم المسيح أو نحوه . كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم ، وقلنا عليه : بسم الله . فإذا حرم ماقيل فيه باسم المسيح أو الزهرة ، فلأن يحرم ماقيل فيه لأجل المسيح أو الزهرة أوقصد به ذلك أولى ؛ فإن العبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله. وعلى هذا : فلو ذبح لغير الله متقرباً إليه يحرم . وإن قال فيه : باسم الله . كما قد يفعله طائفة من منافقى هذه الأمة الذين يتقربون إلى الكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك. وإن كان

لعن الله مَن لعن والديه ، لعن الله من آوى مُحْدِثاً ، لعن الله مَن غيّر مَنار الأرض » رواه مسلم .

هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال لكن يجتمع فى الذبيحة مانعان ، الأول : أنه مما أهلَّ به لغير الله . والثانى : أنها ذبيحة مرتد . ومن هذا الباب : ما يفعله الجاهلون بمكة من الذبح للجن ، ولهذا روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن ذبائح الجن اه .

قال الزمخشرى : كانوا إذا اشتروا داراً أو بنوها أو استخرجوا عيناً ذبحوا ذبيحة خوفاً أن تصيبهم الجن ، فأضيفت إليهم الذبائح لذلك .

وذكر إبراهيم المروزى : أن ما ذبح عند استقبال السلطان تقرباً إليه ، أفتى أهل بُخارَى بتحريمه ؛ لأنه مما أهل به لغير الله .

قوله « لعن الله من لعن والديه » يعنى أباه وأمه و إن علَيا . وفى الصحيح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من الكبائر شَتْمُ الرجل والديه ، قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم يَسُبُّ أبا الرجل فيسب أباه ، وَيسبُّ أمّه فيسب أمّه » .

قوله « لعن الله من آوى محدثا » أى : منعه من أن يؤخذ منه الحق الذى وجب عليه . و « آوى » بفتح الهمزة ممدودة : أى ضمه إليه وحماه .

قال أبو السعادات : أويت إلى المنزل ، وأويت غيرى ، وآويته . وأنكر بعضهم المقصور المتعدى . وأما «محدثا» فقال أبو السعادات : يروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعول ، فمعنى الكسر : مَنْ نصر جانياً وآواه وأجاره من خصمه ، وحال بينه و بين أن يُقْتصّ منه . وبالفتح : هو الأمر المبتدع نفسه ، ويكون معنى الإيواء فيه الرضى به والصبر عليه ؛ فإنه إذا رضى بالبدعة وأقر فاعلها ولم ينكر عليه فقد آواه .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : هذه الكبيرة تختلف مراتبها باختلاف مراتب الحَدث فى نفسه ، فكلما كان الحدث فى نفسه أكبر كانت الكبيرة أعظم .

قوله « لعن الله من غيَّر منار الأرض» بفتح الميم؛ علامات حدودها . قال أبو السعادات فى النهاية — فى مادة «تخم» — ملعون من غيَّر تخوم الأرض : أى معالمها وحدودها ، واحدها تخم . قيل : أراد حدود الحرم خاصة ، وقيل : هو عام فى جميع الأرض ، وأراد : المعالم التى

وعن طارق بن شهاب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : دخل الجنةَ رَجلٌ فى ذُباب . ودخل النارَ رجل فى ذباب .

يهتدى بها فى الطريق . وقيل : هو أن يدخل الرجل فى ملك غيره فيقتطعه ظلما . قال : ويروى « تخوم » بفتح التاء على الإفراد وجمعه تُخُم بضم التاء والخاء . اه

وتغييرها : أن يقدمها أو يؤخرها ، فيكون هذا من ظلم الأرض الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم « من ظلم شبراً من الأرض طُوّقه يوم القيامة من سبع أرضين » ففيه : جوازه لعن أهل الظلم من غير تعيين .

وأما لعن الفاسق المعين : ففيه قولان ، أحدهما : أنه جائز . اختاره ابن الجوزى وغيره ، والثانى : لا يجوز ، اختاره أبو بكر عبد العزيز وشيخ الإسلام .

قوله « وعن طارق بن شهاب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « دخل الجنة رجل فى ذباب ، ودخل النار رجل فى ذباب . قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرِّب له شيئا . قالوا لأحدهما : قرِّب . قال : ليس عندى شىء أقرب ، قالوا : قرب ولو ذبابا ، فقرب ذباباً . فخلوا سبيله ، فدخل النار . وقالوا للآخر : قرب ، قال : ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه ، فدخل الجنة » رواه أحمد .

قال ابن القيم رحمه الله : قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن سليمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب يرفعه قل « دخل رجل الجنة فى ذباب — الحديث » .

وطارق بن شهاب : هو البَجَلى الأحمس ، أبو عبد الله . رأى النبى صلى الله عليه وسلم وهو رجل . قال البغوى : نزل الكوفة . وقال أبو داود : رأى النبى صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه شيئا ، قال الحافظ : إذا ثبت أنه لقى النبى صلى الله عليه وسلم فهو صحابى . وإذا ثبت أنه لم يسمع منه فروايته عنه مرسل صحابى ، وهو مقبول على الراجح . وكانت وفاته — على ما جزم به ابن حبان — سنة ثلاث وثمانين .

قوله « دخل الجنة رجل فى ذباب » أى من أجله ؛

قالوا : وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال : مر رجلان على قوم لهم صنم . لايَجوزُه أحد حتى يُقرِّب له شيئاً ، فقالوا لأحدهما : قرِّب . قال : ليس عِندى شىء أقرِّب. قالوا له : قرِّب ولوذباباً ، فقرَّب ذباباً ، فخلُّوا سبيله ، فدخل النار . وقالوا للآخَر : قرِّب ، فقال : ما كنت لِأُقرِّب لأحد شيئًا دون الله عز وجل . فضربوا عنقه فدخل الجنة » رواه أحمد .

قوله « قالوا : وكيف ذلك يارسول الله ؟ » كأنهم تقالّوا ذلك ، وتعجبوا منه . فبين لهم النبى صلى الله عليه وسلم ما صَيَّر هذا الأمر الحقير عندهم عظيما يستحق هذا عليه الجنة ، ويستوجب الآخر عليه النار .

قوله « فقال : مر رجلان على قوم لهم صنم » الصنم : ما كان منحوتاً على صورة ، ويطلق عليه الوثن كما مر .

قوله « لا يجاوزه » أى : لا يمر به ولا يتعداه أحد حتى يقرب إليه شيئاً وإن قلّ .

قوله « قالوا له قرب ولو ذباباً فقرب ذباباً فخلوا سبيله ، فدخل النار » فى هذا : بيان عظمة الشرك ، ولو فى شىء قليل ، وأنه يوجب النار . كما قال تعالى (٥ : ٧٢ : إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) .

وفى هذا الحديث : التحذير من الوقوع فى الشرك ، وأن الإنسان قد يقع فيه وهو لا يدرى أنه من الشرك الذى يوجب النار .

وفيه : أنه دخل النار بسبب لم يقصده ابتداء ، وإنما فعله تخلصاً من شر أهل الصنم ،

وفيه : أن ذلك الرجل كان مسلماً قبل ذلك ، وإلا فلو لم يكن مسلماً لم يقل : دخل النار فى ذباب .

وفيه : أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان ، ذكره المصنف بمعناه

قوله « وقالوا للآخر : قرب . قال : ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل » ففيه : بيان فضيلة التوحيد والإخلاص .

قال المصنف رحمه الله : « وفيه معرفة قدر الشرك فى قلوب المؤمنين كيف صبر على القتل ولم يوافقهم على طلبتهم مع كونهم لم يطلبوا منه إلا العمل الظاهر » .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير (إن صلاتى ونسكى) .

الثانية : تفسير (فصلِّ لربك وانحر) .

الثالثة : البداءة بلعنة من ذبح لغير الله .

الرابعة : لعن من لعن والديه ، ومنه أن تلعن والدَى الرجل فيلعن والديك .

الخامسة : لعن من آوى محدثًا ، وهو الرجل يُحدث شيئًا يجب فيه حق الله ، فيلتجىء إلى من يجيره من ذلك .

السادسة : لعن من غيَّر منار الأرض ، وهى المراسيم التى تفرِّق بين حقك وحق جارك ، فتغيرها بتقديم أو تأخير .

السابعة : الفرق بين لعن المعيَّن ولعن أهل المعاصى على سبيل العموم .

الثامنة : هذه القصة العظيمة ، وهى قصة الذباب .

التاسعة : كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذى لم يقصده ، بل فعله تخلصًا من شرهم .

العاشرة : معرفة قدر الشرك فى قلوب المؤمنين ، كيف صبر ذلك على القتل ولم يوافقهم على طَلِبتهم ، مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر ؟

الحادية عشرة : أن الذى دخل النار مسلم، لأنه لو كان كافراً لم يقل « دخل النار فى ذباب » .

الثانية عشرة : فيه شاهد للحديث الصحيح « الجنة أقرب إلى أحدكم من شِراك نعله ، والنار مثل ذلك » .

الثالثة عشرة : معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم ، حتى عند عبدة الأوثان .

باب

(لا يُذبح بمكان يُذبح فيه لغير الله)

وقول الله تعالى (٩ : ١٠٨ لا تقم فيه أبداً ، لَمسجد أُسِّسَ على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا، والله يحب المطهرين)

قوله « باب : لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله تعالى »

« لا » نافية ، ويحتمل أنها للنهي وهو أظهر . قوله « وقول الله تعالى (٩ :١٠٨ لا تقم فيه أبداً) الآية » قال المفسرون : إن الله تعالى نهى رسوله عن الصلاة في مسجد الضرار ، والأمة تبع له في ذلك ، ثم إنه تعالى حَثَّه على الصلاة في مسجد قُبَاء الذي أُسِّسَ من أول يوم بني على التقوى ، وهي طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وجمعاً لكلمة المؤمنين ، ومعقلاً ومنزلا للإسلام وأهله ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « صلاة في مسجد قباء كعمرة » وفي الصحيح أن رسول الله عليه وسلم كان يزور قباء راكبا وماشيا وقد صرح أن المسجد المذكور في الآية هو مسجد قباء جماعة من السلف ، منهم ابن عباس ، وعروة ، وعطية ، والشعبي ، والحسن وغيرهم .

قلت : ويؤيده قوله في الآية (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) وقيل : هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لحديث أبي سعيد قال « تمارى رجلان في المسجد الذي أُسِّس على التقوى من أول يوم . فقال رجل : هو مسجد قُبَاء ، وقال آخر : هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو مسجدي هذا » رواه مسلم ، وهو قول عمر ، وابنه ، وزيد بن ثابت ، وغيرهم .

قال ابن كثير : وهذا صحيح ، ولا منافاة بين الآية والحديث ؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الأولى وهذا بخلاف مسجد الضرار الذي أسس على معصية الله كما قال تعالى (٩ : ١٠٧ والذين اتخذوا مسجدا ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل. ولَيَحْلِفُنَّ : إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون) فلهذه الأمور نهى الله نبيه عن القيام فيه للصلاة . وكان الذين بنوه جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قبل خروجه إلى

عن ثابت بن الضحاك رضى الله عنه قال « نذر رجل أن ينحر إبلا ببُوانة ، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

غزوة تبوك فسألوه أن يصلى فيه ، وأنهم إنما بنوه للضعفاء وأهل العلة فى الليلة الثانية . فقال « إنا على سفَر ، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله » فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعضه نزل الوحى بخبر المسجد ، فبعث إليه فهدمه قبل قدومه إلى المدينة .

وجه مناسبة الآية للترجمة : أن المواضع المعدة للذبح لغير الله يجب اجتناب الذبح فيها لله كما أن هذا المسجد لما أعد لمعصية الله صار محل غضب لأجل ذلك ، فلا تجوز الصلاة فيه لله وهذا قياس صحيح ، يؤيده حديث ثابت بن الضحاك الآتى .

قوله (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) روى الإمام أحمد وابن خزيمة وغيرهما عن عويم ابن ساعدة الأنصارى « أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاهم فى مسجد قباء . فقال : إن الله قد أحسن عليكم الثناء بالطهور فى قصة مسجدكم ، فما هذا الطهور الذى تطهرون به ؟ فقالوا : والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط ، فغسلنا كما غسلوا » وفى رواية عن جابر وأنس « هو ذاك فعليكموه » رواه ابن ماجة وابن أبى حاتم ، والدارقطنى والحاكم .

قوله (والله يحب المطهرين) قال أبو العالية : إن الطهور بالماء لحسن ، ولكنهم المتطهرون من الذنوب . وفيه : إثبات صفة المحبة ، خلافاً للأشاعرة ونحوهم .

قوله « عن ثابت بن الضحاك قال « نذر رجل أن ينحر إبلاً ببُوانة ، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل كان فيها وَثَن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ قالوا : لا . قال : فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ قالوا : لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوْفِ بنذرِك ، فإنه لاوفاء لنذرٍ فى معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم » رواه أبو دواد ، و إسناده على شرطهما .

قوله « عن ثابت بن الضحاك » أى : ابن خليفة الأشهَلى ، صحابى مشهور . روى عنه أبو قِلابة وغيره ، مات سنة أربع وستين .

هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد ؟ قالوا : لا . قال : فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ قالوا : لا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَوْفِ بنذرك ،

قوله « ببوانة » بضم الباء وقيل : بفتحها . قال البغوى : موضع فى أسفل مكة دون يَلَمْلَم . قال أبو السعادات : هضبة من وراء يَنْبُع .

قوله « فهل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ » فيه : المنع من الوفاء بالنذر إذا كان فى المكان وثن ، ولو بعد زواله . قاله المصنف رحمه الله .

قوله « فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ » قال شيخ الإسلام رحمه الله : العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائد : إما بعود السنة أو بعود الأسبوع أو الشهر أو نحو ذلك والمراد به هنا : الاجتماع المعتاد من اجتماع أهل الجاهلية . فالعيد يجمع أموراً منها : يوم عائد ، كيوم الفطر ويوم الجمعة ، ومنها اجتماع فيه ، ومنها : أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات . وقد يختص العيد بمكان بعينه ، وقد يكون مطلقاً . وكل من هذه الأمور قد يسمى عيداً . فالزمان كقول النبى صلى الله عليه وسلم فى يوم الجمعة « إن هذا يوم قد جعله الله للمسلمين عيداً » والاجتماع والأعمال كقول ابن عباس « شهدت العيد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم » أو المكان كقول النبى صلى الله عليه وسلم « لا تتخذوا قبرى عيداً » وقد يكون لفظ العيد اسماً لمجموع اليوم والعمل فيه وهو الغالب : كقول النبى صلى الله عليه وسلم « دعهما يا أبا بكر ؛ فإن لكل قوم عيداً » انتهى .

قال المصنف « وفيه : استفصال المفتى ، والمنع من الوفاء بالنذر بمكان عيد الجاهلية ، ولو بعد زواله » .

قلت : وفيه سد الذريعة ، وترك مشابهة المشركين ، والمنع مما هو وسيلة إلى ذلك .

قوله « أوف بنذرك » هذا يدل على أن الذبح لله فى المكان الذى يذبح فيه المشركون لغير الله : أى فى محل أعيادهم ، معصية ، لأن قوله : «أوف بنذرك» تعقيب للوصف بالحكم بالفاء وذلك يدل على أن الوصف سبب الحكم ، فيكون سبب الأمر بالوفاء خلوه عن هذين الوصفين . فلما قالوا « لا » قال « أوف بنذرك » وهذا يقتضى أن كون البقعة مكانا

فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم » رواه أبو داود . وإسناده على شرطهما .

لعيدهم ، أو بها وثن من أوثانهم : مانع من الذبح بها ولو نذره . قاله شيخ الإسلام .

وقوله « فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله » دليل على أن هذا نذر معصية لو قد وجد في المكان بعض الموانع . وما كان من نذر المعصية فلا يجوز الوفاء به بإجماع العلماء . واختلفوا : هل تجب فيه كفارة يمين ؟ على قولين : روايتان عن أحمد أحدهما : تجب وهو المذهب . وروى عن ابن مسعود وابن عباس . وبه قال أبو حنيفة وأصحابه ؛ لحديث عائشة رضي الله عنها مرفوعا « لا نذر في معصية ، وكفارته كفارة يمين » رواه أحمد وأهل السنن واحتج به أحمد و إسحاق ، والثاني : لا كفارة عليه . وروى ذلك عن مسروق والشعبي والشافعي ؛ لحديث الباب ، ولم يذكر فيه كفارة . وجوابه : أنه ذكر الكفارة في الحديث المتقدم والمطلق يحمل على المقيد .

قوله : « ولا فيما لا يملك ابن آدم » قال في شرح المصابيح : يعني إذا أضاف النذر إلى معين لا يملكه بأن قال : إن شفى الله مريضي فلله على أن أعتق عبد فلان ونحو ذلك . فأما إذا التزم في الذمة شيئاً ، بأن قال : إن شفى مريضي فلله على أن أعتق رقبة ، وهو في تلك الحال لا يملكها ولا قيمتها ، فإذا شفى مريضه ثبت ذلك في ذمته .

قوله : « رواه أبو داود و إسناده على شرطهما » أي : البخاري ومسلم .

وأبو داود : اسمه سليمان بن الأشعث بن إسحق بن بشير بن شداد الأزدي السجستاني صاحب الإمام أحمد ، ومصنف السنن والمراسيل وغيرهما ، ثقة إمام حافظ من كبار العلماء مات سنة خمس وسبعين ومائتين . رحمه الله تعالى .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير قوله (لا تقم فيه أبداً) .

الثانية : أن المعصية قد تؤثر فى الأرض . وكذلك الطاعة .

الثالثة : رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة ، ليزول الإشكال .

الرابعة : استفصال المفتى إذا احتاج إلى ذلك .

الخامسة : أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع .

السادسة : المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ، ولو بعد زواله

السابعة : المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله .

الثامنة : أنه لا يجوز الوفاء بما نذر فى تلك البقعة ؛ لأنه نذر معصية

التاسعة : الحذر من مشابهة المشركين فى أعيادهم ولو لم يقصده .

العاشرة : لا نذر فى معصية

الحادية عشرة : لا نذر لابن آدم فيما لا يملك .

باب

(من الشرك النذر لغير الله)

وقول لله تعالى : (٧٦ : ٧ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً) وقوله : (٢ : ٢٧ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه) .

قوله « باب : من الشرك النذر لغير الله تعالى »

أي : لكونه عبادة يجب الوفاء به إذا نذره لله ، فيكون النذر لغير الله تعالى شركا في العبادة .

وقوله تعالى (٧٦ : ٧ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شَرُّهُ مُستطيراً) فالآية دلت على وجوب الوفاء بالنذر ، ومدح من فعل ذلك طاعة لله ، ووفاء بما تقرب به إليه .

وقوله تعالى (٢ : ٢٧٠ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه) .

قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه عالم بجميع ما يعمله العاملون من الخيرات : من النفقات والمنذورات ، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين به ابتغاء وجهه . اهـ .

إذا علمت ذلك : فهذه النذور الواقعة من عباد القبور ، تقرباً بها إليهم ، ليقضوا لهم حوائجهم وليشفعوا لهم ، كل ذلك شرك في العبادة بلا ريب ، كما قال تعالى (٦ : ١٣٦ وجعلوا لله مما ذرأ من الحَرْثِ والأنعام نصيباً . فقالوا : هذا لله — بزعمهم — وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يَصِلُ إلى الله ، وما كان لله فهو يَصِلُ إلى شركائهم ، ساء مايحكمون) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : وأما ما نذر لغير الله ، كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك ، فهو بمنزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات . والحالف بالمخلوقات لا وفاء عليه ولا كفارة ، وكذلك الناذر للمخلوقات ، فإن كلاهما شرك . والشرك ليس له حرمة ، بل عليه أن يستغفر الله من هذا ، ويقول ما قال النبي صلى الله عليه وسلم « من حلف وقال : واللات والعزى ، فليقل : لا إله إلا الله » .

وقال فيمن نذر للقبور أو نحوها دُهْناً لتُنَوَّر به ويقول : إنما تقبل النذر كما يقوله بعض الضالين : وهذا النذر معصية باتفاق المسلمين ، لا يجوز الوفاء به ، وكذلك إذا نذر

مالا لسدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة ، فإن فيهم شبهاً من السدنة التى كانت عند اللات والعزى ومناة ، يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . والمجاورون هناك فيهم شبه من الذين قال فيهم الخليل عليه السلام (ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟) والذين اجتاز بهم موسى عليه السلام وقومه ، قال تعالى : (٧ : ١٣٨ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ، فأتوا على قوم يَعْكُفُون على أصنام لهم) فالنذر لأولئك السدنة والمجاورين فى هذه البقاع نذر معصية . وفيه شبه من النذر لسدنة الصلبان والمجاورين عندها ، أو لسدنة الأبداد فى الهند والمجاورين عندها .

وقال الرافعى فى شرح المنهاج : وأما النذر للمشاهد التى على قبر ولى أو شيخ ، أو على اسم من حلّها من الأولياء ، أو تردد فى تلك البقعة من الأولياء والصالحين ، فإن قصد الناذر بذلك — وهو الغالب أو الواقع من قصود العامة — تعظيم البقعة والمشهد ، أو الزاوية ، أو تعظيم من دفن بها أو نسبت إليه ، أو بنيت على اسمه ، فهذا النذر باطل غير منعقد ، فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات ، ويرون أنها مما يُدفع بها البلاء ويُستجلب بها النعماء ، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء ، حتى إنهم ينذرون لبعض الأحجار لما قيل لهم : إنه استند إليها عبد صالح ، وينذرون لبعض القبور السُّرجَ والشموع والزيت ، ويقولون : القبر الفلانى ، أو المكان الفلانى يقبل النذر ، يعنون بذلك : أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض ، أو قدوم غائب أو سلامة مال ، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة ، فهذا النذر على هذا الوجه باطل لا شك فيه ، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقاً . ومن ذلك : نذر الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل عليه السلام ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء ، فإن الناذر لا يقصد بذلك الإيقاد على القبر إلا تبركا وتعظيما ، ظانا أن ذلك قربة ، فهذا مما لا ريب فى بطلانه ، والإيقاد المذكور محرم ، سواء انتفع به هناك منتفع أم لا .

قال الشيخ قاسم الحنفى فى شرح درر البحار : النذر الذى ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد ، كأن يكون للإنسان غائب أو مريض أو له حاجة ، فيأتى إلى بعض الصلحاء ويجعل على رأسه سترة ، ويقول : يا سيدى فلان ، إن رد الله غائبى ، أو عوفى مريضى ، أو قضيت حاجتى ، فلك من الذهب كذا ، أو من الفضة كذا ، أو من الطعام كذا ، أو من

وفى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مَن نذر أن يُطيعَ الله فليُطعْه

الماء كذا ، أو من الشمع والزيت كذا . فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه ، منها : أنه نذر لمخلوق ، والنذر للمخلوق لا يجوز ؛ لأنه عبادة ، والعبادة لا تكون لمخلوق ، ومنها : أن المنذور له ميت والميت لا يملك ، ومنها : أنه ظن أن الميت يتصرف فى الأمور دون الله ، واعتقاد ذلك كفر — إلى أن قال : إذا علمت هذا . فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها وينقل إلى ضرائح الأولياء تقرباً إليها : فحرام بإجماع المسلمين .

نقله عنه ابن نجيم فى البحر الرائق : ونقله المرشدى فى تذكرته وغيرهما عنه ، وزاد : قد ابتلى الناس بهذا لا سيما فى مولد البدوى .

وقال الشيخ صنع الله الحلبى الحنفى فى الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء : فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان فهو لغير الله ، فيكون باطلا . وفى التنزيل (٦ : ١٢١ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) ، (٦ : ١٦٢ قل: إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له) والنذر لغير الله إشراك مع الله ، كالذبح لغيره .

قوله « وفى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَن نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » .

قوله « فى الصحيح » أى : صحيح البخارى .

قوله « عن عائشة » : هى أم المؤمنين ، زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، وابنة الصديق رضى الله عنهما . تزوجها النبى صلى الله عليه وسلم وهى ابنة سبع سنين ، ودخل بها وهى ابنة تسع . وهى أفقه النساء مطلقاً ، وهى أفضل أزواج النبى صلى الله عليه وسلم إلا خديجة ، ففيها خلاف . ماتت سنة سبع وخمسين على الصحيح . رضى الله عنها .

قوله « من نذر أن يطيع الله فليطعه » أى : فليفعل ما نذره من طاعة الله ، وقد أجمع العلماء على أن من نذر طاعة لشرط يرجوه ، كإن شفى الله مريضى فعلىّ أن أتصدق بكذا ، ونحو ذلك وجب عليه ، إن حصل له ما علق نذره على حصوله . وحكى عن أبى حنيفة : أنه لا يلزم الوفاء إلا بما جنسه واجب بأصل الشرع ، كالصوم ، وأما ما ليس كذلك ، كالاعتكاف فلا يجب عليه الوفاء به .

ومَن نذر أن يَعصىَ الله فلا يَعصه » .

فيه مسائل :

الأولى : وجوب الوفاء بالنذر .

الثانية : إذا ثبت كونه عبادة ، فصرْفه إلى غيره شرك .

الثالثة : أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به .

قوله « ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » زاد الطحاوى « وليكفِّر عن يمينه » وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الوفاء بنذر المعصية .

قال الحافظ : اتفقوا على تحريم النذر فى المعصية ، وتنازعوا : هل ينعقد موجباً للكفارة أم لا ؟ وتقدم . وقد يستدل بالحديث على صحة النذر فى المباح ، كما هو مذهب أحمد وغيره ، يؤيده ما رواه أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وأحمد والترمذى عن بريدة « أن امرأة قالت : يا رسول الله ، إنى نذرت أن أضرب على رأسك بالدُّفّ ، فقال : أوفى بنذرك » وأما نذر اللجاج والغضب فهو يمين عند أحمد ، فيخير بين فعله وكفارة يمين ، لحديث عمران بن حصين مرفوعا « لا نذر فى غضب ، وكفارته كفارة يمين » رواه سعيد ابن منصور وأحمد والنسائى ، فإن نذر مكروها كالطلاق استحب أن يكفِّر ولا يفعله .

باب

(من الشرك الاستعاذة بغير الله)

وقول الله تعالى (٧٢ : ٦ وأنه كان رجال من الإنس يَعوذون برجال من الجن ، فزادوهم رهقًا) .

قوله : باب « من الشرك الاستعاذة بغير الله تعالى »

« الاستعاذة » : الالتجاء والاعتصام ، ولهذا يسمى المستعاذ به : معاذاً وملجأ ، فالعائذ بالله قد هرب مما يؤذيه أو يهلكه ، إلى ربه ومالكه ، واعتصم واستجار به ، والتجأ إليه وهذا تمثيل . وإلا فما يقوم بالقلب من الالتجاء إلى الله ، والاعتصام به ، والانطراح بين يدى الرب ، والافتقار إليه ، والتذلل له ، أمر لا تحيط به العبارة . قاله ابن القيم رحمه الله .

وقال ابن كثير : الاستعاذة : هى الالتجاء إلى الله ، والالتصاق بجنابه من شر كل ذى شر . والعياذ يكون لدفع الشر ، واللياذ لطلب الخير . انتهى .

قلت : وهى من العبادات التى أمر الله تعالى بها عباده ، كما قال تعالى (٤١ : ٣٦ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) وأمثال ذلك فى القرآن كثير كقوله (قل أعوذ برب الفلق) و (قل أعوذ برب الناس) فما كان عبادة لله فصرْفُه لغير الله شرك فى العبادة ، فمن صرف شيئاً من هذه العبادات لغير الله فقد جعله شريكا لله فى عبادته ، ونازع الرب فى إلٰهيته ، كما أن من صلى لله وصلى لغيره يكون عابداً لغير الله ، ولا فرق . كما سيأتى تقريره قريباً إن شاء الله تعالى .

قوله « وقول الله تعالى (٧٢ : ٦ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً) » .

قال ابن كثير : أى كنا نرى أن لنا فضلا على الإنس ، لأنهم كانوا يعوذون بنا : أى إذا نزلوا وادياً أو مكاناً متوحشاً من البرارى وغيرها ، كما كانت عادة العرب فى جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشىء يسوؤهم ، كما كان أحدهم يدخل

وعن خَوله بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله صلى الله وسلم يقول :
« مَن نزل منزلا ، فقال: أعوذ بكلمات الله التامّات .

بلاد أعدائه فى جوار رجل كبير وذمامه وخفارته ، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقاً : أى خوفاً وإرهاباً وذعراً ، حتى يبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذاً بهم — إلى أن قال:— قال أبو العالية والربيع وزيد بن أسلم «رهقا» أى خوفا وقال العوفى : عن ابن عباس (فزادوهم رهقا) أى : إثماً ، وكذا قال قتادة . اه

وذلك أن الرجل من العرب كان إذا أمسى بواد قفر وخاف على نفسه قال: أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه ، يريد : كبير الجن . وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الاستعاذة بغير الله .

وقال مُلا على قارى الحنفى : لا يجوز الاستعاذة بالجن ، فقد ذم الله الكافرين على ذلك وذكر الآية وقال : قال تعالى (٦ : ١٢٨ ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ، وقال أولياؤهم من الإنس : ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا . قال: النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله ، إن ربك حكيم عليم) فاستمتاع الإنسى بالجنى فى قضاء حوائجه وامتثال أوامره وإخباره بشىء من المغيبات ، واستمتاع الجنى بالإنسى تعظيمه إياه ، واستعاذته به وخضوعه له . انتهى ملخصا .

قال المصنف « وفيه : أن كون الشىء يحصل به منفعة دنيوية لا يدل على أنه ليس من الشرك » .

قوله « وعن خولة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من نزل منزلا فقال : أعوذ بكلمات الله التامّات من شر ما خلق : لم يضره شىء حتى يرتحل من منزله ذلك » رواه مسلم .

هى خولة بنت حكيم بن أمية السلمية ، يقال لها : أم شريك ، ويقال : إنها هى الواهبة وكانت قبلُ تحتَ عثمان بن مَظعون .

قال ابن عبد البر : وكانت صالحة فاضلة .

من شر ما خلق: لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك » رواه مسلم .

قوله « أعوذ بكلمات الله التامات » شرع الله لأهل الإسلام أن يستعيذوا به بدلا مما يفعله أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن ، فشرع الله للمسلمين أن يستعيذوا بأسمائه وصفاته .

قال القرطبي : قيل : معناه الكاملات التي لا يلحقها نقص ولا عيب ، كما يلحق كلام البشر . وقيل: معناه الشافية الكافية . وقيل: الكلمات هنا هي القرآن، فإن الله أخبر عنه بأنه (١٠ : ٥٧و١٧ : ٨٢و٤١ : ٤٤ هُدًى وشفاء) وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يدفع به الأذى . ولما كان ذلك استعاذة بصفات الله تعالى كان من باب المندوب إليه المرغب فيه ، وعلى هذا فحق المستعيذ بالله أو بأسمائه وصفاته : أن يصدق الله في التجائه إليه ، ويتوكل في ذلك عليه ، ويحضر ذلك في قلبه ، فمتى فعل ذلك وصل إلى منتهى طلبه ومغفرة ذنبه .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق . وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق. قالوا : لأنه ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك ، ولهذا نهى العلماء عن التعاويذ التي لا يعرف معناها ، خشية أن يكون فيها شرك .

وقال ابن القيم : ومن ذبح للشيطان ودعاه ، واستعاذ به ، وتقرب إليه بما يحب فقد عبده وإن لم يسمّ ذلك عبادة ويسميه استخداما . وصَدَقَ ، هو استخدام من الشيطان له ، فيصير من خَدم الشيطان وعابديه ، وبذلك يخدمه الشيطان ، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة ، فإن الشيطان لا يخضع له ولا يعبده كما يفعل هو به . اهـ

قوله : « من شر ما خلق » قال ابن القيم رحمه الله : أي من كل شر في أيٍّ مخلوق قام به الشر : من حيوان أو غيره ، إنسياً كان أو جنياً ، أو هامة أو دابة ، أو ريحا ، أو صاعقة أي نوع كان من أنواع البلاء في الدنيا والآخرة .

و « ما » هٰهنا موصولة ، وليس المراد بها العموم الإطلاقي ، بل المراد القيدي الوصفي ، والمعنى : من شر كل مخلوق فيه شر ، لا من شر كل ما خلقه الله ، فإن الجنة والملائكة والأنبياء ليس فيهم شر ، والشر يقال على شيئين : على الألم ، وعلى ما يفضي إليه .

قوله : « لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك » قال القرطبي : هذا خبر صحيح

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الجن .

الثانية كونه من الشرك .

الثالثة : الاستدلال على ذلك بالحديث ؛ لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة . قالوا : لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك .

الرابعة : فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره .

الخامسة : أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع ، لا يدل على أنه ليس من الشرك .

وقول صادق ، علمنا صدقه دليلا وتجربة ، فإني منذ سمعت هذا الخبر عملت عليه فلم يضرني شيء إلى أن تركته ، فلدغتني عقرب بالمهدية ليلا ، فتفكرت في نفسي ، فإذا بي قد نسيت أن أتعوذ بتلك الكلمات .

باب

(من الشرك أن يستغيث بغير الله، أو يدعو غيره)

قوله : « باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره »

قال شيخ الإسلام رحمه الله : الاستغاثة : هى طلب الغَوْث ، وهو إزالة الشدة ، كالاستنصار : طلب النصر . والاستعانة : طلب العون .

وقال غيره : الفرق بين الاستغاثة والدعاء : أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب ، والدعاء أعم من الاستغاثة ؛ لأنه يكون من المكروب وغيره . فعطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص ، فبينهما عموم وخصوص مطلق ، يجتمعان فى مادة وينفرد الدعاء عنها فى مادة ، فكل استغاثة دعاء ، وليس كل دعاء استغاثة .

وقوله : « أو يدعو غيره » اعلم أن الدعاء نوعان : دعاء عبادة ، ودعاء مسألة ، ويراد به فى القرآن هذا تارة ، وهذا تارة ، ويراد به مجموعهما . فدعاء المسألة : هو طلب ما ينفع الداعى من جلب نفع أو كشف ضر ، ولهذا أنكر الله على من يدعو أحداً من دونه ممن لا يملك ضرًّا ولا نفعاً ، كقوله تعالى : (٥ : ٧٩ قل : أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرًّا ولا نفعاً والله هو السميع العليم؟) وقوله : (٦ : ٧١ قل : أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ؟ كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران ، له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا . قل : إن هدى الله هو الهدى وأُمرنا لنسلم لرب العالمين) وقال : (١٠ : ١٠٦ ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك ، فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة ، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة ، قال الله تعالى : (٧ : ٥٥ ادعُوا ربكم تضرعاً وخُفية ، إنه لا يحب المعتدين) وقال تعالى : (٦ : ٤٠ ، ٤١ قل : أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون) وقال تعالى : (٧٢ : ١٨ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً)

وقال تعالى : (١٣ : ١٥ له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كَفَّيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) وأمثال هذا فى القرآن فى دعاء المسألة كثر من أن يحصر ، وهو يتضمن دعاء العبادة ؛ لأن السائل أخلص سؤاله لله ، وذلك من أفضل العبادات ، وكذلك الذاكر لله ، والتالى لكتابه ونحوه طالب من الله فى المعنى ، فيكون داعياً عابداً .

فتبين من قول شيخ الإسلام : أن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة ، كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة ، وقد قال تعالى عن خليله (١٩ : ٤٨ ، ٤٩ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا . فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً) فصار الدعاء من أنواع العبادة ، فإن قوله : (وأدعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقياً) كقول زكريا : (١٩ : ٤ رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ، ولم أكن بدعائك رَبِّ شقيًّا) وقد أمر الله تعالى به فى مواضع من كتابه كقوله : (٧ : ٥٥ ، ٥٦ أدعوا ربكم تضرعاً وخفية ، إنه لايحب المعتدين ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، وادعوه خوفاً وطمعاً ، إن رحمة الله قريب من المحسنين) وهذا دعاء المسألة المتضمن للعبادة ، فإن الداعى يرغب إلى المدعو ، ويخضع له ويتذلل .

وضابط هذا : أن كل أمر شرعه الله لعباده وأمرهم به ففعله لله عبادة ، فإذا صرف من تلك العبادة شيئاً لغير الله فهو مشرك مصادم لما بعث الله به رسوله من قوله : (٣٩ : ١٤ قل الله أعبد مخلصاً له دينى) وسيأتى لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

قال شيخ الإسلام رحمه الله فى الرسالة السنية : فإذا كان على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ممن انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة ، فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة فى هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام لأسباب ، منها : الغلو فى بعض المشايخ ، بل الغلو فى على بن أبى طالب ، بل الغلو فى المسيح ، فكل من غلا فى نبى أو رجل صالح ، وجعل فيه نوعاً من الإلهية ، مثل أن يقول : يا سيدى فلان انصرنى ، أو أغثنى أو ارزقنى ، أو أنا فى حسبك ، ونحو هذه الأقوال . فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه . فإن تاب وإلا قتل ، فإن الله سبحانه وتعالى إنما أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ،

ليُعبد وحده لا شريك له ، ولا يُدعَى معه إله آخر . والذين يدعون مع الله آلهة أخرى ، مثل المسيح والملائكة والأصنام ، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق أو تُنزل المطر أو تنبت النبات ، وإنما كانوا يعبدونهم ، أو يعبدون قبورهم ، أو يعبدون صورهم ، يقولون : (٣٩ : ٣ ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زُلْفَى) ، (١٠ : ١٠١ ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله) فبعث الله سبحانه رسله ، تنهى عن أن يُدْعَى أحد من دونه ، لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة . اهـ .

وقال أيضاً : من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم كفرَ إجماعاً .

نقله عنه صاحب الفروع وصاحب الإنصاف وصاحب الإقناع وغيرهم . وذكره شيخ الإسلام ، ونقلته عنه فى الرد على ابن جِرْجيس فى مسألة الوسائط .

وقال ابن القيم رحمه الله : ومن أنواعه — يعنى الشرك — طلبُ الحوائج من الموتى ، والاستغاثة بهم والتوجه إليهم ، وهذا أصل شرك العالم ، فإن الميت قد انقطع عمله ، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فضلا عمن استغاث به أو سأله أن يشفع له إلى الله ، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده ، وسيأتى تتمة كلامه فى باب الشفاعة إن شاء الله تعالى .

وقال الحافظ محمد بن عبد الهادى رحمه الله فى رده على السبكى فى قوله « إن المبالغة فى تعظيمه — أى : الرسول صلى الله عليه وسلم — واجبة » :

إن أريد به المبالغة بحسب ما يراه كل أحد تعظيما ، حتى الحج إلى قبره ، والسجود له والطواف به ، واعتقاد أنه يعلم الغيب ، وأنه يعطى ويمنع ، ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع ، وأنه يقضى حوائج السائلين ويفرج كربات المكروبين ، وأنه يشفع فيمن يشاء ، ويدخل الجنة من يشاء — : فدعوى المبالغة فى هذا التعظيم مبالغة فى الشرك ، وانسلاخ من جملة الدين . .

وفى الفتاوى البَزَّازية من كتب الحنفية : قال علماؤنا : من قال : أرواح المشائخ حاضرة تعلم : يكفر .

وقال الشيخ صنع الله الحنفى رحمه الله — فى كتابه فى الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفات

فى الحياة و بعد الممات على سبيل الكرامة : هذا وأنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدّعون أن للأولياء تصرفات بحياتهم و بعد مماتهم ، و يستغاث بهم فى الشدائد والبليات و بهممهم تكشف المهمات ، فيأتون قبورهم و ينادونهم فى قضاء الحاجات ، مستدلين أن ذلك منهم كرامات ، وقالوا: منهم أبدال ونقباء ، وأوتاد ونجباء ، وسبعون وسبعة وأر بعون وأر بعة، والقطب : هو الغوث للناس ، وعليه المدار بلا التباس، وجوزوا لهم الذبائح والنذور ، وأثبتوا لهم فيهما الأجور ، قال : وهذا كلام فيه تفريط و إفراط ، بل فيه الهلاك الأبدى والعذاب السرمدى ، لما فيه من روائح الشرك المحقق ، ومصادمة الكتاب العزيز المصدق ، ومخالفة لعقائد الأئمة ، وما اجتمعت عليه الأمة ، وفى التنزيل (٤:١١٤ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تَبَيَّنَ له الهدَى ويتبعْ غيرَ سبيل المؤمنين نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى ونصْلِهِ جهنم وساءت مصيرا) .

ثم قال : فأما قولهم : إن للأولياء تصرفات فى حياتهم و بعد الممات ، فيرده قوله تعالى (٢٧:٦١ — ٦٤ أَإله مع الله) ، (٧:٥٤ ألا له الخلقُ والأمر) ، (٣:١٨٩و٥:١٩و٢٠:١٢٣ و٢٤:٤٢و٤٢:٤٩و٤٥:٢٧و ٤٨ : ١٤ لله ملك السموات والأرض) ونحوها من الآيات الدالة على أنه المتفرد بالخلق والتدبير ، والتصرف والتقدير ، ولا شىء لغيره فى شىء مّا بوجه من الوجوه فالكل تحت ملكه وقهره تصرفا وملكا ، وإحياء و إماتة وخلقا. وتمدّح الربُّ تبارك وتعالى بانفراده بملكه فى آيات من كتابه كقوله (٣٥:٣ هل من خالق غير الله؟)،(٣٥:٤٠ والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا مااستجابوا لكم . ويوم القيامة يكفرون بشرككم . ولا ينبئك مثل خبير) وذكر آيات فى هذا المعنى .

ثم قال : فقوله فى الآيات كلها « من دونه » أى من غيره ، فإنه عام يدخل فيه من اعتقدته ، من وَلِىّ وشيطان تستمده ، فإن من لم يقدر على نصر نفسه كيف يُمِدُّ غيره ؟ إلى أن قال : إن هذا لقولٌ وخيم ، وشركٌ عظيم ، إلى أن قال : وأما القول بالتصرف بعد الممات فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف فى الحياة . قال جل ذكره (٣٩ : ٣٠ إنك ميت و إنهم ميتون) ، (٣٩ : ٤٢ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت و يرسل الأخرى إلى أجل مسمى) ، (٣:١٨٥و٢١:٣٤و ٢٩:٥٧ كل نفس ذائقة الموت) ، (٧٤ : ٣٨ كل نفس بما كسبت رهينة) وفى الحديث « إذا

مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث — الحديث » فجميع ذلك وما هو نحوه دال على انقطاع الحس والحركة من الميت ، وأن أرواحهم ممسَكَة ، وأن أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان ، فدل ذلك على أنه ليس للميت تصرف فى ذاته فضلا عن غيره . فإذا عجز عن حركة نفسه ، فكيف يتصرف فى غيره ؟ فالله سبحانه يخبر أن الأرواح عنده ، وهؤلاء الملحدون يقولون : إن الأرواح مطلقة متصرفة (٢ : ١٤٠ قل : أأنتم أعلم أم الله ؟) .

قال : أما اعتقادهم أن هذه التصرفات لهم من الكرامات ، فهو من المغالطة ، لأن الكرامة شيء من عند الله يكرم به أولياءه ، لا قصد لهم فيه ولا تحدى ، ولا قدرة ولا علم ، كما فى قصة مريم بنت عمران ، وأسيد بن حضير ، وأبى مسلم الخولانى .

قال : وأما قولهم فيستغاث بهم فى الشدائد ، فهذا أقبح مما قبله وأبدع لمصادمته قوله جل ذكره (٢٧ : ٦٢ أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع الله ؟) ، (٦ : ٦٣ ، ٦٤ قل من ينجيكم من ظلمات البرّ والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون) وذكر آيات فى هذا المعنى ، ثم قال : فإنه جل ذكره قرر أنه الكاشف للضر لا غيره ، وأنه المتفرد بإجابة المضطرين ، وأنه المستغاث لذلك كله ، وأنه القادر على دفع الضر ، القادر على إيصال الخير ، فهو المتفرد بذلك . فإذا تعين هو جل ذكره خرج غيره من ملك ونبى وولى .

قال : والاستغاثة تجوز فى الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية فى قتال ، أو إدراك عدو أو سبع أو نحوه ، كقولهم : يا لزيد ، يا للمسلمين ، بحسب الأفعال الظاهرة . وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير أو فى الأمور المعنوية من الشدائد ، كالمرض وخوف الغرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه : فمن خصائص الله ، لا يطلب فيها غيره .

قال : وأما كونهم معتقدين التأثير منهم فى قضاء حاجاتهم كما تفعله جاهلية العرب والصوفية الجهال ، وينادونهم ويستنجدون بهم ، فهذا من المنكرات . فمن اعتقد أن لغير الله من نبى أو ولى أو روح أو غير ذلك فى كشف كربة أو قضاء حاجة تأثيرا : فقد وقع فى وادى جهل خطير ، فهو على شفا حفرة من السعير . وأما كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرامات ، فحاش لله أن يكون أولياء الله بهذه المثابة ؛ فهذا ظن أهل الأوثان ، كذا أخبر الرحمن

وقول الله تعالى (١٠ : ١٠٦ ، ١٠٧ ولا تَدْعُ من دون الله مالا ينفعُك ولا يضرك ، فإن فعلتَ فإنك إذاً من الظالمين .

(١٠ : ١٨ هؤلاء شفعاؤنا عند الله) ، (٣٩ : ٣ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) ، (٣٦ : ٢٣ أأتخذ من دونه آلهة إن يُرِدْن الرحمن بضر لا تغنِ عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ؟) فإن ذكر ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر من نبى وولى وغيره على وجه الإمداد منه : إشراك مع الله ؛ إذ لا قادر على الدفع غيره ، ولا خير إلا خيره .

قال : وأما ما قالوا : إن منهم أبدالا ونقباء ، وأوتاداً ونقباء ، وسبعين وسبعة ، وأربعين وأربعة ، والقطب : هو الغوث للناس : فهذا من موضوعات إفكهم . كما ذكره القاضى المحدث فى سراج المريدين ، وابن الجوزى ، وابن تيمية . انتهى باختصار .

والمقصود : أن أهل العلم ما زالوا ينكرون هذه الأمور الشركية التى عمت بها البلوى واعتقدها أهل الأهواء ، فلو تتبعنا كلام العلماء المنكرين لهذه الأمور الشركية لطال الكتاب . والبصير النبيل يدرك الحق من أول دليل ، ومن قال قولا بلا برهان فقوله ظاهر البطلان ؛ مخالف ما عليه أهل الحق والإيمان ، المتمسكون بمحكم القرآن ، المستجيبون لداعى الحق والإيمان . والله المستعان . وعليه التكلان .

قال « وقوله تعالى (١٠ : ١٠٦ ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك ، فإن فعلت ، فإنك إذاً من الظالمين) » .

قال ابن عطية : معناه : قيل لى « ولا تدع » فهو عطف على « أقم » وهذا الأمر والمخاطبة للنبى صلى الله عليه وسلم ، إذا كانت هكذا فأحرى أن يحذر من ذلك غيره . والخطاب خرج مخرج الخصوص . وهو عام للأمة .

قال أبو جعفر بن جرير فى هذه الآية : يقول تعالى ذكره : ولا تدع يا محمد من دون معبودك وخالقك شيئاً لا ينفعك فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولا يضرك فى دين ولا دنيا ، يعنى بذلك : الآلهة والأصنام ، يقول : لا تعبدها راجياً نفعها أو خائفاً ضرها ؛ فإنها لا تنفع ولا تضر . فإن فعلت ذلك فدعوتها من دون الله (فإنك إذاً من الظالمين) يقول : من المشركين بالله الظالم لنفسه .

وإن يمسسك الله بضر ، فلا كاشف له إلا هو ، وإن يُرِدْكَ بخير فلا رادّ لفضله،

قلت : وهذه الآية لها نظائر كقوله (٢٦ : ٢١٣ فلاتدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين) وقوله (٢٨ : ٨٨ ولا تدع مع الله إلهاً آخر ، لا إله إلا هو) ففى هذه الآيات بيان أن كل مدعو يكون إلهاً ، والإلهية حق لله لا يصلح منها شيء لغيره . ولهذا قال (لا إله إلا هو) كما قال تعالى (٢٢ : ٦٢ ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العلىّ الكبير) وهذا هو التوحيد الذى بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، كما قال تعالى (٩٨ : ٥ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) والدين : كل مايُدان الله به من العبادات الظاهرة والباطنة وفسره ابن جرير فى تفسيره بالدعاء ، وهو فرد من أفراد العبادة ، على عادة السلف فى التفسير : يفسرون الآية ببعض أفراد معناها ، فمن صرف منها شيئاً لقبر أو صنم أو وثن أو غير ذلك فقد اتخذه معبوداً وجعله شريكا لله فى الإلهية التى لا يستحقها إلا هو ، كما قال تعالى (٢٣ : ١١٧ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون) فتبين بهذه الآية ونحوها أن دعوة غير الله كفر وشرك وضلال .

وقوله (١٠ : ١٠٧ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله) فإنه المتفرد بالملك والقهر ، والعطاء والمنع ، والضر والنفع ، دون كل ماسواه . فيلزم من ذلك أن يكون هو المدعو وحده ، المعبود وحده ؛ فإن العبادة لا تصلح إلا لمالك الضر والنفع . ولا يملك ذلك ولا شيئاً منه غيره تعالى ؛ فهو المستحق للعبادة وحده ، دون من لا يضر ولا ينفع .

وقوله تعالى (٣٩ : ٣٨ قل : أفرأيتم ما تدعون من دون الله ، إن أرادنىَ الله بضرٍّ هل هنّ كاشفات ضره ؟ أو أرادنىَ برحمة ؛ هل هنّ ممسكات رحمته ؟ قل : حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون) وقال (٣٥ : ٢ مايَفتح الله للناس من رحمةٍ فلا مُمْسِكَ لها ، وما يمسك فلا مُرْسِلَ له من بعده ، وهو العزيز الحكيم) فهذا ماأخبرَ به الله تعالى فى كتابه من تفرده بالإلهية والربوبية ، ونصب الأدلة على ذلك ، فاعتقد عُبّاد القبور والمشاهد نقيضَ ما أخبر به الله تعالى ، واتخذوهم شركاء لله فى استجلاب المنافع ودفع المكاره ، بسؤالهم والالتجاء إليهم بالرغبة والرهبة والتضرع ، وغير ذلك من العبادات التى لا يستحقها إلا الله تعالى ،

يصيب به من يشاء من عباده ، وهو الغفور الرحيم) .

وقوله (٢٩ : ١٧ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا ، فابتغوا عند الله الرزق ، واعبدوه واشكروا له ، إليه ترجعون) .

(وقوله ٤٦ : ٥ ، ٦ ومَنْ أَضَلُّ ممن يدعو مِن دون الله مَن لا يستجيبُ له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حُشِرَ الناسُ كانوا لهم أعداء ، وكانوا بعبادتهم كافرين)

واتخذوهم شركاء لله فى ربوبيته وإلهيته . وهذا فوق شرك كفار العرب القائلين (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) فإن أولئك يدعونهم ليشفعوا لهم ويقربوهم إلى الله . وكانوا يقولون فى تلبيتهم : « لبيك ؛ لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك » .

وأما هؤلاء المشركون فاعتقدوا فى أهل القبور والمشاهد ما هو أعظم من ذلك ، فجعلوا لهم نصيباً من التصرف والتدبير ، وجعلوهم معاذاً لهم وملاذاً فى الرغبات والرهبات (سبحان الله عما يشركون) .

وقوله (وهو الغفور الرحيم) أى : لمن تاب إليه :

قال « وقوله تعالى (فابتغوا عند الله الرزق ، واعبدوه واشكروا له ، إليه ترجعون) » يأمر تعالى عباده بابتغاء الرزق عنده وحده دون ما سواه ممن لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً . فتقديم الظرف يفيد الاختصاص . وقوله (واعبدوه) من عطف العام على الخاص ؛ فإن ابتغاء الرزق عنده من العبادة التى أمر الله بها .

قال العماد بن كثير رحمه الله تعالى (فابتغوا) أى فاطلبوا (عند الله الرزق) أى لا عند غيره ، لأنه المالك له ، وغيره لا يملك شيئاً من ذلك (واعبدوه) أى أخلصوا له العبادة وحده لا شريك له (واشكروا له) أى على ما أنعم عليكم (إليه ترجعون) أى يوم القيامة، فيجازى كل عامل بعمله .

قال « وقوله (٤٦ : ٥ ، ٦ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » .

نفى سبحانه أن يكون أحد أضل ممن يدعو غيره وأخبر أنه لا يستجيب له ما طلب منه إلى يوم القيامة : والآية تعم كل من يدعى من دون الله ، كما قال تعالى (١٧ : ٥٦ قل ادعو الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) وفى هذه الآية أخبر أنه لا يستجيب وأنه غافل عن داعيه (و إذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) فتناولت الآية كل داع وكل مدعو من دون الله

قال أبو جعفر بن جرير فى قوله (و إذا حشر الناس كانوا لهم أعداء) يقول تعالى ذكره : وإذا جمع الناس ليوم القيامة فى موقف الحساب كانت هذه الآلهة التى يدعونها فى الدنيا لهم أعداء ، لأنهم يتبرأون منهم (وكانوا بعبادتهم كافرين) يقول تعالى ذكره : وكانت آلهتهم التى يعبدونها فى الدنيا بعبادتهم جاحدين ، لأنهم يقولون يوم القيامة : ما أمرنا بعبادتنا ولا شعرنا بعبادتهم إيانا . تبرأنا إليك منهم يا ربنا ، كما قال تعالى : (٢٥ : ١٧ ، ١٨ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول : أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء ، أم هم ضلوا السبيل ؟ قالوا : سبحانك ، ما كان أن نتخذ من دونك من أولياء ، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بوراً)

قال ابن جرير (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله) من الملائكة والإنس والجن وساق بسنده عن مجاهد قال : عيسى وعزير والملائكة .

ثم قال : يقول تعالى ذكره قالت الملائكة الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله وعيسى : تنزيهاً لك يا ربنا وتبرئة مما أضاف إليك هؤلاء المشركون (ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) نواليهم (أنت ولينا من دونهم) انتهى .

قلت : وأكثر ما يستعمل الدعاء فى الكتاب والسنة واللغة ولسان الصحابة ومن بعدهم من العلماء : فى السؤال والطلب ، كما قال العلماء من أهل اللغة وغيرهم : الصلاة لغة : الدعاء ، وقد قال تعالى (٣٥ : ١٣ ، ١٤ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير — الآيتين) وقال (٦ : ٦٣ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية) وقال (١٠ : ١٢ و إذا مسَّ الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً) وقل (٤١ : ٥١ و إذا مسه الشرُّ فذو دُعاء عريض) وقال (٤١ : ٤٩ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير — الآية) وقال (٨ : ٩ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم — الآية) .

وفى حديث أنس مرفوعاً « الدعاء مُخُّ العبادة » وفى الحديث الصحيح « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة » وفى آخر « من لم يسأل الله يغضب عليه » وحديث « ليس شىء أكرم على الله من الدعاء » رواه أحمد والترمذى وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه . وقوله « الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض » رواه الحاكم وصححه . وقوله « سلوا الله كل شىء حتى الشِّسْع إذا انقطع — الحديث » . وقال ابن عباس رضى الله عنهما « أفضل العبادة ، وقرأ (٤٠ : ٦٠ وقال ربكم : ادعونى أستجب لكم — الآية) » . رواه ابن المنذر والحاكم وصححه . وحديث « اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان — الحديث » وحديث « اللهم إنى أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » وأمثال هذا فى الكتاب والسنة أكثر من أن يحصر فى الدعاء الذى هو السؤال والطلب ، فمن جحد كون السؤال والطلب عبادة فقد صادم النصوص وخالف اللغة واستعمال الأمة سلفاً وخلفاً .

وأما ما تقدم من كلام شيخ الإسلام ، وتبعه العلامة ابن القيم رحمهما الله تعالى من أن الدعاء نوعان : دعاء مسألة ، ودعاء عبادة . وما ذكر بينهما من التلازم وتضمن أحدهما للآخر ، فذلك باعتبار كون الذاكر والتالى المصلى والمتقرب بالنسك وغيره طالباً فى المعنى . فيدخل فى مسمى الدعاء بهذا الاعتبار . وقد شرع الله تعالى فى الصلاة الشرعية من دعاء المسألة مالا تصلح الصلاة إلا به ، كما فى الفاتحة و بين السجدتين وفى التشهد ، وذلك عبادة كالركوع والسجود . فتدبر هذا المقام يتبين لك جهل الجاهلين بالتوحيد .

ومما يبين هذا المقام و يزيده إيضاحاً : قول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى فى قوله تعالى (١٧ : ١١٠ قل : أدعوا الله أو ادعوا الرحمن ، أيًّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) : وهذا الدعاء المشهور أنه دعاء المسألة . قالوا : كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو ربه ويقول مرة « يا الله » ومرة « يا رحمٰن » فظن المشركون أنه يدعو إلهين ، فأنزل الله هذه الآية . ذكر هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقيل : إن الدعاء هنا بمعنى التسمية ، والمعنى : أىّ اسم سميتموه به من أسماء الله تعالى : إما « الله » وإما « الرحمن » فله الأسماء الحسنى . وهذا من لوازم المعنى فى الآية . وليس هو عين المراد بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد فى القرآن . وهو دعاء السؤال ، ودعاء الثناء .

وقوله : (٢٧ : ٦٢ أَمَّنْ يُجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟) .

ثم قال : إذا عرف هـذا فقوله (ادْعُوا ربكم تضرعاً وخفية) يتناول نوعى الدعاء ، لكنه ظاهر فى دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة ، ولهذا أمر بإخفائه . قال الحسن « بين دعاء السر ودعاء العلانية سبعون ضعفاً . ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء ، ولم يسمع لهم صوت ، إن كان إلا همسا بينهم و بين ربهم » وقوله تعالى (٢ : ١٨٦ و إذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان) يتناول نوعى الدعاء ، و بكل منهما فسرت الآية . قيل : أعطيه إذا سألنى ، وقيل : أثيبه إذا عبدنى . وليس هذا من استعمال اللفظ فى حقيقته ومجازه . بل هذا استعماله فى حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعا . وهذا يأتى فى مسألة الصلاة ، وأنها نقلت عن مسماها فى اللغة وصارت حقيقة شرعية ، واستعملت فى هذه العبادة مجازاً للعلاقة بينها و بين المسمى اللغوى ، وهى باقية على الوضع اللغوى ، وضم إليها أركان وشرائط . فعلى ما قررناه : لاحاجة إلى شيء من ذلك ، فإن المصلى من أول صلاته إلى آخرها لا ينفك عن دعاء : إما دعاء عبادة وثناء ، أو دعاء طلب ومسألة ، وهو فى الحالين داع . اهـ ملخصاً من البدائع .

قال « وقوله (٢٧ : ٦٢ أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه و يكشف السوء و يجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون) بين تعالى أن المشركين من العرب ونحوهم قد علموا أنه لا يجيب المضطر ويكشف السوء إلا الله وحده فذكر ذلك سبحانه محتجاً عليهم فى اتخاذهم الشفعاء من دونه ، ولهذا قال (أإله مع الله ؟) يعنى يفعل ذلك . فإذا كانت آلهتهم لا تجيبهم فى حال الاضطرار ، فلا يصلح أن يجعلوها شركاء لله الذى يجيب المضطر إذا دعاه و يكشف السوء وحده . وهذا أصح ما فسرت به الآية كسابقتها من قوله (أمَّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها . أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون . أمَّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون) ولاحقتها إلى قوله (أمَّنْ يهديكم فى ظلمات البر والبحر ؟ ومن يرسل الرياح

وروى الطبرانى بإسناده « أنه كان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم منافق يؤذى المؤمنين ، فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه

بُشراً بين يدى رحمته أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون . أمّن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) .

فتأمل هذه الآيات يتبين لك أن الله تعالى احتج على المشركين بما أقروا به على ماجحدوه : من قَصْر العبادة جميعها عليه ، كما فى فاتحة الكتاب (إياك نعبد و إياك نستعين) .

قال أبو جعفر بن جرير : قوله (أمّن يجيب المضطر إذا دعاه و يكشف السوء — إلى قوله : قليلا ما تذكرون) يقول تعالى ذكره : أم ما تشركون بالله خير أم الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء النازل به عنه ؟ وقوله (و يجعلكم خلفاء الأرض) يقول : يستخلف بعد أمواتكم فى الأرض منكم خلفاء أحياء يخلفونهم ، وقوله (أإله مع الله) أإله سواه يفعل هذه الأشياء بكم وينعم عليكم هذه النعم ؟ وقوله (قليلا ما تذكرون) يقول تذكراً قليلاً من عظمة الله وأياديه عندكم تذكرون ، وتعتبرون حجج الله عليكم يسيراً. فلذلك أشركتم بالله غيره فى عبادته . اهـ

قوله : وروى الطبرانى بإسناده « أنه كان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم منافق يؤذى المؤمنين . فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إنه لا يستغاث بى ، وإنما يستغاث بالله » .

« الطبرانى » هو الإمام الحافظ سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمى الطبرانى ، صاحب المعاجم الثلاثة وغيرها . روى عن النسائى وإسحاق بن إبراهيم الديرى وخلق كثير . مات سنة ستين وثلاثمائة . روى هذا الحديث عن عُبادة بن الصامت رضى الله عنه .

قوله « أنه كان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم منافق يؤذى المؤمنين » لم أقف على اسم هذا المنافق :

قلت : هو عبد بن أبىّ كما صرح به ابن أبى حاتم فى روايته .

قوله « فقال بعضهم » أى الصحابة رضى الله عنهم ، هو أبو بكر رضى الله عنه

قوله « قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق لأنه صلى الله عليه وسلم يقدر على كف أذاه .

وسلم من هذا المنافق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنه لا يُستغاث بي ، وإنما يُستغاث بالله » .

قوله « إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله » فيه : النص على أنه لا يستغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم ولا بمن دونه . كره صلى الله عليه وسلم أن يستعمل هذا اللفظ في حقه ، وإن كان مما يقدر عليه في حياته ؛ حماية لجناب التوحيد ، وسدًّا لذرائع الشرك وأدباً وتواضعاً لربه ، وتحذيراً للأمة من وسائل الشرك في الأقوال والأفعال . فإذا كان هذا فيما يقدر عليه النبي صلى الله عليه وسلم في حياته ، فكيف يجوز أن يستغاث به بعد وفاته ، ويطلب منه أمور لا يقدر عليها إلا الله عز وجل ؟ كما جرى على ألسنة كثير من الشعراء كالبوصيري والبرعي وغيرهم ، من الاستغاثة بمن لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ويعرضون عن الاستغاثة بالرب العظيم القادر على كل شيء ، الذي له الخلق والأمر وحده وله الملك وحده ، لا إله غيره ، ولا رب سواه . قال تعالى (٧ : ١٨٧ قل : لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرًّا إلا ما شاء الله) في مواضع من القرآن (٧٢ : ٢١ قل إني لا أملك لكم ضرًّا ولا رشداً) فأعرض هؤلاء عن القرآن ، واعتقدوا نقيض ما دلت عليه هذه الآيات المحكمات وتبعهم على ذلك الضلال الخلق الكثير والجم الغفير . فاعتقدوا الشرك بالله ديناً ، والهدى ضلالا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . فما أعظمها من مصيبة عمت بها البلوى ، فعاندوا أهل التوحيد ، وبدعوا أهل التجريد ؛ فالله المستعان .

فيه مسائل :

الأولى : أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العامّ على الخاص .

الثانية : تفسير قوله (ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك) .

الثالثة : أن هذا هو الشرك الأكبر .

الرابعة : أن أصلح الناس لو يفعله إرضاء لغيره صار من الظالمين .

الخامسة : تفسير الآية التى بعدها .

السادسة : كون ذلك لا ينفع فى الدنيا ، مع كونه كفراً .

السابعة : تفسير الآية الثالثة .

الثامنة : أن طلبَ الرزق لا ينبغى إلا من الله ، كما أن الجنة لا تُطلب إلا منه .

التاسعة : تفسير الآية الرابعة .

العاشرة : أنه لا أضل ممن دعا غير الله .

الحادية عشرة : أنه غافل عن دعاء الداعى ، لا يدرى عنه .

الثانية عشرة : أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعى وعداوته له .

الثالثة عشرة : تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو .

الرابعة عشرة : كفر المدعو بتلك العبادة .

الخامسة عشرة : هى سبب كونه أضل الناس .

السادسة عشرة : تفسير الآية الخامسة .

السابعة عشرة : الأمر العجيب ، وهو إقرار الأوثان : أنه لا يجيب لمضطر إلا الله ، ولأجل هذا يدعونه فى الشدائد مخلصين له الدين .

الثامنة عشرة : حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم حِمى التوحيد ، والتأدب مع الله .

باب

قول الله تعالى : (٩ : ١١٩ ، ١٢٠ أيُشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون ؟ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون) .

قوله : باب قول الله تعالى :

(٧ : ١١٩ ، ١٢٠ أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون ؟ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون) .

قوله « أيشركون » أى فى العبادة . قال المفسرون : فى هذه الآية توبيخ وتعنيف للمشركين فى عبادتهم مع الله تعالى ما لا يخلق شيئاً وهو مخلوق ، والمخلوق لا يكون شريكا للخالق فى العبادة التى خلقهم لها ، وبين أنهم لا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ، فكيف يشركون به من لا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه ؟ وهذا برهان ظاهر على بطلان ما كانوا يعبدونه من دون الله ، وهذا وصف كل مخلوق ، حتى الملائكة والأنبياء والصالحين . وأشرف الخلق محمد صلى الله عليه وسلم قد كان يستنصر ربه على المشركين ويقول « اللهم أنت عضدى ونصيرى ، بك أحول ، وبك أصول ، وبك أقاتل » وهذا كقوله (٢٥ : ٣ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً) وقوله (٧:١٨٨ قل: لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضرًّا إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) وقوله (٧٢: ٢١—٢٣ قل: إنى لا أملك لكم ضرًّا ولا رشداً . قل : إنى لن يجيرنى من الله أحد ، ولن أجد من دونه مُلتحَداً . إلا بلاغاً من الله ورسالاته) .

فكفى بهذه الآيات برهاناً على بطلان دعوة غير الله كائناً من كان . فإن كان نبيًّا أو صالحاً فقد شرفه الله تعالى بإخلاص العبادة له ، والرضاء به رباً ومعبوداً ، فكيف يجوز أن يجعل العابد معبوداً مع توجيه الخطاب بالنهى عن هذا الشرك ؟ كما قال تعالى (٢٨ : ٨٨ ولا تدع مع الله إلهاً آخر ، لا إله إلا هو ، كل شىء هالك إلا وجهه . له الحكم وإليه

وقوله : (٣٥ : ١٣ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون

ترجعون) وقال (٤٠:١٢ إن الحكم إلا لله ؛ أمر أن لا تعبدوا إلا إياه) فقد أمر عباده من الأنبياء والصالحين وغيرهم بإخلاص العبادة له وحده ، ونهاهم أن يعبدوا معه غيره ، وهذا هو دينه الذى بعث به رسله ، وأنزل به كتبه ، ورضيه لعباده ، وهو دين الإسلام ، كما روى البخارى عن أبى هريرة فى سؤال جبريل عليه السلام ، قال : « يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان — الحديث » .

« وقوله (٢٥ : ١٣ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير) » يخبر تعالى عن حال المدعوين من دونه من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها بما يدل على عجزهم وضعفهم ، وأنهم قد انتفت عنهم الأسباب التى تكون فى المدعو ، وهى الملك ، وسماع الدعاء ، والقدرة على استجابته ، فمتى لم توجد هذه الشروط تامة بطلت دعوته ، فكيف إذا عدمت بالكلية ؟ فنفى عنهم الملك بقوله (ما يملكون من قطمير) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ، وعطاء والحسن وقتادة « القطمير : اللفافة التى تكون على نواة التمر » كما قال تعالى (١٦ : ٧٣ ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون) وقال (٢٤ : ٢٢ ، ٢٣ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما له منهم من ظهير . ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) ونفى عنهم سماع الدعاء بقوله (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم) لأنهم ما بين ميت وغائب عنهم ، مشتغل بما خلق له ، مسخر بما أمر به كالملائكة، ثم قال (ولو سمعوا ما استجابوا لكم) لأن ذلك ليس لهم ؛ فإن الله تعالى لم يأذن لأحد من عباده فى دعاء أحد منهم ، لا استقلالا ولا واسطة ، كما تقدم بعض أدلة ذلك . وقوله (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) فتبين بهذا أن دعوة غير الله شرك . وقال تعالى (١٩:٨١، ٨٢ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً) وقوله تعالى (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) قال ابن كثير : يتبرأون منكم ،

بِشركِكم ، ولا يُنَبِّئك مثلُ خبير) .

وفى الصحيح عن أنس قال « شُجَّ النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد . وكسرت ربَاعيته ، فقال : كيف يُفلح قوم شجّوا نبيهم ؟ فنزلت (٣ : ١٢٨ ليس لك من الأمر شيء) » .

كما قال تعالى (٤٦ : ٥ ، ٦ ومن أضلُّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) .

قال : وقوله (ولا ينبئك مثل خبير) أى ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها . قال قتادة : يعنى نفسه تبارك وتعالى ؛ فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

قلت : والمشركون لم يسلموا للعليم الخبير ما أخبر به عن معبوداتهم ، فقالوا : تملك وتسمع وتستجيب وتشفع لمن دعاها ، ولم يلتفتوا إلى ما أخبر به الخبير من أن كل معبود يعادى عابده يوم القيامة ويتبرأ منه ، كما قال تعالى (١٠ : ٢٨ — ٣٠ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أنتم وشركاؤكم فزَيَّلنَا بينهم ، وقال شركاؤهم : ما كنتم إيانا تعبدون . فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين هنالك تَبلُو كلُّ نفس ما أسلفت : وردوا إلى الله مولاهم الحق : وضل عنهم ما كانوا يفترون) .

أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : قال مجاهد : (إن كنا عن عبادتكم لغافلين) قال : يقول ذلك كل شيء كان يعبد من دون الله .

فالكيِّس يستقبل هذه الآيات التى هى الحجة والنور والبرهان والإيمان والقبول والعمل فيجرد أعماله لله وحده دون كل ماسواه ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا دفعاً ، فضلاً عن غيره .

قوله « وفى الصحيح عن أنس رضى الله عنه قال « شج النبى صلى الله عليه وسلم يوم أُحُدٍ وكسرت ربَاعيته . فقال : كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ؟ فنزلت (٣ : ١٢٨ ليس لك من الأمر شيء) » .

قوله « فى الصحيح » أى الصحيحين . علقه البخارى ، قال: وقال حميد وثابت : عن أنس . ووصله أحمد والترمذى والنسائى عن حميد عن أنس . ووصله مسلم عن ثابت عن أنس . وقال ابن إسحاق فى المغازى حدثنا حميد الطويل عن أنس قال « كسرت رباعية النبى

صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وشج وجهه ، فجعل الدم يسيل على وجهه ، وجعل يمسح الدم وهو يقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟ فأنزل الله الآية » .

قوله « شج النبي صلى الله عليه وسلم » قال أبو السعادات : الشج فى الرأس خاصة فى الأصل ، وهو أن يضربه بشىء فيجرحه فيه ويشقه ، ثم استعمل فى غيره من الأعضاء ، وذكر ابن هشام من حديث أبى سعيد الخدرى أن عُتبة بن أبى وَقَّاص هو الذى كسر رباعية النبى صلى الله عليه وسلم السفلى وجرح شفته العليا وأن عبد الله بن شهاب الزهرى هو الذى شجه فى وجهه ، وأن عبد الله بن قِمئة جرحه فى وَجْنته ، فدخلت حلقتان من حِلَق الْمِغْفَر فى وجنته وأن مالك بن سنان مص الدم من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وازدرده . فقال له : « لن تمسك النار » .

قال القرطبى : والرباعية — بفتح الراء وتخفيف الياء — وهى كل سن بعد ثنية .

قال النووى رحمه الله : وللإنسان أربع رباعيات .

قال الحافظ : والمراد : أنها كسرت ، فذهب منها فلقة ، ولم تقلع من أصلها .

قال النووى : وفى هذا : وقوع الأسقام والابتلاء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ؛ لينالوا بذلك جزيل الأجر والثواب ، ولتعرف الأمم ما أصابهم ويأتسوا بهم .

قال القاضى : وليعلم أنهم من البشر تصيبهم محن الدنيا ، ويطرأ على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر ، ليتيقن أنهم مخلوقون مربوبون ، ولا يفتتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات ، ويلبس الشيطان من أمرهم ما لبسه على النصارى وغيرهم . انتهى .

قلت : يعنى : من الغلو والعبادة .

قوله « يوم أحد » هو شرقى المدينة ، قال صلى الله عليه وسلم « أحد جبل يحبنا ونحبه » وهو جبل معروف كانت عنده الواقعة المشهورة ، فأضيفت إليه .

قوله « كيف يفلح قوم شجّوا نبيهم » زاد مسلم : « كسروا رباعيته وأدموا وجهه » .

قوله « فأنزل الله (ليس لك من الأمر شىء) » قال ابن عطية : كأن النبى صلى الله عليه وسلم لحَقَه فى تلك الحال يأس من فلاح كفار قريش ؛ فقيل له بسبب ذلك (ليس لك من الأمر شىء) أى : عواقب الأمور بيد الله ، فَامْضِ أنت لشأنك ، وَدُمْ على الدعاء لربك .

وفيه عن ابن عمر رضى الله عنهما : أنه سمع رسول الله صلى عليه وسلم يقول — إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الأخيرة من الفجر — : «اللهم العن فلانًا وفلانًا ، بعد ما يقول « سمع الله لمن حمده

وقال ابن إسحاق : (ليس لك من الأمر شىء) فى عبادى إلا ما أمرتك به فيهم .

قوله « وفيه عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول — إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الأخيرة من الفجر : « اللهم العن فلاناً وفلاناً ، بعد ما يقول : سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد ، فأنزل الله (ليس لك من الأمر شىء) » .

وفى رواية يدعو على صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام ، فنزلت (ليس لك من الأمر شىء) » .

قوله « وفيه » أى : فى صحيح البخارى ، رواه النسائى .

قوله « عن ابن عمر » هو عبد الله بن عمر بن الخطاب ، صحابى جليل . شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاح . مات سنة ثلاث وسبعين فى آخرها ، أو فى أول التى تليها .

قوله « أنه سمع رسول الله » هذا القنوت على هؤلاء بعدما شج وكسرت رباعيته يوم أحد

قوله « اللهم العن فلاناً وفلاناً » قال أبو السعادات : أصل اللعن : الطرد والإبعاد من الله ومن الخلق : السب والدعاء ، وتقدم كلام شيخ الإسلام رحمه الله .

قوله « فلاناً وفلاناً » يعنى صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام ، كما بيَّنه فى الرواية الآتية .

وفيه جواز الدعاء على المشركين بأعيانهم فى الصلاة ، وأن ذلك لا يضر فى الصلاة .

قوله « بعد ما يقول : سمع الله لمن حمده » قال أبو السعادات : أىْ : أجاب الله حمده وتقبله . وقال السهيلى : مفعول « سمع » محذوف ؛ لأن السمع متعلق بالأقوال والأصوات دون غيرها ، فاللام تؤذن بمعنى زائد وهو الاستجابة للسمع ، فاجتمع فى الكلمة الإيجاز والدلالة على الزائد ، وهو الاستجابة لمن حمده .

وقال ابن القيم رحمه الله ما معناه : عدّى « سمع الله لمن حمده » باللام المتضمنة معنى : استجاب له . ولا حذف هناك ، وإنما هو مضمن .

ربنا ولك الحمد ، فأنزل الله (ليس لك من الأمر شيء — الآية) » .

وفي رواية « يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هِشام فنزلت (ليس لك من الأمر شيء) » .

قوله « ربنا ولك الحمد » في بعض روايات البخاري بإسقاط الواو . قال ابن دقيق العيد : كأن إثباتها دال على معنى زائد ، لأنه يكون التقدير : ربنا استجب ولك الحمد ، فيشتمل على معنى الدعاء ومعنى الخبر .

قال شيخ الإسلام : والحمد ضد الذم ، والحمد يكون على محاسن المحمود مع المحبة له ، كما أن الذم يكون على مساويه مع البغض له .

وكذا قال ابن القيم . وفرق بينه وبين المدح بأن الإخبار عن محاسن الغير : إما أن يكون إخباراً مجرداً عن حب وإرادة ، أو يكون مقروناً بحبه وإرادته . فإن كان الأول فهو المدح ، وإن كان الثاني فهو الحمد . فالحمد : إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه ولهذا كان خبراً يتضمن الإنشاء ، بخلاف المدح ؛ فإنه خبر مجرد . فالقائل إذا قال «الحمد لله» أو قال « ربنا ولك الحمد » تضمن كلامه الخبر عن كل ما يحمد عليه تعالى باسم جامع محيط متضمن لكل فرد من أفراد الجملة المحققة والمقدرة ، وذلك يستلزم كل كمال يحمد عليه الرب تعالى ، ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه ولا تنبغي إلا لمن هذا شأنه ، وهو الحميد المجيد .

وفيه : التصريح بأن الإمام يجمع بين التسميع والتحميد ، وهو قول الشافعي وأحمد وخالف في ذلك مالك وأبو حنيفة ، وقالا : يقتصر على « سمع الله لمن حمده » .

قوله « وفي رواية يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام » .

وذلك لأنهم رءوس المشركين يوم أحد ، هم وأبو سفيان بن حرب ، فما استجيب له النبي صلى الله عليه وسلم فيهم ، بل أنزل الله (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم) فتاب عليهم فأسلموا وحسن إسلامهم . وفي هذا كله : معنى شهادة أن لا إله إلا الله ، الذي له الأمر كله ، يهدي من يشاء بفضله ورحمته ، ويضل من يشاء بعدله وحكمته .

وفي هذا من الحجج والبراهين : ما يبين بطلان ما يعتقده عباد القبور في الأولياء والصالحين . بل في الطواغيت من أنهم ينفعون من دعاهم ، ويمنعون من لاذ بحماهم . فسبحان من حال

وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : «قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل عليه (وأَنْذِرْ عشيرتك الأقربين) فقال : يا معشر قريش —

بينهم و بين فهم الكتاب ، وذلك عدله سبحانه ، وهو الذى يحول بين المرء وقلبه ، و به الحول والقوة .

قوله « وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : «قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عليه (٢٦ : ٢١٤ وأنذر عشيرتك الأقربين) فقال : يا معشر قريش — أو كلمة نحوها — اشتروا أنفسكم ؛ لا أغنى عنكم من الله شيئاً . يا عباس بن عبدالمطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئاً . يا صفية عمة رسول الله ، لا أغنى عنك من الله شيئاً . يا فاطمة بنت محمد ، سليني من مالى ماشئت ، لا أغنى عنك من الله شيئاً » .

قوله « وفيه » أى : وفى صحيح البخارى .

قوله « عن أبى هريرة » اختلف فى اسمه . وصحح النووى أن اسمه : عبد الرحمن بن صخر ، كما رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة قال « كان اسمى فى الجاهلية عبد شمس ابن صخر ، فسميت فى الإسلام عبد الرحمن » وروى الدولابى بإسناده عن أبى هريرة « أن النبى صلى الله عليه وسلم سماه عبد الله » وهو دَوْسِيٌّ من فضلاء الصحابة وحفاظهم حفظ عن النبى صلى الله عليه وسلم أكثر مما حفظه غيره . مات سنة سبع — أو ثمان ، أو تسع وخمسين ، وهو ابن ثمان وسبعين سنة .

قوله « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم » فى الصحيح من رواية ابن عباس « صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا » .

قوله « حين أنزل عليه (وأنذر عشيرتك الأقربين) عشيرة الرجل : هم بنو أبيه الأدنون أو قبيلته ؛ لأنهم أحق الناس ببرِّك وإحسانك الدينى والدنيوى ، كما قال تعالى (٦٦ : ٥ يا أيها الذين آمنوا ، قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً وَقُودُها الناس والحجارة) وقد أمره الله تعالى أيضاً بالنذارة العامة ، كما قال تعالى (٣٦ : ٦ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) ، (١٤ : ٤٤ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب) .

قوله « يا معشر قريش » المعشر : الجماعة .

قوله « أو كلمة نحوها » هو بنصب « كلمة » عطف على ماقبله .

أو كلمةً نحوها — اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئاً يا عباس بنَ عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئا . يا صفية عمةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أغنى عنكِ مِن الله شيئا .

ويا فاطمة بنتَ محمد ، سليني من مالى ما شئت ، لا أغنى عنكِ من الله شيئا » .

قوله « اشتروا أنفسكم » أى بتوحيد الله وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له وطاعته فيما أمر به والانتهاء عما نهى عنه . فإن ذلك هو الذى ينجى من عذاب الله لا الاعتماد على الأنساب والأحساب ؛ فإن ذلك غير نافع عند رب الأرباب .

قوله « لا أغنى عنكم من الله شيئاً » فيه حجة على من تعلق على الأنبياء والصالحين، ورغب إليهم ليشفعوا له وينفعوه ، أو يدفعوا عنه ، فإن ذلك هو الشرك الذى حرمه الله تعالى ، وأقام نبيه صلى الله عليه وسلم بالإنذار عنه ، كما أخبر تعالى عن المشركين فى قوله (٣٩ : ٣ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) . (١٠ : ١٨ هؤلاء شفعاؤنا عند الله) فأبطل الله ذلك ونزّه نفسه عن هذا الشرك ، وسيأتى تقرير هذا المقام إن شاء الله تعالى . وفى صحيح البخارى « يا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئاً » .

قوله « يا عباس بن عبد المطلب » بنصب « ابن » ويجوز فى « عباس » الرفع والنصب وكذا فى قوله « ياصفية عمة رسول الله ، ويافاطمة بنت محمد » .

قوله « سليني من مالى ما شئت » . بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لاينجى من عذاب الله إلا الإيمان والعمل الصالح .

وفيه : أنه لايجوز أن يسأل العبد إلا مايقدر عليه من أمور الدنيا . وأما الرحمة والمغفرة والجنة والنجاة من النار ونحو ذلك من كل ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، فلا يجوز أن يطلب إلا منه تعالى ؛ فإن ما عند الله لاينال إلا بتجريد التوحيد ، والإخلاص له بما شرعه لعباده أن يتقربوا إليه ، فإذا كان لا ينفع بنته ولا عمه ولا عمته ولا قرابته إلا ذلك ، فغيرهم أولى وأحرى . وفى قصة عمه أبى طالب معتبر .

فانظر إلى الواقع الآن من كثير من الناس من الالتجاء إلى الأموات والتوجه إليهم

بالرغبات والرهبات ، وهم عاجزون لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعاً ، فضلا عن غيرهم — يتبين لك أنهم ليسوا على شيء (٨ : ٣٠ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون) أظهر لهم الشيطان الشرك فى قالب محبة الصالحين ، وكل صالح يبرأ إلى الله من هذا الشرك فى الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . ولا ريب أن محبة الصالحين إنما تحصل بموافقتهم فى الدين ، ومتابعتهم فى طاعة رب العالمين ، لا باتخاذهم أنداداً من دون الله يحبونهم كحب الله إشراكا بالله ، وعبادة لغير الله ، وعداوة لله ورسوله والصالحين من عباده كما قال تعالى (٥ : ١١٦ ، ١١٧ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ، أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ، ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب . ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به أن أعبدوا الله ربى وربكم . وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد) .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله فى هذه الآية بعد كلام سبق : ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمر به وهو محض التوحيد فقال (ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن أعبدوا الله ربى وربكم) ثم أخبر أن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم ، وأنه بعد الوفاة لا اطلاع له عليهم ، وأن الله عز وجل المتفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم فقال (وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد) وصف الله سبحانه بأن شهادته فوق كل شهادة وأعم اه .

قلت : ففى هذا بيان أن المشركين خالفوا ما أمر الله به رسله : من توحيده الذى هو دينهم الذى اتفقوا عليه ودعوا الناس إليه ، وفارقوهم فيه إلا من آمن ، فكيف يقال لمن دان بدينهم ، وأطاعهم فيما أمروا به من إخلاص العبادة لله وحده : إنه قد تنقصهم بهذا التوحيد الذى أطاع به ربه ، واتبع فيه رسله عليهم السلام ونزه به ربه عن الشرك الذى هو هضم للربوبية وتنقص للإلهية وسوء ظن برب العالمين ؟ .

والمشركون هم أعداء الرسل وخصماؤهم فى الدنيا والآخرة ، وقد شرعوا لأتباعهم أن يتبرأوا من كل مشرك ويكفروا به ، ويبغضوه ويعادوه فى ربهم ومعبودهم (٦ : ١٠٩ قل فلله الحجة البالغة فلوشاء لهداكم أجمعين) .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآيتين .

الثانية : قصة أحد .

الثالثة : قنوت سيد المرسلين ، وخلفه سادات الأولياء يؤمّنون في الصلاة.

الرابعة : أن المدعو عليهم كفار .

الخامسة : أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار ، منها : شجّهم نبيهم وحرصهم على قتله . ومنها . التمثيل بالقتلى ، مع أنهم بنو عمهم .

السادسة : أنزل الله عليه في ذلك (ليس لك من الأمر شيء) .

السابعة : قوله (أو يتوب عليهم أو يعذبهم) فتاب عليهم فآمنوا .

الثامنة : القنوت في النوازل .

التاسعة : تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم .

العاشرة : لعن المعيّن في القنوت .

الحادية عشرة : قصته صلى الله عليه وسلم لما أنزل عليه (وأنذر عشيرتك الأقربين) .

الثانية عشرة : جده صلى الله عليه وسلم بحيث فعل ما نُسب بسببه إلى الجنون ، وكذلك لو يفعله مسلم الآن .

الثالثة عشرة : قوله للأبعد والأقرب « لا أغني عنك من الله شيئًا » حتى قال : « يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنكِ من الله شيئًا » فإذا صرح وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئًا عن سيدة نساء العالمين ، وآمن الإنسان أنه صلى الله عليه وسلم لا يقول إلا الحق ، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس اليوم ، تبين له التوحيد وغربة الدين .

باب

قول الله تعالى : (٣٤ : ٢٣ حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحقَّ ، وهو العليُّ الكبيرُ) .

قوله : باب « قول الله تعالى :

(٣٤ : ٢٣ حتى إذا فزع عن قلوبهم » أى زال الفزع عنها . قاله ابن عباس وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمى والشعبى والحسن وغيرهم .

وقال ابن جرير : قال بعضهم : الذى فُزِّع عن قلوبهم : الملائكة . قالوا : وإنما فُزِّع عن قلوبهم من غشية تصيبهم عند سماعهم كلام الله بالوحى .

وقال ابن عطية : فى الكلام حذف يدل عليه الظاهر . كأنه قال : ولا هم شفعاء كما تزعمون أنتم ، بل هم عَبَدَةٌ مسلمون لله أبداً ، يعنى : ينقادون ، حتى إذا فزع عن قلوبهم . والمراد : الملائكة ، على ما اختاره ابن جرير وغيره .

قال ابن كثير : وهو الحق الذى لا مرية فيه ؛ لصحة الأحاديث فيه والآثار .

وقال أبو حيان : تظاهرت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قوله (حتى إذا فزع عن قلوبهم) إنما هى فى الملائكة إذا سمعت الوحى إلى جبريل يأمره الله به ، سمعت كجرِّ سلسلة الحديد على الصَّفوان ، فتفزع عند ذلك تعظيما وهيبة . قال : وبهذا المعنى — مِنْ ذكر الملائكة فى صدر الآية — تتَّسق هذه الآية على الأولى ، ومن لم يشعر أن الملائكة مشار إليهم من أول قوله (الذين زعمتم) لم تتصل له هذه الآية بما قبلها .

قوله « قالوا : ماذا قال ربكم ؟ » ولم يقولوا : ماذا خلق ربنا ؟ ولو كان كلام الله مخلوقا لقالوا : ماذا خلق ؟ انتهى من شرح سنن ابن ماجة .

ومثله الحديث « ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ » وأمثال هذا فى الكتاب والسنة كثير .

قوله « قالوا : الحق » أى قال الله الحق . وذلك لأنهم إذا سمعوا كلام الله صعقوا ، ثم إذا أفاقوا أخذوا يسألون ، فيقولون : ماذا قال ربكم ؟ فيقولون : قال الحق .

قوله « وهو العلى الكبير » علو القدر وعلو القهر وعلو الذات ، فله العلو الكامل من

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قَضَى اللهُ الأَمرَ في السماء »

جميع الوجوه ، كما قال عبد الله بن المبارك — لَمَّا قيل له : بماذا نعرف ربنا ؟ قال « بأنه على عرشه بائن من خلقه » تمسكا منه بالقرآن ، لقوله تعالى (٢٠ : ٥ الرحمن على العرش استوى)، (٢٥ : ٥٩ ثم استوى على العرش الرحمن) في سبعة مواضع من القرآن (٧ : ٥٣ و ١٠ : ٣ و ١٤ : ٢ و ٣٢ : ٤ و ٥٧ : ٤) .

قوله « الكبير » أي الذي لا أكبر منه ولا أعظم منه تبارك وتعالى .

قوله « في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعَاناً لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ، ينفذهم ذلك ، حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مُسترِق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض — وصفه سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه — فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة ، فقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء » .

قوله « في الصحيح » أي صحيح البخاري .

قوله « إذا قضى الله الأمر في السماء » أي إذا تكلم الله بالأمر الذي يوحيه إلى جبريل بما أراده ، كما صرح به في الحديث الآتي ، وكما روى سعيد بن منصور وأبو داود وابن جرير عن ابن مسعود « إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صلصلة كجَر السلسلة على الصفوان » .

وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : « لما أوحى الجبار إلى محمد صلى الله عليه وسلم دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحي ، فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي : فلما كشف عن قلوبهم سألوا عما قال الله ؟ فقالوا : الحق . وعلموا أن الله لا يقول إلا حقاً » .

ضَربت الملائـكة بأجنحتها خضعاناً لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان يَنفذُهم ذلك ، حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحقَّ ، وهو العليُّ الـكبير . فيسمعها مُسترق السمع — ومسـترق السمع هكذا بعضه فوق بعض — وَصَفه سفيان بكفه ،

قوله « ضربت الملائـكة بأجنحتها خضعاناً لقوله » أى لقول الله تعالى ، قال الحافظ : خضعاناً بفتحتين من الخضوع . وفى رواية بضم أوله وسكون ثانية . وهو مصدر بمعنى خاضعين .

قوله « كأنه سلسلة على صفوان » أى كأن الصوت المسموع سلسلة على صفوان ، وهو الحجر الأملس .

قوله « ينفذهم ذلك » هو بفتح التحتية وسكون النون وضم الفاء والذال المعجمة «ذلك» أى القول ، والضمير فى « ينفذهم » للملائـكة ، أى ينفذ ذلك القولُ الملائـكة : أى يخلص ذلك القول ويمضى فيهم حتى يفزعوا منه ، وعند ابن مردويه من حديث ابن عباس « فلا ينزل على أهل سماء إلا صعقوا » وعند أبى داود وغيره مرفوعاً « إذا تـكلم الله بالوحى سمع أهل السماء الدنيا صلصلة كجر السلسلة على الصفوان فيصعقون ، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل » الحديث .

قوله (حتى إذا فزع عن قلوبهم) تقدم معناه .

قوله « قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق » أى قالوا : قال الله الحق ، علموا أن الله لا يقول إلا الحق .

قوله « فيسمعها مسترق السمع » أى يسمع الـكلمة التى قضاها الله ، وهم الشياطين يركب بعضهم بعضاً ، وفى صحيح البخارى عن عائشة مرفوعاً « إن الملائـكة تنزل فى العنان — وهو السحاب — فتذكر الأمر قُضِىَ فى السماء ، فتسترق الشياطين السمع ، فتوحيه إلى الـكُهّان » .

قوله « ومسترق السمع هكذا وصفه سفيان بكفه » أى وصف ركوب بعضهم فوق بعض .

خرّقها وبدّد بين أصابعه — فيسمع الكلمة فيلقيها إلى مَن تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى مَن تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشّهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يُدركه ، فيكذب معها مائة كذبة .

و « سفيان » هو ابن عيينة أبو محمد الهلالى الكوفى ، ثم المكى ، ثقة حافظ ، فقيه إمام حجة . مات سنة ثمان وتسعين ومائة ، وله إحدى وتسعون سنة .

قوله « خرّقها » بخاء مهملة وراء مشددة وقاء . قوله « و بدد » أى فرق بين أصابعه

قوله « فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته » أى يسمع الفوقانى الكلمة ، فيليها إلى آخر تحته ، ثم يلقيها إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن .

قوله « فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها » الشهاب : هو النجم الذى يرمى به ، أى ربما أدرك الشهابُ المسترِقَ ، وهذا يدل على أن الرمى بالشهب قبل المبعث . لما روى أحمد وغيره — والسياق له فى المسند من طريق معمر — : أنبأنا الزهرى عن على بن الحسين عن ابن عباس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً فى نفر من أصحابه — قال عبد الرزاق : من الأنصار — قال : فرُمى بنجم عظيم ، فاستنار ، قال : ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا فى الجاهلية ؟ قال : كنا نقول : لعله يولد عظيم أو يموت عظيم — قلت للزهرى : أكان يرمى بها فى الجاهلية ؟ قال : نعم ، ولكن غلظت حين بعث النبى صلى الله عليه وسلم — قال : فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا تبارك اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح هذه السماء الدنيا . ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش ، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماء سماء ، حتى ينتهى الخبر إلى هذه السماء ، وتخطِفُ الجنُّ السمعَ فيرمون ، فما جاءوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يَقْرِفون فيه ويزيدون » قال عبد الله : قال أبى : قال عبد الرزاق « ويخطف الجن ويرمون » وفى رواية له « لكنهم يزيدون فيه ويقرفون وينقصون » .

قوله « فيكذب معها مائة كذبة » أى الكاهن أو الساحر .

فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا : وكذا ، كذا وكذا ؟ فيصدّق بتلك الكلمة التى سُمعت من السماء » .

وعن النوّاس بن سمعان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر تكلم بالوحى أخذَت السموات منه رَجفة ،

« وكذبة » بفتح الكاف وسكون الذال المعجمة .

قوله « فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا ؟» هكذا فى نسخة بخط المصنف ، كالذى فى صحيح البخارى سواء .

قال المصنف « وفيه : قبول النفوس للباطل ، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة كذبة ؟ » .

وفيه : أن الشىء إذا كان فيه شىء من الحق فلا يدل على أنه حق كله ، فكثيراً ما يلبس أهل الضلال الحق بالباطل ، ليكون أقبل لباطلهم ، قال تعالى (٢:٤٢ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) .

وفى هذه الأحاديث وما بعدها وما فى معناها : إثبات علو الله تعالى على خلقه على ما يليق بجلاله وعظمته ، وأنه تعالى لم يزل متكلما إذا شاء بكلام يسمعه الملائكة ، وهذا قول أهل السنة قاطبة سلفاً وخلفاً ، خلافاً للأشاعرة والجهمية ، ونفاة المعتزلة . فإياك أن تلتفت إلى ما زخرفه أهل التعطيل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

قوله « وعن النواس بن سمعان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر تكلم بالوحى أخذت السمواتِ منه رَجفةٌ — أو قال رعدة — شديدة ، خوفاً من الله عز وجل . فإذا سمع ذلك أهل السموات والأرض صُعقوا وخرُّوا لله سجَّداً ، فيكون أولَ من يرفع رأسه جبريلُ ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ثم يمرّ جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال الحق ، وهو العلى الكبير . فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهى جبريل بالوحى إلى حيث أمره الله عز وجل » .

هذا الحديث رواه ابن حاتم بسنده كما ذكره العماد بن كثير فى تفسيره .

— أو قال : رعدة — شديدة ، خوفاً من الله عز وجل . فإذا سمع ذلك أهل السموات صُعقوا وخرُّوا لله سُجداً ،

النواس بن سمعان — بكسر السين — بن خالد الكلابى، و يقال : الأنصارى، صحابى. و يقال : إن أباه صحابى أيضاً .

قوله « إذا أراد الله أن يوحى بالأمر — إلى آخره » فيه : النص على أن الله تعالى يتكلم بالوحى . وهذا من حجة أهل السنة على النفاة ، لقولهم : لم يزل الله متكلما إذا شاء .

قوله « أخذت السموات منه رجفة » السموات مفعول مقدم ، والفاعل « رجفة » أى : أصاب السموات من كلامه تعالى رجفة ، أى : ارتجفت . وهو صريح فى أنها تسمع كلامه تعالى ، كما روى ابن أبى حاتم عن عكرمة . قال « إذا قضى الله أمراً تكلم تبارك وتعالى رجفت السموات والأرض والجبال ، وخرت الملائكة كلهم سجداً » .

وقوله « أو قال : رعدة شديدة » شك من الراوى . هل قال النبى صلى الله عليه وسلم رجفة ، أو قال رعدة . والراء مفتوحة فيهما .

قوله « خوفاً من الله عز وجل » وهذا ظاهر فى أن السموات تخاف الله ، بما يجعل تعالى فيها من الإحساس ومعرفة من خلقها . وقد أخبر تعالى : أن هذه المخلوقات العظيمة تسبحه كما قال تعالى (١٧ : ٤٤ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ؛ إنه كان حليما غفوراً) وقال تعالى : (١٩ : ٩٠ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتَخِرُّ الجبال هدًّا) وقال تعالى : (٢ : ٧٤ وإن منها لما يهبط من خشية الله) وقد قرر العلامة ابن القيم رحمه الله أن هذه المخلوقات تسبح الله وتخشاه حقيقة ، مستدلا بهذه الآيات وما فى معناها .

وفى البخارى عن ابن مسعود قال « كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل » وفى حديث أبى ذر « أن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ فى يده حصيات ، فسُمع لهن تسبيح — الحديث » وفى الصحيح قصة حَنين الجذْع الذى كان يخطب عليه النبى صلى الله عليه وسلم قبل اتخاذ المنبر . ومثل هذا كثير .

قوله « صُعقوا وخروا لله سجداً » الصعوق : هو الغشى ، ومعه السجود .

فيكون أولَ من يرفع رأسَه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل : قال : الحق ، وهو العليُّ الكبير . فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمر الله عز وجل » .

قوله « فيكون أولَ من يرفع رأسه جبريل » بنصب « أول » خبر يكون مقدم على اسمها ، ويجوز العكس . ومعنى جبريل : عبد الله ، كما روى ابن جرير وغيره عن علي ابن الحسين قال : كان اسم جبريل : عبد الله ، واسم ميكائيل : عُبيد الله ، وإسرافيل : عبد الرحمن . وكل شيء رجع إلى « إيل » فهو مُعبَّد لله عز وجل .

وفيه : فضيلة جبريل عليه السلام ، كما قال تعالى (٨١ : ١٩ — ٢١ إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين . مُطاع ثَمّ أمين) .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : إن هذا القرآن لَتبليغ رسول كريم .

وقال أبو صالح في الآية « جبريل يدخل في سبعين حجاباً من نور بغير إذن » .

ولأحمد بإسناد صحيح عن ابن مسعود قال « رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته وله ستمائة جناح ، كل جناح منها قد سد الأفق ، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم » فإذا كان هذا عِظم هذه المخلوقات ، فخالقها أعظم وأجلّ وأكبر . فكيف يسوَّى به غيره في العبادة : دعاء وخوفاً ورجاء وتوكلا ، وغير ذلك من العبادات التي لا يستحقها غيره ؟ فانظر إلى حال الملائكة وشدة خوفهم من الله تعالى وقد قال تعالى (٢٢ : ٢٦ — ٢٩ بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم : إني إله من دونه ، فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزي الظالمين) .

قوله « فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل من السماء والأرض » وهذا تمام الحديث . والآيات المذكورة في هذا الباب والأحاديث تقرر التوحيد الذي هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله ، فإن الملك العظيم الذي تُصعق الأملاك من كلامه خوفاً منه ومهابة ، وترجف منه المخلوقات ، الكامل في ذاته وصفاته ، وعلمه وقدرته ، وملكه وعزه

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآية .

الثانية : ما فيها من الحجة على إبطال الشرك ، خصوصاً ما تعلّق على الصالحين ، وهى الآية التى قيل : إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب .

الثالثة : تفسير قوله (قالوا : الحق ، وهو العلى الكبير) .

الرابعة : سبب سؤالهم عن ذلك .

الخامسة : أن جبرائيل يجيبهم بعد ذلك بقوله . « قال كذا وكذا » .

السادسة : ذكر أن أول من يرفع رأسه جبرائيل .

السابعة : أنه يقول لأهل السموات كلهم لأنهم يسألونه .

الثامنة : أن الغشى يعم أهل السموات كلهم .

التاسعة : ارتجاف السموات بكلام الله .

العاشرة : أن جبرائيل هو الذى ينتهى بالوحى إلى حيث أمره الله .

الحادية عشرة : ذكر استراق الشياطين .

وغناه عن جميع خلقه ، وافتقارهم جميعاً إليه ، ونفوذ تصرفه وقدره فيهم ، لعلمه وحكمته لا يجوز شرعاً ولا عقلاً أن يجعل له شريك من خلقه فى عبادته التى هى حقه عليهم ، فكيف يجعل المربوب رباً ، والعبد معبوداً ؟ أين ذهبت عقول المشركين ؟ سبحان الله عما يشركون .

وقال تعالى : (١٩: ٩٣—٩٥ إنْ كلُّ مَنْ فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدّهم عدًّا . وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً) فإذا كان الجميع عبيداً فلِمَ يَعبدُ بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان ، بل بمجرد الرأى والاختراع والابتداع ؟ ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك الشرك ، وتنهاهم عن عبادة ما سوى الله . انتهى من شرح سنن ابن ماجة .

الثانية عشرة : صفة ركوب بعضهم بعضًا .

الثالثة عشرة : إرسال الشهاب .

الرابعة عشرة : أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وتارة يلقيها فى أذن وليّه من الإنس قبل أن يدركه .

الخامسة عشرة : كون الكاهن يصدُق بعض الأحيان .

السادسة عشرة : كونه يكذب معها مائة كذبة .

السابعة عشرة : أنه لم يصدق كذبه إلا بتلك الكلمة التى سُمعت من السماء .

الثامنة عشرة : قبــول النفوس للباطل ، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة ؟

التاسعة عشرة : كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ، ويحفظونها ويستدلون بها .

العشرون : إثبات الصفات ، خلافا للأشعرية المعطلة .

الحادية والعشرون : أن تلك الرجفة والغشى خوفًا من الله عز وجل .

الثانية والعشرون : أنهم يخرّون لله سُجداً .

باب الشفاعة

وقول الله عز وجل:(٦:٥١ وأَنْذِر به الذين يخافون أن يُحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولِيٌّ ولا شفيع لعلهم يتقون) وقوله : (٣٩ : ٤٤ قل: لله الشفاعةُ جميعًا)

قوله « باب الشفاعة »

أى : بيان ما أثبته القرآن منها وما نفاه ، وحقيقة ما دل القرآن على إثباته .

قوله « وقول الله عز وجل (٦:٥١ وأنذر به الذين يخافون أن يُحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولىٌّ ولا شفيع) » الإنذار هو الإعلام بأسباب المخافة ، والتحذير منها .

قوله «به» قال ابن عباس « بالقرآن (الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) وهم المؤمنون » وعن الفضَيل بن عياض « ليس كلّ خلقه عاتب ، إنما عاتب الذين يعقلون ، فقال : (وأنذرْ به الناس الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) وهم المؤمنون أصحاب القلوب الواعية » .

قوله (ليس لهم من دونه ولىٌّ ولا شفيع) قال الزجاج : موضع « ليس » نصب على الحال ، كأنه قال : متخلِّين من كل ولىّ وشفيع . والعامل فيه « يخافون » .

قوله (لعلهم يتقون) أي: فيعملون فى هذه الدار عملا ينجيهم الله به من عذاب يوم القيامة.

وقوله (٣٩ : ٤٤ قل : لله الشفاعة جميعاً) وقبلها (أَمِ اتخذوا من دونِ الله شفعاء ؛ قل : أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون؟) وهذه كقوله تعالى (١٠:١٨ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم : ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل : أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض؟ سبحانه وتعالى عما يشركون) فبين تعالى فى هذه الآيات وأمثالها : أن وقوع الشفاعة على هذا الوجه منتفٍ وممتنع ، وأن اتخاذهم شفعاء شركٌ ، يتنزه الرب تعالى عنه . وقد قال تعالى (٤٦ : ٢٨ فلولا نَصرهم الذين اتخذوا من دون الله قُرباناً آلهة ؟ بل ضلوا عنهم ، وذلك إفكهم وما كانوا يفترون) فبين تعالى : أن دعواهم أنهم يشفعون لهم بتألّههم : أن ذلك منهم إفك وافتراء .

وقوله تعالى(قل: لله الشفاعة جميعاً) أى:هو مالكها ، فليس لمن تُطلب منه شىء منها ، وإنما تطلب ممن يملكها دون كل من سواه ، لأن ذلك عبادة وتأليه لا يصلح إلا لله .

وقوله : (٢ : ٢٥٥ مَن ذا الذى يشفعُ عنده إلا بإذنه ؟) .

وقوله : (٥٣ : ٢٦ وكم مِن مَلَك فى السموات لا تُغنى شفاعتُهم شيئًا إلا مِن بعد أن يأذن اللهُ لمن يشاء ويرضى) .

قال البيضاوى : لعله ردٌّ لما عسى أن يجيبوا به ، وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون .

وقوله تعالى (له ملك السموات والأرض) تقرير لبطلان اتخاذ الشفعاء من دونه ؛ لأنه مالك الملك . فاندرج فى ذلك ملك الشفاعة ، فإذا كان هو مالكها بطل أن تطلب ممن لا يملكها (٢ : ٢٥٥ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟) ، (٢١ : ٢٨ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) .

قال ابن جرير : نزلت لما قال الكفار : ما نعبد أوثاننا هذه إلا ليقربونا إلى الله زلفى . قال الله تعالى (له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون) .

قال « وقوله (٢ : ٢٥٥ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) قد تبين مما تقدم من الآيات : أن الشفاعة التى نفاها القرآن هى التى تطلب من غير الله . وفى هذه الآية : بيان أن الشفاعة إنما تقع فى الدار الآخرة بإذنه : كما قال تعالى (٢٠ : ١٠٩ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورَضِىَ له قولا) فبين أنها لا تقع لأحد إلا بشرطين : إذن الرب تعالى للشافع أن يشفع ، ورضاه عن المأذون بالشفاعة فيه ، وهو تعالى لا يرضى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة إلا ما أريد به وجهه ، ولقى العبد به ربه مخلصاً غير شاك فى ذلك كما دل على ذلك الحديث الصحيح : وسيأتى ذلك مقرراً أيضاً فى كلام شيخ الإسلام رحمه الله .

وقوله « (٥٣ : ٢٦ وكم ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) » قال ابن كثير رحمه الله (وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) كقوله (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟) (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فإذا كان هذا فى حق الملائكة المقربين فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأنداد عند الله ، وهو لم يشرع عبادتها ، ولا أذن فيها ، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله ، وأنزل بالنهى عن ذلك جميع كتبه ؟

وقوله (٣٤ : ٢٢ ، ٢٣ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وما لهم فيهما من شِرك ، وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أَذِن له) .

قال « وقوله تعالى (٣٤ : ٢٢ ، ٢٣ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك ، وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) » .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى فى الكلام على هذه الآيات : وقد قطع الله الأسباب التى يتعلق بها المشركون جميعها . فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع ، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع : إما مالك لما يريد عابده منه ، فإن لم يكن مالكاً كان شريكا للمالك ، فإن لم يكن شريكا له كان معيناً له وظهيراً ، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده . فنفى الله سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً ، متنقلا من الأعلى إلى الأدنى . فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التى يطلبها المشرك ، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك ، وهى الشفاعة بإذنه . فكفى بهذه الآية نوراً وبرهاناً ، وتجريداً للتوحيد ، وقطعاً لأصول الشرك وموادّه لمن عقلها . والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها ، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته ، وتضمنه له ، ويظنونها فى نوع وقوم قد خَلوا من قبلُ ولم يُعقبوا وارثاً . فهذا هو الذى يحول بين القلب و بين فهم القرآن . ولعمر الله ، إن كان أولئك قد خلوا ، فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم ، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك .

ثم قال : ومن أنواعه — أى: الشرك — طلب الحوائج من الموتى ، والاستغاثة بهم . وهذا أصل شرك العالم ؛ فإن الميت قد انقطع عمله ، ولا لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا ، فضلا عمن استغاث به ، وسأله أن يشفع له إلى الله . وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده ؛ فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه ، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سبباً لإذنه ، وإنما السبب كمال التوحيد فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن ، وهو بمنزلة من استعان فى حاجته بما يمنع حصولها . وهذه حالة كل مشرك . فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير

قال أبو العباس: نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره مِلكٌ أو قِسطٌ منه، أو يكون عوناً لله. ولم يبقَ إلا الشفاعة. فبيَّن أنها لا تنفعُ إلا لمن أَذِنَ له الربُّ، كما قال (٢١ : ٢٨ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)

دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبة أهله إلى التنقص بالأموات، وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، وأولياءه الموحدين بذمهم وعيبهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص؛ إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم أمروهم به، وأنهم يوالونهم عليه، وهؤلاء هم أعداء الرسل فى كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم. وما نجى من شَرَك هذا الشرك الأكبر إلا من جَرَّد توحيده لله، وعادى المشركين فى الله، وتقرب بمقتهم إلى الله، واتخذ الله وحده وليَّه وإلٰهه ومعبوده؛ فجرد حبه لله، وخوفه لله، ورجاءه لله، وذله لله، وتوكله على الله، واستعانته بالله، والتجاءه إلى الله، واستغاثته بالله، وقصده لله، متبعاً لأمره، متطلباً لمرضاته. إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل عمل لله. فهو لله، وبالله ومع الله. انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

وهذا الذى ذكره هذا الإمام فى معنى هذه الآية هو حقيقة دين الإسلام، كما قال تعالى: (٤ : ١٢٥ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن، واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلا؟).

قوله: «قال أبو العباس» هذه كنية شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحرانى، إمام المسلمين رحمه الله.

قوله: «نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عوناً لله. فلم يبق إلا الشفاعة. فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال تعالى: (٢١ : ٢٨ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) فهذه الشفاعة التى يظنها المشركون هى منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم «أنه يأتى فيسجد لربه ويحمده، لا يبدأ بالشفاعة أولا، ثم يقال له: ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تُعطَ، واشفع تشفع» وقال له أبو هريرة «من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه» فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن

فهذ الشفاعة التى يَظنها المشركون هى مُنْتَفِيةٌ يوم القيامة ، كما نفاها القرآنُ وأخبر النبيُّ صلى الله عليه وسلم «أنه يأتى فيَسْجُد لربه ويَحْمَدُه ، لا يبدأ بالشفاعة أولا . ثم يقال له : ارفع رأسك وقُلْ يُسمعْ ، وَسَلْ تُعْطَ ، واشفع تُشَفَّع » .

وقال أبو هريرة «مَن أسعدُ الناس بشفاعتك ؟ قال : من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه » فتلك الشفاعةُ لأهل الإخلاص بإذن الله ، ولا تكون لمن أشرك بالله .

وحقيقته : أنَّ الله سبحانه هو الذى يتفضَّل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء مَنْ أذِنَ له أن يشفع ، ليُكرمَه وينالَ المقام المحمود .

أشرك بالله ، وحقيقتها : أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يتفضل على أهل الإخلاص ، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ، ليكرمه وينال المقام المحمود . فالشفاعة التى نفاها القرآن ما كان فيها شرك ، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه فى مواضع . وقد بين النبى صلى الله عليه وسلم أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص » انتهى كلامه .

قوله : « وقال أبو هريرة » إلى آخره . هذا الحديث رواه البخارى والنسائى عن أبى هريرة ورواه أحمد وصححه ابن حبان وفيه : « وشفاعتى لمن قال : لا إله إلا الله مخلصاً ، ويصدق قلبهُ لسانَه ، ولسانهُ قلبَه » وشاهده فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل نبى دعوةٌ مستجابة ، فتعجل كل نبى دعوته ، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة . فهى نائلة إن شاء الله مات من لا يشرك بالله شيئاً » .

وقد ساق المصنف رحمه الله كلام شيخ الإسلام هنا ، فقام مقام الشرح والتفسير لما فى هذا الباب من الآيات ، وهو كافٍ وافٍ بتحقيق مع الإيجاز . والله أعلم .

وقد عرف الإخلاص بتعريف حسن ، فقال : الإخلاص : محبة الله وحده وإرادة وجهه . اه

وقال ابن القيم رحمه الله فى معنى حديث أبى هريرة : تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التى تنال بها شفاعته تجريد التوحيد ، عكس ما عند المشركين أن الشفاعة

فالشفاعة التى نفاها القرآن ما كان فيها شرك ، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه فى مواضع . وقد بين النبى صلى الله عليه وسلم أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص . اه كلامه .

تنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم ، فقلب النبى صلى الله عليه وسلم ما فى زعمهم الكاذب ، وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد، فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع . ومن جهل المشرك اعتقاده أن من اتخذه وليًا أو شفيعاً أنه يشفع له و ينفعه عند الله ، كما يكون خواص الولاة والملوك تنفع من والاهم ، ولم يعلموا أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه فى الشفاعة ، ولا يأذن فى الشفاعة إلا لمن رضى قوله وعمله ، كما قال فى الفصل الأول (٢ : ٢٥٥ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟) وفى الفصل الثانى (٢١:٢٨ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) و بقى فصل ثالث ، وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا توحيده واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم . فهذه ثلاثة فصول تقطع شجرة الشرك من قلب من عقلها ورعاها . اه

وذكر أيضاً رحمه الله تعالى أن الشفاعة ستة أنواع :

(الأول) الشفاعة الكبرى التى يتأخر عنها أُولو العزم عليهم الصلاة والسلام ، حتى تنتهى إليه صلى الله عليه وسلم فيقول « أنا لها » وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم فى الموقف . وهذه شفاعة يختص بها لا يشركه فيها أحد .

(الثانى) شفاعته لأهل الجنة فى دخولها . وقد ذكرها أبو هريرة فى حديثه الطويل المتفق عليه .

(الثالث) شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار بذنوبهم ، فيشفع لهم أن لا يدخلوها .

(الرابع) شفاعته فى العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم . والأحاديث بها متواترة عن النبى صلى الله عليه وسلم . وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة ، وبدّعوا من أنكرها ، وصاحوا به كل جانب ، ونادوا عليه بالضلال .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآيات .

الثانية : صفة الشفاعة المنفية .

الثالثة : صفة الشفاعة المثبتة .

الرابعة : ذكر الشفاعة الـكبرى ، وهى المقام المحمود .

الخامسة : صفة ما يفعله صلى الله عليه وسلم أنه لا يبدأ بالشفاعة ، بل يسجد فإذا أذن له شفَع .

السادسة : مَنْ أسعدُ الناس بها .

السابعة : أنها لا تكون لمن أشركَ بالله.

الثامنة : بيان حقيقتها .

(الخامس) شفاعته لقوم من أهل الجنة فى زيادة ثوابهم ورفعة درجاتهم . وهذه مما لم ينازع فيها أحد . وكلها مختصة بأهل الإخلاص الذين لم يتخذوا من دون الله ولياً ولا شفيعا ، كما قال تعالى (٦ : ٥١ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولىٌّ ولا شفيع) .

(السادس) شفاعته فى بعض أهله الـكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه . وهذه خاصة بأبى طالب وحده .

باب

قول الله تعالى (٢٨ : ٥٦ إنك لاتهدِى مَن أحببت ، ولـكن الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين) .

وفى الصحيح عن ابن المسَيّب عن أبيه قال « لمّا حَضَرتْ أبا طالبٍ الوفاةُ

قوله : باب قول الله تعالى :

(٢٨ : ٥٦ إنك لا تهدى من أحببت ، ولـكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) سبب نزول هذه الآية : موت أبى طالب على ملة عبد المطلب ، كما سيأتى بيان ذلك فى حديث الباب .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : يقول تعالى لرسوله : إنك يا محمد لا تهدى من أحببت أى : ليس إليك ، إنما عليك البلاغ والله يهدى من يشاء . وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، كما قال تعالى(٢ : ٢٧٢ ليس عليك هداهم ولـكنّ الله يهدى من يشاء) وقال تعالى (١٢ : ١٠٣ وما أكثرُ الناس ولو حرصت بمؤمنين) .

قلت : والمنفىُّ هنا هدايةُ التوفيق والقبول ؛ فإن أمر ذلك إلى الله ، وهو القادر عليه . وأما الهداية المذكورة فى قول الله تعالى (٤٢ : ٥٢ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) فإنها هداية الدلالة والبيان ، فهو المبين عن الله ، والدالُّ على دينه وشرعه .

وقوله « فى الصحيح عن ابن المسيّب عن أبيه قال « لما حضرَت أبا طالب الوفاةُ جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عبد الله بن أبى أمية وأبو جهل ، فقال له : يا عم ، قل : لا إله إلا الله كلمةً أحاج لك بها عند الله . فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فأعاد عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، فأعادا . فكان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول: لا إله إلا الله . فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأستغفرن لك مالم أنه عنك . فأنزل الله عز وجل (٩ : ١١٣ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) وأنزل الله فى أبى طالب (إنك لا تهدى من أحببت ولـكن الله يهدى من يشاء) » .

قوله « فى الصحيح » أى فى الصحيحين . و « ابن المسيب » هو سعيد بن المسيب

جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعنده عبدُ الله بن أبى أُميَّة وأبو جهل . فقال له : يا عمِّ ، قُلْ : لا إله إلا الله ، كلمة أُحاجُّ لك بها عند الله ،

ابن حزن بن أبى وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشى المخزومى، أحد العلماء والفقهاء الكبار السبعة من التابعين . اتفق أهل الحديث على أن مراسيله أصح المراسيل . وقال ابن المدينى : لا أعلم فى التابعين أوسع علماً منه . مات بعد التسعين وقد ناهز الثمانين .

وأبوه المسيب صحابى ، بقى إلى خلافة عثمان رضى الله عنه ، وكذلك جده حزْن ، صحابى استُشْهِدَ باليمامة .

قوله « لما حضرت أبا طالب الوفاة » أى علاماتها ومقدماتها .

قوله « جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم » يحتمل أن يكون المسيب حضر مع الاثنين؛ فإنهما من بنى مخزوم ، وهو أيضاً مخزومى ، وكان الثلاثة إذ ذاك كفارا ؛ فقتل أبو جهل على كفره ، وأسلم الآخران .

قوله « يا عمّ » منادى مضاف ، يجوز فيه إثبات الياء وحذفها . حذفت الياء هنا ، و بقيت الكسرة دليلا عليها .

قوله « قل : لا إله إلا الله » أمره أن يقولها لعلم أبى طالب بما دلت عليه من نفى الشرك بالله ، و إخلاص العبادة له وحده ، فإن من قالها عن علم و يقين فقد برىء من الشرك والمشركين ودخل فى الإسلام ؛ لأنهم يعلمون ما دلت عليه ، وفى ذلك الوقت لم يكن بمكة إلا مسلم أو كافر . فلا يقولها إلا من ترك الشرك و برىء منه . ولما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة كان فيها المسلمون الموحدون ، والمنافقون الذين يقولونها بألسنتهم وهم يعرفون معناها لكن لا يعتقدونها ، لما فى قلوبهم من العداوة والشك والريب ، فهم مع المسلمين بظاهر الأعمال دون الباطن ، وفيها اليهود ، وقد أقرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر ، ووادعهم بأن لا يخونوه ولا يظاهروا عليه عدواً كما هو مذكور فى كتب الحديث والسير .

قوله « كلمة » قال القرطبى : بالنصب على أنه بدل من « لا إله إلا الله » و يجوز الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف .

قوله « أحاجُّ لك بها عند الله » هو بتشديد الجيم من المحاجة ، والمراد بها بيان الحجة

فقالا له : أترغبُ عن مِلةِ عبدالمطلب ؟ فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم فأعادا .

بها لو قالها فى تلك الحال . وفيه : دليل على أن الأعمال بالخواتيم ، لأنه لو قالها فى تلك الحال معتقداً ما دلت عليه مطابقة من النفى والإثبات لنفعته .

قوله « فقالا له أترغبُ عن ملة عبد المطلب ؟ ذكّراه الحجة الملعونة التى يحتج بها المشركون على المرسلين ، كقول فرعون لموسى (٢٠ : ٥١ فما بالُ القرون الأولى ؟) وكقوله تعالى (٤٣ : ٢٣ وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمّة وإنا على آثارهم مُقْتدون) .

قوله « فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم فأعادا » فيه : معرفتهما لمعنى « لا إله إلا الله » لأنهما عرفا أن أبا طالب لو قالها لبرىء من ملة عبد المطلب ، فإن ملة عبد المطلب هى الشرك بالله فى إلهيته . وأما الربوبية فقد أقروا بها كما تقدم . وقد قال عبد المطلب لأبْرَهَة « أنا ربُّ الإبل ، والبيت له رب يمنعه منك » وهذه المقابلة منهما عند قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمه « قل : لا إله إلا الله » استكباراً عن العمل بمدلولها . كما قال الله تعالى عنهما وعن أمثالهما من أولئك المشركين (٣٧ : ٣٥ ، ٣٦ إنهم كانوا إذا قيل لهم : لا إله إلا الله يستكبرون . ويقولونْ : أئنّا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون) فرد عليهم بقوله (٣٧ : ٢٧ بل جاء بالحق وصدق المرسلين) فبين تعالى استكبارهم عن قول « لا إله إلا الله » لدلالتها على نفى عبادتهم الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله ، فإن دلالة هذه الكلمة على نفى ذلك دلالة تضمن ، ودلالتها عليه وعلى الإخلاص دلالة مطابقة .

ومن حكمة الرب تعالى فى عدم هداية أبى طالب إلى الإسلام ليبين لعباده أن ذلك إليه ، وهو القادر عليه دون من سواه ، فلو كان عند النبي صلى الله عليه وسلم — هو الذى أفضل خلقه — من هداية القلوب — وتفريج الكروب ، ومغفرة الذنوب ، والنجاة من العذاب ، ونحو ذلك شىء : لكان أحق الناس بذلك وأولاهم به عمه الذى كان يحوطه ويحميه وينصره ويؤويه ، فسبحان من بَهَرَتْ حكمتُه العقول ، وأرشد العباد إلى ما يدلهم على معرفته وتوحيده وإخلاص العمل له وتجريده .

فـكان آخر ما قال : هو على مِلّةِ عبد المطلب وأَبَى أن يقول : لا إله إلا الله . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : لأستغفرنَّ لك مالم أُنْهَ عنك ، فأنزل الله عز وجل

قوله « فـكان آخر ما قال » الأحسن فيه الرفع على أنه اسم « كان » وجملة « هو » وما بعدها الخبر .

قوله « على ملة عبد المطلب » الظاهر أن أبا طالب قال « أنا » فغيره الراوى استقباحاً للفظ المذكور ، وهو من التصرفات الحسنة ، قاله الحافظ .

قوله « وأبى أن يقول : لا إله إلا الله » قال الحافظ : هذا تأكيد من الراوى فى نفى وقوع ذلك من أبى طالب .

قال المصنف رحمه الله « وفيه الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه ، ومضرة أصحاب السوء على الإنسان ، ومضرة تعظيم الأسلاف » .

أى : إذا زاد على المشروع ، بحيث تجعل أقوالهم حجة يرجع إليها عند التنازع .

قوله « فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لأستغفرنّ لك مالم أُنْهَ عنك » قال النووى : وفيه جواز الحلف من غير استحلاف ، وكأن الحلف هنا لتأكيد العزم على الاستغفار تطييباً لنفس أبى طالب .

وكانت وفاة أبى طالب بمكة قبل الهجرة بقليل .

قال ابن فارس : مات أبو طالب ولرسول الله صلى الله عليه وسلم تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يوماً .

وتوفيت خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها بعد موت أبى طالب بثمانية أيام .

قوله « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى — الآية » .

أى ما ينبغى لهم ذلك . وهو خبر بمعنى النهى ، والظاهر أن هذه الآية نزلت فى أبى طالب فإن الإتيان بالفاء المفيدة للترتيب فى قوله « فأنزل الله » بعد قوله « لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك » يفيد ذلك .

وقد ذكر العلماء لنزول هذه الآية أسباباً أخر . فلا منافاة ، لأن أسباب النزول قد تتعدد .

قال الحافظ : أما نزول الآية الثانية فواضح فى قصة أبى طالب ، وأما نزول الآية التى

(٩: ١١٣ ما كان للنبيِّ والذين آمنوا أن يَسْتَغْفِرُوا للمشركين ولو كانوا أُولى قربى — الآية) وأنزلَ الله في أبي طالب (٢٨ : ٥٦ إنك لا تهدِي من أحببتَ، ولكنَّ الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين) »

قبلها ففيه نظر ، ويظهر أن المراد أن الآية المتعلقة بالاستغفار نزلت بعد أبي طالب بمدة ، وهي عامة في حقه وحق غيره ، يوضح ذلك ما يأتي في التفسير فأنزل الله بعد ذلك (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين — الآية) ونزل في أبي طالب (إنك لا تهدى من أحببت) كله ظاهر في أنه مات على غير الإسلام ويُضَعِّف ما ذكره السُّهيلي أنه روى في بعض كتب المسعودى أنه أسلم ؛ لأن مثل ذلك لا يعارض ما في الصحيح . انتهى .

وفيه : تحريم الاستغفار للمشركين وموالاتهم ومحبتهم ، لأنه إذا حرم الاستغفار لهم فموالاتهم ومحبتهم أولى .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير (إنكَ لاتهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يهدى من يشاء) .

الثانية : تفسير قوله (ما كان للنبيِّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولَوْ كانوا أولى قرْبي من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) .

الثالثة : وهى المسألة الكبيرة : تفسير قوله « قل : لا إله إلا الله » بخلاف ما عليه مَنْ يَدَّعى العلم .

الرابعة : أن أبا جَهْل وَمَنْ معه يعرفون مراد النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ قال للرجل « قل : لا إله إلا الله » فقَبَّحَ الله مَنْ أبو جَهْل أعلمُ منه بأصل الإسلام .

الخامسة : جِدُّه صلى الله عليه وسلم ومُبالغته فى إسلام عمه .

السادسة : الردُّ على مَنْ زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه .

السابعة : كونه صلى الله عليه وسلم استغفر له فلم يُغْفَر له ، بل نُهِيَ عن ذلك .

الثامنة : مضرة أصحاب السوء على الإنسان .

التاسعة : مَضَرَّةُ تعظيم الأسلاف والأكابر .

العاشرة : استدلال الجاهلية بذلك .

الحادية عشرة : الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم ، لأنه لو قالها لنفعته .

الثانية عشرة : التأملُ فى كِبَر هذه الشبهة فى قلوب الضالين لأنَّ فى القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها ، مع مبالغته صلى الله عليه وسلم وتكريره ، فلأجل عَظَمتها وَوُضوحها عندهم اقتصروا عليها .

باب

(ماجاء أن سبب كفر بنى آدم وتركهم دينهم هو الغُلُوُّ فى الصالحين)

وقول الله عز وجل (٤ : ١٧١ يا أهلَ الكتاب ، لاتَغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق) .

قوله « باب ما جاء أن سبب كفر بنى آدم وتركهم دينهم هو الغلو فى الصالحين »

قوله « تركهم » بالجر عطفاً على المضاف إليه . وأراد المصنف رحمه الله تعالى : بيان ما يؤول إليه الغلو فى الصالحين من الشرك بالله فى الإلهية الذى هو أعظم ذنب عصى الله به ، وهو ينافى التوحيد الذى دلت عليه كلمة الإخلاص : شهادة أن لا إله إلا الله .

قوله « وقول الله عزوجل (٤ : ١٧١ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » الغلو : هو الإفراط بالتعظيم بالقول والاعتقاد : أى لا ترفعوا المخلوق عن منزلته التى أنزله الله فتنزلوه المنزلة التى لا تنبغى إلا لله . والخطاب — وإن كان لأهل الكتاب — فإنه عام يتناول جميع الأمة ، تحذيراً لهم أن يفعلوا بنبيهم صلى الله عليه وسلم فعل النصارى فى عيسى ، واليهود فى العزيز كما قال تعالى (٥٧ : ١٦ ألم يَأْنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمَدُ فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون) ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « لا تُطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم » ويأتى .

فكل من دعا نبياً أو ولياً من دون الله فقد اتخذه إلهاً ، وضاهأ النصارى فى شركهم ، وضاهأ اليهود فى تفريطهم ، فإن النصارى غلوا فى عيسى عليه السلام ، واليهود عادوه وسبُّوه وتنقصوه . فالنصارى أفرطوا ، واليهود فرطوا . وقال تعالى (٥ : ٧٥ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صِدِّيقة كانا يأكلان الطعام) ففى هذه الآية وأمثالها الرد على اليهود والنصارى .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : ومن تشبه من هذه الأمة باليهود والنصارى ، وغلا فى الدين بإفراط فيه أو تفريط فقد شابههم . قال : وعلىّ رضى الله عنه حرق الغالية من

فى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قول الله تعالى : (٧١ : ٢٣ وقالوا : لا تَذَرُنَّ آلهتكم ، ولا تَذَرُنَّ وَدًّا ولا سُواعًا ، ولا يَغُوثَ ويَعوقَ ونَسْرا) قال « هذه أسماء رجالٍ صالحين من قوم نُوح فلمَّا هلكوا أوحى الشيطانُ إلى قومهم : أن انْصِبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسونَ فيها أَنْصاباً ،

الرافضة فأمر بأخاديد خُدَّت لهم عند باب كِندة فقذفهم فيها . واتفق الصحابة على قتلهم . لكن ابن عباس مذهبه أن يُقتلوا بالسيف من غير تحريق. وهو قول أكثر العلماء .

قوله « فى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قول الله تعالى (٧١ : ٢٣ وقالوا : لاتَذَرُنَّ آلهتكم ولاتذرُنَّ وَدًّا ولا سُواعًا ولا يَغوث ويَعوق ونَسْرًا) قال : « هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم : أنِ انصِبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، ولم تُعبد ، حتى إذا هلك أولئك ونُسى العلم عُبدت » قوله (فى الصحيح) أى : صحيح البخارى .

وهذا الأثر اختصره المصنف . ولفظ مافى البخارى : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال « صارت الأوثان التى فى قوم نوح فى العرب بعدُ. أما وَدٌّ : فكانت لكلب بدَوْمَة الجندل. وأما سُواع : فكانت لهذيل . وأما يغوث: فكانت لمراد، ثم لبنى غُطيف بالجُرف عند سبأ . وأما يعوق : فكان لهمدان . وأما نسر : فكانت لِحمْيَر لآل ذى الكلاع : أسماء رجال صالحين فى قوم نوح — الخ » .

وروى عكرمة والضحاك وابن إسحاق نحو هذا .

قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد قال : حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد ابن قيس «أن يغوث و يعوق ونسراً كانوا قوماً صالحين من بنى آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة ؛ فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم و بهم يُسقون المطر فعبدوهم » .

قوله « أن انصبوا » هو بكسر الصاد المهملة .

قوله « أنصابا » جمع نُصب ، والمراد به هنا : الأصنام المصورة على صور أولئك الصالحين التى نصبوها فى مجالسهم ، وسموها بأسمائهم . وفى سياق حديث ابن عباس

وسمّوها بأسمائهم ، ففعلوا . ولم تُعْبد . حتى إذا هلك أُولئك ونسِيَ العلم عبِدَت».
وقال ابن القيم :

ما يدل على أن الأصنام تسمى أوثانا . فاسم الوثن يتناول كل معبود من دون الله ، سواء كان ذلك المعبود قبراً أو مشهداً ، أوصورة أو غير ذلك .

قوله « حتى إذا هلك أولئك » أى الذين صوروا تلك الأصنام .

قوله « ونُسى العلم » ورواية البخارى « وينسخ » وللكشميهنى « ونسخ العلم » أى درست آثاره بذهاب العلماء ، وعم الجهل حتى صاروا لا يميزون بين التوحيد والشرك ، فوقعوا فى الشرك ظنا منهم أنه ينفعهم عند الله .

قوله (عبدت) لما قال لهم إبليس : إن من كان قبلكم كانوا يعبدونهم وبهم يَسقون المطر ، هو الذى زين لهم عبادة الأصنام وأمرهم بها ، فصار هو معبودهم فى الحقيقة . كما قال تعالى (٣٦ : ٦٠ — ٦٢ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأنِ اعبدونى هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جِبِلاً كثيرا . أفلم تكونوا تعقلون ؟) وهذا يفيد الحذر من الغلو ووسائل الشرك ، وإن كان القصد بها حسناً . فإن الشيطان أدخل أولئك فى الشرك من باب الغلو فى الصالحين ومحبتهم ، كما قد وقع مثل ذلك فى هذه الأمة : أظهر لهم الغلو والبدع فى قالب تعظيم الصالحين ومحبتهم ، ليوقعهم فيما هو أعظم من ذلك ، من عبادتهم لهم من دون الله . وفى رواية أنهم قالوا : ما عظّم أوّلنا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله » أى يرجون شفاعة أولئك الصالحين الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم وسموها بأسمائهم ، ومن هنا يعلم أن اتخاذ الشفعاء ورجاء شفاعتهم بطلبها منهم : شرك بالله ، كما تقدم بيانه فى الآيات المحكمات .

قوله « وقال ابن القيم رحمه الله : قال غير واحد من السلف « لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم» .

قوله « وقال ابن القيم رحمه الله » هو الإمام العلامة محمد بن أبى بكر بن أيوب الزرعى الدمشقى المعروف بابن قيم الجوزية . قال الحافظ السخاوى : العلامة الحجة المتقدم فى سعة العلم ومعرفة الخلاف وقوة الجنان . المجمع عليه بين الموافق والمخالف ، صاحب التصانيف السائرة ، والمحاسن الجمة . مات سنة إحدى وخمسين وسبعمائة .

قال غير واحد من السلف « لما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوَّروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم » .

قوله « وقال غير واحد من السلف » هو بمعنى ماذكره البخارى وابن جرير ، إلا أنه ذكر عكوفهم على قبورهم قبل تصويرهم تماثيلهم . وذلك من وسائل الشرك ، بل هو الشرك ؛ لأن العكوف لله فى المساجد عبادة . فإذا عكفوا على القبور صار عكوفهم تعظيما ومحبة : عبادة لها .

قوله « ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم » أى طال عليهم الزمان . وسبب تلك العبادة والموصل إليها : هو ما جرى من الأولين من التعظيم بالعكوف على قبورهم ، ونصب صورهم فى مجالسهم ، فصارت بذلك أوثاناً تعبد من دون الله ، كما ترجم به المصنف رحمه الله تعالى . فإنهم تركوا بذلك دين الإسلام الذى كان أولئك عليه قبل حدوث وسائل هذا الشرك ، وكفروا بعبادة تلك الصور واتخذوهم شفعاء . وهذا أول شرك حدث فى الأرض .

قال القرطبى : وإنما صوّر أوائلهم الصور ليتأسوا بهم ، ويتذكروا أفعالهم الصالحة فيجتهدوا كاجتهادهم ، ويعبدوا الله عند قبورهم . ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم ، فوسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها . اهـ .

قال ابن القيم رحمه الله : وما زال الشيطان يوحى إلى عباد القبور ويلقى إليهم أن البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين ، وأن الدعاء عندها مستجاب ، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء بها ، والإقسام على الله بها ، فإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه ، أو يسأل بأحد من خلقه .

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعائه وعبادته ، وسؤاله الشفاعة من دون الله ، واتخاذ قبره وثناً تعلق عليه القناديل والستور ، ويطاف به ويستلم ويقبل ، ويحج إليه ويذبح عنده ، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته ، واتخاذه عيداً ومنسكا ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم فى دنياهم وأخراهم . وكل هذا مما قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم : من تجديد التوحيد ، وأن لا يعبد إلا الله .

وعن عمر : أن رسول الله صلى الله عليـــه وسلم قال : « لا تُطْرُونى كما أطرت النصارى ابن مريم » .

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى أن مَن نهى من ذلك فقد تنقّص أهل هذه الرتب العالية ، وحطهم عن منزلتهم ، وزعم أنه لاحرمة لهم ولا قدر ، فغضب المشركون واشمأزت قلوبهم ، كما قال تعالى (٣٩ : ٤٥ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) وسرى ذلك فى نفوس كثير من الجهال والطغام ، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين ، حتى عادَوْا أهل التوحيد ، ورموهم بالعظائم ونفروا الناس عنهم ووالَوْا أهل الشرك وعظموهم ، وزعموا أنهم أولياء الله ، وأنصار دينه ورسوله ، ويأبى الله ذلك (٨ : ٣٤ وما كانوا أولياؤه ، إن أولياؤه إلا المتقون) . اهـ كلام ابن القيم رحمه الله .

وفى القصة فوائد ذكرها المصنف رحمه الله .

ومنها : رد الشبه التى يسميها أهل الكلام عقليات ، ويدفعون بها ما جاء به الكتاب والسنة : من توحيد الصفات ، وإثباتها على ما يليق بجلال الله وعظمته وكبريائه .

ومنها : مضرة التقليد .

ومنها : ضرورة الأمة إلى ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم علماً وعملا بما يدل عليه الكتاب والسنة ، فإن ضرورة العبد إلى ذلك فوق كل ضرورة .

قوله « وعن عمر رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ؛ إنما أنا عبد . فقولوا : عبد الله ورسوله » أخرجاه » .

قوله « عن عمر » هو ابن الخطاب بن نفيل — بنون وفاء مصغراً — العدوى ، أمير المؤمنين ، وأفضل الصحابة بعد الصديق رضى الله عنهم . ولِىَ الخلافة عشر سنين ونصفاً ، فامتلأت الدنيا عدلا ، وفتحت فى أيامه ممالك كسرى وقيصر . واستشهد فى ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين رضى الله عنه .

قوله « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم » الإطراء : مجاوزة الحدّ فى المدح والكذب فيه . قاله أبو السعادات . وقال غيره : أى لا تمدحونى بالباطل ، ولا تجاوزوا الحد فى مدحى .

إنما أنا عبدٌ ، فقولوا : عبد الله ورسوله » أخرجاه .

قوله « إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » أي لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام فادّعَوْا فيه الإلٰهية وإنما أنا عبد الله ورسوله ، فصِفوني بذلك كما وصفني ربي ، فقولوا : عبد الله ورسوله ، فأبى المشركون إلا مخالفة أمره ، وارتكاب نهيه وعظموه بما نهاهم عنه وحذرهم منه ، وناقضوه أعظم مناقضة ، وضاهأوا النصارى في غلوهم وشركهم ، ووقعوا في المحذور ، وجرى منهم من الغلو والشرك شعراً ونثراً ما يطول عده ، وصنفوا فيه مصنفات .

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله عن بعض أهل زمانه : أنه جوّز الاستغاثة بالرسول صلى الله عليه وسلم كل ما يستغاث فيه بالله ؛ وصنف في ذلك مصنفاً رده شيخ الإسلام ، وردّه موجود بحمد الله . ويقول : إنه يعلم مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله . وذكر عنهم أشياء من هذا النمط . نعوذ بالله من عمى البصيرة .

وقد اشتهر في نظم البوصيري قوله :

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به ‏ ‏ سواك عند حدوث الحادث العمم

وما بعده من الأبيات التي مضمونها : إخلاص الدعاء واللياذ والرجاء والاعتماد في أضيق الحالات ، وأعظم الاضطرار لغير الله ، فناقضوا الرسول صلى الله عليه وسلم بارتكاب ما نهى عنه أعظم مناقضة ، وشاقوا الله ورسوله أعظم مشاقة ، وذلك أن الشيطان أظهر لهم هذا الشرك العظيم في قالب محبة النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه ، وأظهر التوحيد والإخلاص الذي بعثه الله في قالب تنقيصه ، وهؤلاء المشركون هم المتنقصون الناقصون ، أفرطوا في تعظيمه بما نهاهم عنه أشد النهي ، وفرطوا في متابعته ، فلم يعبأوا بأقواله وأفعاله ، ولا رضوا بحكمه ولا سلموا له ، وإنما يحصل تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم بتعظيم أمره ونهيه ، والاهتداء بهديه ، واتباع سنته ، والدعوة إلى دينه الذي دعا إليه ونُصرته ، وموالاة من عمل به ، ومعاداة من خالفه . فعكَس أولئك المشركون ما أراد الله ورسوله علماً وعملا ، وارتكبوا ما نهى الله ورسوله . فالله المستعان .

قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أياكم والغُلو ، فإنما أهلك مَنْ كان قبلكم الغلو » .

ولمسلم عن ابن مسعود : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « هلك المتنطعون — قالها ثلاثاً » .

قوله « وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والغلو ؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو » .

هذا الحديث ذكره المصنف بدون ذكر راوية . وقد رواه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجة من حديث ابن عباس .

وهذا لفظ رواية أحمد : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم غَداة جَمْعٍ : « هَلُمَّ الْقُطْ لى . فلقطتُ له حَصيات هُنَّ حَصَى الخَذْف . فلما وضعهن فى يده قال : نعم بأمثال هؤلاء فارموا . وإياكم والغلو فى الدين ؛ فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين » .

قال شيخ الإسلام : هذا عام فى جميع أنواع الغلو فى الاعتقادات والأعمال . وسبب هذا اللفظ العام رمْى الجمار ، وهو داخل فيه ، مثل الرمى بالحجارة الكبار ، بناء على أنه أبلغ من الصغار . ثم علله بما يقضى مجانبة هَدْى من كان قبلنا إبعاداً عن الوقوع فيما هلكوا به ؛ فإن المشارك لهم فى بعض هديهم يُخاف عليه من الهلاك .

قوله « ولمسلم عن ابن مسعود : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « هلك المتنطعون — قالها ثلاثاً » .

قال الخطابى : المتنطع : المتعمق فى الشىء ، المتكلف البحث عنه على مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يعنيهم ، الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم .

ومن التنطع : الامتناع عن المباح مطلقاً ، كالذى يمتنع من أكل اللحم والخبز ، ومن لبس الكتان والقطن ، ولا يلبس إلا الصوف ، ويمتنع من نكاح النساء ، ويظن أن هذا من الزهد المستحب ، قال الشيخ تقى الدين : فهذا جاهل ضال . انتهى .

وقال ابن القيم رحمه الله : قال الغزالى : والمتنطعون فى البحث والاستقصاء .

فيه مسائل :

الأولى : أن مَنْ فهم هذا الباب وبابين بعده تبين له غربة الإسلام ، ورأى من قدرة الله ، وتقليبه للقلوب العجب .

الثانية : معرفة أول شرك حدث فى الأرض أنه بشبهة الصالحين .

الثالثة : أول شىء غُيِّر به دين الأنبياء وما سبب ذلك مع معرفة أن الله أرسلهم

الرابعة : قبول البدع مع كون الشرائع والفِطَر تردها .

الخامسة : أن سبب ذلك كله مَزْجُ الحق بالباطل ، فالأول : محبة الصالحين . والثانى : فِعل أناس من أهل العلم شيئاً أرادوا به خيراً ، فظن مَن بعدهم أنهم أرادوا به غيره .

السادسة : تفسير الآية التى فى سورة نوح .

السابعة : جِبِلة الآدمى فى كون الحق ينقص فى قلبه والباطل يزيد .

الثامنة : فيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدع سبب الكفر .

التاسعة : معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ، ولو حَسُن قصد الفاعل .

العاشرة : معرفة القاعدة الكلية ، وهى النهى عن الغلو ومعرفة ما يؤول إليه .

الحادية عشرة : مَضَرّة العكوف على القبر لأجل عمل صالح .

وقال أبو السعادات : هم المتعمقون الغالون فى الكلام ، المتكلمون بأقصى حلوقهم . مأخوذ من النطع ، وهو الغار الأعلى من الفم ، ثم استعمل فى كل متعمق قولا وفعلا .

وقال النووى : فيه : كراهة التقعر فى الكلام بالتشدق وتكلف الفصاحة ، واستعمال وحشى اللغة ودقائق الإعراب فى مخاطبة العوام ونحوهم .

قوله « قالها ثلاثاً » أى قال هذه الكلمة ثلاث مرات ، مبالغة فى التعليم والإبلاغ فقد بلغ البلاغ المبين . صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

الثانية عشرة : النهى عن التماثيل ، والحكمة فى إزالتها .

الثالثة عشرة : معرفة شأن هذه القصة ، وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها .

الرابعة عشرة : وهى أعجب وأعجب : قراءتهم إياها فى كتب التفسير والحديث ، ومعرفتهم بمعنى الكلام ، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم ، حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح أفضل العبادات ، فاعتقدوا أن مانهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال .

الخامسة عشرة : التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة .

السادسة عشرة : ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك .

السابعة عشرة : البيان العظيم فى قوله « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم » فصلوات الله وسلامه على من بلّغ البلاغ المبين .

الثامنة عشرة : التصريح بأنها لم تعبد حتى نُسى العلم ، ففيها : بيان معرفة قدر وجوده ، ومضرة فقده :

التاسعة عشرة : أن سبب فقد العلم موت العلماء .

باب

(ماجاء فى التغليظ فيمن عبَد الله عند قبر رجل صالح ، فكيف إذا عبده ؟)

فى الصحيح عن عائشة : أن أُم سلمة ذكرَت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصوَر ، فقال أولئكِ إذا مات فيهم الرجل الصالح ، أو العبد الصالح ، بنوْا على قبره مَسجداً

قوله : « باب ما جاء فى التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح ، فكيف إذا عبده ؟ » .

أى : الرجل الصالح ؛ فإن عبادته هى الشرك الأكبر ، وعبادة الله عنده وسيلة إلى عبادته ، ووسائل الشرك محرمة ؛ لأنها تؤدى إلى الشرك الأكبر ، وهو أعظم الذنوب .

قوله « فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها : « أن أمَّ سَلمة ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور ، فقال: أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح ، بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله » فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين : فتنة القبور وفتنة التماثيل » .

قوله فى « الصحيح » أى الصحيحين .

قوله « أن أم سلمة » هى هند بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشية المخزومية . تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أبى سلمة سنة أربع . وقيل : ثلاث ، وكانت قد هاجرت مع أبى سلمة إلى الحبشة ماتت سنة اثنتين وستين .

قوله « ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم » . وفى الصحيحين « أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم » ، و « الكنيسة » بفتح الكاف وكسر النون : معبد النصارى .

قوله « أولئك » بكسر الكاف ، خطاب للمرأة .

قوله « إذا مات فيهم الرجل الصالح » هذا — والله أعلم — شك من بعض رواة الحديث : هل قال النبى صلى الله عليه وسلم هذا أو هذا ؟ ففيه : التحرى فى الرواية ، وجواز الرواية بالمعنى .

وصوّروا فيه تلك الصور ، أولئكِ شرار الخلق عند الله » .

فهؤلاء جمعوا بين فتنتين ، فتنة القبور ، وفتنة التماثيل .

قوله « وصوروا فيه تلك الصور » الإشارة إلى ما ذكرت أم سلمة وأم حبيبة من التصاوير التي فى الكنيسة .

قوله « أولئك شرار الخلق عند الله » وهذا يقتضى تحريم بناء المساجد على القبور ، وقد لعن صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك كما سيأتى .

قال البيضاوى : لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيما لشأنهم ، ويجعلونها قبلة يتوجهون فى الصلاة نحوها واتخذوها أوثانا لعنهم النبى صلى الله عليه وسلم .

قال القرطبى : وإنما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بها ، ويعملوا أعمالهم الصالحة فيجتهدوا كاجتهادهم ، ويعبدوا الله عند قبورهم ، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم ووسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها ، فحذر النبى صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك ، سدًّا للذريعة المؤدية إلى ذلك .

قوله « فهؤلاء جمعوا بين فتنتين : فتنة القبور ، وفتنة التماثيل » هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، ذكره المصنف رحمه الله تنبيهاً على ما وقع من شدة الفتنة بالقبور والتماثيل ، فإن الفتنة بالقبور كالفتنة بالأصنام أو أشد .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : وهذه العلة التى لأجلها نهى الشارع صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ المساجد على القبور هى التى أوقعت كثيراً من الأمم إما فى الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك ، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل الصالحين ، وتماثيل يزعمون أنها طلاسم الكواكب ونحو ذلك ، فإن الشرك بقبر الرجل الذى يُعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر . ولهذا تجد أهل الشرك يتضرعون ويخضعون ، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها فى بيوت الله ولا وقت السحر ، ومنهم من يسجد لها ، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء مالا يرجونه فى المساجد ، فلأجل هذه المفسدة حسم النبى صلى الله عليه وسلم مادتها . حتى نهى عن الصلاة فى المقبرة مطلقا ، وإن لم يقصد المصلى بركة البقعة بصلاته ، كما يقصد بصلاته بركة المساجد ، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع

ولهما عنها قالت : « لما نُزِل برسول الله صلى الله عليه وسلم طَفِق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتمَّ بها كشفها فقال — وهو كذلك — لعنة الله على

الشمس وغروبها ، لأنها أوقات يقصد فيها المشركون الصلاة للشمس ، فنهى أمته عن الصلاة حينئذ وإن لم يقصد ما قصده المشركون ، سدًّا للذريعة . وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركا بالصلاة فى تلك البقعة فهذا عين المحادة لله ولرسوله ، والمخالفة لدينه ، وابتداع دين لم يأذن به الله ، فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين الرسول صلى الله عليه وسلم : أن الصلاة عند القبور منهى عنها ، وأنه صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذها مساجد ، فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك : الصلاة عندها ، واتخاذها مساجد وبناء المساجد عليها . وقد تواترت النصوص عن النبى صلى الله عليه وسلم بالنهى عن ذلك والتغليظ فيه . وقد صرح عامة الطوائف بالنهى عن بناء المساجد عليها ، متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة . وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعى بتحريم ذلك وطائفة أطلقت الكراهة . والذى ينبغى : أن تحمل على كراهة التحريم ، إحسانا للظن بالعلماء ، وأن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من لعن فاعله والنهى عنه . اهـ كلامه رحمه الله تعالى .

قوله « ولهما عنها — أى عائشة رضى الله عنها — قالت : « لما نُزِل برسول الله صلى الله عليه وسلم طَفِق يطرح خَميصة له على وجهه ، فإذا اغتمّ بها كشفها ، فقال — وهو كذلك — : لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذرهم ما صنعوا . ولولا ذلك أبرز قبره ، غير أنه خَشى أن يتخذ مسجداً » أخرجاه » .

قوله « ولهما » أى البخارى ومسلم . وهو يغنى عن قوله فى آخره « أخرجاه » .

قوله « لما نزل » هو بضم النون وكسر الزاى : أى نزل به ملك الموت والملائكة الكرام عليهم السلام .

قوله « طفق » بكسر الفاء وفتحها ، والكسر أفصح ، وبه جاء القرآن . ومعناه : جعل .

قوله « خميصة » بفتح المعجمة والصاد المهملة : كساء له أعلام .

قوله « فإذا اغتم بها كشفها » أى عن وجهه .

اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يُحَذِّر ماصنعوا ، ولولا ذلك أبرز قبره ، غير أنه خَشى أن يُتخذ مسجداً » أخرجاه .

قوله « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يبين أن من فعل مثل ذلك حَلَّ عليه من اللعنة ما حلّ على اليهود والنصارى .

قوله « يحذر ما صنعوا » الظاهر : أن هذا من كلام عائشة رضي الله عنها ، لأنها فهمت من قول النبي صلى الله عليه وسلم ذلك تحذير أمته من هذا الصنيع الذي كانت تفعله اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم ، فإنه من الغلو في الأنبياء ، ومن أعظم الوسائل إلى الشرك . ومن غربة الإسلام أن هذا الذي لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعليه — تحذيراً لأمته أن يفعلوه معه صلى الله عليه وسلم ومع الصالحين من أمته — قد فعله الخلق الكثير من متأخرى هذه الأمة ، واعتقدوه قربة من القربات ، وهو من أعظم السيئات والمنكرات ، وما شعروا أن ذلك محادة لله ورسوله .

قال القرطبي في معنى هذا الحديث : وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة مَن فيها ، كما كان السبب في عبادة الأصنام . انتهى .

إذ لا فرق بين عبادة القبر ومن فيه وعبادة الصنم ، وتأمل قول الله تعالى عن نبيه يوسف بن يعقوب حيث قال (١٢ : ٢٨ واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) نكرةً في سياق النفي تعم كل شرك .

قوله « ولولا ذلك » أي ما كان يحذر من اتخاذ قبر النبي صلى الله عليه وسلم مسجداً لأبرز قبره ، وجعل مع قبور الصحابة الذين كانت قبورهم في البقيع .

قوله « غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً » روى بفتح الخاء وضمها ، فعلى الفتح يكون هو الذي خشي ذلك صلى الله عليه وسلم ، وأمرهم أن يدفنوه في المكان الذي قبض فيه . وعلى رواية الضم يحتمل أن يكون الصحابة هم الذين خافوا أن يقع ذلك من بعض الأمة ، فلم يبرزوا قبره ، خشية أن يقع ذلك من بعض الأمة غلواً وتعظيما بما أبدى وأعاد من النهي والتحذير منه ومن فاعله .

قال القرطبي : ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي صلى الله عليه وسلم

ولمسلم عن جَنْدُبَ بن عبد الله قال سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم قَبْل أن يموتَ بخمسٍ وهو يقول « إنى أَبْرَأُ إلى الله أن يكونَ لى منكم خليلٌ ، فإن الله

فأغلقوا حيطان تربته وسدوا المداخل إليها . وجعلوها محدقة بقبره صلى الله عليه وسلم ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذا كان مستقبل المصلين ، فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة فبنوا جدارين من ركنى القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره . انتهى .

قوله « ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس ، وهو يقول « إنى أبرأ إلى الله أن يكون لى منكم خليل ؛ فإن الله قد اتخذنى خليلا ، كما اتخذ إبراهيم خليلا . ولو كنت متخذاً من أمتى خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا . ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك » .

قوله « عن جندب بن عبد الله » أى ابن سفيان البجلى ، وينسب إلى جده ، صحابى مشهور . مات بعد الستين .

قوله « إنى أبرأ إلى الله أن يكون لى منكم خليل » أى أمتنع عما لا يجوز لى أن أفعله والخلة فوق المحبة . والخليل هو المحبوب غاية الحب ، مشتق من الخلة — بفتح الخاء — وهى تخلل المودة فى القلب ، كما قال الشاعر :

قد تخللت مسلك الروح منى   وبذا سمى الخليل خليلا

هذا هو الصحيح فى معناها . كما ذكره شيخ الإسلام وابن القيم وابن كثير وغيرهم رحمهم الله تعالى .

قال القرطبى : وإنما كان ذلك لأن قلبه صلى الله عليه وسلم قد امتلأ من محبة الله وتعظيمه ومعرفته فلا يسع خُلَّة غيره .

قوله « فإن الله قد اتخذنى خليلا » فيه : بيان أن الخلة فوق المحبة .

قال ابن القيم رحمه الله : وأما ما يظنه بعض الغالطين من أن المحبة أكمل من الخلة ، وأن إبراهيم خليل الله ، ومحمد حبيب الله — فمن جهلهم ، فإن المحبة عامة ، والخلة خاصة ،

قد اتَّخذنى خَليلاً ، كما اتخذَ إبراهيم خليلاً . ولو كنت مُتَّخِذًا من أُمتى خليلا ، لاتخذت أبا بكر خليلا ، ألا وإنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك . »

وهى نهاية المحبة . وقد أخبر النبى صلى عليه وسلم أن الله قد اتخذه خليلا ، ونفى أن يكون له خليل غير ربه ، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ، ولعمر بن الخطاب ، ومعاذ ابن جبل وغيرهم رضى الله عنهم . وأيضاً ، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الصابرين ، وخلته خاصة بالخليلين .

قوله « ولو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا » فيه : بيان أن الصديق أفضل الصحابة . وفيه الرد على الرافضة وعلى الجهمية ؛ وهما شر أهل البدع ، وأخرجهم بعض السلف من الثنتين والسبعين فرقة . وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور ، وهم أول من بنى عليها المساجد . قاله المصنف رحمه الله ، وهو كما قال بلا ريب .

وفيه إشارة إلى خلافة أبى بكر ؛ لأن من كانت محبته لشخص أشد كان أولى به من غيره ، وقد استخلفه فى الصلاة بالناس ، وغضب صلى الله عليه وسلم لما قيل : يصلى بهم عمر وذلك فى مرضه الذى توفى فيه صلى الله عليه وسلم .

واسم أبى بكر : عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة . الصديق الأكبر ، خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأفضل الصحابة بإجماع من يعتد بقوله من أهل العلم . مات فى جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة ، وله ثلاث وستون سنة رضى الله عنه .

قوله « ألا » حرف استفتاح « وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد — الحديث » قال الخطابى : وإنكار النبى صلى الله عليه وسلم صنيعهم هذا مخرج على وجهين ، أحدهما : أنهم يسجدون لقبور الأنبياء تعظيما .

الثانى : أنهم يجوزون الصلاة فى مدافن الأنبياء والتوجه إليها حالة الصلاة ، نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة فى تعظيم الأنبياء . والأول : هو الشرك الجلى ، والثانى : الخفىّ ، فلذلك استحقوا اللعن .

فقد نهى عنه فى آخر حياته .

ثم إنه لعن — وهو فى السياق — مَن فعله ، والصلاة عندها من ذلك وإن لم يُبن مسجد ، وهو معنى قولها « خشى أن يتخذ مسجداً » فإن الصحابة

قوله « فقد نهى عنه فى آخر حياته » أى كما فى حديث جندب ، وهذا من كلام شيخ الإسلام ، وكذا ما بعده .

قوله « ثم إنه لعن — وهو فى السياق — من فعله » كما فى حديث عائشة .

قلت : فكيف يسوغ بعد هذا التغليظ من سيد المرسلين أن تعظَّم القبور ويبنى عليها ، ويصلى عندها وإليها ، هذا أعظم مشاقَّة وَمحادَّة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم لو كانوا يعقلون .

وقوله « الصلاة عندها من ذلك ، وإن لم يبن مسجد » أى من اتخاذها مساجد ، الملعون فاعله .

وهذا يقتضى تحريم الصلاة عند القبور وإليها .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه مرفوعاً « الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام » رواه أحمد وأهل السنن ، وصححه ابن حبان والحاكم .

قال ابن القيم رحمه الله : وبالجملة ، فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه ، وفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاصده ، جزم جزماً لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة واللعن والنهى بصيغتيه — صيغة « لا تفعلوا » وصيغة « إنى أنهاكم عن ذلك » — ليس لأجل النجاسة ، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة لمن عصاه ، وارتكب ما عنه نهاه ، واتبع هواه ، ولم يخش ربه ومولاه ، وقلّ نصيبه أو عُدم من « لا إله إلا الله » فإن هذا وأمثاله من النبى صلى الله عليه وسلم صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه ؛ وتجريد له وغضبٌ لربه أن يعدل به سواه ، فأبى المشركون إلا معصية لأمره ، وارتكاباً لنهيه ، وغرّهم الشيطان بأن هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين ، وكلما كنتم لها أشد تعظيما وأشد فيهم غلواً كنتم بقربهم أسعد ، ومن أعدائهم أبعد . ولعمر الله ، من هذا الباب دخل الشيطان على عباد يغوث ويعوق ونسر ، ودخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم

لم يكونوا ليبنوا حَول قبره مسجداً . وكل موضع تُصد الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً ، بل كل موضع يُصلَّى فيه يسمى مسجداً ، كما قال صلى الله عليه وسلم « جُعلت لىَ الأرض مسجداً وطهوراً » .

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعاً « إن من شرار

القيامة . فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن فى طريقتهم . فهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم وأنزلهم منازلهم التى أنزلهم الله إياها : من العبودية ، وسلب خصائص الإلهية عنهم .

قال الشارح رحمه الله تعالى : وممن علل بخوف الفتنة بالشرك : الإمام الشافعى ، وأبو بكر الأثرم ، وأبو محمد المقدسى ، وشيخ الإسلام ، وغيرهم رحمهم الله ، وهو الحق الذى لا ريب فيه .

قوله « فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً » أى لما علموا من تشديده فى ذلك ، وتغليظه النهى عنه ، ولعن من فعله .

قوله : « وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً » أى وإن لم يبن مسجد ، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً ، يعنى وإن لم يقصد بذلك ، كما إذا عرض لمن أراد أن يصلى فأوقع الصلاة عنده من غير أن يقصد ذلك الموضع بخصوصه ، فصار بفعل الصلاة فيه مسجداً .

قوله « كما قال صلى الله عليه وسلم « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً أى فسمى الأرض مسجداً تجوز الصلاة فى كل بقعة منها ، إلا ما استثنى من المواضع التى لا تجوز الصلاة فيها كالمقبرة ونحوها .

قال البغوى فى شرح السنة : أراد أنّ أهل الكتاب لم تبح لهم الصلاة إلا فى بِيَعِهم وكنائسهم ، فأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا ، تخفيفاً عليهم وتيسيرا ، ثم خص من جميع المواضع الحمام والمقبرة والمكان النجس . انتهى .

قوله « ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعاً « إن من شرار الناس

الناس مَن تُدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد » ورواه أبو حاتم فى صحيحه

من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد » رواه أبو حاتم ابن حبان فى صحيحه » .

قوله « إن من شرار الناس » بكسر الشين جمع شرير .

قوله (من تدركهم الساعة وهم أحياء) أى مقدماتها ، كخروج الدابة ، وطلوع الشمس من مغربها . و بعد ذلك ينفخ فى الصور نفخة الفزع .

قوله « والذين يتخذون القبور مساجد » معطوف على خبر « إن » فى محل نصب على نية تكرار العامل ، أى وإن من أشرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد أى بالصلاة عندها وإليها ، و بناء المساجد عليها ، وتقدم فى الأحاديث الصحيحة أن هذا من عمل اليهود والنصارى ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم لعنهم على ذلك ، تحذيرًا للأمة أن يفعلوا مع نبيهم وصالحيهم مثل اليهود والنصارى ، فما رفع أكثرهم بذلك رأساً ، بل اعتقدوا أن هذا الأمر قربة إلى الله ، وهو مما يبعدهم عن الله ويطردهم عن رحمته ومغفرته . والعجب أن أكثر من يدعى العلم ممن هو من هذه الأمة لا ينكرون ذلك ، بل ربما استحسنوه ورغبوا فى فعله ، فلقد اشتدت غربة الإسلام وعاد المعروف منكرًا والمنكر معروفاً ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، نشأ على هذا الصغير ، وهرم عليه الكبير .

قال شيخ الإسلام : أما بناء المساجد على القبور : فقد صرح عامة الطوائف بالنهى عنه ، متابعة للأحاديث الصحيحة ، وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعى بتحريمه . قال : ولا ريب فى القطع بتحريمه ، ثم ذكر الأحاديث فى ذلك — إلى أن قال — : وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين أو الملوك وغيرهم ، تتعين إزالتها بهدم أو غيره ، هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين .

وقال ابن القيم رحمه الله : يجب هدم القباب التى بنيت على القبور ؛ لأنها أسست على معصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما فى القرافة من الأبنية منهم ابن الجيزى والظهير الترمينى وغيرهما .

وقال القاضى ابن كج : ولا يجوز أن تجصص القبور ، ولا أن يبنى عليها قباب ، ولا غير قباب ، والوصية بها باطلة .

وقال الأذرعى : وأما بطلان الوصية ببناء القباب وغيرها من الأبنية و إنفاق الأموال الكثيرة ، فلا ريب فى تحريمه .

وقال القرطبى فى حديث جابر رضى الله عنه « نهى أن يجصص القبر أو يبنى عليه » و بظاهر هذا الحديث قال مالك ، وكره البناء والجص على القبور . وقد أجازه غيره ، وهذا الحديث حجة عليه .

وقال ابن رشد : كره مالك البناء على القبر وجعل البلاطة المكتوبة ، وهو من بدع أهل الطول ، أحدثوه إرادة الفخر والمباهاة والسمعة ، وهو مما لا اختلاف فيه .

وقال الزيلعى فى شرح الكنز : ويكره أن يبنى على القبر . وذكر قاضى خان : أنه لا يجصص القبر ولا يبنى عليه ، لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن التجصيص والبناء فوق القبر . والمراد بالكراهة — عند الحنفية رحمهم الله — كراهة التحريم . وقد ذكر ذلك ابن نجيم فى شرح الكنز .

وقال الشافعى رحمه الله : أكره أن يعظم مخلوق ، حتى يجعل قبره مسجداً ؛ مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس . وكلام الشافعى رحمه الله أن يبين أن مراده بالكراهة : كراهة التحريم .

قال الشارح رحمه الله تعالى : وجزم النووى رحمه الله فى شرح المهذب بتحريم البناء مطلقاً ، وذكر فى شرح مسلم نحوه أيضاً .

وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة إمام الحنابلة صاحب المصنفات الكبار كالمغنى والكافى وغيرهما رحمه الله تعالى : ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لعن الله اليهود والنصارى — الحديث » وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام : تعظيم الأموات واتخاذ صورهم ، والتمسح بها والصلاة عندها . انتهى .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : وأما المقبرة فلا فرق فيها بين الجديدة والعتيقة ، انقلبت تربتها أو لم تنقلب . ولا فرق بين أن يكون بينه و بين الأرض حائل أولا ،

لعموم الاسم وعموم العلة ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، ومعلوم أن قبور الأنبياء لا تنجس .

وبالجملة ، فمن علل النهي عن الصلاة في المقبرة بنجاسة التربة خاصة فهو بعيد عن مقصود النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم لا يخلو أن يكون القبر قد بني عليه مسجد ، فلا يصلى في هذا المسجد ، سواء صلى خلف القبر أو أمامه بغير خلاف في المذهب ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك » وخص قبور الأنبياء ، لأن عكوف الناس على قبورهم أعظم ، واتخاذها مساجد أشد ، وكذلك إن لم يكن بني عليه مسجد ، فهذا قد ارتكب حقيقة المفسدة التي كان النهي عن الصلاة عند القبور من أجلها ، فإن كل مكان صلى فيه يسمى مسجداً ، كما قال صلى الله عليه وسلم « جعلت لىَ الأرض مسجداً وطهوراً » وإن كان موضع قبر أو قبرين .

وقال بعض أصحابنا : لا يمنع الصلاة فيها لأنه لا يتناولها اسم المقبرة ، وليس في كلام أحمد ولا بعض أصحابه هذا الفرض ، بل عموم كلامهم يقتضي منع الصلاة عند كل قبر .

وقد تقدم عن علي رضي الله عنه أنه قال : « لا أصلي في حمام ولا عند قبر » .

فعلى هذا : ينبغي أن يكون النهي متناولا تحريم القبر وفنائه ، ولا تجوز الصلاة في مسجد بني في مقبرة ، سواء كان له حيطان تحجز بينه وبين القبور أو كان مكشوفاً .

قال في رواية الأثرم : إذا كان المسجد بين القبور لا يصلى فيه الفريضة ، وإن كان بينها وبين المسجد حاجز فرخص أن يصلى فيه على الجنائز ولا يصلى فيه على غير الجنائز . وذكر حديث أبي مَرْثَد عن النبي صلى الله عليه وسلم « لا تصلوا إلى القبور » وقال : إسناده جيد . انتهى .

ولو تتبعنا كلام العلماء في ذلك لاحتمل عدة أوراق . فتبين بهذا أن العلماء رحمهم الله بينوا أن علة النهي ما يؤدي إليه ذلك : من الغلو فيها وعبادتها من دون الله كما هو الواقع والله المستعان .

وقد حدث بعد الأئمة الذين يعتد بقولهم أناس كثر في أبواب العلم بالله اضطرابهم ، وغلظ عن معرفة ما بعث الله به رسوله من الهدى والعلم حجابهم ، فقيدوا نصوص الكتاب

فيه مسائل :

الأولى : ما ذكر الرسول فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح ، ولو صحت نية الفاعل .

الثانية : النهى عن التماثيل ، وغِلظ الأمر فى ذلك .

الثالثة : العبرة فى مبالغته صلى الله عليه وسلم فى ذلك كيف بيَّن لهم هذا أوّلا ، ثم قبل موته بخمس قال ما قال ، ثم لما كان فى السياق لم يكتف بما تقدم .

الرابعة : نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر .

والسنة بقيود أوهنت الانقياد ، وغيّروا بها ما قصده الرسول صلى الله عليه وسلم بالنهى وأراد . فقال بعضهم : النهى عن البناء على القبور ويختص بالمقبرة المسبلة ، والنهى عن الصلاة فيها لتنجسها بصديد الموتى ، وهذا كله باطل من وجوه :

منها : أنه من القول على الله بلا علم . وهو حرام بنص الكتاب .

ومنها : أن ما قالوه لا يقتضى لعن فاعله والتغليظ عليه ، وما المانع له أن يقول : من صلى فى بقعة نجسة فعليه لعنة الله . ويلزم على ما قاله هؤلاء : أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يبين العلة وأحال الأمة فى بيانها على من يجىء بعده صلى الله عليه وسلم وبعد القرون المفضلة والأئمة ، وهذا باطل قطعاً وعقلا وشرعاً ، لما يلزم عليه من أن الرسول صلى الله عليه وسلم عجز عن البيان أو قصر فى البلاغ ، وهذا من أبطل الباطل؛ فإن النبى صلى الله عليه وسلم بلغ البلاغ المبين ، وقدرته فى البيان فوق قدرة كل أحد ، فإذا بطل اللازم بطل الملزوم .

ويقال أيضاً : هذا اللعن والتغليظ الشديد إنما هو فيمن اتخذ قبور الأنبياء مساجد ، وجاء فى بعض النصوص ما يَعُمُّ الأنبياء وغيرهم ، فلو كانت هذه هى العلة لكانت منتفية فى قبور الأنبياء ، لكون أجسادهم طرية لا يكون لها صديد يمنع من الصلاة عند قبورهم ، فإذا كان النهى عن اتخاذ المساجد عند القبور يتناول قبور الأنبياء بالنص ، عُلم أن العلة ما ذكره هؤلاء العلماء الذين قد نقلت أقوالهم ، والحمد لله على ظهور الحجة وبيان المحجة . والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

الخامسة : أنه من سنن اليهود والنصارى فى قبور أنبيائهم .

السادسة : لعنه إياهم على ذلك .

السابعة : أن مراده تحذيره إيانا عن قبره .

الثامنة : العلة فى عدم إبراز قبره .

التاسعة : فى معنى اتخاذها مسجداً .

العاشرة : أنه قرن بين من اتخذها وبين من تقوم عليه الساعة ، فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته .

الحادية عشرة : ذكره فى خطبته قبل موته بخمس : الرد على الطائفتين اللتين هما أشرّ أهل البدع ، بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة ، وهم الرافضة والجهمية . وبسبب الرافضةَ حدث الشرك وعبادة القبور . وهم أول من بنى عليها المساجد .

الثانية عشرة : ما بُلى به صلى الله عليه وسلم من شدة النزع .

الثالثة عشرة : ما أُكرم به من الخلة .

الرابعة عشرة : التصريح بأنها أعلى من المحبة .

الخامسة عشرة : التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة .

السادسة عشرة : الإشارة إلى خلافته .

باب

(ما جاء أن الغلو فى قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله)

روى مالك فى الموطأ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعبد .

قوله : « باب ما جاء أن الغلو فى قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله »

روى مالك فى الموطأ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعبَد ؛ اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

هذا الحديث رواه مالك مرسلا عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال — الحديث » ورواه ابن أبى شيبة فى مصنفه عن ابن عجلان عن زيد ابن أسلم به ، ولم يذكر عطاء ، رواه البزار عن زيد عن عطاء عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً .

وله شاهد عند الإمام أحمد بسنده عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة رفعه « اللهم لا تجعل قبرى وثناً ، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

قوله « روى مالك فى الموطأ » هو الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر بن عمرو الأصبحى ، أبو عبد الله المدنى إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة ، وأحد المتقنين للحديث حتى قال البخارى : أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر ، مات سنة تسع وسبعين ومائة . وكان مولده سنة ثلاث وتسعين ، وقيل : أربع وتسعين ، وقال الواقدى : بلغ تسعين سنة .

قوله « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد » قد استجاب الله دعاءه كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

فأجاب رب العالمين دعاءه ... وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى غدت أرجاؤه بدعائه ... فى عزة وحماية وصيان

ودل الحديث على أن قبر النبى صلى الله عليه وسلم لو عبد لكان وثناً ، لكن حماه الله بما حال بينه و بين الناس فلا يوصل إليه . ودل الحديث على أن الوثن هو ما يباشره العابد من القبور والتوابيت التى عليها . وقد عظمت الفتنة بالقبور بتعظيمها وعبادتها ، كما قال

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه « كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير ، و ينشأ فيها الصغير . تجرى على الناس يتخذونها سنة ، إذا غُيّرت قيل : غيرت السنة » انتهى .

ولخوف الفتنة نهى عمر عن تتبع آثار النبي صلى الله عليه وسلم .

قال ابن وضاح : سمعت عيسى بن يونس يقول : « أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي صلى الله عليه وسلم » فقطعها ؛ لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها ، فخاف عليهم الفتنة .

وقال المعرور بن سُويد : « صليتُ مع عمر بن الخطاب بطريق مكة صلاة الصبح . ثم رأى الناسَ يذهبون مذاهب ، فقال : أين يذهب هؤلاء ؟ فقيل : يا أمير المؤمنين ، مسجدٌ صلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم فهم يصلون فيه ، فقال : إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا ؛ كانوا يتتبعون آثار أنبيائهم و يتخذونها كنائس و بِيَعاً . فمن أدركته الصلاة في المساجد ، فليصلِّ ، ومن لا فليمض ولا يتعمدها » .

وفي مغازى ابن إسحاق من زيادات يونس بن بُكير عن أبي خلدة خالد بن دينار . حدثنا أبو العالية قال «لما فتحنا تُستَر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريرًا عليه رجل ميت، عند رأسه مصحف . فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر ، فدعا له كعباً فنسخه بالعربية ، فأنا أول رجل قرأه من العرب . قرأته مثل ما أقرأ القرآن . فقلت لأبي العالية : ما كان فيه ؟ قال : سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وماهو كائن بعد . قلت : فماذا صنعتم بالرجل ؟ قال : حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة . فلما كان الليل دفناه وسوينا القبور كلها لِنُعمّيه على الناس لا ينبشونه . قلت : وما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حُبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون . فقلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال: رجل يقال له : دانيال . قلت : منذ كم وجدتموه مات ؟ قال : منذ ثلاثمائة سنة ؛ قلت : ما كان تغيّر منه شيء ؟ قال : لا . إلا شُعيرات من قفاه ، إنّ لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض » .

قال ابن القيم رحمه الله : ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم من تعمية قبره لئلا يفتتن به ، ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف ، ولعبدوه من دون الله .

اشتد غضبُ اللهِ على قوم اتخذوا قبورَ أنبيائهم مَساجد » .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : وهو إنكار منهم لذلك ، فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها — ولم يستحب الشارع قصدها — فهو من المنكرات و بعضه أشد من بعض ، سواء قصدها ليصلى عندها أو ليدعو عندها ، أو ليقرأ عندها ، أو ليذكر الله عندها ، أو لينسك عندها ، بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة لم يشرع تخصيصها به ، لا نوعاً ولا عيناً إلا أن ذلك قد يجوز بحكم الاتفاق لا لقصد الدعاء فيها ، كمن يزورها و يسلم عليها ، و يسأل الله العافية له وللموتى ، كما جاءت به السنة . وأما تحرى الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أَجْوَب منه فى غيره ، فهذا هو المنهى عنه ، انتهى ملخصاً .

قوله « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » فيه تحريم البناء على القبور ، وتحريم الصلاة عندها ، وأن ذلك من الكبائر . وفى القرَى للطبرى من أصحاب مالك عن مالك أنه كره أن يقول : زرت قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، وعَلَّل ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم « اللهم لاتجعل قبرى وثناً يعبد — الحديث » : كره إضافة هذا اللفظ إلى القبر ؛ لئلا يقع التشبه بفعل أولئك ، سدًّا للذريعة .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : ومالك قد أدرك التابعين ، وهم أعلم الناس بهذه المسألة ، فدل ذلك على أنه لم يكن معروفاً عندهم ألفاظ زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم — إلى أن قال — وقد ذكروا فى أسباب كراهته لأن يقول « زرت قبر النبى صلى الله عليه وسلم » لأن هذا اللفظ قد صار كثير من الناس يريد به الزيارة البدعية ، وهو قصد الميت لسؤاله ودعائه ، والرغبة إليه فى قضاء الحوائج ، ونحو ذلك مما يفعله كثير من الناس ، فهم يعنون بلفظ الزيارة مثل هذا ، وهذا ليس بمشروع باتفاق الأئمة . وكره مالك أن يتكلم بلفظ مجمل يدل على معنى فاسد ، بخلاف الصلاة والسلام عليه ، فإن ذلك مما أمر الله به . أما لفظ الزيارة فى عموم القبور فلا يفهم منها مثل هذا المعنى ، ألاترى إلى قوله « فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة» مع زيارته لقبر أمه . فإن هذا يتناول قبور الكفار ، فلايفهم من ذلك زيارة الميت لدعائه وسؤاله والاستغاثة به ، ونحو ذلك مما يفعله أهل الشرك والبدع ، بخلاف ما إذا كان المزور معظما فى الدين كالأنبياء والصالحين ، فإنه كثيراً ما يعنى

ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد « (أفرأيتم اللات والعزى) قال : يلُتّ لهم السويق فمات ، فعكفوا على قبره » .

بزيارة قبورهم هذه الزيارة البدعية الشركية ، فلهذا كره مالك ذلك فى هـذا ، وإن لم يكره ذلك فى موضع آخر ليس فيه هذه المفسدة اه .

وفيه : أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه . ذكره المصنف رحمه الله تعالى .

وقوله « ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد (أفرأيتم اللات والعزى) قال : كان يَلُتّ لهم السويق ، فمات فعكفوا على قبره » وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس قال « كان يلت السويق للحاج » .

قوله « ولابن جرير » هو الإمام الحافظ محمد بن جرير بن يزيد الطبرى ، صاحب التفسير والتاريخ والأحكام وغيرها . قال ابن خزيمة : لا أعلم على وجه الأرض أعلم من محمد ابن جرير . وكان من المجتهدين لا يقلد أحداً وله أصحاب يتفقهون على مذهبه ويأخـذون بأقواله . ولد سنة أربع وعشرين ومائتين ، ومات ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة .

قوله « عن سفيان » الظاهر : أنه سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى أبو عبـد الله الـكوفى ثقة حافظ فقيه إمام عابد . كان مجتهداً ، وله أتباع يتفقهون على مذهبه . مات سنة إحدى وستين ومائة ، وله أربع وستون سنة .

قوله « عن منصور » هو ابن المعتمر بن عبد الله السلمى ، ثقة ثبت فقيه . مات سـنة اثنتين وثلاثين ومائة .

قوله « عن مجاهد » هو ابن جبر — بالجيم والموحدة — أبو الحجاج المخزومى مولاهم المكى ثقة إمام فى التفسير ، أخذ عن ابن عباس وغيره رضى الله عنهم . مات سنة أربع ومائة ، قاله يحيى القطان ، وقال ابن حبان : مات سنة — اثنتين — أو ثلاث — ومائة وهو ساجد . ولد سنة إحدى وعشرين فى خلافة عمر رضى الله عنه .

قوله « كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره » وفى رواية « فيطعم من يمرّ من الناس . فلما مات عبدوه ، وقالوا : هو اللات » رواه سعيد بن منصور .

وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس « كان يلت السويق للحاج » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم

ومناسبته للترجمة : أنهم غلوا فيه لصلاحه حتى عبدوه وصار قبره وثناً من أوثان المشركين.

قوله « وكذا قال أبو الجوزاء » هو أوس بن عبد الله الربعى ، بفتح الراء والباء . مات سنة ثلاث وثمانين .

قال البخارى : حدثنا مسلم وهو ابن إبراهيم حدثنا أبو الأشهب حدثنا أبو الجوزاء عن ابن عباس قال « كان اللات رجلا يلت سويق الحجاج » .

قال ابن خزيمة : وكذا العُزّى ، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، بين مكة والطائف ، كانت قريش يعظمونها ، كما قال أبو سفيان يوم أحد : « لنا العزّى ولا عُزّى لكم » .

قوله « وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » رواه أهل السنن .

قلت : وفى الباب حديث أبى هريرة وحديث حسان بن ثابت . فأما حديث أبى هريرة فرواه أحمد والترمذى وصححه . وحديث حسان أخرجه ابن ماجة من رواية عبد الرحمن بن حسان بن ثابت عن أبيه قال « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوارات القبور » .

وحديث ابن عباس هذا فى إسناده أبو صالح مولى أم هانىء ، وقد ضعفه بعضهم ووثقه بعضهم . قال على بن المدينى ، عن يحيى القطان : لم أر أحداً من أصحابنا ترك أبا صالح مولى أم هانىء . وما سمعت أحداً من الناس يقول فيه شيئاً ، ولم يتركه شعبة ولا زائدة ولا عبدالله ابن عثمان . قال ابن معين : ليس به بأس . ولهذا أخرجه ابن السكن فى صحيحه . انتهى من الذهب الإبريز عن الحافظ المزى .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : وقد جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم من طريقين: فمن أبى هريرة رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن زوارات القبور » وذكر حديث ابن عباس . ثم قال : ورجال هذا ليس رجال هذا . فلم يأخذه أحدهما عن

الآخر . وليس فى الإسنادين من يتهم بالكذب . ومثل هذا حجة بلا ريب . وهذا من أجود الحسن الذى شرطه الترمذى ، فإنه جعل الحسن : ما تعددت طرقه ولم يكن فيه متهم ، ولم يكن شاذاً ، أى مخالفاً لما ثبت بنقل الثقات . وهذا الحديث تعددت طرقه وليس فيها متهم ولا خالفه أحد من الثقات ، هذا لو كان عن صاحب واحد ، فكيف إذا كان هذا رواه عن صاحب وذاك عن آخر ؟ فهذا كله يبين أن الحديث فى الأصل معروف .

والذين رخصوا فى الزيارة اعتمدوا على ما روى عن عائشة رضى الله عنها : أنها زارت قبر أخيها عبد الرحمن وقالت : « لو شهدتك ما زرتك » وهذا يدل على أن الزيارة ليست مستحبة للنساء كما تستحب للرجال ؛ إذ لو كان كذلك لاستحبت زيارته ، سواء شهدته أم لا .

قلت : فعلى هذا لا حجة فيه لمن قال بالرخصة .

وهذا السياق لحديث عائشة رواه الترمذى من رواية عبد الله بن أبى مليكة عنها ، وهو يخالف سياق الأثرم له عن عبد الله بن أبى مليكة أيضاً « أن عائشة رضى الله عنها أقبلت ذات يوم من المقابر . فقلت لها : يا أم المؤمنين ، أليس نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن زيارة القبور ؟ قالت : نعم ، نهى عن زيارة القبور ، ثم أمر بزيارتها » .

فأجاب شيخ الإسلام رحمه الله عن هذا وقال : ولا حجة فى حديث عائشة ؛ فإن المحتج عليها احتج بالنهى العام ، فدفعت ذلك بأن النهى منسوخ ، ولم يذكر لها المحتج النهى الخاص بالنساء الذى فيه لعنهن على الزيارة . يبين ذلك قولها « قد أمر بزيارتها » فهذا يبين أنه أمر بها أمراً يقتضى الاستحباب ، والاستحباب إنما هو ثابت للرجال خاصة . ولو كانت تعتقد أن النساء مأمورات بزيارة القبور لكانت تفعل ذلك كما يفعله الرجال ولم تقل لأخيها « لما زرتك » . واللعن صريح فى التحريم ، والخطاب بالإذن فى قوله « فزوروها » لم يتناول النساء فلا يدخلن فى الحكم الناسخ ، والعام إذا عرف أنه بعد الخاص لم يكن ناسخاً له عند جمهور العلماء ، وهو مذهب الشافعى وأحمد فى أشهر الروايتين عنه ، وهو المعروف عند أصحابه ، فكيف إذا لم يعلم أن هذا العام بعد الخاص؟ إذ قد يكون قوله « لعن الله زوارات القبور » بعد إذنه للرجال فى الزيارة . يدل على ذلك : أنه قرنه

بالمتخذين عليها المساجد والسرج . ومعلوم أن اتخاذ المساجد والسرج المنهى عنها محكم ، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة وكذلك الآخر .

والصحيح : أن النساء لم يدخلن فى الإذن فى زيارة القبور لعدة أوجه :

أحدها : أن قوله صلى الله عليه وسلم « فزوروها » صيغة تذكير . وإنما يتناول النساء أيضاً على سبيل التغليب . لكن هذا فيه قولان . قيل : إنه يحتاج إلى دليل منفصل ، وحينئذ فيحتاج تناول ذلك للنساء إلى دليل منفصل ، وقيل : إنه يحمل على ذلك عند الإطلاق . وعلى هذا فيكون دخول النساء بطريق العموم الضعيف ، والعام لا يعارض الأدلة الخاصة ولا ينسخها عند جمهور العلماء ، ولو كان النساء داخلات فى هذا الخطاب لاستحب لهن زيارة القبور . وما علمنا أحداً من الأئمة استحب لهن زيارة القبور ، ولا كان نساء على عهد النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين يخرجن إلى زيارة القبور .

ومنها : أن النبى صلى الله عليه وسلم علل الإذن للرجال بأن ذلك « يذكر الموت ، ويرقق القلب ، وتدمع العين » هكذا فى مسند أحمد . ومعلوم أن المرأة إذا فتح لها هذا الباب أخرجها إلى الجزع والندب والنياحة ؛ لما فيها من الضعف وقلة الصبر . وإذا كانت زيارة النساء مظنة وسبباً للأمور المحرمة ، فإنه لا يمكن أن يحد المقدار الذى لا يفضى إلى ذلك ، ولا التمييز بين نوع ونوع ، ومن أصول الشريعة : أن الحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها . فيحرم هذا الباب سدا للذريعة ، كما حرم النظر إلى الزينة الباطنة ، وكما حرم الخلوة بالأجنبية وغير ذلك ، وليس فى ذلك من المصلحة ما يعارض هذه المفسدة ، فإنه ليس فى ذلك إلا دعاؤها الميت . وذلك ممكن فى بيتها .

ومن العلماء من يقول : التشييع كذلك ، ويحتج بقوله صلى الله عليه وسلم « ارجعن مأزورات غير مأجورات ، فإنكن تَفتِنَّ الحى وتؤذين الميت » وقوله لفاطمة « أما إنك لو بلغت معهم الكدى لم تدخلى الجنة » ويؤيده ما ثبت فى الصحيحين من « أنه نهى النساء عن اتباع الجنائز » ومعلوم أن قوله صلى الله عليه وسلم « من صلى على جنازة فله قيراط ، ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان » هو أدل على العموم من صيغة التذكير ، فإن لفظ « من » يتناول الرجال والنساء باتفاق الناس ، وقد علم بالأحاديث الصحيحة أن هذا

زائرات القبورَ ، والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج » .

العموم لم يتناول النساء لنهى النبي صلى الله عليه وسلم لهن عن اتباع الجنائز ، فإذا لم يدخلن فى هذا العموم . فكذلك فى ذلك بطريق الأولى . انتهى ملخصاً .

قلت : ويكون الإذن فى زيارة القبور مخصوصاً بالرجال ، خص بقوله « لعن الله زوّارات القبور — الحديث » فيكون من العام المخصوص .

وعما استدل به القائلون بالنسخ أجوبة أيضاً .

منها : ما ذكروه عن عائشة وفاطمة رضي الله عنهما معارض بما ورد عنهما فى هذا الباب فلا يثبت به نسخ .

ومنها : أن قول الصحابى وفعله ليس حجة على الحديث بلا نزاع . وأما تعليمه عائشة كيف تقول : إذا زارت القبور ونحو ذلك ، فلا يدل على نسخ ما دلت عليه الأحاديث الثلاثة من لعن زائرات القبور ، لاحتمال أن يكون ذلك قبل هذا النهى الأكيد والوعيد الشديد والله أعلم .

قال محمد بن إسماعيل الصنعانى رحمه الله فى كتابه تطهير الاعتقاد : فإن هذه القباب والمشاهد التى صارت أعظم ذريعة إلى الشرك والإلحاد ، وأكبر وسيلة إلى هدم الإسلام وخراب بنيانه : غالب — بل كل — من يعمرها هم الملوك والسلاطين والرؤساء والولاة ، إما على قريب لهم أو على من يحسنون الظن فيه من فاضل أو عالم أو صوفى أو فقير أو شيخ كبير ، ويزوره الناس الذين يعرفونه زيارة الأموات من دون توسل به ولا هتف باسمه ، بل يدعون له ويستغفرون ، حتى ينقرض من يعرفه أو أكثرهم ، فيأتى مَنْ بعدهم فيجد قبراً قد شيّد عليه البناء ، وسرجت عليه الشموع ، وفرش بالفراش الفاخر ، وأرخيت عليه الستور ، وألقيت عليه الأوراد والزهور ، فيعتقد أن ذلك لنفع أو دفع ضر ، وتأتيه السدنة يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل ، وأنزل بفلان الضر وبفلان النفع . حتى يغرسوا فى جبلته كل باطل ، والأمر ما ثبت فى الأحاديث النبوية من لعن من أسرج على القبور وكتب عليها وبنى عليها . وأحاديث ذلك واسعه معروفة . فإن ذلك فى نفسه منهى عنه . ثم هو ذريعة إلى مفسدة عظيمة . انتهى .

رواه أهل السنن .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الأوثان .

الثانية : تفسير العبادة .

الثالثة : أنه صلى الله عليه وسلم لم يستعذ إلا مما يُخاف وقوعه .

الرابعة : قَرْنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد .

الخامسة : ذكر شدة الغضب من الله

السادسة : وهى من أهمها : صفة معرفة عبادة اللات هى أكبر الأوثان .

السابعة : معرفة أنه قبر رجل صالح .

الثامنة : أنه اسم صاحب القبر وذكر معنى التسمية .

التاسعة : لعنه زوّارات القبور .

العاشرة : لعنه من أسرجها .

ومنه تعلم مطابقة الحديث للترجمة . والله أعلم .

قوله « والمتخذين عليها المساجد » تقدم شرحه فى الباب قبله .

قوله « والسُّرُج » قال أبو محمد المقدسى : لو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله ، لأن فيه تضييعاً للمال فى غير فائدة ، وإفراطاً فى تعظيم القبور أشبه بتعظيم الأصنام .

قوله « رواه أهل السنن » يعنى أبا داود والترمذى وابن ماجة فقط ، ولم يروه النسائى .

باب

ما جاء فى حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد وسدّه كل طريق يوصل إلى الشرك

وقول الله تعالى: (٩ : ١٢٨ ، ١٢٩ لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عَنِتم

قوله : باب « ما جاء فى حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك »

الجناب : هو الجانب ، والمراد حمايته عما يقرب منه أو يخالطه من الشرك وأسبابه .

قوله « وقول الله تعالى (٩ : ١٢٨ ، ١٢٩ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتُّم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ، فإن تولَّوْا فقل : حسبى الله لا إله إلا هو ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) .

قال ابن كثير رحمه الله : يقول الله تعالى ممتنًّا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولا من أنفسهم أى من جنسهم وعلى لغتهم كما قال إبراهيم عليه السلام (٢ : ١٢٩ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وقال تعالى (٣ : ١٦٤ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) وقال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) أى منكم ، كما قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى ، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى : « إن الله بعث فينا رسولا منا نعرف نسبه وصفته ، ومدخله ومخرجه ، وصدقه وأمانته » وذكر الحديث ، وقال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه فى قوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) قال « لم يصبه شىء من ولادة الجاهلية » .

وقوله « عزيز عليه ماعنتم » أى يعز عليه الشىء الذى يعنت أمته ويشق عليها ولهذا جاء فى الحديث المروى من طرق عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « بعثت بالحنيفية السمحة » وفى الصحيح « إن هذا الدين يسر » وشريعته كلها سمحة سهلة كاملة ، يسيرة على من يسرها الله عليه .

حريصٌ عليكم ، بالمؤمنين رءوفٌ رحيم ، فإن تَوَلَّوْا ، فقل : حسبيَ الله ، لا إله . إلا هو ، عليه توكلت ، وهو ربُّ العرش العظيم) .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبرى عيداً ، وصلوا علىّ ، فإن

قوله « حريص عليكم » أى على هدايتكم ووصول النفع الدنيوى والأخروى إليكم . وعن أبى ذر رضى الله عنه قال « تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه فى الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علماً » أخرجه الطبرانى ، قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مابقى شىء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بينته لكم » .

وقوله « بالمؤمنين رءوف رحيم » كما قال تعالى (٢٦ : ٢١٥ — ٢١٧ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل : إنى برىء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم) وهكذا أمره تعالى فى هذه الآية الكريمة وهى قوله (فإن تولَّوْا) أى عما جئتم به من الشريعة المطهرة الكاملة الشاملة (فقل : حسبى الله لا إله إلا هو ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) .

قلت : فاقتضت هذه الأوصاف التى وصف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حق أمته أن أنذرَهم وحذرهم الشرك الذى هو أعظم الذنوب ، و بين لهم ذرائعه الموصلة إليه ، وأبلغ فى نهيهم عنها ، ومن ذلك تعظيم القبور والغلو فيها ، والصلاة عندها وإليها ، ونحو ذلك مما يوصل إلى عبادتها ، كما تقدم ، وكما سيأتى فى أحاديث الباب .

وقوله « عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبرى عيداً ، وصلوا علَىّ فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » رواه أبو داود بإسناد حسن . ورواته ثقات » .

قوله « لا تجعلوا بيوتكم قبورًا » قال شيخ الإسلام : أى لاتعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة ، فتكون بمنزلة القبور ، فأمر بتحرى العبادة فى البيوت ، ونهى عن تحريها عند القبور ، عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبه بهم من هذه الأمة ،

صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » راوه أبو داود بإسناد حسن ، رواته ثقات .

وعن علىّ بن الحسين : « أنه رأى رجلا يجىء إلى فُرجة كانت عند قبر

وفى الصحيحين عن ابن عمر مرفوعاً « اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم ولا تتخذوها قبورا » وفى صحيح مسلم عن ابن عمر مرفوعا « لا تجعلوا بيوتكم مقابر ؛ فإن الشيطان يفر من البيت الذى يسمع سورة البقرة تقرأ فيه » .

قوله « ولا تجعلوا قبرى عيدًا » قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : العيد : اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد ، عائدًا : إما بعود السنة ، أو بعود الأسبوع ، أو الشهر ونحو ذلك .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : العيد : ما يعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان ، مأخوذ من العادة والاعتياد ، فإذا كان اسماً للمكان فهو المكان الذى يقصد فيه الاجتماع وانتيابه للعبادة وغيرها ، كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيدًا للحنفاء ومثابة ، كما جعل أيام العيد فيها عيدًا ، وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوّض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر، وأيام منى ، كما عوضهم من أعياد المشركين المكانية بالكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر .

قوله « وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : يشير بذلك إلى أن ما ينالنى منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبرى وبعدكم ، فلا حاجة لكم إلى اتخاذه عيدا .

قوله «لاتجعلوا بيوتكم قبورًا» تقدم فى كلام شيخ الإسلام فى معنى الحديث قبله . اه

قوله « وعن على بن الحسين رضى الله عنه ، أنه رأى رجلا يجىء إلى فرجة كانت عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فيدخل فيها فيدعو ، فنهاه ، وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبى عن جدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لا تتخذوا قبرى عيدًا ، ولا بيوتكم قبورًا ، وصلوا علىّ فإن تسليمكم يبلغنى أين كنتم » رواه فى المختارة » .

هذا الحديث والذى قبله جيدان حسنا الإسنادين .

أما الأول : فرواه أبو داود وغيره من حديث عبد الله بن نافع الصائغ قال : أخبرنى ابن أبى ذئب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة فذكره ، ورواته ثقات مشاهير ، لكن عبد الله بن نافع قال فيه أبو حاتم : ليس بالحافظ ، تعرف وتنكر . وقال ابن‌معين : هو ثقة وقال أبو زرعة : لا بأس به . قال شيخ الإسلام رحمه الله : ومثل هذا إذا كان لحديثه شواهد علم أنه محفوظ ، وهذا له شواهد متعددة . وقال الحافظ محمد بن عبد الهادى : هو حديث حسن جيد الإسناد ، وله شواهد يرتقى بها إلى درجة الصحة . وأما الحديث الثانى : فرواه أبو يعلى والقاضى إسماعيل والحافظ الضياء محمد بن عبد الواحد المقدسى فى المختارة .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم قرب النسب وقرب الدار ؛ لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم ، فكانوا له أضبط . اه

وقال سعيد بن منصور فى سننه : حدثنا عبد العزيز بن محمد أخبرنى سهيل بن أبى سهيل قال « رآنى الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم عند القبر ، فنادانى ، وهو فى بيت فاطمة رضى الله عنها يتعشى ، فقال : هلمّ إلى العشاء . فقلت : لا أريده . فقال : مالى رأيتك عند القبر ؟ فقلت : سلمت على النبى صلى الله عليه وسلم . فقال : إذا دخلت المسجد فسلم . ثم قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تتخذوا قبرى عيدًا ، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر ، وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم ، لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء » .

وقال سعيد أيضاً : حدثنا حِبان بن على ، حدثنا محمد عجلان عن أبى سعيد مولى المهرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تتخذوا قبرى عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى » .

قال شيخ الإسلام : فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث ، لا سيما وقد احتج به من أرسله . وذلك يقتضى ثبوته عنده ، هذا لو لم يُرْوَ من وجوه مسندة من غير هذين ، فكيف وقد تقدم مسنداً ؟ .

قوله « على بن الحسين » أى ابن على بن أبى طالب ، المعروف بزين العابدين رضى الله عنه ، أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم . قال الزهرى : ما رأيت قرشياً أفضل منه

النبي صلى الله عليه وسلم ، فيدخل فيها فيدعو ، فنهاه ، وقال : ألا أُحَدثكم حديثاً سمعْتُه من أبى عن جدّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تتخذوا قبرى عِيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، وصلوا علىّ ، فإن تسليمكم يبلغنى أين كنتم »

مات سنة ثلاث وتسعين على الصحيح . وأبوه الحسين سِبط رسول الله صلى الله عليه وسلم وريحانته ، حفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم واستشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين وله ست وخمسون سنة رضى الله عنه .

قوله « أنه رأى رجلا يجىء إلى فرجة » بضم الفاء وسكون الراء ، وهى الكُوَّة فى الجدار والخوخة ونحوهما .

قوله « فيدخل فيها فيدعو فنهاه » هذا يدل على النهى عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : ما علمت أحداً رخص فيه ، لأن ذلك نوع من اتخاذه عيداً ، ويدل أيضاً على أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلى منهى عنه ، لأن ذلك لم يشرع ، وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل الإنسان المسجد . أن يأتى قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك ، قال « ولن يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها » وكان الصحابة والتابعون رضى الله عنهم يأتون إلى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فيصلون ، فإذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا ، ولم يكونوا يأتون القبر للسلام ، لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه فى الصلاة أكمل وأفضل ، وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك ، أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم ، بل نهاهم عنه فى قوله « لا تتخذوا قبرى عيداً وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى » فبين أن الصلاة تصل إليه من بُعد وكذلك السلام ، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد . وكانت الحجرة فى زمانهم يُدخَل إليها من الباب . إذ كانت عائشة رضى الله عنها فيها ، وبعد ذلك ، إلى أن بنى الحائط الآخر ، وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون عليه ، لا للسلام ولا للصلاة ، ولا للدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم ، ولا لسؤال عن حديث أو علم ، ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمعهم كلاماً أو سلاماً فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم ، وبيّن لهم الأحاديث ،

أو أنه قد ردّ عليهم السلام . بصوت يسمع من خارج ، كما طمع الشيطان فى غيرهم فأضلهم عند قبره وقبر غيره ، حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويفتيهم ويحدثهم فى الظاهر ، وأنه يخرج من القبر ويرونه خارجا من القبر ، ويظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت تكلمهم ، وأن روح الميت تجسدت لهم فرأوها . كما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج .

والمقصود : أن الصحابة رضى الله عنهم لم يكونوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره كما يفعله من بعدهم من الخلوف ، وإنما كان بعضهم يأتى من خارج فيسلم إذا قدم من سفر . كما كان ابن عمر يفعله . قال عبيد الله بن عمر عن نافع « كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبى صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليك يا رسول الله . السلام عليك يا أبا بكر . السلام عليك يا أبتاه ثم ينصرف » قال عبيد الله « ما نعلم أحداً من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فعل ذلك إلا ابن عمر » وهذا يدل على أنه لا يقف عند القبر للدعاء إذا سلم كما يفعله كثير .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : لأن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة ، فكان بدعة محضة ، وفى المبسوط : قال مالك : لا أرى أن يقف عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم ولكن يسلم ويمضى . ونص أحمد أنه يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره لئلا يستدبره .

وبالجملة ، فقد اتفق الأئمة على أنه إذا دعا لا يستقبل القبر ، وتنازعوا هل يستقبله عند السلام عليه أم لا ؟ وفى الحديث دليل على منع شد الرحال إلى قبره صلى الله عليه وسلم وإلى غيره من القبور والمشاهد ؛ لأن ذلك من اتخاذها أعياداً . بل من أعظم أسباب الإشراك بأصحابها . وهذه هى المسألة التى أفتى بها شيخ الإسلام رحمه الله — أعنى من سافر لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين — ونقل اختلاف العلماء . فمن مبيح لذلك ، كالغزالى وأبى محمد المقدسى . ومن مانع لذلك ، كابن بَطّة وابن عقيل ، وأبى محمد الجوينى ، والقاضى عياض . وهو قول الجمهور . نص عليه مالك ، ولم يخالفه أحد من الأئمة . وهو الصواب . لما فى الصحيحين عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا تُشَد الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » فدخل فى النهى شدُّها لزيارة القبور والمشاهد ، فإما أن يكون نهياً ، وإما أن يكون نفياً . وجاء

رواه فى المختارة .

فى رواية بصيغة النهى ، فتعين أن يكون للنهى ، ولهذا فهم منه الصحابة رضى الله عنهم المنع — كما فى الموطأ والمسند والسنن — عن بَصْرة بن أبى بصرة الغِفارى : أنه قال لأبى هريرة — وقد أقبل من الطور — : « لو أدركتك قبل أن تخرج إليه لما خرجت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تُعْمل الْمَطِىُّ إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » وروى الإمام أحمد وعمر بن شَبَّة فى أخبار المدينة بإسناد جيد عن قَزَعة قال « أتيت ابن عمر ، فقلت : إنى أريد الطور . فقال : إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام . ومسجد المدينة ، والمسجد الأقصى . فدع عنك الطور ولا تأته » فابن عمر و بَصْرة ابن أبى بصرة جعلا الطور مما نهى عن شد الرحال إليه . لأن اللفظ الذى ذكراه فيه النهى عن شدها إلى غير الثلاثة مما يقصد به القربة ، فعلم أن المستثنى منه عام فى المساجد وغيرها ، وأن النهى ليس خاصا بالمساجد ، ولهذا نهيا عن شدها إلى الطور مستدلين بهذا الحديث . والطور إنما يسافر من يسافر إليه لفضيلة البقعة : فإن الله سماه (الوادى المقدس ، والبقعة المباركة) وكلّم كليمه موسى عليه السلام هناك ، وهذا هو الذى عليه الأئمة الأربعة وجمهور العلماء ، ومن أراد بسط القول فى ذلك والجواب عما يعارضه فعليه بما كتبه شيخ الإسلام مجيباً لابن الاخنائى فيما اعترض به على ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة وأخذ به العلماء وقياس الأولى : لأن المفسدة فى ذلك ظاهرة .

وأما النهى عن زيارة غير المساجد الثلاثة فغاية ما فيها : أنها لا مصلحة فى ذلك توجب شد الرحال ، ولا مزية تدعو إليه . وقد بسط القول فى ذلك الحافظ محمد بن عبد الهادى فى كتاب « الصارم المنكى فى رده على السبكى » وذكر فيه علل الأحاديث الواردة فى زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، وذكر هو وشيخ الإسلام رحمهما الله تعالى : أنه لا يصح منها حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من أصحابه ، مع أنها لا تدل على محل النزاع ؛ إذ ليس فيها إلا مطلق الزيارة ، وذلك لا ينكره أحد بدون شد الرحال ، فيحمل على الزيارة الشرعية التى ليس فيها شرك ولا بدعة .

قوله « رواه فى المختارة » المختارة : كتاب جمع فيه مؤلفه الأحاديث الجياد الزائدة على الصحيحين .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية براءة

الثانية : إبعاده أمته عن هذا الحِمى غاية البعد .

الثالثة : ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته .

الرابعة : نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص ، مع أن زيارته من أفضل الأعمال .

الخامسة : نهيه عن الإكثار من الزيارة .

السادسة : حثه علىَ النافلة فى البيت .

السابعة : أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى فى المقبرة .

الثامنة : تعليله ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعد ، فلا حاجة إلى ما يتوهمه مَن أراد القرب .

التاسعة : كونه صلى الله عليه وسلم فى البرزخ تعرض أعمال أمته فى الصلاة والسلام عليه .

ومؤلفه : هو أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسى الحافظ ضياء الدين الحنبلى أحد الأعلام . قال الذهبى : أفنى عمره فى هذا الشأن مع الدين المتين ، والورع والفضيلة التامة والإتقان . فالله يرحمه ويرضى عنه .

وقال شيخ الإسلام : تصحيحه فى مختاراته خير من تصحيح الحاكم بلا ريب . مات سنة ثلاث وأربعين وستمائة .

باب

(ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان)

وقوله تعالى : (٤ : ٥١ ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجِبْت والطاغوت ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا)

قوله « باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان »

وقول الله تعالى (٤ : ٥١ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) .

« الوثن » يطلق على ما قصد بنوع من أنواع العبادة من دون الله من القبور والمشاهد وغيرها لقول الخليل عليه السلام (٢٢ : ١٧ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكا) ومع قوله (٢١ : ٧١ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين) وقوله (٣٧ : ٩٥ أتعبدون ماتنحتون ؟) فبذلك يعلم أن الوثن يطلق على الأصنام وغيرها مما عبد من دون الله . كما تقدم فى الحديث .

قوله « يؤمنون بالجبت والطاغوت » روى ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : « جاء حُيَيُّ بن أخْطَب وكعبُ بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم ، فأخبرونا عنا وعن محمد . فقالوا : ما أنتم وما محمد ؟ فقالوا : نحن نصل الأرحام ، وننحر الكَوْماء ، ونسقى الماء على اللبن ، ونفُكُّ العناة ، ونسقى الحجيج ، ومحمد صُنبور ، قطع أرحامنا ، واتبعه سُرّاق الحجيج من غِفار . فنحن خير أم هو ؟ فقالوا : أنتم خير وأهدى سبيلا ، فأنزل الله تعالى (ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) » . وفى مسند أحمد عن ابن عباس نحوه .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه « الجبت السحر ، والطاغوت الشيطان » وكذلك قال ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وغيرهم . وعن ابن عباس وعكرمة وأبى مالك « الجبت الشيطان — زاد ابن عباس : بالحبشية » وعن ابن عباس أيضاً : « الجبت الشرك »

وقوله تعالى : (٥ : ٦٠ قل : هل أنبئكم بشرٍّ من ذلك مثوبةً عند الله ؟ مَن لعنه الله وغضب عليه ،

وعنه « الجبت الأصنام » وعنه « الجبت : حيي بن أخطب » وعن الشعبي « الجبت الكاهن » وعن مجاهد « الجبت كعب بن الأشرف » قال الجوهري « الجبت : كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر » ونحو ذلك .

قال المصنف رحمه الله تعالى : « وفيه : معرفة الإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضع هل هو اعتقاد قلب ، أو هو موافقة أصحابها ، مع بغضها ومعرفة بطلانها ؟ » .

قوله « وقوله تعالى (٥ : ٦٠ قل : هل أنبئكم بشرّ من ذلك مثوبة عند الله ؟ من لعنه الله وغضب عليه ، وجعل منهم القردَة والخنازير وعَبَد الطاغوت) » .

يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا ؟ وهم أنتم أيها المتصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله (من لعنه الله) أي أبعده من رحمته (وغضب عليه) أي غضباً لا يرضى بعده أبداً (وجعل منهم القردة والخنازير) وقد قال النووي عن عَلْقمة بن مَرْثَد عن المغيرة بن عبد الله اليَشْكُري عن المعرور بن سُويد : أن ابن مسعود رضي الله عنه قال « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير : أهي مما مسخ الله ؟ فقال : إن الله لم يُهلك قوماً — أو قال لم يمسخ قوماً — فجعل لهم نسلا ولا عقباً ، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك » رواه مسلم .

قال البغوي في تفسيره (قل) يا محمد (هل أنبئكم) أخبركم (بشرّ من ذلك) الذي ذكرتم ، يعني قولهم : لم نر أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم ، ولا ديناً شرًّا من دينكم ، فذكر الجواب بلفظ الابتداء وإن لم يكن الابتداء شرًّا ؛ لقوله تعالى (٢٢ : ٧٢ قل : أفأنبئكم بشر من ذلكم ؟ النار) .

وقوله (مثوبة) ثواباً وجزاء ، نصب على التفسير (عند الله ، من لعنه الله) أي هو من لعنه الله (وغضب عليه) يعني اليهود (وجعل منهم القردة والخنازير) فالقردة أصحاب السبت ، والخنازير كفار مائدة عيسى . وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس « أن المسخين كلاهما من أصحاب السبت ، فشبابهم مسخوا قردة ، وشيوخهم مسخوا خنازير » .

وجعل منهم القِرَدة والخنازير وعَبَد الطاغوت) .

(وعَبَد الطاغوت) أى وجعل منهم مَنْ عبد الطاغوت ، أى أطاع الشيطان فيما سول له ، وقرأ ابن مسعود (عبدوا الطاغوت) وقرأ حمزة : « وعُبُد » بضم الباء ، و «الطاغوت» بجر التاء أراد العبد ، وهما لغتان : عبد بسكون الباء ، وعبد بضمها ، مثل سبع وسبع وقرأ الحسن « وعبد الطاغوت » على الواحد .

وفى تفسير الطبرسى : قرأ حمزة وحده « وعبُد الطاغوت » بضم الباء وجر التاء والباقون « وعبَد الطاغوتَ » بنصب الباء وفتح التاء . وقرأ ابن عباس وابن مسعود وإبراهيم النخعى والأعمش وأبان بن تغلب « وعُبُدَ الطاغوت » بضم العين والباء وفتح الدال وخفض التاء ، قال : وحجة حمزة فى قراءته) (وعبُد الطاغوت) أنه يحمله على ماعمل فيه « وجعل » منهم عبد الطاغوت ومعنى « (جعل) : خلق » كقوله (وجعل الظلمات والنور) وليس « عبد » لفظ جمع ؛ لأنه ليس من أبنية الجموع شىء على هذا البناء ، ولكنه واحد يراد به الكثرة ، ألا ترى أن فى الأسماء المفردة المضافة إلى المعارف ما لفظه لفظ لإفراد ومعناه الجمع ، كما فى قوله تعالى (وإن تعدو نعمة الله لاتحصوها) ولأن بناء فَعُل يراد به المبالغة والكثرة نحو يَقُظَ ودَنُس ، وكأن تقديره : أنه ذهب فى عبادة الطاغوت كل مذهب .

وأما من فتح فقال (وعبد الطاغوت) فإنه عطفه على بناء المضى الذى فى الصلة ، وهو قوله (لعنه الله) وأفرد الضمير فى « عبد » وإن كان المعنى فيه الكثرة ؛ لأن الكلام محمول على لفظه دون معناه ، وفاعله ضمير « من » كما أن فاعل الأمثلة المعطوف عليها ضمير « من » فأفرد لحمل ذلك جميعاً على اللفظ . وأما قوله (عبد الطاغوت) فهو جمع عبَد .

وقال أحمد بن يحيى : عبُد جمع عابد ؛ كبازل وبزل ، وشارف وشرف ، وكذلك عبد جمع عابد ومثله عباد وعبّاد .

وقال شيخ الإسلام فى قوله (وعبد الطاغوت) الصواب : أنه معطوف على ما قبله من الأفعال ، أى مَن لعنه وغضب عليه ، ومَن جعل منهم القردة والخنازير ومن عبد الطاغوت قال : والأفعال المتقدمة الفاعل فيها اسم الله ، مظهرًا أو مضمرًا . وهنا الفاعل اسم مَنْ عبد الطاغوت . وهو الضمير فى « عبد » ولم يعد سبحانه « من » لأنه جعل هذه الأفعال صفة لصنف واحد وهم اليهود .

وقوله تعالى : (١٨ : ٢١ قال الذين غُلبوا على أمرهم : لَنَتَّخِذَنَّ عليهم مسجدا).

عن أبى سعيد رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لتتبعنّ سنن من كان قبلكم حَذْوَ القُذَّةِ بالقذَّة ، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه .

قوله « أولئك شر مكانًا » مما تظنون بنا « وأضل عن سواء السبيل » وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس فى الطرف الآخر له مشارك كقوله تعالى (٢٥ : ٢٤ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرًا وأحسن مقيلا) قاله العماد ابن كثير فى تفسيره ، وهو ظاهر .

قوله « وقول الله تعالى (١٨ : ٢١ قال الذين غلبوا على أمرهم : لنتخذن عليهم مسجدًا) » والمراد : أنهم فعلوا مع الفتية بعد موتهم ما يُذَم فاعله ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد » أراد تحذير أمته أن يفعلوا كفعلهم .

قوله « عن أبى سعيد رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القُذة بالقُذة ، حتى لو دخلوا جحْر ضب لدخلتموه . قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ أخرجاه » وهذا سياق مسلم .

قوله « سنن » بفتح المهملة أى طريق من كان قبلكم . قال المهلب : الفتح أولى .

قوله « حذو القذة بالقذة » بنصب « حذو » على المصدر . والقذة — بضم القاف — واحدة القذذ وهو ريش السهم . أى لتتبعن طريقهم فى كل ما فعلوه ، وتشبهوهم فى ذلك كما تشبه قُذة السهم القذة الأخرى . وبهذا تظهر مناسبة الآيات للترجمة . وقد وقع كما أخبر ، وهو عَلَم من أعلام النبوة .

قوله « حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » وفى حديث آخر « حتى لو كان فيهم من يأتى أمّه علانية لكان فى أمتى من يفعل ذلك » أراد صلى الله عليه وسلم أن أمته لا تدع شيئاً مما كان يفعله اليهود والنصارى إلا فعلته كله لا تترك منه شيئاً ولهذا قال سفيان ابن عيينة : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى . اه

قلت : فما أكثر الفريقين ، لكن من رحمة الله تعالى ونعمته أن جعل هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة كما فى حديث ثوبان الآتى قريباً .

قالوا : يارسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » أخرجاه .

ولمسلم عن ثَوبانَ رضى الله عنه : أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله زَوَى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها .

قوله « قالوا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » هو برفع « اليهود » خبر مبتدأ محذوف ، أى أهم اليهود والنصارى الذين نتبع سننهم ؟ ويجوز النصب بفعل محذوف تقديره : تعنى .

قوله (قال : فمن ؟) استفهام إنكارى : أى فمن هم غير أولئك ؟ .

قوله « ولمسلم عن ثوبانٍ رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله زَوَى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها . وأعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض . وإنى سألت ربى لأمتى أن لا يهلكها بسنة بعامة ، وأن لا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم ، وإن ربى قال : يا محمد ، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإنى أعطيتك لأمتك أن لا أهلكها بسنة بعامة . وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، ويسبى بعضهم بعضاً » ورواه البرقانى فى صحيحه وزاد « وإنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين . وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة . ولا تقوم الساعة حتى يلحق حَىٌّ من أمتى بالمشركين ، وحتى تعبد فئام من أمتى الأوثان . وإنه سيكون فى أمتى كذابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبى ، وأنا خاتم النبيين ، لا نبى بعدى ولا تزال طائفة من أمتى على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله تبارك وتعالى » .

هذا الحديث رواه أبو داود فى سننه وابن ماجة بالزيادة التى ذكرها المصنف .

قوله « عن ثوبان » هو مولى النبى صلى الله عليه وسلم . صحبه ، ولازمه ونزل بعده الشام . ومات بحمص سنة أربع وخمسين .

قوله « زوى لى الأرض » قال التُّور بشتى : زويت الشىء جمعته وقبضته ، يريد تقريب البعيد منها حتى اطلع عليه اطلاعه على القريب . وحاصله : أنه طوى له الأرض

وإن أمّتى سيبلغ ملكها ما زَوَى لى منها . وأُعطيتُ الكنزين : الأحمر والأبيض . وإنى سألتُ ربى لأُمتى أن لا يُهلكها بسَنَةٍ بعامة ، وأن لا يسلّط عليهم عدوًّا من سِوى أنفسهم ،

وجعلها مجموعة كهيئة كف فى مرآة ينظره . قال الطيبى : أى جمعها لى حتى أبصرت ما تملكه أمتى من أقصى المشارق والمغارب منها .

قوله « وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها » قال القرطبى: هذا الخبر وجد مخبره كما قال . وكان ذلك من دلائل نبوته ؛ وذلك أن مُلك أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى طَنْجة — بالنون والجيم — الذى هو منتهى عمارة المغرب ، إلى أقصى المشرق مما هو وراء خراسان والنهر ، وكثير من بلاد السند والهند والصغد ، ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال . ولذلك لم يذكر عليه السلام أنه أريه ولا أخبر أن مُلك أمته يبلغه .

قوله « زوى لى منها » يحتمل أن يكون مبنياً للفاعل ، وأن يكون مبنياً للمفعول .

قوله « وأعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض » قال القرطبى : يعنى به كنز كسرى ، وهو ملك الفرس ، وكنز قيصر وهو ملك الروم وقصورهما وبلادهما . وقد قال صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله » وعبر بالأحمر عن كنز قيصر ؛ لأن الغالب عندهم كان الذهب ، وبالأبيض عن كنز كسرى ؛ لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة . ووجد ذلك فى خلافة عمر . فإنه سيق إليه تاج كسرى وحليته وما كان فى بيوت أمواله ، وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها ، وكذلك فعل الله بقيصر . « والأبيض والأحمر » منصوبان على البدل .

قوله « وإنى سألتَ ربى لأمتى أن لا يهلكها بسنة بعامة » هكذا ثبت فى أصل المصنف رحمه الله « بعامة » بالباء ، وهى رواية صحيحة فى صحيح مسلم وفى بعضها بحذفها . قال القرطبى : وكأنها زائدة لأن « عامة » صفة السنة ، والسنة : الجدب الذى يكون به الهلاك العام ، ويسمى الجدب والقحط : سنة . ويجمع على سنين ، كما قال تعالى (٧ : ١٣٠ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) أى الجدب المتوالى .

قوله « من سوى أنفسهم » أى من غيرهم من الكفار من إهلاك بعضهم بعضاً ،

فيستبيحَ بَيْضتهم . وإن ربي قال : يا محمد ، إذا قضيت قضاء فإنه لا يُرَدُّ . وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنةٍ عامة ، وأن لا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم . ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ، حتى يكون بعضهم يُهلِكُ بعضاً ، ويُسْبِي بعضهم بعضا » ورواه البَرقانى فى صحيحه .

وسبى بعضهم بعضاً ، كما هو مبسوط فى التاريخ فيما قبل ، وفى زماننا هذا . نسأل الله العفو والعافية .

قوله « فيستبيح بيضتهم » قال الجوهرى : بيضة كل شيء حوزته . وبيضة القوم ساحتهم ، وعلى هذا فيكون معنى الحديث : أن الله تعالى لا يسلط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح جميع ما حازوه من البلاد والأرض ، ولو اجتمع عليهم من بأقطار الأرض وهى جوانبها . وقيل : بيضتهم : معظمهم وجماعتهم ، وإن قلوا .

قوله « حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، ويسبى بعضهم بعضاً » والظاهر أن «حتى» عاطفة ، أو تكون لانتهاء الغاية ، أى أن أمر الأمة إلى أن يكون بعضهم يهلك بعضاً . وقد سلط بعضهم على بعض كما هو الواقع ، وذلك لكثرة اختلافهم وتفرقهم .

قوله « وإن ربى قال : يا محمد ، إذا قضيت قضاء فإنه لا يُردّ » قال بعضهم : أى إذا حكمت حكما مبرماً نافذاً فإنه لا يرد بشيء ، ولا يقدر أحد على رده ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « ولا راد لما قضيت » .

قوله « ورواه البرقانى فى صحيحه » هو الحافظ الكبير أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد ابن غالب الخوارزمى الشافعى . ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، ومات سنة خمس وعشرين وأربعمائة . قال الخطيب : كان ثبتاً ورعاً ، لم نرَ فى شيوخنا أثبت منه ، عارفاً بالفقه . كثير التصانيف . صنف مسندًا ضمّنه ما اشتمل عليه الصحيحان ، وجمع حديث الثورى وحديث شعبة وطائفة .

وهذا الحديث رواه أبو داود بتمامه بسنده إلى أبى قلابة عن أبى أسماء عن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله — أو قال : إن ربى — زوى لى الأرض فأريت مشارق الأرض ومغاربها ، وإن ملك أمتى سيبلغ ما زوى لى

وزاد « وإنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين .

منها ، وأعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض ، وإنى سألت ربى لأمتى أن لا يهلكها بسنة عامة ولا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، وإن ربى قال لى : يا محمد ، إنى إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، ولا أهلكهم بسنة عامة ، ولا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها — أو قال : بأقطارها — حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، وحتى يكون بعضهم يسبى بعضًا ، وإنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين . وإذا وُضع السيف فى أمتى لم يُرفع عنها إلى يوم القيامة . ولا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتى بالمشركين ، وحتى تعبد قبائل من أمتى الأوثان . وإنه سيكون فى أمتى كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبى ، وأنا خاتم النبيين ، لا نبىَّ بعدى ، ولا تزال طائفة من أمتى على الحق — قال ابن عيسى : ظاهرين ، ثم اتفقا — لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله تعالى » .

وروى أبو داود أيضاً عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « تدور رَحَى الإسلام لخمس وثلاثين ، أو ست وثلاثين ، أو سبع وثلاثين ، فإن يهلكوا فسبيل من هلك ، وإن يَقُمْ لهم دينهم يقم سبعين عاما . قال : قلت : أَمِمَّا بقى أو مما مضى ؟ قال : مما مضى » .

وروى فى سننه أيضاً عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يتقارب الزمان وينقص العلم ، وتظهر الفتن ، ويلقى الشُّحُّ ، ويكثر الهرْجُ ، قيل : يا رسول الله أيّهْ هو ؟ قال : القتل القتل » .

قوله « وإنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين » أى الأمراء والعلماء والعباد فيحكمون فيهم بغير علم فيضلونهم ، كما قال تعالى (٣٣ : ٦٧ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) وكان بعض هؤلاء يقول لأصحابه : من كان له حاجة فليأت إلى قبرى فإنى أقضيها له ، ولا خير فى رجل يحجبهُ عن أصحابه ذراع من تراب ، ونحو هذا . وهذا هو الضلال البعيد ، يدعو أصحابه إلى أن يعبدوه من دون الله ، ويسألوه مالا يقدر عليه من قضاء حاجاتهم ، وتفريج كرباتهم ، وقد قال تعالى (٢٢ : ١٢ ، ١٣ يدعو من دون الله مالا يضره وما لا ينفعه ، ذلك هو الضلال البعيد . يدعو لَمَنْ ضَرُّهُ أقربُ من نفعه ،

لبئس المولى ولبئس العشير) وقال تعالى (٢٥ : ٣ واتخذوا من دونه آلهةً لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورًا) وقال تعالى (٢٩ : ١٧ فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ، إليه ترجعون) وأمثال هذا فى القرآن كثير ، يبين الله تعالى به الهدى من الضلال .

ومن هذا الضرب : مَنْ يدَّعى أنه يصل مع الله إلى حال تسقط فيها عنه التكاليف ، ويدعى أن الأولياء يُدعون ويستغاث بهم فى حياتهم ومماتهم ، وأنهم ينفعون ويضرون ويدبرون الأمور على سبيل الكرامة ، وأنه يطلع على اللوح المحفوظ ، ويعلم أسرار الناس وما فى ضمائرهم ، ويُجوِّز بناء المساجد على قبور الأنبياء والصالحين ، وإيقادها بالسرج ، ونحو ذلك من الغلو والإفراط والعبادة لغير الله ، فما أكثر هذا الهذيان والكفر والمحادة لله ولكتابه ولرسوله .

وقوله صلى الله عليه وسلم « وإنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين » أتى بإنما التى قد تأتى للحصر بياناً لشدة خوفه على أمته من أئمة الضلال ، وما وقع فى خَلَد النبى صلى الله عليه وسلم من ذلك إلا لما أطلعه الله عليه من غيبه أنه سيقع نظير ما فى الحديث قبله من قوله « لتتبعن سنن من كان قبلكم — الحديث » .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أخوف ما أخاف على أمتى الأئمة المضلون » رواه أبو داود الطيالسي . وعن ثوبان رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين » رواه الدارمى .

وقد بين الله تعالى فى كتابه صراطَهُ المستقيم الذى هو سبيل المؤمنين ، فكل من أحدث حدثاً ليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم فهو ملعون وحدثه مردود ، كما قال صلى الله عليه وسلم « من أحدث حدثاً ، أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفاً ولا عَدْلاً » وقال « من أحدث فى أمرنا ماليس منه فهو رد » وقال « كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » وهذه أحاديث صحيحة . ومدار أصول الدين وأحكامه على هذه الأحاديث ونحوها ، وقد بين الله تعالى هذا الأصل فى مواضع من كتابه العزيز ، كما قال تعالى (٧ : ٣ اتَّبِعوا ما أُنزلَ إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون) وقال تعالى (٤٥ : ١٨ ثم جعلناك

وإذا وقع عليهم السيف لم يُرْفَع إلى يوم القيامة . ولا تقوم الساعة حتى يَلْحَق حَيٌّ من أمتي بالمشركين ، وحتى تَعْبُدَ فِئَامٌ من أمتي الأوثان .

على شريعة من الأمر فاتّبِعْهَا ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) ونظائرها فى القرآن كثير .

وعن زياد بن حُدَير قال : قال لى عمر رضى الله عنه « هل تعرف ما يهدم الإسلام ؟ قلت : لا ، قال : يهدمه زَلّة العالم ، وجدال المنافق بالكتاب وحكم الأئمة المضلين » رواه الدارمى .

وقال يزيد بن عمير ، كان معاذ بن جبل رضى الله عنه لا يجلس مجلساً للذكر إلا ويقول : الله حكم قسط ، هلك المرتابون — وفيه : فاحذروا زيغة الحكيم ، فإن الشيطان قد يقول الضلالة على لسان الحكيم ، وقد يقول المنافق كلمة الحق . قلت لمعاذ : وما يدرينى رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة ، والمنافق قد يقول كلمة الحق ؟ فقال : اجتنب من كلام الحكيم المشتبهات التى يقال : ما هذه ؟ ولا يثنيك ذلك عنه ، فإنه لعله أن يراجع الحق ، وتَلَقَّ الحق إذا سمعته ، فإن على الحق نوراً » رواه أبو داود وغيره .

قوله « وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة » وكذلك وقع فإن السيف لما وقع بقتل عثمان رضى الله عنه لم يرفع ، وكذلك يكون إلى يوم القيامة ، ولكن قد يكثر تارة ويقل أخرى ، ويكون فى جهة ويرتفع عن أخرى .

قوله « ولا تقوم الساعة حتى يلحق حيٌّ من أمتى بالمشركين » « الحى » واحد الأحياء وهى القبائل : وفى رواية أبى داود « حتى يلحق قبائل من أمتى بالمشركين » والمعنى يكونون معهم ويرتدون برغبتهم عن أهل الإسلام ، ويلحقون بأهل الشرك .

قوله « وحتى تعبد فئام من أمتى الأوثان » « الفئام » بكسر الفاء مهموز : الجماعات الكثيرة ، قاله أبو السعادات .

وفى رواية أبى داود « وحتى تعبد قبائل من أمتى الأوثان » .

وهذا هو شاهد الترجمة ، ففيه الرد على من قال بخلافه من عباد القبور ، الجاحدين لما يقع منهم من الشرك بالله بعبادتهم الأوثان . وذلك لجهلهم بحقيقة التوحيد وما يناقضه من الشرك والتنديد ، فالتوحيد هو أعظم مطلوب ، والشرك هو أعظم الذنوب .

وإنه سيكون فى أمتى كذابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبى .

وفى معنى هذا الحديث : ما فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً « لا تقوم الساعة حتى تضطرب أَلَيَات نساء دَوْس على ذى الخَلَصة . قال : وذو الخلصة طاغية دوس التى كانوا يعبدون فى الجاهلية » وروى ابن حبان عن معمر قال : إن عليه الآن بيتاً مبنياً مغلقاً .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله فى قصة هدم اللات ، لما أسلمت ثقيف : فيه أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحدا ، وكذا حكم المشاهد التى بنيت على القبور ، والتى اتخذت أوثاناً تعبد من دون الله ، والأحجار التى تقصد للتبرك والنذر لا يجوز إبقاء شىء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها ، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة ، أو أعظم شركاً عندها وبها . فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم ، وسلكوا سبيلهم حذو القذة بالقذة ، وغلب الشرك على أكثر النفوس ، لظهور الجهل وخفاء العلم ، وصار المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، وطمست الأعلام ، واشتدت غربة الإسلام ، وقلّ العلماء ، وغلب السفهاء ، وتفاقم الأمر ، واشتد البأس ، وظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ، ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحقّ قائمين ، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . اه ملخصاً .

قلت : فإذا كان هذا فى القرن السابع وقبله ، فما بعده أعظم فساداً كما هو الواقع .

قوله « وإنه سيكون فى أمتى كذابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبى » قال القرطبى : وقد جاء عددهم معيناً فى حديث حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يكون فى أمتى كذابون دجالون سبع وعشرون ، منهم أربع نسوة » أخرجه أبو نعيم . وقال: هذا حديث غريب . انتهى .

وحديث ثوبان أصح من هذا .

قال القاضى عياض : عدّ من تنبأ من زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الآن ممن اشتهر بذلك وعرف واتبعه جماعة على ضلالة ، فوجد هذا العدد فيهم ، ومن طالع كتب الأخبار والتواريخ عرف صحة هذا .

وأنا خاتم النبيين ، لا نبيَّ بعدى . ولا تزالُ طائفة من أمتى على الحقّ منصورة ، لا يَضُرُّهم مَنْ خذلهم حتى يأتىَ أمرُ الله ، تبارك وتعالى » .

وقال الحافظ : وقد ظهر مصداق ذلك فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج مسيلمة الكذاب باليمامة ، والأسود العنَسى باليمن ، وفى خلافة أبى بكر : طليحة بن خويلد فى بنى أسد بن خزيمة ، وسَجاح فى بنى تميم ، وقتل الأسود قبل أن يموت النبى صلى الله عليه وسلم ، وقتل مسيلمة فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، قتله وَحْشى قاتل حمزة يوم أحد ، وشاركه فى قتل مسيلمة يوم اليمامة رجل من الأنصار ، وتاب طليحة ومات على الإسلام فى زمن عمر رضى الله عنه . ونقل أن سجاح تابت أيضاً . ثم خرج المختار ابن أبى عبيد الثقفى وغلب على الكوفة فى أول خلافة ابن الزبير . وأظهر محبة أهل البيت ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين ، فتتبّعهم فقتل كثيراً ممن باشر ذلك ، وأعان عليه . فأحبه الناس، ثم ادعى النبوة وزعم أن جبريل عليه السلام يأتيه . ومنهم الحرث الكذاب ، خرج فى خلافة عبد الملك بن مروان فقتل . وخرج فى خلافة بنى العباس جماعة .

وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقاً . فإنهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم تنشأ دعوته عن جنون أو سوداء . وإنما المراد من قامت له شوكة وبدا له شبهة كمن وصفنا . وقد أهلك الله تعالى من وقع له منهم ذلك وبقى منهم من يلحقه بأصحابه وآخرهم الدجال الأكبر .

قوله « وأنا خاتم النبيين » قال الحسن : الخاتم : الذى ختم به يعنى أنه آخر النبيين ، كما قال تعالى (٣٣ : ٤٠ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) وإنما ينزل عيسى ابن مريم فى آخر الزمان حاكما بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم مصلياً إلى قبلته ، فهو كأحد أمته ، بل هو أفضل هذه الأمة . قال النبى صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكَمًا مُقْسِطا . فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضَعنَّ الجَزية » .

قوله « ولا تزال طائفة من أمتى على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم » قال يزيد بن هرون ، وأحمد بن حنبل « إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدرى من هم ؟ »

قال ابن المبارك وعلى بن المدينى ، وأحمد بن سنان ، والبخارى وغيرهم « إنهم أهل الحديث » وعن ابن المدينى ، رواية « هم العرب » واستدل برواية من روى ، هم أهل الغرب . وفسر الغرب بالدلو العظيمة ؛ لأن العرب هم الذين يستقون بها .

قال النووى : يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع وبصير بالحرب ، وفقيه ومحدث ومفسر ، وقائم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وزاهد وعابد ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين فى بلد واحد ، بل يجوز اجتماعهم فى قطر واحد ، وافتراقهم فى أقطار الأرض ، ويجوز أن يجتمعوا فى البلد الواحد وأن يكونوا فى بعض دون بعض منه ، ويجوز إخلاء الأرض من بعضهم أولا فأولا ، إلى أن لا يبقى إلا فرقه واحدة ببلد واحد ، فإذا انقرضوا جاء أمر الله . اه ملخصاً مع زيادة فيه . قاله الحافظ .

قال القرطبى : وفيه دليل على أن الإجماع حجة ؛ لأن الأمة إذا اجتمعت فقد دخل فيهم الطائفة المنصورة .

قال المصنف رحمه الله « وفيه : الآية العظيمة : أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم . وفيه : البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية » .

قلت : واحتج به الإمام أحمد على أن الاجتهاد لا ينقطع ما دامت هذه الطائفة موجودة .

قوله : « حتى يأتى أمر الله » الظاهر أن المراد به ما روى من قبض مَنْ بقى من المؤمنين بالريح الطيبة ، ووقوع الآيات العظام ، ثم لا يبقى إلا شرار الناس، كما روى الحاكم : أن عبد الله بن عمرو قال « لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ، هم شر أهل الجاهلية » فقال عُقبة بن عامر لعبد الله : « اعلم ما تقول ، وأما أنا فسمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : لا تزال عصابة من أمتى يقاتلون على أمر الله ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك » قال عبد الله « ويبعث الله ريحاً ريحها المسك ، ومسها مس الحرير فلا تترك أحداً فى قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته ، ثم يبقى شرار الناس ، فعليهم تقوم الساعة » وفى صحيح مسلم « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض: الله الله » .

وعلى هذا : فالمراد بقوله فى حديث عقبة وما أشبهه « حتى تأتيهم الساعة » ساعتهم . هى وقت موتهم بهبوب الريح . ذكره الحافظ .

وقد اختلف فى محل هذه الطائفة ، فقال ابن بطال : إنها تـكون فى بيت المقدس ، كما رواه الطبرانى من حديث أبى أمامة « قيل : يا رسول الله ، أين هم ؟ قال : ببيت المقدس » وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه « هم بالشام » وفى كلام الطبرى ما يدل على أنه لا يجب أن تـكون فى الشام أو فى بيت المقدس دائما ، بل قد تـكون فى موضع آخر فى بعض الأزمنة .

قلت : ويشهد له الواقع وحال أهل الشام وأهل بيت المقدس ، فإنهم من أزمنة طويلة لا يعرف فيهم من قام بهذا الأمر بعد شيخ الإسلام ابن تيمية رضى الله عنه ، وأصحابه فى القرن السابع وأول الثامن ، فإنهم كانوا فى زمانهم على الحق يدعون إليه ، ويناظرون عليه ، ويجاهدون فيه . وقد يجىء من أمثالهم بعد بالشام من يقوم مقامهم بالدعوة إلى الحق والتمسك بالسنة ، والله على كل شىء قدير .

ومما يؤيد هذا : أن أهل الحق والسنة فى زمن الأئمة الأربعة ، وتوافر العلماء فى ذلك الزمان وقبله وبعده لم يكونوا فى محل واحد ، بل هم فى غالب الأمصار : فى الشام منهم الأئمة ، وفى الحجاز ، وفى مصر ، وفى العراق واليمن ، وكلهم على الحق يناضلون ويجاهدون أهل البدع ، ولهم المصنفات التى صارت أعلاما لأهل السنة ، وحجة على كل مبتدع .

فعلى هذا : فهذه الطائفة قد تجتمع وقد تتفرق ، وقد تـكون فى الشام ، وقد تـكون فى غيره . فإن حديث أبى أمامة ، وقول معاذ ، لا يفيد حصرها بالشام ، وإنما يفيد أنها تـكون فى الشام فى بعض الأزمان لا فى كلها .

وكل جملة من هذا الحديث علم من أعلام النبوة ، فإن كل ما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث وقع كما أخبر صلى الله عليه وسلم .

وقوله : « تبارك وتعالى » قال ابن القيم رحمه الله : البركة نوعان : أحدهما : بركة هى فعلة ، والفعل منها بارك ، ويتعدى بنفسه تارة وبأداة « على » تارة ، وبأداة « فى » تارة والمفعول منها مبارك . وهو ما جعل منها كذلك ، فكان مباركا بجعله تعالى .

والنوع الثانى : بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة ؛ والفعل منها تبارك ، ولهذا لا يقال لغيره ذلك ، ولا يصلح إلا له عز وجل ، فهو سبحانه المتبارك ، وعبده ورسوله

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية النساء .

الثانية : تفسير آية المائدة

الثالثة : تفسير آية الكهف .

الرابعة — وهى أهمها — : ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت : هل هو اعتقاد قلب ، أو هو موافقة أصحابها مع بُغْضها ومعرفة بطلانها ؟ .

الخامسة : قولهم : إن الكفار يعرفون كُفْرَهم أهدَى سبيلا من المؤمنين .

السادسة : — وهى المقصود بالترجمة — أنَّ هذا لا بدَّ أن يوجد فى هذه الأمة . كما تقرر فى حديث أبى سعيد .

السابعة : التصريح بوقوعها ، أعنى عبادَة الأوثان فى هذه الأمة فى جموعٍ كثيرة .

الثامنة : العجبُ العجاب : خروج مَنْ يَدَّعى النبوة ، مثل المختـــار ، مع تكلمه بالشهادتين وتصريحه بأنه من هذه الأمة ، وأنَّ الرسول حَقٌّ ،

المبارك ، كما قال المسيح عليه السلام (١٩ : ٣٠ وجعلنى مباركا أينما كنت) فمن يبارك الله فيه وعليه فهو المبارك .

وأما صفة تبارك فمختصة به ، كما أطلقه على نفسه فى قوله (٧ : ٥٤ تبارك الله رب العالمين) ، (٦٧ : ١ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير) أفلا تراها كيف اطردت فى القرآن جارية عليه مختصة به ، لا تطلق على غيره ؟ وجاءت على بناء السعة والمبالغة ، كتعالى وتعاظم ونحوه ، فجاء بناء « تبارك » على بناء « تعالى » الذى هو دال على كمال العلو ونهايته ، فكذلك « تبارك » دال على كمال بركته وعظمته وسعتها . وهذا معنى قول من قال من السلف « تبارك » تعاظم . وقال ابن عباس رضى الله عنهما « جاء بكل بركة » .

وأن القرآن حقٌ ، وفيه : أن محمداً خاتم النبيين ، ومع هذا يُصَدَّق فى هذا كله مع التضادِّ الواضح . وقد خرج المختارُ فى آخر عصر الصحابة ، وتبعه فِئَامٌ كثيرة .

التاسعة : البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية ، كما زال فيما مضى ، بل لا تزالُ عليه طائفة .

العاشرة : الآية العظمى : أنهم مع قلّتهم لا يضرهم مَنْ خَذَلهم ولا من خالفهم .

الحادية عشرة : أنَّ ذلك الشرطَ إلى قيام الساعة .

الثانية عشرة : مافيهن من الآيات العظيمة .

منها : إخبارُه بأن الله زَوَى له المشارقَ والمغارب ، وأخبر بمعنى ذلك ، فوقع كما أخبر ، بخلاف الجنوب والشمال .

إخبارُه بأنه أُعطى الكنزين .

وإخباره بإجابة دعوته لأُمته فى الاثنتين .

وإخباره بأنه مُنِعَ الثالثة .

وإخباره بوقوع السيف ، وأنه لا يُرفع إذا وقع .

وإخباره بظهور المتنبئين فى هذه الأمة .

وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة .

وكل هذا وَقع كما أخبر ، مع أن كل واحد منها من أبعد ما يكون فى المقول .

الثالثة عشرة : حَصْرُ الخوف على أمته من الأئمة المضلين .

الرابعة عشرة : التنبيه على معنى عبادة الأوثان .

باب

(ما جاء فى السحر)

وقول الله تعالى : (٢ : ١٠٢ ولقد علما لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق)

قوله « باب ما جاء فى السحر »

أى : والكهانة . السحر فى اللغة : عبارة عما خفى ولطف سببه ، ولهذا جاء فى الحديث « إن من البيان لسحراً » وسمى السحر سحراً ، لأنه يقع خفياً آخر الليل .

قال أبو محمد المقدسى فى الكافى : السحر عزائم ورُقىً وعقد يؤثر فى القلوب والأبدان ، فيمرض ويقتل ، ويفرق بين المرء وزوجه . قال الله تعالى (٢ : ١٠٢ فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) وقال سبحانه (ومن شر النفاثات فى العقد) يعنى السواحر اللاتى يعقدن فى سحرهن وينفثن فى عقدهن . ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر الله بالاستعاذة منه .

وعن عائشة رضى الله عنها « أن النبى صلى الله عليه وسلم سُحر حتى إنه ليخيل إليه أنه يفعل الشىء وما يفعله ، وأنه قال لها ذات يوم : أتانى ملكان ، فجلس أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى ، فقال : ما وجع الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : ومَن طَبَّه ؟ قال : لبيد بن الأعصم فى مشط ومِشاطة ، وفى جَف طلعة ذَكر فى بئر ذَرْوان » رواه البخارى .

قال « وقول الله تعالى (٢ : ١٠٢ ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق) » قال ابن عباس « من نصيب » قال قتادة : وقد علم أهل الكتاب فيما عهد إليهم : أن الساحر لا خلاق له فى الآخرة ، وقال الحسن : ليس له دين .

فدلت الآية على تحريم السحر ، وكذلك هو محرم فى جميع أديان الرسل عليهم السلام ، كما قال تعالى : (٢٠ : ٦٩ ولا يُفلح الساحر حيث أتى) وقد نص أصحاب أحمد أنه يكفر بتعلمه وتعليمه . وروى عبد الرزاق عن صفوان بن سليم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تعلم شيئاً من السحر قليلا كان أو كثيراً كان آخر عهده من الله » وهذا مرسل .

وقوله : (٤ : ٥١ يؤمنون بالجبت والطاغوت) .

قال عمر : الجبت : السحر ، والطاغوت : الشيطان » .

وقال جابر : « الطواغيت : كهان ، كان ينزل عليهم الشيطان فى كل

واختلفوا : هل يكفر الساحر أو لا ؟ فذهب طائفة من السلف إلى أنه يكفر ، و به قال مالك وأبو حنيفة وأحمد رحمهم الله . قال أصحابه : إلا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقى شىء يضر فلا يكفر .

وقال الشافعى : إذا تعلم السحر قلنا له : صف لنا سحرك ، فإن وصف ما يوجب الكفر ، مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة ، وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر ، و إن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته كفر . اهـ .

وقد سماه الله كفراً بقوله : (٢ : ١٠٢ إنما نحن فتنة فلا تكفر) وقوله : (٢ : ١٠٢ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) قال ابن عباس فى قوله (إنما نحن فتنة فلا تكفر) وذلك أنهم علما الخير والشر والكفر والإيمان ، فعرفا أن السحر من الكفر .

قال : وقوله تعالى (٤ : ٥١ يؤمنون بالجبت والطاغوت) تقدم الكلام عليهما فى الباب قبله . وفيه أن السحر من الجبت . قاله المصنف رحمه الله .

قوله « قال عمر رضى الله عنه : الجبت : السحر . والطاغوت : الشيطان » هذا الأثر رواه ابن أبى حاتم وغيره .

قوله « وقال جابر : الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان ، فى كل حى واحد » هذا الأثر رواه ابن أبى حاتم بنحوه مطولا عن وهب بن منبه قال : سألت جابر بن عبد الله عن الطواغيت التى كانوا يتحاكمون إليها ؟ فقال : إن فى جهينة واحداً . وفى أسلم واحداً ، وفى هلال واحداً ، وفى كل حى واحداً ، وهم كهان كانت تنزل عليهم الشياطين » .

قوله « قال جابر » هو ابن عبد الله بن حرام الأنصارى .

قوله : « الطواغيت : كهان » أراد أن الكهان من الطواغيت ، فهو من أفراد المعنى .

قوله « كان ينزل عليهم الشيطان » أراد الجنس لا الشيطان الذى هو إبليس خاصة ، بل تنزل عليهم الشياطين ويخاطبونهم ويخبرونهم بما يسترقون من السمع ، فيصدقون مرة ويكذبون مائة .

حي واحد » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : يا رسول الله ، وما هُن ؟ قال :

قوله « في كل حي واحد » الحي واحد الأحياء ، وَهم القبائل ، أي في كل قبيلة كاهن يتحاكمون إليه ويسألونه عن الغيب ، وكذلك كان الأمر قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فأبطل الله ذلك بالإسلام ، وحرست السماء بكثرة الشهب

قوله « وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

كذا أورده المصنف غير معزو ، وقد رواه البخاري ومسلم .

قوله « اجتنبوا » أي أبعدوا ، وهو أبلغ من قوله : دعوا واتركوا ؛ لأن النهي عن القربان أبلغ ، كقوله (٦ : ١٤١ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) .

قوله « الموبقات » بموحدة وقاف : أي المهلكات ، وسميت هذه موبقات لأنها تهلك فاعلها في الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات ، وفي الآخرة من العذاب .

وفي حديث ابن عمر عند البخاري في الأدب المفرد والطبري في التفسير ، وعبد الرزاق مرفوعاً وموقوفاً قال « الكبائر تسع — وذكر السبعة المذكورة — وزاد : والإلحاد في الحرم ، وعقوق الوالدين » ولابن أبي حاتم عن علي قال « الكبائر — فذكر السبع — إلا مال اليتيم . وزاد : العقوق ، والتعرب بعد الهجرة ، وفراق الجماعة ، ونَكث الصفقة » .

قال الحافظ : ويحتاج عندي هذا الجواب عن الحكمة في الاقتصار عندي على سبع .

ويجاب : بأن مفهوم العدد ليس بحجة وهو ضعيف ، أو بأنه أعلم أولا بالمذكورات . ثم أعلم بما زاد ، فيجب الأخذ بالزائد ، أو أن الاقتصار وقع بحسب المقام بالنسبة إلى السائل .

وقد أخرج الطبراني وإسماعيل القاضي عن ابن عباس أنه قيل له : « الكبائر سبع » قال : « هن أكثر من سبع وسبع » وفي رواية « هي إلى السبعين أقرب » وفي رواية « إلى السبعمائة » .

الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق .

قوله « قال : الشرك بالله » هو أن يجعل لله نداً يدعوه ويرجوه ويخافه كما يخاف الله ، بدأ به لأنه أعظم ذنب عصى الله به ، كما فى الصحيحين عن ابن مسعود « سألت النبي صلى الله عليه وسلم أيُّ الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك — الحديث » وأخرج الترمذى بسنده عن صفوان بن عسال قال « قال يهودى لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبي ، فقال له صاحبه : لا تقل نبي ، إنه لو سمعك لكان له أربع أعين ، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن تسع آيات بينات ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تمشوا ببرىء إلى ذى سلطان ليقتله ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تقذفوا محصنة ، ولا تولوا للفرار يوم الزحف ، وعليكم خاصة اليهود أن لا تَعْدُوا فى السبت . فقبَّلا يديه ورجليه . وقالا : نشهد أنك نبي — الحديث » وقال : حسن صحيح .

قوله « السحر » تقدم معناه . وهذا وجه مناسبة الحديث للترجمة .

وقوله « وقتل النفس التي حرم الله » أى حرم قتلها . وهى نفس المسلم المعصوم .

قوله « إلا بالحق » أى بأن تفعل ما يوجب قتلها ، كالشرك ، والنفس بالنفس ، والزانى بعد الإحصان ، وكذا قتل المعاهد ، كما فى الحديث « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة » .

واختلف العلماء فيمن قتل مؤمناً متعمداً ، وهل له توبة أم لا ؟ فذهب ابن عباس وأبو هريرة وغيرهما أنه لا توبة له ، استدلالا بقوله تعالى (٤ : ٩٣ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها) وقال ابن عباس « نزلت هذه الآية وهى آخر ما نزل ، وما نسخها شيء » وفى رواية « لقد نزلت فى آخر ما نزل ، وما نسخها شيء حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وما نزل وحى » وروى فى ذلك آثار تدل لما ذهب إليه هؤلاء ، كما عند الإمام أحمد والنسائى وابن المنذر عن معاوية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً » .

وذهب جمهور الأمة سلفاً وخلفاً إلى أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله ، فإن تاب وأناب وعمل صالحاً بدل الله سيئاته حسنات ، كما قال تعالى (٢٥ : ٦٨ — ٧١ والذين

وأكلُ الربا ، وأكلُ مال اليتيم ، والتولِّى يَوم الزحْف ، وقذف المحصناتِ الغافلات المؤمنات » .

وعن جُندَب مرفوعا : « حَدُّ الساحر : ضربُهُ بالسيف » رواه الترمذى ، وقال : الصحيح أنه موقوف .

لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يَلْقَ أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . إلا من تاب وآمن وعمل صالحا — الآيات) .

قوله « ومن يقتل مؤمناً متعمداً » قال أبو هريرة وغيره « هذا جزاؤه إن جازاه » .

وقد روى عن ابن عباس ما يوافق قول الجمهور ، فروى عبد بن حميد والنحاس عن سعيد بن عبادة : أن ابن عباس رضى الله عنهما كان يقول « لمن قتل مؤمناً توبة » وكذلك ابن عمر رضى الله عنهما . وروى مرفوعاً « أن جزاءه جهنم إن جازاه » .

قوله « وأكل الربا » أى تناوله بأى وجه كان ، كما قال تعالى (٢ : ٢٧٥ — ٢٨٠ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس — الآيات) . قال ابن دقيق العيد : وهو مجرب لسوء الخاتمة . نعوذ بالله من ذلك .

قوله « وأكل مال اليتيم » يعنى التعدى فيه . وعبر بالأكل لأنه أعم وجوه الانتفاع ، كما قال تعالى (٤ : ١٠ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) .

قوله « والتولى يوم الزحف » أى الإدبار عن الكفار وقت التحام القتال ، وإنما يكون كبيرة إذا فرّ إلى غير فئة أو غير متحرف لقتال . كما قيد به فى الآية .

قوله : « وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » وهو بفتح الصاد : المحفوظات من الزنا ، وبكسرها الحافظات فروجهن منه . والمراد الحرائر العفيفات ، والمراد رميهن بزنا أو لواط ، والغافلات : أى عن الفواحش وما رمين به . فهو كناية عن البريئات ؛ لأن الغافل برىء عما بهت به . والمؤمنات : أى بالله تعالى . احترازاً من قذف الكافرات .

قوله « وعن جندب مرفوعا « حدُّ الساحر : ضربه بالسيف » رواه الترمذى ، وقال : الصحيح أنه موقوف » .

وفى صحيح البخارى عن بجاله بن عَبْدة قال : « كتب عمر بن الخطاب : أن اقتلوا كلَّ ساحر وساحرة قال : فقتلنا ثلاث سواحر » .

قوله « عن جندب » ظاهر صنيع الطبرانى فى الكبير : أنه جندب بن عبد الله البجلى . لا جندب الخير الأزدى قاتل الساحر ، فإنه رواه فى ترجمة جندب البجلى من طريق خالد العبد عن الحسن عن جندب عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وخالد العبد ضعيف . قال الحافظ : والصواب أنه غيره ، وقد رواه ابن قانع والحسن بن سفيان من وجهين عن الحسن عن جُندب الخير « أنه جاء إلى ساحر فضربه بالسيف حتى مات ، وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول — فذكره » وجندب الخير : هو جندب ابن كعب ، وقيل : جندب بن زهير . وقيل : هما واحد ، كما قال ابن حبان : أبو عبد الله الأزدى الغامدى صحابى ، روى ابن السكن من حديث بريدة : أن النبى صلى الله عليه وسلم وقال « يضرب ضربة واحدة فيكون أمة واحدة » .

قوله « حد الساحر : ضربه بالسيف » وروى بالهاء وبالتاء ، وكلاهما صحيح .

وبهذا الحديث أخذ مالك وأحمد وأبو حنيفة . فقالوا : يقتل الساحر . وروى ذلك عن عمر ، وعثمان ، وابن عمر ، وحفصة ، وجندب بن عبد الله ، وجندب بن كعب ، وقيس بن سعد ، وعمر بن عبد العزيز ، ولم ير الشافعى القتل عليه بمجرد السحر إلا إن عمل فى سحره ما يبلغ الكفر . وبه قال ابن المنذر ، وهو رواية عن أحمد . والأول أولى للحديث ولأثر عمر ، وعمل به الناس فى خلافته من غير نكير .

قوله « وفى صحيح البخارى عن بجالة بن عبدة قال : كتب عمر بن الخطاب : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة . قال : فقتلنا ثلاث سواحر » .

هذا الأثر رواه البخارى كما قال المصنف رحمه الله ، لكن لم يذكر قتل السواحر .

قوله « عن بجالة » بفتح الموحدة بعدها جيم : ابن عبدة — بفتحتين — التميمى العنبرى بصرى ثقة .

قوله « كتب إلينا عمر بن الخطاب : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة » وظاهره أنه يقتل من غير استتابة . وهو كذلك على المشهور عن أحمد ، وبه قال مالك ، لأن علم السحر

وصح عن حفصة رضى الله عنها « أنها أمرت بقتل جارية لها سحرَتها ، فقتلت » وكذا صح عن جندب .

قال أحمد : عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

لا يزول بالتوبة . وعن أحمد يستتاب . فإن تاب قبلت توبته ، وبه قال الشافعي ، لأن ذنبه لا يزيد عن الشرك ، والمشرك يستتاب وتقبل توبته . ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم .

قوله « وصح عن حفصة رضى الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت » . هذا الأثر رواه مالك فى الموطأ .

و « حفصة » هى أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب ، تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم بعد خنيس بن حذافة وماتت سنة خمس وأربعين .

قوله « وكذا صح عن جندب » أشار المصنف بهذا إلى قتله الساحر . كما رواه البخارى فى تاريخه عن أبى عثمان النهدى قال « كان عند الوليد رجل يلعب فذبح إنساناً وأبان رأسه فعجبنا ، فأعاد رأسه فجاء جندب الأزدى فقتله » .

ورواه البيهقى فى الدلائل مطولا . وفيه « فأمر به الوليد فسجن » فذكر القصة بتمامها . ولها طرق كثيرة .

قوله « قال أحمد عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم » أحمد هو الإمام أحمد ابن محمد بن حنبل .

قوله « عن ثلاثة » أى صح قتل الساحر عن ثلاثة ، أو جاء قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، يعنى : عمر ، وحفصة ، وجندباً . والله أعلم .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية البقرة .

الثانية : تفسير آية النساء .

الثالثة : تفسير الجبت والطاغوت ، والفرق بينهما .

الرابعة : أن الطاغوت قد يكون من الجنّ ، وقد يكون من الإنس .

الخامسة : معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهى .

السادسة : أن الساحر يكفر .

السابعة : أنه يُقتل ولا يستتاب .

الثامنة : وجود هذا فى المسلمين على عهد عمر ، فكيف بعده ؟

باب

(بيان شي من أنواع السحر)

قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا عوف عن حيان بن العلاء حدثنا قَطَن بن قبيصة عن أبيه : أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال :

قوله « باب بيان شيء من أنواع السحر »

قلت : ذكر الشارح رحمه الله تعالى هٰهنا شيئاً من الخوارق وكرامات الأولياء ، وذكر ما اغتر به كثيرمن الناس من الأحوال الشيطانية التي غرت كثيراً من العوام والجهال ، وظنوا أنها تدل على ولاية مَنْ جرت على يديه ممن هو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن ثم قال : ولشيخ الإسلام كتاب « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » فراجعه . انتهى .

قال رحمه الله تعالى « قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا عوف عن حيان بن العلاء حدثنا قَطَن بن قَبيصة عن أبيه : أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن العيافة ، والطّرق ، والطِّيَرة من الجِبْت » قال عوف : العيافة : زجر الطير ، والطرق : الخط يخط فى الأرض ، والجبت : قال الحسن « رنة الشيطان » إسناده جيد : ولأبى داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه : المسند منه :

قوله « قال أحمد » هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل .

ومحمد بن جعفر : هو المشهور بغُنْدَر الهذلى البصرى ، ثقة مشهور . مات سنة ست ومائتين .

وعوف : هو ابن أبى جميلة — بفتح الجيم — العبدى البصرى ، المعروف بعوف الأعرابى ، ثقة . مات سنة ست — أو سبع — وأربعين ، وله ست وثمانون سنة .

وحيان بن العلاء : هو بالتحتية ، ويقال : حيان بن مخارق أبو العلاء البصرى ، مقبول وقَطَن — بفتحتين — أبو سهل البصرى ، صدوق .

قوله « عن أبيه » هو قبيصة — بفتح أوله — ابن مخارق — بضم الميم — أبو عبدالله الهلالى صحابى نزل البصرة .

« إن العِيَافَة والطَّرْق والطِّيَرَة من الجبت » .

قال عوف : العيافة زَجر الطير . والطرق : الخط يخط بالأرض .

والجبت : قال الحسن « رنَّة الشيطان » إسناده جيد .

ولأبى داود النسائى وابن حبان فى صحيحه : المسند منه .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

قوله « إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت » قال عوف : العيافة : زجر الطير ، والتفاؤل بأسمائها وأصواتها ومرها ، وهو من عادات العرب ، وكثير فى أشعارهم . يقال : عاف بعيف : عيفاً إذا زجر وحدس وظن .

قوله « والطرق : الخط يخط بالأرض » كذا فسره عوف ، وهو كذلك .

وقال أبو السعادات : هو الضرب بالحصى الذى يفعله النساء . وأما الطيرة : فيأتى الكلام عليها فى بابها إن شاء الله تعالى .

قوله « من الجبت » أى : السحر ، قال القاضى : والجبت فى الأصل : الفشل الذى لا خير فيه ، ثم استعير لما يعبد من دون الله ، وللساحر والسحر .

قوله « قال الحسن : رنة الشيطان » قلت : ذكر إبراهيم بن محمد بن مفلح : أن فى تفسير بَقِىِّ بن مَخْلَد « أن إبليس رنّ أربع رنات : رنة حين لُعن ، ورنة حين أهبط ، ورنة حين ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورنة حين نزلت فاتحة الكتاب » .

قال سعيد بن جبير : لما لعن الله تعالى إبليس ، تغيرت صورته عن صورة الملائكة ، ورنّ رنة ، فكل رنة منها فى الدنيا إلى يوم القيامة » رواه ابن أبى حاتم .

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال « لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، رنّ إبليس رَنَّة اجتمعت إليه جنوده » رواه الحافظ الضياء فى المختارة .

الرنين : الصوت . وقد رن يرن رنيناً . وبهذا يظهر معنى قول الحسن رحمه الله تعالى .

قوله « ولأبى داود وابن حبان فى صحيحه : المسند منه » ولم يذكر التفسير الذى فسره به عوف . وقد رواه أبو داود بالتفسير المذكور بدون كلام الحسن .

قوله « وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« من اقتبس شُعبة من النجوم ، فقد اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد » .

رواه أبو داود ، وإسناده صحيح .

وللنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « مَن عَقد عُقدة ثم نفث فيها فقد سحر .

« من اقتبس شُعبة من النجوم ، فقد اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد » رواه أبو داود بإسناد صحيح » وكذا صححه النووي والذهبي ، ورواه أحمد وابن ماجة .

قوله « من اقتبس » قال أبو السعادات : قبست العلم واقتبسته إذا علمته اه .

قوله « شعبة » أي طائفة من علم النجوم . والشعبة الطائفة ، ومنه الحديث « الحياء شعبة من الإيمان » أي جزء منه .

قوله « فقد اقتبس شعبة من السحر » المحرم تعلمه .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : فقد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن علم النجوم من السحر ، وقال تعالى (٢٠ : ٦٠ ولا يفلح الساحر حيث أتى) .

قوله « زاد ما زاد » أي كلما زاد من تعلم علم النجوم ، زاد في الإثم الحاصل بزيادة الاقتباس من شُعبه ، فإن ما يعتقده في النجوم من التأثير باطل ، كما أن تأثير السحر باطل .

قوله « وللنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه « من عَقَدَ عقدة ثم نَفَثَ فيها فقد سحر . ومن سحر فقد أشرك . ومن تعلق شيئاً وكل إليه » هذا حديث ذكره المصنف من حديث أبي هريرة وعزاه للنسائي وقد رواه النسائي مرفوعاً ، وحسنه ابن مفلح .

قوله « وللنسائي» هو الإمام الحافظ أحمد بن شعيب بن على بن سنان بن بحر بن دينار أبو عبد الرحمن صاحب السنن وغيرها . روى عن محمد بن المثنى وابن بشار وقتيبة وخلق . وكان إليه المنتهى في العلم بعلل الحديث . مات سنة ثلاث وثلاثمائة ، وله ثمان وثمانون سنة رحمه الله تعالى .

قوله « من عقدعقدة ثم نفث فيها فقد سحر » إعلم أن السحرة إذا أرادوا عمل السحر عقدوا الخيوط ونفثوا على كل عقدة ، حتى ينعقد ما يريدون من السحر ، قال الله تعالى (ومن شر النفاثات في العقد) يعني السواحر اللاتي يفعلن ذلك ، والنفث هو النفخ مع

ومن سحرَ فقد أشرك . ومن تعلّق شيئاً وُكِلَ إليه .

وعن ابن مسعود : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا هل أُنبئكم ما العَضْه ؟ هى النميمة : القالة بين الناس » رواه مسلم .

الريق ، وهو دون التفل ، والنفث فعل الساحر ، فإذا تكيّفت نفسه بالخبث والشر الذى يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة نفخ فى تلك العقدة نفخا معه ريق ، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى مقارن للريق الممازج لذلك ، وقد يتساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور فيصيبه بإذن الله الكونى القدرى لا الشرعى ، قال ابن القيم رحمه الله تعالى .

قوله « ومن سحر فقد أشرك » نص فى أن الساحر مشرك ، إذ لا يتأتى السحر بدون الشرك كما حكاه الحافظ عن بعضهم .

قوله « ومن تعلّق شيئاً وكل إليه » أى من تعلق قلبه شيئاً ، بحيث يعتمد عليه ويرجوه وكله الله إلى ذلك الشيء فمن تعلق على ربه وإلهه وسيده ومولاه رب كل شيء ومليكه ، كفاه ووقاه وحفظه وتولاه . فنعم المولى ونعم النصير . قال تعالى (٣٩ : ٣٦ أليس الله بكاف عبده ؟) ومن تعلق على السحرة والشياطين وغيرهم من المخلوقين وكله الله إلى من تعلقه فهلك . ومن تأمل ذلك فى أحوال الخلق ونظر بعين البصيرة رأى ذلك عياناً ، وهذا من جوامع الكلم . والله أعلم .

قال « وعن ابن مسعود رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ألا هل أنبئكم ما العَضْه ؟ هى النميمة ، القالَة بين الناس » رواه مسلم » .

قوله « ألا هل أنبئكم » أخبركم ، « والعضه » بفتح المهملة وسكون المعجمة . قال أبو السعادات : هكذا يروى فى كتب الحديث . والذى فى كتب الغريب « ألا أنبئكم ما العِضَه » بكسر العين وفتح الضاد . قال الزمخشرى : أصلها « العضة » فعلة من العضه وهو البهت . فحذفت لامه ، كما حذفت من السنَة والشّفة ، وتجمع على «عضين» ثم فسره بقوله « هى النميمة القالة بين الناس » فأطلق عليها « العضه » لأنها لا تنفك عن الكذب والبهتان غالباً . ذكره القرطبى .

وﻟﻬﻤﺎ ﻋﻦ اﺑﻦ ﻋﻤﺮ رﺿﻰ اﻟﻠﻪ ﻋﻨﻬﻤﺎ : أن رﺳﻮل اﻟﻠﻪ ﺻﻠﻰ اﻟﻠﻪ ﻋﻠﻴﻪ وﺳﻠﻢ
١

وذكر ابن عبد البر عن يحيى بن أبي كثير قال : « يفسد النمام والكذاب فى ساعة ما لا يفسد الساحر فى سنة » . وقال أبو الخطاب فى عيون المسائل : ومن السحر السعى بالنميمة والإفساد بين الناس . قال فى الفروع : ووجهه أنه يقصد الأذى بكلامه وعمله على وجه المكر والحيلة ، أشبه السحر ، وهذا يعرف بالعرف والعادة أنه يؤثر ، وينتج ما يعمله السحر أو أكثر فيعطى حكمه تسوية بين المتماثلين أو المتقاربين . لكن يقال : الساحر إنما يكفر لوصف السحر وهو أمر خاص ودليله خاص ، وهذا ليس بساحر . إنما يؤثر عمله ما يؤثره فيعطى حكمه إلا فيما اختص به من الكفر وعدم قبول التوبة . انتهى ملخصاً .

وبه يظهر مطابقة الحديث للترجمة . وهو يدل على تحريم النميمة ، وهو مجمع عليه قال ابن حزم رحمه الله : اتفقوا على تحريم الغيبة والنميمة فى غير النصيحة الواجبة . وفيه دليل على أنها من الكبائر .

قوله « القالة بين الناس » قال أبو السعادات : أى كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس . ومنه الحديث « فشت القالة بين الناس » .

قال « ولهما عن ابن عمر رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن من البيان لسحراً » البيان : البلاغة والفصاحة . قال صعصعة بن صوحان « صدق نبى الله ، فإن الرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق ، فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق » وقال ابن عبد البر تأولته طائفة على الذم ، لأن السحر مذموم ، وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح ، لأن الله تعالى مدح البيان . قال وقد قال عمر بن عبد العزيز لرجل سأله عن حاجة فأحسن المسألة فأعجبه قوله . قال : « هذا والله السحر الحلال » انتهى والأول أصح . والمراد البيان الذى فيه تمويه على السامع وتلبيس ، كما قال بعضهم :

فى زخرف القول تزيين لباطله والحق قد يعتريه سوء تعبير

مأخوذ من قول الشاعر :

تقول : هذا مجاج النحل ، تمدحه وإن تشأ قلت : ذا قىء الزنابير
مدحاً وذمًّا ، وما جاوزتَ وصفهما والحق قد يعتريه سوء تعبير

قال : « إن من البيان لسحراً » .

فيه مسائل :

الأولى : أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت .

الثانية : تفسير العيافة والطرق .

الثالثة : أن علم النجوم نوع من السحر .

الرابعة : العقد مع النفث من ذلك .

الخامسة : أن النميمة من ذلك .

السادسة : أن من ذلك بعض الفصاحة .

قوله «إن من البيان لسحراً» هذا من التشبيه البليغ ، لكون ذلك يعمل عمل السحر، فيجعل الحق فى قالب الباطل ، والباطل فى قالب الحق . فيستميل به قلوب الجهال ، حتى يقبلوا الباطل وينكروا الحق ، ونسأل الله الثبات والاستقامة على الهدى .

وأما البيان الذى يوضح الحق ويقرره ، ويبطل الباطل ويبينه . فهذا هو الممدوح . وهكذا حال الرسل وأتباعهم ، ولهذا علت مراتبهم فى الفضائل ، وعظمت حسناتهم .

وبالجملة : فالبيان لا يحمد إلا إذا لم يخرج إلى حد الإسهاب والإطناب ، وتغطية الحق وتحسين الباطل . فإذا خرج إلى هذا فهو مذموم . وعلى هذا تدل الأحاديث كحديث الباب وحديث « إن الله يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها » رواه أحمد وأبو داود .

باب

(ما جاء فى الكهان ونحوهم)

روى مسلم فى صحيحه عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أتى عرّافا فسأله عن شيء فصدَّقه بما يقول ، لم تقبَل له صلاة أربعين يوماً » .

قوله « باب ماجاء فى الكهان ونحوهم »

الكاهن : هو الذى يأخذ عن مسترق السمع ، وكانوا قبل المبعث كثيرًا . وأما بعد المبعث فإنهم قليل ، لأن الله تعالى حرس السماء بالشُّهُب . وأكثر ما يقع فى هذه الأمة ما يخبر به الجن أولياءهم من الإنس عن الأشياء الغائبة بما يقع فى الأرض من الأخبار . فيظنه الجاهل كشفاً وكرامة ، وقد اغتر بذلك كثير من الناس يظنون المخبر لهم بذلك عن الجن ولياً لله . وهو من أولياء الشيطان . كما قال تعالى (٦ : ١٢٨ ويوم نحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس . وقال أولياؤهم من الإنس : ربنا استمتع بعضنا ببعض . وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا . قال : النار مثواكم خالدين فيها ، إلا ما شاء الله ، إن ربك حكيم عليم) .

قوله « روى مسلم فى صحيحه عن بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من أتى عرّافاً فسأله عن شيء فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يوماً .

قوله « عن بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم » هى حفصة ، ذكره أبو مسعود الثقفى ، لأنه ذكر هذا الحديث فى الأطراف فى مسندها .

قوله « من أتى عرافاً » سيأتى بيان العراف إن شاء الله تعالى وظاهر هذا الحديث : أن الوعيد مرتب على مجيئه وسؤاله ، سواء صدقه أو شك فى خبره . فإن فى بعض روايات الصحيح « من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة .

قوله « لم تقبل له صلاة » إذا كانت هذه حال السائل ، فكيف بالمسئول؟ قال

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَن أتى كاهنًا فصدَّقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » . رواه أبو داود .

وللأربعة والحاكم وقال : صحيح على شرطهما عن « من أتى عرَّافا أو كاهنًا فصدَّقه بما يقول . فقد ، كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » .

النووى وغيره : معناه أنه لا ثواب له فيها ، وإن كانت مجزئة بسقوط الفرض عنه ، ولا بد من هذا التأويل فى هذا الحديث ، فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلاة أربعين ليلة . اه ملخصاً .

وفى هذا الحديث : النهى عن إتيان الكاهن ونحوه . قال القرطبى : يجب على من قدر على ذلك من محتسب وغيره أن يقيم من يتعاطى شيئاً من ذلك من الأسواق و ينكر عليهم أشد النكير ، وعلى من يجىء إليهم ، ولا يغتر بصدقهم فى بعض الأمور ، ولا بكثرة من يجىء إليهم ممن ينتسب إلى العلم ، فإنهم غير راسخين فى العلم بل من الجهال بما فى إتيانهم من المحذور .

قال « وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من أتى كاهناً فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » رواه أبو داود .

وفى رواية أبى داود « أو أتى امرأة — قال مسدد : امرأته حائضاً — أو أتى امرأة . قال مسدد : امرأته فى دبرها — فقد برئ مما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » فناقل هذا الحديث من السنن حذف منه هذه الجملة واقتصر على ما يناسب الترجمة .

قال « وللأربعة والحاكم — وقال : صحيح على شرطهما عن :

« من أتى عرافا أو كاهناً فصدقه بمايقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » .

هكذا بيّض المصنف لاسم الراوى . وقد رواه أحمد والبيهقى والحاكم عن أبى هريرة مرفوعاً .

قوله « من أتى كاهناً » قال بعضهم : لا تعارض بين هذا وبين حديث « من أتى عرافاً فسأله عن شىء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة » هذا على قول من يقول : هو كفر دون كفر ، أما على قول من يقول بظاهر الحديث فيسأل عن وجه الجمع بين الحديثين . وظاهر الحديث :

ولأبى يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفا .

وعن عمران بن حصين رضى الله عنه مرفوعا : « ليس منا مَن تَطير أو تُطيِّر له ، أو تُكهن أو تُكهِّن له ، أو سَحر ، أو سُحر له . ومَن أتى كاهناً فصدَّقه

أنه يكفر متى اعتقد صدقه بأى وجه كان ، وكان غالب الكهان قبل النبوة إنما كانوا يأخذون عن الشياطين .

قوله « فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » قال القرطبى : المراد بالمنزل الكتاب والسنة . اهـ. وهل الكفر فى هذا الموضع كفر دون كفر ، فلا ينقل عن الملة ، أم يتوقف فيه ، فلا يقال : يخرج عن الملة ولا لا يخرج ؟ وهذا أشهر الروايتين عن أحمد رحمه الله تعالى .

قال « ولأبى يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفا » .

« أبو يعلى » اسمه أحمد بن على بن المثنى الموصلى الإمام صاحب التصانيف كالمسند وغيره . روى عن يحيى بن معين وأبى خيثمة وأبى بكر بن أبى شيبة وخلق ، وكان من الأئمة الحفاظ : مات سنة سبع وثلاثمائة .

وهذا الأثر رواه البزار أيضاً ، ولفظه « من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » وفيه دليل على كفر الكاهن والساحر ؛ لأنهما يدعيان علم الغيب وذلك كفر ، والمصدق لهما يعتقد ذلك ويرضى به وذلك كفر أيضاً .

قوله « وعن عمران بن حصين رضى الله عنه مرفوعاً « ليس منا من تطيَّر أو تُطُيِّر له ، أو تكَهن أو تكُهِّن له ، أو سَحَر أو سُحِر له ، ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » رواه البزار بإسناد جيد ، ورواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله « ومن أتى كاهناً — إلى آخره » .

قوله « ليس منا » فيه : وعيد شديد يدل على أن هذه الأمور من الكبائر وتقدم أن الكهانة والسحر كفر .

قوله « من تطير » أى فعل الطيرة « أو تطير له » أى قبل قول المتطير له وتابعه وكذا معنى « أو تكهن أو تكهن له » كالذى يأتى الكاهن ويصدقه ويتابعه ، وكذلك من عمل الساحر له السحر .

بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم» رواه البزار بإسناد جيد .

ورواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله « ومن أتى — إلى آخره » .

قال البغوى : العراف : الذى يدعى معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ، ونحو ذلك .

وقيل : هو الكاهن . والكاهن : هو الذى يخبر عن المغيبات فى المستقبل . وقيل : الذى يخبر عما فى الضمير .

وقال أبو العباس ابن تيمية : العرّاف : اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم فى معرفة الأمور بهذه الطرق .

فكل من تلقى هذه الأمور عمن تعاطاها فقد برئ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم لكونها إما شركا ، كالطيرة ، أو كفراً كالكهانة والسحر ، فمن رضى بذلك وتابع عليه فهو كالفاعل : لقبوله الباطل واتباعه .

قوله « رواه البزار » هو أحمد بن عمرو بن عبد الخالق، أبو بكر البزار البصرى صاحب المسند الكبير . وروى عن ابن بشار وابن المثنى وخلق . مات سنة اثنتين وتسعين ومائتين .

قوله « قال البغوى — إلى آخره » البغوى — بفتحتين — هو الحسين بن مسعود الفرّاء الشافعى ، صاحب التصانيف وعالم أهل خراسان . كان ثقة فقيهاً زاهداً . مات فى شوال سنة ست عشرة وخمسمائة رحمه الله تعالى .

قوله « العرّاف : الذى يدعى معرفة الأمور » ظاهره : أن العرّاف هو الذى يخبر عن الوقائع كالسرقة وسارقها ، والضالة ومكانها .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : إن العراف اسم للكاهن والمنجم والرمّال ونحوهم ، كالحازر الذى يدعى علم الغيب ، أو يدعى الكشف .

وقال أيضاً : والمنجم يدخل فى اسم العراف ، وعند بعضهم هو معناه .

وقال أيضاً : والمنجم يدخل فى اسم الكاهن عند الخطابى وغيره من العلماء ، وحكى

ذلك عن العرب . وعند آخرين : هو من جنس الكاهن ، وأسوأ حالا منه ، فيلحق به من جهة المعنى .

وقال الإمام أحمد : العرافة : طَرَف من السحر . والساحر أخبث .

وقال أبو السعادات : العرّاف : المنجم ، والحازر : الذى يدعى علم الغيب ، وقد استأثر الله تعالى به .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سموه عائفا ، وعرافا .

والمقصود من هذا : معرفة أن من يدعى معرفة علم شىء من المغيبات ، فهو إما داخل فى اسم الكاهن ، وإما مشارك له فى المعنى فيلحق به . وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة فى بعض الأحيان يكون بالكشف . ومنه ما هو من الشياطين ويكون بالفأل والزجر والطيرة والضرب بالحصى والخط فى الأرض والتنجيم والكهانة والسحر ، ونحو هذا من علوم الجاهلية ، ونعنى بالجاهلية كل من ليس من أتباع الرسل عليهم السلام ، كالفلاسفة والكهان والمنجمين ، وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، فإن هذه علوم لقوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل صلوات الله عليهم ، وكل هذه الأمور يسمى صاحبها كاهناً وعرّافا أو فى معناهما ، فمن أتاهم فصدقهم بما يقولون لحقه الوعيد . وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام ، فادعوا بها علم الغيب الذى استأثر الله بعلمه ، وادعوا أنهم أولياء ، وأن ذلك كرامة .

ولا ريب أن من ادعى الولاية ، واستدل بإخباره ببعض المغيبات فهو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن ؛ إذ الكرامة أمر يجريه الله على يد عبده المؤمن التقى : إما بدعاء ، أو أعمال صالحة لا صنع للولى فيها ، ولا قدرة له عليها ، بخلاف من يدعى أنه ولى ويقول للناس : اعلموا أنى أعلم المغيبات ، فإن هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب ، وإن كانت أسباباً محرمة كاذبة فى الغالب ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى وصف الكهان « فيكذبون معها مائة كذبة » فبين أنهم يصدقون مرة ويكذبون مائة ، وهكذا حال من سلك سبيل الكهان ممن يدعى الولاية والعلم بما فى ضمائر الناس ، مع أن نفس دعواه دليل على كذبه ؛ لأن فى دعواه الولاية تزكية النفس المنهى عنها بقوله تعالى (٥٣ : ٣٢ فلا تزكوا أنفسكم) وليس هذا من شأن الأولياء ، فإن شأنهم الإزراء

وقال ابن عباس — فى قوم يكتبون أباجاد وينظرون فى النجوم : « ما أرى مَن فعل ذلك له عند الله من خلاق » .

على نفوسهم وعيبهم لها ، وخوفهم من ربهم ، فكيف يأتون الناس ويقولون : اعرفوا أننا أولياء ، وأنا نعلم الغيب ؟ وفى ضمن ذلك طلب المنزلة فى قلوب الخلق واقتناص الدنيا بهذه الأمور . وحسبك بحال الصحابة والتابعين رضى الله عنهم ، وهم سادات الأولياء ، أفكان عندهم من هذه الدعاوى والشطحات شىء ؟ لا والله ، بل كان أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن ، كالصديق رضى الله عنه ، وكان عمر رضى الله عنه يسمع نشيجه من وراء الصفوف يبكى فى صلاته ، وكان يمرّ بالآية فى ورده من الليل فيمرض منها ليالى يعودونه ، وكان تميم الدارى يتقلب على فراشه ولا يستطيع النوم إلا قليلا خوفاً من النار ثم يقوم إلى صلاته . ويكفيك فى صفات الأولياء ما ذكره الله تعالى فى صفاتهم فى سورة الرعد والمؤمنين والفرقان والذاريات والطور فالمتصفون بتلك الصفات هم الأولياء ، لا أهل الدعوى والكذب ومنازعة رب العالمين فيما اختص به من الكبرياء والعظمة وعلم الغيب ، بل مجرد دعواه علم الغيب كفر . فكيف يكون المدعى لذلك ولياً لله ؟ ولقد عظم الضرر واشتد الخطب بهؤلاء المفترين الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين ، ولبسوا بها على خفافيش القلوب . نسأل الله السلامة والعافية فى الدنيا والآخرة .

قوله « وقال ابن عباس — فى قوم يكتبون أبا جاد — إلى آخره » هذا الأثر رواه الطبرانى عن ابن عباس مرفوعاً وإسناده ضعيف . ولفظه « رُبَّ مُعَلِّم حروف أبى جاد دارسٍ فى النجوم ، ليس له عند الله خلاق يوم القيامة » ورواه حميد بن زنجويه عنه بلفظ رُب ناظر فى النجوم ومتعلم حروف أبى جاد ليس له عند الله خلاق » .

قوله « ما أرى » يجوز فتح الهمزة بمعنى لا أعلم . ويجوز ضمها بمعنى: أظن .

وكتابة « أبى جاد » وتعلمها لمن يدعى بها علم الغيب هو الذى يسمى علم الحرف ، وهو الذى جاء فيه الوعيد ، فأما تعلمها للتهجى وحساب الجمل فلا بأس به .

قوله « وينظرون فى النجوم » أى ويعتقدون أن لها تأثيراً كما سيأتى فى باب التنجيم . وفيه من الفوائد : عدم الاغترار بما يؤتاه الباطل من معارفهم وعلومهم كما قال تعالى (٤٠ : ٨٣ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) .

فيه مسائل :

الأولى : لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن .

الثانية : التصريح بأنه كفر .

الثالثة : ذكر من تُكهِّن له .

الرابعة : ذكر من تُطير له .

الخامسة : ذكر من سُحر له

السادسة : ذكر من تعلم أبا جاد .

السابعة : ذكر الفرق بين الكاهن والعراف .

باب
(ما جاء فى النُّشْرة)

عن جابر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن النشرة ؟ فقال : هى من عمل الشيطان » رواه أحمد بسند جيد ، وأبو داود ، وقال : سئل أحمد عنها ؟ فقال : ابن مسعود يكره هذا كله .

قوله « باب ما جاء فى النُّشْرة »

بضم النون ، كما فى القاموس . قال أبو السعادات : النشرة : ضرب من العلاج والرقية ، يعالج به من يظن أن به مساً من الجن ، سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء ، أى : يكشف ويزال .

قال الحسن : النشرة من السحر . وقد نشرت عنه تنشيراً ، ومنه الحديث « فلعل طبًّا أصابه ، ثم نشره بقل أعوذ برب الناس » أى : رقاه .

وقال ابن الجوزى : النشرة : حل السحر عن المسحور . ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر .

قوله « عن جابر رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن النشرة ؟ فقال : هى من الشيطان » رواه أحمد بسند جيد ، وأبو داود ، وقال : سئل أحمد عنها ؟ فقال : ابن مسعود يكره هذا كله » .

هذا الحديث رواه أحمد ، ورواه عنه أبو داود فى سننه ، والفضل بن زيادة فى كتاب المسائل عن عبد الرزاق عن عقيل بن معقل بن منبه عن جابر ، فذكره . قال ابن مفلح : إسناد جيد وحسن الحافظ إسناده .

قوله « سئل عن النشرة » والألف واللام فى « النشرة » للعهد أى النشرة المعهودة التى كان أهل الجاهلية يصنعونها هى من عمل الشيطان .

قوله « وقال : سئل أحمد عنها ؟ فقال : ابن مسعود يكره هذا كله » أراد أحمد رحمه

وفى البخارى عن قتادة « قلت لابن المسيب : رجل به طِب أو يؤخَّذ عن امرأته ، أيُحَلُّ عنه أو يُنشَّر ؟ قال : لا بأس به ، إنما يريدون به الإصلاح ، فأما ما ينفع فلم ينه عنه » اهـ .

وروى عن الحسن أنه قال « لا يَحُلُّ السحر إلا ساحر » .

الله أن ابن مسعود يكره النشرة التى هى من عمل الشيطان كما يكره تعليق التمائم مطلقاً .

قوله « وللبخارى عن قتادة « قلت لا بن المسيب : رجل به طبٌّ أو يؤخَذُ عن امرأته أيُحَلُّ عنه ، أو يُنَشّر ؟ قال : لا بأس به : إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع فلم يُنه عنه » .

قوله « عن قتادة » هو ابن دعامة — بكسر الدال — الدوسى ثقة فقيه من أحفظ التابعين قالوا : إنه ولد أكمه . مات سنة بضع عشرة ومائة .

قوله « رجل به طب » بكسر الطاء . أى : سحر ، يقال : طُبّ الرجل — بالضم — إذا سحر . ويقال : كنوا عن السحر بالطب تفاؤلا . كما يقال للديغ : سليم .

وقال ابن الأنبارى : الطب من الأضداد . يقال لعلاج الداء : طب ، والسحر من الداء يقال له : طب .

قوله « يؤخّذ » بفتح الواو مهموزة وتَشدِيد الخاء المعجمة وبعدها ذال معجمة ، أى يحبس عن امرأته ولا يصل إلى جماعها . والأخذة — بضم الهمزة — الكلام الذى يقوله الساحر .

قوله « أيُحل » بضم الياء وفتح الحاء مبنى للمفعول .

قوله « أو ينشر » بتشديد المعجمة .

قوله « لا بأس به » يعنى : أن النشرة لا بأس بها ؛ لأنهم يريدون بها الإصلاح ، أى إزالة السحر ، ولم ينه عما يراد به الإصلاح ، وهذا من ابن المسيب يحمل على نوع من النشرة لا يعلم أنه سحر .

قوله « وروى عن الحسن أنه قال : لا يحُل السحر إلا ساحر » هذا الأثر ذكره ابن الجوزى فى جامع المسانيد .

قال ابن القيم : النشرة حل السحر عن المسحور ، وهى نوعان :

أحدهما : حل بسحر مثله ، وهو الذى من عمل الشيطان . وعليه يحمل قول الحسن ، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب ، فيبطل عمله عن المسحور .

والثانى : النشرة بالرقيـة والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة . فهذا جائز .

والحسن : هو ابن أبى الحسن ، واسمه : يسار — بالتحتية والمهملة — البصرى الأنصارى مولاهم . ثقة فقيه ، إمام من خيار التابعين . مات سنة عشر ومائة رحمه الله ، وقد قارب التسعين .

قوله « قال ابن القيم : النشرة حل السحر عن المسحور ، وهى نوعان ، حل بسحر مثله ، وهو الذى من عمل الشيطان — إلى آخره » ومما جاء فى صـفة النشرة الجائزة : ما رواه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن أبى سليم قال : « بلغنى أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله ، تقرأ فى إناء فيه ماء ، ثم يصب على رأس المسحور : الآية التى فى سورة يونس (١٠ : ٨١ ، ٨٢ فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين ، ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) وقوله : (٧ : ١١٨ — ١٢٠ فوقع الحق و بطل ما كانوا يعملون — إلى آخر الآيات الأربع) وقوله (٢٠ : ٦٩ إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) .

وقال ابن بطال : فى كتاب وهب بن منبه : أنه يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضرب به بالماء ويقرأ فيه آية الكرسى والقوافل ، ثم يحسو منه ثلاث حسوات ثم يغتسل به يذهب عنه كل ما به ، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله .

قلت : قول العلامة ابن القيم « والثانى : النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة . فهذا جائز » يشير رحمه الله إلى مثل هذا ، وعليه يحمل كلام من أجاز النشرة من العلماء .

والحاصل : أن ما كان منه بالسحر فيحرم ، وما كان بالقرآن والدعوات والأدوية المباحة ، فجائز ، والله أعلم .

فيه مسائل :

الأولى : النهى عن النشرة .

الثانية : الفرق بين المنهى عنه والمرخص فيه مما يزيل الإشكال .

باب

(ما جاء فى التطير)

وقول الله تعالى: (٧: ١٣١ ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون)

قوله « باب ماجاء فى التطير »

أى : من النهى عنه والوعيد فيه ، مصدر تطيَّر يتطير ، و « الطِّيرة » بكسر الطاء وفتح الياء ، وقد تسكن : اسم مصدر من تطير طيرة ، كما يقال : تخير خيرة ، ولم يجىء فى المصادر على هذه الزنة غيرها ، وأصله : التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرها ، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم . فنفاه الشارع وأبطله ، وأخبر أنه لا تأثير له فى جلب نفع ولا دفع ضر .

قال المدائنى « سألت رُؤْبة بن العجاج قلت : ما السانح ؟ قال : ما ولاّك ميامنه . قلت : فما البارح ؟ قال : ما ولاك مياسره . والذى يجىء من أمامك فهو الناطح والنطيح ، والذى يجىء من خلفك فهو القاعد والقعيد » .

ولما كانت الطيرة من الشرك المنافى لكمال التوحيد الواجب ، لكونها من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته ذكرها المصنف رحمه الله فى كتاب التوحيد ، تحذيراً مما ينافى كمال التوحيد الواجب .

قوله « وقول الله تعالى (٧ : ١٣١ ألا إنما طائرهم عند الله — الآية » ذكر تعالى هذه الآية فى سياق قوله (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه— الآية) المعنى أن آل فرعون كانوا إذا أصابتهم الحسنة — أى الخصب والسعة والعافية ، كما فسره مجاهد وغيره — قالوا : لنا هذه ، أى نحن الجديرون والحقيقون به ، ونحن أهله وإن تصبهم سيئة — أى بلاء وقحط — تطيروا بموسى ومن معه ، فيقولون : هذا بسبب

وقوله (٣٦ : ١٩ قالوا : طائركم معكم أئِن ذُكِّرتم بل أنتم قوم مسرفون) .

عن أبي هريرة رضى الله عنه : أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال « لا عَدوَى

موسى وأصحابه أصابنا بشؤمهم . فقال الله تعالى (ألا إنما طائرهم عند الله) قال بن عباس « طائرهم : ما قضى عليهم وقدر لهم » وفي رواية « شؤمهم عند الله ومن قِبَله » أي إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله .

قوله (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أي أن أكثرهم جهال لا يدرون . ولو فهموا وعقلوا لعلموا أنه ليس فيما جاء به موسى عليه السلام إلا الخير والبركة والسعادة والفلاح لمن آمن به واتبعه.

قوله « وقوله تعالى (٣٦ : ١٩ قالوا : طائركم معكم — الآية) » المعنى — والله أعلم — حظكم وما نابكم من شر معكم ؛ بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين ، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا . بل ببغيكم وعدوانكم . فطائر الباغي الظالم معه ، فما وقع به من الشر فهو سببه الجالب له . وذلك بقضاء الله وقدره وحكمته وعدله ، كما قال تعالى (٦٨ : ٣٥ ، ٣٦ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ، مالكم كيف تحكمون ؟) ويحتمل أن يكون المعنى : طائركم معكم أي راجع عليكم ، فالتطير الذى حصل لكم إنما يعود عليكم . وهذا من باب القصاص فى الكلام . ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام « إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم » ذكره ابن القيم رحمه الله .

قوله تعالى (أئن ذُكِّرتم) أي من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله قابلتمونا بهذا الكلام (بل أنتم قوم مسرفون) قال قتادة : أئن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا ؟

ومناسبة الآيتين للترجمة : أن التطير من عمل أهل الجاهلية والمشركين . وقد ذمهم الله تعالى به ومقتهم ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التطير وأخبر أنه شرك . كما سيأتى فى أحاديث الباب .

قال « وعن أبي هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صَفَر» أخرجاه . زاد مسلم « ولا نوْء ولا غُول » .

قال أبو السعادات : « العدوى » اسم من الإعداء . كالدعوى . يقال : أعداه الداء يعديه إعداء : إذا أصابه مثل ما يصاحب الداء :

وقال غيره : « لا عدوى » هو اسم من الإعداء ، وهو مجاوزة العلة من صاحبها إلى غيره والمنفى نفس سراية العلة أو إضافتها إلى العلة . والأول هو الظاهر .

وفى رواية لمسلم : أن أبا هريرة كان يحدث بحديث لا عدوى ، ويحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يورد ممرض على مُصِح » ثم إن أبا هريرة اقتصر على حديث « لا يورد ممرض على مصح » وأمسك عن حديث « لا عدوى » فراجعوه وقالوا : سمعناك تحدث به ، فأبى أن يعترف به . قال أبو مسلمة — الراوى عن أبى هريرة : فلا أدرى أنسى أبو هريرة أو نسخ أحد القولين الآخر ؟ .

وقد روى حديث « لا عدوى » جماعة من الصحابة : أنس بن مالك ، وجابر ابن عبد الله ، والسائب بن يزيد ، وابن عمر ، وغيرهم ، وفى بعض روايات هذا الحديث « وفِرّ من المجذوم كما تفر من الأسد » .

وقد اختلف العلماء فى ذلك . وأحسن ما قيل فيه قول البيهقى ، وتبعه ابن صلاح ، وابن القيم ، وابن رجب ، وابن مفلح وغيرهم : أن قوله « لا عدوى » على الوجه الذى يعتقده أهل الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى ، وأن هذه الأمور تعدى بطبعها . وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شىء من الأمراض سبباً لحدوث ذلك ، ولهذا قال « فِرّ من المجذوم كما تفر من الأسد » وقال « لا يورد ممرض على مصح » وقال فى الطاعون « من سمع به فى أرض فلا يقدم عليه » وكل ذلك بتقدير الله تعالى . ولأحمد والترمذى عن ابن مسعود مرفوعا « لا يعدى شىء — قالها ثلاثا — فقال أعرابى يا رسول الله إن النُّقْبَة من الجرَب تكون بمِشْفَر البعير أو بذنبه فى الإبل العظيمة فتجْرَب كلها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمن أجرب الأول ؟ لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصائبها ورزقها » فأخبر صلى الله عليه وسلم أن ذلك كله بقضاء الله وقدره ، والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر إذا كان فى عافية . فكما أنه يؤمر أن لا يلقى نفسه فى الماء وفى النار ، مما جرت العادة أنه يهلك أو يضر . فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم ، والقدوم على بلد الطاعون ، فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف ، فالله سبحانه هو خالق الأسباب ومسبباتها ، لا خالق غيره ، ولا مقدر غيره . وأما إذا قوى التوكل على الله والإيمان بقضاء الله وقدره فقويت النفس على مباشرة بعض هذه

ولا طِيَرَة .

الأسباب ، اعتماداً على الله ، ورجاء منه أن لا يحصل به ضرر ، ففى هذه الحال تجوز مباشرة ذلك ، لا سيما إذا كانت مصلحة عامة أو خاصة ، وعلى هذا يحمل الحديث الذى رواه أبو داود والترمذى : « أن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه فى القصعة ، ثم قال : كل بسم الله ، ثقة بالله وتوكلا عليه » وقد أخذ به الإمام أحمد . وروى ذلك عن عمر وابنه وسلمان رضى الله عنهم . ونظير ذلك ما روى عن خالد بن الوليد رضى الله عنه أنه أكل السم ، ومنه مَشْى سعد بن أبى وقاص وأبى مسلم الخولانى على متن البحر ، قاله ابن رجب رحمه الله .

قوله « ولا طيرة » قال ابن القيم رحمه الله تعالى : يحتمل أن يكون نفياً أو نهياً : أى لا تطيروا ، ولكن قوله فى الحديث « لا عدوى ولا صفر ولا هامة » يدل على أن المراد النفى و إبطال هذه الأمور التى كانت الجاهلية تعانيها . والنفى فى هذا أبلغ من النهى ؛ لأن النفى يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره ، والنهى إنما يدل على المنع منه .

وفى صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم : أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم « ومنا أناس يتطيرون . قال : ذلك شىء يجده أحدكم فى نفسه فلا يصدنكم » فأخبر أن تأذِّيه وتشاؤمه بالطيرة إنما هو فى نفسه وعقيدته ، لا فى المتطير به ، فوهمه وخوفه و إشراكه هو الذى يطيره و يصده لما رآه وسمعه ، فأوضح صلى الله عليه وسلم لأمته الأمر ، و بيَّن لهم فساد الطيرة ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة ، ولا فيها دلالةُ ، ولا نصبها سبباً لما يخافونه ويحذرونه ، ولتطمئن قلوبهم ، وتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التى أرسل بها رسله ، وأنزل بها كتبه ، وخلق لأجلها السموات والأرض ، وعمر الدارين الجنة والنار بسبب التوحيد ، فقطع صلى الله عليه وسلم علق الشرك من قلوبهم ؛ لئلا يبقى فيها علقةٌ منها ، ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهل النار البتة .

فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى ، واعتصم بحبله المتين ، وتوكل على الله ، قطع هاجس الطيرة من قبل استقرارها ، و بادر خواطرها من قبل استمكانها .

قال عكرمة : كنا جلوساً عند ابن عباس ، فمر طائر يصيح ، فقال رجل من القوم : خير

ولا هامَة ولا صفر » أخرجاه .

خير ، فقال له ابن عباس : لا خير ولا شر . فبادره بالإنـكار عليه ، لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر . وخرج طاوس مع صاحب له في سفر ، فصاح غراب ، فقال الرجل : خير ، فقال طاوس : وأي خير عند هذا ؟ لا تصحبني . اه ملخصاً .

وقد جاءت أحاديث ظن بعض الناس أنها تدل على جواز الطيرة ، كقوله صلى الله عليه وسلم « الشؤم في ثلاث : في المرأة ، والدابة ، والدار » ونحو هذا .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : إخباره صلى الله عليه وسلم بالشؤم في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها الله سبحانه ، وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق منها أعياناً مشؤومة على من قاربها وساكنها ، وأعياناً مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر ، وهذا كما يعطي سبحانه الوالدين ولداً مباركاً يريان الخير على وجهه ، ويعطي غيرهما ولداً مشئوماً يريان الشر على وجهه ، وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية وغيرها ، فكذلك الدار والمرأة والفرس . والله سبحانه خالق الخير والشر والسعود والنحوس ، فيخلق بعض هذه الأعيان سعوداً مباركة ، ويقضي بسعادة من قاربها وحصول اليمن والبركة له ، ويخلق بعضها نحوساً يتنحس بها من قاربها . وكل ذلك بقضائه وقدره ، كما خلق سائر الأسباب وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة . كما خلق المسك وغيره من الأرواح الطيبة ولذذ بها من قاربها من الناس . وخلق ضدها وجعلها سبباً لألم من قاربها من الناس ، والفرق بين هذين النوعين مدرك بالحس ، فكذلك في الديار والنساء والخيل . فهذا لون ، والطيرة الشركية لون . انتهى .

قوله « ولا هامة » بتخفيف الميم على الصحيح . قال الفراء : الهامة طير من طير الليل كأنه يعني البومة . قال ابن الأعرابي ، كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم يقول : نعَتْ إليَّ نفسي أو أحداً من أهل داري ، فجاء الحديث بنفي ذلك وإبطاله .

قوله « ولاصفر » بفتح الفاء ، روى أبو عبيدة في غريب الحديث عن رؤبة أنه قال : هي حية تكون في البطن تصيب الماشية والناس ، وهي أعدى من الجرب عند العرب . وعلى هذا : فالمراد بنفيه ما كانوا يعتقدونه من العدوى . وممن قال بهذا سفيان بن عيينة والإمام أحمد والبخاري وابن جرير .

زاد مسلم « ولا نَوْء ، ولا غُول » .

ولهما عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاعَدْوَى ولاطِيرَة ويُعْجِبُنِى الفألُ ، قالوا : وما الفأل ؟ قال . الـكلمةُ الطيِّبة » .

وقال آخرون : المراد به شهر صفر ، والنفى لما كان أهل الجاهلية يفعلونه فى النسىء ، وكانوا يحلون المحرم ويحرمون صفر مكانه ، وهو قول مالك .

روى أبو داود عن محمد بن راشد عمن سمعته يقول : إن أهل الجاهلية يتشاءمون بصفر ويقولون : إنه شهر مشؤوم ، فأبطل النبى صلى الله عليه وسلم ذلك . قال ابن رجب : ولعل هذا القول أشبه الأقوال ، والتشاؤم بصفر هو جنس الطيرة المنهى عنها ، وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام كيوم الأربعاء وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال فى النكاح فيه خاصة .

قوله « ولا نوء » النوء واحد الأنواء ، وسيأتى الـكلام عليه فى بابه إن شاء الله تعالى .

قوله « ولا غول » هو بالضم اسم ، وجمعه أغوال وغيلان . وهو المراد هنا .

قال أبو السعادات : الغول واحد الغيلان ، وهو جنس من الجن والشياطين ، كانت العرب تزعم أن الغول فى الفلاة تتراءى للناس ، تتلون تلوناً فى صور شتى وتغولهم : أى تضلهم عن الطريق وتهلـكهم ، فنفاه النبى صلى الله عليه وسلم وأبطله .

فإن قيل : ما معنى النفى ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان » ؟

أجيب عنه : بأن ذلك كان فى الابتداء ، ثم دفعها الله عن عباده . أو يقال : المنفى ليس وجود الغول ، بل ما يزعمه العرب من تصرفه فى نفسه ، أو يكون المعنى بقول « لا غول » أنها لا تستطيع أن تضل أحداً مع ذكر الله والتوكل عليه . ويشهد له الحديث الآخر « لا غول ولـكن السعالى سحرة الجن » أى ولـكن فى الجن سحرة لهم تلبيس وتخييل . ومنه الحديث « إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان » أى ادفعوا شرها بذكر الله . وهذا يدل على أنه لم يرد بنفيها عدمها . ومنه حديث أبى أيوب « كان لى تمر فى سَهوة فـكانت الغول تجىء فتأخذ » .

قوله « ولهما عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا عدوى ولاطيرة ، ويعجبنى الفأل ، قالوا : وما الفأل ؟ قال : الـكلمة الطيبة » .

قوله « ويعجبنى الفأل » قال أبو السعادات : الفأل ، مهموز فيما يسر و يسوء ، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء ، وربما استعملت فيما يسر . يقال : تفاءلت بكذا وتفاولت ، على التحقيق والقلب ، وقد أولع الناس بترك الهمز تخفيفاً ، وإنما أحب الفأل لأن الناس إذا أمّلوا فائدة الله ، ورجوا عائدته عند كل سبب ضعيف أو قوى فهم على خير ، وإذا قطعوا آمالهم ورجاءهم من الله تعالى كان ذلك من الشر . وأما الطيرة فإن فيها سوء الظن بالله وتوقع البلاء ، والتفاؤل : أن يكون رجل مريض فيسمع آخر يقول : يا سالم ، أو يكون طالب ضالَّة فيسمع آخر يقول : يا واجد ، فيقع فى ظنه أنه يبرأ من مرضه ويجد ضالته . ومنه الحديث « قيل : يارسول الله ، ما الفأل ؟ قال: الكلمة الطيبة » .

قوله « قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة » بين صلى الله عليه وسلم أن الفأل يعجبه . فدل على أنه ليس من الطيرة المنهى عنها .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ليس فى الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك ، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة ، وموجب الفطرة الإنسانية التى تميل إلى ما يوافقها ويلائمها . كما أخبرهم صلى الله عليه وسلم أنه حبب إليه من الدنيا النساء والطيب ، وكان يحب الحلواء والعسل ، ويحب حسن الصوت بالقرآن والأذان ويستمع إليه ، ويحب معالى الأخلاق ومكارم الشيم .

وبالجملة يحب كل كمال وخير وما يفضى إليهما ، والله سبحانه قد جعل فى غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبته ، وميل نفوسهم إليه ، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهنئة والبشرى والفوز والظفر ونحو ذلك فإذا قرعت هذه الأسماء الأسماع استبشرت بها النفوس ، وانشرح لها الصدر ، وقوى بها القلب ، وإذا سمعت أضدادها أوجب لها ضد هذه الحال . فأحزنها ذلك ، وأثار لها خوفاً وطيرة وانكماشاً وانقباضاً عما قصدت له وعزمت عليه ، فأورث لها ضرراً فى الدنيا ونقصاً فى الإيمان ومقارفة الشرك .

وقال الحليمى : وإنما كان صلى الله عليه وسلم يعجبه الفأل ؛ لأن التشاؤم سوء ظن بالله

ولأبى داود بسند صحيح عن عُقبة بن عامر قال : « ذُكرت الطِّيرةُ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أحسنُها الفألُ ، ولا تَرُدُّ مسلماً ، فإذا رأى أحدكم مايكره فليقل : اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات

تعالى بغير سبب محقق ، والتفاؤل حسن ظن به ، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال .

قوله « ولأبى داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال « ذكرت الطيرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أحسنها الفأل ، ولا ترد مسلماً . فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : اللهم لايأتى بالحسنات إلا أنت ، ولايدفع السيئات إلا أنت ، ولاحول ولا قوة إلا بك » .

قوله « عن عقبة بن عامر » هكذا وقع فى نسخ التوحيد ، وصوابه : عن عروة بن عامر كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما . وهو مكى اختلف فى نسبه ، فقال أحمد : عن عروة بن عامر القرشى ، وقال غيره : الجهنى . واختلف فى صحبته ، فقال الماوردى : له صحبة . وذكره ابن حبان فى ثقات التابعين . وقال المزى : لا صحبة له تصح .

قوله « فقال : أحسنها الفأل » قد تقدم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعجبه الفأل . وروى الترمذى وصححه عن أنس رضى الله عنه « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج لحاجته يحب أن يسمع : يا نجيح ، يا راشد » وروى أبو داود عن بريدة « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان لا يتطير من شىء ، وكان إذا بعث عاملا سأله عن اسمه ، فإذا أعجبه فرح به ، وإن كره اسمه رئى كراهية ذلك فى وجهه » وإسناده حسن . وهذا فيه استعمال الفأل .

قال ابن القيم : أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن الفأل من الطيرة وهو خيرها ، فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل منها ولكنه خير منها ، ففصل بين الفأل والطيرة ؛ لما بينهما من الامتياز والتضاد ، ونفع أحدهما ، ومضرة الآخر ، ونظير هذا : منعه من الرقى بالشرك ، واذنه فى الرقية إذا لم يكن فيها شرك ، لما فيها من المنفعة الخالية من المفسدة .

قوله « ولا ترد مسلماً » قال الطيبى : تعريض بأن الكافر بخلافه .

قوله « اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت » أى لا تأتى

إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وعن ابن مسعود مرفوعاً « الطِّيَرَة شِرْكٌ ، الطيرة شرك . وما منا إلا

الطيرة بالحسنات ولا تدفع المكروهات . بل أنت وحدك لا شريك لك الذى تأتى بالحسنات ، وتدفع السيئات ، و« الحسنات » هنا النعم ، و« السيئات » المصائب ، كقوله تعالى (٤ : ٧٨ ، ٧٩ وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك ، قل : كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً . ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) ففيه نفى تعليق القلب بغيرالله فى جلب نفع أودفع ضر، وهذا هو التوحيد ، وهو دعاء مناسب لمن وقع فى قلبه شىء من الطيرة ، وتصريح بأنها لاتجلب نفعاً ولا تدفع ضرًّا ، ويعد من اعتقدها سفيهاً مشركا .

قوله « ولا حول ولا قوة إلا بك » استعانة بالله تعالى على فعل التوكل ، وعدم الالتفات إلا الطيرة التى قد تكون سبباً لوقوع المكروه عقوبة لفاعلها . وذلك الدعاء إنما يصدر عن حقيقة التوكل الذى هو أقوى الأسباب فى جلب الخيرات ودفع المكروهات .

و « الحول » التحول والانتقال من حال إلى حال ، و « القوة » على ذلك بالله وحده لا شريك له . ففيه : التبرى من الحول والقوة والمشيئة بدون حول الله وقوته ومشيئته وهذا هو التوحيد فى الربوبية ، وهو الدليل على توحيد الإلهية الذى هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة ، وهو توحيد القصد والإرادة ، وقد تقدم بيان ذلك بحمد الله .

قوله « عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعاً « الطِّيرة شرك ، الطيرة شرك ، وما منا إلا ، ولكن الله يذهبه بالتوكل» رواه أبو داود والترمذى وصححه وجعل آخره من قول ابن مسعود» .

ورواه ابن ماجة وابن حبان . ولفظ أبى داود « الطيرة شرك ، الطيرة شرك ، الطيرة شرك . ثلاثاً » وهذا صريح فى تحريم الطيرة ، وأنها من الشرك ، لما فيها من تعلق القلب على غير الله تعالى .

قال ابن حمدان : تكره الطيرة ، وكذا قال غيره من أصحاب أحمد .

قال ابن مفلح : والأولى القطع بتحريمها لأنها شرك ، وكيف يكون الشرك مكروهاً الكراهية الاصطلاحية ؟ .

ولكن الله يُذْهِبُه بالتوكل » رواه أبو داود والترمذى وصححه . وجعل آخره من قول ابن مسعود .

ولأحمد من حديث ابن عمرو : مَنْ رَدَّته الطِّيرَةُ عن حاجته فقد أشرك . قالوا : فما كفارة ذلك ؟

قال فى شرح السنن : وإنما جعل الطيرة من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن الطيرة تجلب لهم نفعاً أو تدفع عنهم ضرًّا إذا عملوا بموجبها ، فكأنهم أشركوا مع الله تعالى .

قوله « وما منا إلا » قال أبو قاسم الأصبهانى ، والمنذرى : فى الحديث إضمار ، التقدير : وما منا إلا وقد وقع فى قلبه شىء من ذلك . اهـ

وقال الخلخالى : حذف المستثنى لما يتضمنه من الحالة المكروهة . وهذا من أدب الكلام .

قوله « ولكن الله يذهبه بالتوكل » أى لكن لما توكلنا على الله فى جلب النفع ودفع الضر أذهبه الله عنا بتوكلنا عليه وحده .

قوله « وجعل آخره من قول ابن مسعود » قال ابن القيم : وهو من الصواب ؛ فإن الطيرة نوع من الشرك .

قال « ولأحمد من حديث بن عمرو « من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك . قالوا : فما كفارة ذلك ؟ قال : أن تقول : اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك » .

هذا الحديث رواه أحمد والطبرانى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وفى إسناده ابن لهيعة وبقية رجاله ثقات .

قوله « من حديث ابن عمرو » هو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمى أبو محمد . وقيلَ : أبو عبد الرحمن ، أحد السابقين المكثرين من الصحابة . وأحد العبادلة الفقهاء . مات فى ذى الحجة ليالى الحرة — على الأصح — بالطائف .

قوله « من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك » وذلك أن الطيرة هى التشاؤم بالشىء المرئى أو المسموع ، فإذا رده شىء من ذلك عن حاجته التى عزم عليها كإرادة السفر ونحوه فمنعه عما أراده وسعى فيه ما رأى وما سمع تشاؤماً ، فقد دخل فى الشرك . كما تقدم ، فلم يخلص توكله على الله بالتفاته إلى ما سواه ، فيكون للشيطان منه نصيب .

قوله « فما كفارة ذلك ؟ » إلى آخره ، فإذا قال ذلك وأعرض عما وقع فى قلبه ولم يلتفت

قال : أن تقول : اللهم لا خَيرَ إلا خيرُك ، ولا طَيْرَ إلا طيرُك ، ولا إله غيرك » .
وله من حديث الفضْل بن عباس رضى الله عنه « إنما الطِّيرة ما أمضاك أو رَدَّك » .

إليه ، كفَّر الله عنه ما وقع فى قلبه ابتداء ؛ لزواله عن قلبه بهذا الدعاء المتضمن للاعتماد على الله وحده ، والإعراض عما سواه .

وتضمن الحديث : أن الطيرة لا تضر من كرهها ومضى فى طريقه ، وأما من لم يخلص توكله على الله واسترسل مع الشيطان فى ذلك ، فقد يعاقب بالوقوع فيما يكره ؛ لأنه أعرض عن واجب الإيمان بالله ، وأن الخير كله بيده . فهو الذى يجلبه لعبده بمشيئته وإرادته ، وهو الذى يدفع عنه الضر وحده بقدرته ولطفه وإحسانه ، فلا خير إلا منه ، وهو الذى يدفع الشر عن عبده ، فما أصابه من ذلك فبذنبه ، كما قال تعالى (٤ : ٧٩ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) .

قوله « وله من حديث الفضل بن عباس « إنما الطيرة ما أمضاك أو ردَّك » .

هذا الحديث عند الإمام أحمد من حديث الفضل بن عباس قال « خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ، فبرّح ظبى ، فمال فى شقه فاحتضنته ، فقلت : يا رسول الله ، تطيرت فقال : إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك » وفى إسناده انقطاع ، أى بين مسلمة راوية و بين الفضل وهو الفضل بن العباس بن عبد المطلب ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم . قال ابن معين : قتل يوم اليرموك . وقال غيره : قتل يوم مرج الصُّفَّر سنة ثلاث عشرة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة وقال أبو داود : قتل بدمشق ، كان عليه درع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله « إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك » هذا حد الطيرة المنهى عنها : أنها ما يحمل الإنسان على المضى فيما أراده و يمنعه من المضى فيه كذلك . وأما الفأل الذى كان يحبه النبى صلى الله عليه وسلم فيه نوع بشارة ، فيسرّ به العبد ولا يعتمد عليه ؛ بخلاف ما يمضيه أو يرده ؛ فإن للقلب عليه نوع اعتماد ، فافهم الفرق . والله أعلم .

فيه مسائل :

الأولى : التنبيه على قوله (ألا إنما طائرهم عند الله) مع قوله : (طائركم معكم) .

الثانية : نفى العدوى .

الثالثة : نفى الطيرة .

الرابعة : نفى الهامة .

الخامسة : نفى الصفر .

السادسة : أن الفأل ليس من ذلك ، بل مستحب .

السابعة : تفسير الفأل .

الثامنة : أن الواقع فى القلوب من ذلك مع كراهته لا يضرُّ ، بل يُذْهِبُه الله بالتوكل .

التاسعة : ذكر ما يقول مَنْ وَجده .

العاشرة : التصريح بأن الطيرة شرك .

الحادية عشرة : تفسير الطيرة المذمومة .

باب

(ما جاء فى التنجيم)

قال البخـارى فى صحيحه : قال قتادة : « خلق الله هـذه النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين .

قوله « باب ما جاء فى التنجيم »

قال شيخ الإسلام رحمه الله : التنجيم : هو الاستدلال بالأحوال الفلـكية ، على الحوادث الأرضية .

وقال الخطابى : علم النجوم المنهى عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الـكوائن والحوادث التى ستقع فى مستقبل الزمان ، كأوقات هبوب الرياح ومجىء المطر ، وتغير الأسعار ، وما فى معناها من الأمور التى يزعمون أنها تدرك معرفتها بمسير الـكواكب فى مجاريها ، واجتماعها وافتراقها ، يدّعون أن لها تأثيراً فى السفليات . وهذا منهم تحكّم على الغيب ، وتعاط لعلم قد استأثر الله به ، ولا يعلم الغيب سواه .

قوله « قال البخارى فى صحيحه : قال قتادة : خلق الله هذه النجوم الثلاث : زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها . فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه ، وتـكلف مالا علم له به » .

هذا الأثر علقه البخارى فى صحيحه . وأخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وغيرهم . وأخرجه الخطيب فى كتاب النجوم عن قتادة ، ولفظه قال « إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال : جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجوماً للشياطين . فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه ، وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه ، وتكلف مالا علم له به . وإن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا فى هذه النجوم كهانة : من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا . ولعمرى ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود ، والطويل والقصير ، والحسن والدميم ، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشىء من هذا الغيب . ولو أن أحداً علم الغيب لعلمه آدم الذى خلقه الله بيده وأسجد له ملائـكته وعلمه أسماء كل شىء » . انتهى .

وعلاماتٍ يُهتدَى بها . فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ ، وأضاع نصيبه ، وكلف مالاعِلْمَ له به » انتهى .

فتأمل ما أنكره هذا الإمام مما حدث من المنكرات فى عصر التابعين . وما زال الشر يزداد فى كل عصر بعدهم حتى بلغ الغاية فى هذه الأعصار ، وعمت به البلوى فى جميع الأمصار ، فمقلّ ومستكثر . وعزّ فى الناس من ينكره ، وعظمت المصيبة به فى الدين . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

قوله : « خلق الله هذه النجوم لثلاث » قال تعالى (٦٧ : ٥ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) وقال تعالى (١٦ : ١٦ وعلامات وبالنجم هم يهتدون) .

وفيه : إشارة إلى أن النجوم فى السماء الدنيا ، كما روى ابن مَردويه عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما السماء الدنيا : فإن الله خلقها من دخان ، وجعل فيها سراجا وقمراً منيراً ، وزينها بمصابيح ، وجعلها رجوماً للشياطين . وحفظاً من كل شيطان رجيم » .

قوله « وعلامات » أى : دلالات على الجهات « يهتدى بها » أى يهتدى بها الناس فى ذلك . كما قال تعالى (٦ : ٩٧ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) أى لتعرفوا بها جهة قصدكم ، وليس المراد أنه يهتدى بها فى علم الغيب ، كما يعتقده المنجمون ، وقد تقدم وجه بطلانه ، وأنه لا حقيقة له كما قال قتادة : « فمن تأول فيها غير ذلك » أى : زعم فيها غير ما ذكر الله فى كتابه من هذه الثلاث فقد أخطأ . حيث زعم شيئاً ما أنزل الله به من سلطان ، وأضاع نصيبه من كل خير ؛ لأنه شغل نفسه بما يضره ولا ينفعه .

فإن قيل : المنجم قد يصدق . قيل : صدقه كصدق الكاهن ، يصدق فى كلمة ويكذب فى مائة . وصدقه ليس عن علم ، بل قد يوافق قدراً ، فيكون فتنة فى حق مَن صدقه .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله (١٦ : ١٥ ، ١٦ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات) فقوله « وعلامات » معطوف على ما تقدم مما ذكره فى الأرض ، ثم استأنف فقال (وبالنجم هم يهتدون) ذكره ابن جرير عن ابن عباس بمعناه .

وكره قتادة : تعلُّم منازل القمر ، ولم يُرَخِّص ابن عيينة فيه . ذكره حرب عنهما . ورخص فى المنازل أحمد وإسحاق .

وقد جاءت الأحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم بإبطال علم التنجيم ، كقوله « من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر . زاد ما زاد » .

وعن رجاء بن حَيوَة : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن مما أخاف على أمتى : التصديق بالنجوم ، والتكذيب بالقدر ، وحيف الأئمة » رواه عبد بن حميد ، وعن أبى مِحجن مرفوعاً « أخاف على أمتى ثلاثاً : حيف الأئمة ، وإيمانا بالنجوم ، وتكذيبا بالقدر » رواه ابن عساكر ، وحسنه السيوطى .

وعن أنس رضى الله عنه مرفوعا « أخاف على أمتى بعدى خصلتين : تكذيبا بالقدر ، وإيمانا بالنجوم » رواه أبو يعلى وابن عدى والخطاب فى كتاب النجوم ، وحسنه السيوطى أيضا . والأحاديث فى ذم التنجيم والتحذير منه كثيرة .

قوله « وكره قتادة تعلم منازل القمر . ولم يرخص ابن عيينة فيه . ذكره حرب عنهما . ورخص فى تعلم المنازل أحمد وإسحاق » .

قال الخطابى : أما علم النجوم الذى يدرك من طريق المشاهدة والخبر الذى يعرف به الزوال ، وتعلم به جهة القبلة : فإنه غير داخل فيما نهى عنه . وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئاً أكثر من أن الظل ما دام متناقصاً فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقى ، وإذا أخذ فى الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربى ، وهذا علم يصح إدراكه بالمشاهدة ، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروها بما اتخذوه من الآلات التى يستغنى الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصدته . وأما ما يستدل به من النجوم على جهة القبلة : فإنها كواكب رصدها أهل الخبرة من الأئمة الذين لا نشك فى عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها ، وصدقهم فيما أخبروا به عنها ، مثل أن يشاهدها بحضرة الكعبة ، ويشاهدها على حال الغيبة عنها ، فكان إدراكهم الدلالة منها بالمعاينة ، وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم إذ كانوا عندنا غير متهمين فى دينهم ، ولا مقصرين فى معرفتهم . انتهى .

وروى ابن المنذر عن مجاهد « أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل منازل القمر » وروى عن إبراهيم « أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل من النجوم ما يهتدى به » قال ابن رجب . والمأذون فى تعلمه التسيير لا علم التأثير ؛ فإنه باطل محرم ، قليله وكثيره . وأما علم التسيير فيتعلم ما يحتاج إليه من الاهتداء ومعرفة القبلة والطرق جائز عند الجمهور .

قوله « ذكره حرب عنهما » هو الإمام الحافظ حرب بن إسماعيل أبو محمد الكرمانى الفقيه من جلة أصحاب الإمام أحمد . روى عن أحمد و إسحاق وابن المدينى وابن معين وغيرهم . وله كتاب المسائل التى سئل عنها الإمام أحمد وغيره ، مات سنة ثمانين ومائتين .

وأما إسحاق : فهو ابن إبراهيم بن مخلد أبو أيوب الحنظلى النيسابورى ، الإمام المعروف بابن راهويه . روى عن ابن المبارك وأبى أسامة وابن عيينة وطبقتهم . قال أحمد : إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين . روى عنه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم ، وروى هو أيضاً عن أحمد . مات سنة تسع وثلاثين ومائتين .

قال « وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر : وقاطع الرحم ، ومصدق بالسحر » رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه » .

هذا الحديث رواه أيضاً الطبرانى والحاكم وقال : صحيح . وأقره الذهبى . وتمامه : « ومن مات وهو يدمن الخمر سقاه الله من نهر الغوطة : نهر يجرى من فروج المومسات ، يؤذى أهلَ النار ريحُ فروجهن » .

قوله « وعن أبى موسى » هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضّار — بفتح المهملة وتشديد الضاد — أبى موسى الأشعرى ، صحابى جليل . مات سنة خمسين .

قوله « ثلاثة لا يدخلون الجنة » هذا من نصوص الوعيد التى كره السلف تأويلها ، وقالوا : أمرُّوها كما جاءت ، ومن تأولها فهو على خطر من القول على الله بلا علم وأحسن ما يقال : إن كل عمل دون الشرك والكفر المخرج عن ملة الإسلام فإنه يرجع إلى مشيئة الله : فإن عذبه فقد استوجب العذاب ، و إن غفر له فبفضله وعفوه ورحمته .

مُدْمِن الخمر ، ومصدق بالسحر ، وقاطع الرحم » رواه أحمد وابن حبان في صحيحه .

فيه مسائل :

الأولى : الحكمة في خلق النجوم

الثانية : الرد على من زعم غير ذلك

الثالثة : ذكر الخلاف في تعلم المنازل .

الرابعة : الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ، ولو عرف أنه باطل .

قوله « مدمن الخمر » أي المداوم على شربها .

قوله « وقاطع الرحم » يعني القرابة كما قال تعالى (٤٧ : ٢٢ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم — الآية) .

قوله « ومصدق بالسحر » أي مطلقاً ، ومنه التنجيم؛ لما تقدم من الحديث . وهذا وجه مطابقة الحديث للترجمة .

قال الذهبي في الكبائر : ويدخل فيه تعلم السيميا وعملها ، وعقد المرء عن زوجته ، ومحبة الزوج لامرأته ، وبغضها وبغضه ، وأشباه ذلك بكلمات مجهولة ، قال : وكثير من الكبائر — بل عامتها إلا الأقل — يجهل خلق من الأمة تحريمه ، وما بلغه الزجر فيه ، ولا الوعيد عليه . اهـ

باب

(ما جاء فى الاستسقاء بالأنواء)

وقول الله تعالى : (٥٦ : ٨٢ وتجعلون رزقكم أنكم تُكذِّبون) .

قوله « باب ما جاء فى الاستسقاء بالأنواء »

أى من الوعيد ، والمراد : نسبة السّقيا ومجىء المطر إلى الأنواء ، و «الأنواء» جمع « نَوْء » وهى منازل القمر ، قال أبو السعادات : وهى ثمان وعشرون منزلة ، ينزل القمر كل ليلة منزلة منها . ومنه قوله تعالى (٣٦ : ٣٩ والقمر قدرناه منازل) يسقط فى الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر ، وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت من المشرق ، فتنقضى جميعها مع انقضاء السنة . وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر ، و ينسبونه إليها ، و يقولون « مطرنا بنوء كذا وكذا » وإنما سمى نَوْءاً ؛ لأنه إذا سقط الساقط منها ناء الطالع بالمشرق ، أى نهض وطلع .

قال « وقوله تعالى (٥٦ : ٨٢ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) روى الإمام أحمد والترمذى — وحسنه — وابن جرير وابن أبى حاتم والضياء فى المختارة عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « (وتجعلون رزقكم) يقول : شكركم (أنكم تكذبون) تقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، بنجم كذا وكذا » وهذا أولى ما فسرت به الآية ، وروى ذلك عن على وابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء والخراسانى وغيرهم ، وهو قول جمهور المفسرين ، وبه يظهر وجه استدلال المصنف رحمه الله بالآية .

قال ابن القيم رحمه الله : أى تجعلون حظكم من هذا الرزق الذى به حياتكم : التكذيب به ، يعنى القرآن . قال الحسن : تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون ، قال : وخسر عبد لا يكون حظه من القرآن إلا التكذيب .

قوله « وعن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب ، والطعن فى الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة » وقال « النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقوم يوم القيامة وعليها سربال من قَطِرَان وَدِرْعٌ من جَرَبٍ » رواه مسلم .

وعن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أبعٌ فى أمّتى من أمر الجاهلية لا يتركونَهُنَّ : الفخر بالأحساب ،

« أبو مالك » اسمه الحرث بن الحرث الشامى . صحابى تفرد عنه بالرواية أبو سلام ، وفى الصحابة أبو مالك الأشعرى اثنان غير هذا .

قوله « أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن » ستفعلها هذه الأمة إما مع العلم بتحريمها أو مع الجهل بذلك ، مع كونها من أعمال الجاهلية المذمومة المكروهة المحرمة . والمراد بالجاهلية هنا ما قبل المبعث ، سموا بذلك لفرط جهلهم ، وكل ما يخالف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فهو جاهلية ، فقد خالفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كثير من أمورهم أو أكثرها ، وذلك يدرك بتدبر القرآن ومعرفة السنة . ولشيخنا رحمه الله مصنف لطيف ذكر فيه ما خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه أهل الجاهلية ، بلغ مائة وعشرين مسألة .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذما لمن لم يتركه ، وهذا يقتضى أن كل ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم فى دين الإسلام ، وإلا لم يكن فى إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها ، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم ، وهذا كقوله تعالى (٣٣ : ٣٣ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهلية الأولى) فإن ذلك ذماً للتبرج وذماً لحال الجاهلية الأولى ، وذلك يقتضى المنع من مشابهتهم فى الجملة .

قوله « الفخر بالأحساب » أى التعاظم على الناس بالآباء ومآثرهم ، وذلك جهل عظيم ، إذ لا كرم إلا بالتقوى ، كما قال تعالى (٤٩ : ١٣ إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال تعالى (٣٤ : ٣٧ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زُلْفَى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضِّعْفِ بما عملوا وهم فى الغُرُفَات آمنون) .

ولأبى داود عن أبى هريرة مرفوعاً « إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية ، وفخرها بالآباء إنما هو مؤمن تقى ، أو فاجر شقى ، الناس بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، لَيَدَعَنَّ رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكونُنَّ أهونَ على الله من الُجعلان » .

والطعن فى الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنِّياحة » . وقال : « النائحة إذا لم تتب قبل موتها

قوله : « والطعن فى الأنساب » أى الوقوع فيها بالعيب والتنقص . ولما عَيَّر أبو ذر رضى الله عنه رجلا بأمه قال له النبى صلى الله عليه وسلم « أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية » متفق عليه . فدل على أن الطعن فى الأنساب من عمل الجاهلية ، وأن المسلم قد يكون فيه شىء من هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية ، ولا يوجب ذلك كفره ولا فسقه . قاله شيخ الإسلام رحمه الله .

قوله : « والاستسقاء بالنجوم » أى نسبة المطر إلى النوء وهو سقوط النجم . كما أخرج الإمام أحمد وابن جرير عن جابر السوائى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أخاف على أمتى ثلاثاً : استسقاء بالنجوم ، وحَيْف السلطان ، وتكذيباً بالقدر » .

فإذا قال قائلهم : مطرنا بنجم كذا أو بنوء كذا فلا يخلو : إما أن يعتقد أن له تأثيراً فى إنزال المطر ، فهذا شرك وكفر . وهو الذى يعتقده أهل الجاهلية كاعتقادهم أن الميت والغائب يجلب لهم نفعاً ، أو يدفع عنهم ضراً ، أو أنه يشفع بدعائهم إياه ، فهذا هو الشرك الذى بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالنهى عنه وقتال من فعله ، كما قال تعالى (٨ : ٣٩ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) والفتنة الشرك ، وإما أن يقول : مطرنا بنوء كذا مثلا ، لكن مع اعتقاده أن المؤثر هو الله وحده . ولكنه أجرى العادة بوجود المطر عند سقوط ذلك النجم ، والصحيح : أنه يحرم نسبة ذلك إلى النجم ولو على طريق المجاز ، فقد صرح ابن مفلح فى الفروع ، بأنه يحرم قول « مُطرنا بنوء كذا » وجزم فى الإنصاف بتحريمه ولو على طريق المجاز ، ولم يذكر خلافاً . وذلك أن القائل لذلك نسب ما هو من فعل الله تعالى الذى لا يقدر عليه غيره إلى خلق مسخر ، لا ينفع ولا يضر ، ولا قدرة له على شىء فيكون ذلك شركا أصغر . والله أعلم .

قوله : « والنياحة » أى رفع الصوت بالندب على الميت لأنها تسخط بقضاء الله ، وذلك ينافى الصبر الواجب ، وهى من الكبائر لشدة الوعيد والعقوبة .

قوله : « النائحة إذا لم تتب قبل موتها » فيه : تنبيه على أن التوبة تكفر الذنب وإن

تُقَام يوم القيامة وعليها سِربال من قَطِران ، ودِرْعٌ من جرَب » رواه مسلم .

ولهما عن زيد بن خالد رضى الله عنه قال : « صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالْحُدَيبية على إثْر سماء كانت من الليل ،

عظم ، هذا مجمع عليه فى الجملة ، ويكفر أيضاً بالحسنات الماحية والمصائب ، ودعاء المسلمين بعضهم لبعض ، وبالشفاعة بإذن الله ، وعفو الله عمن شاء ممن لا يشرك به شيئاً . وفى الحديث عن ابن عمر مرفوعاً « إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِرْ » رواه أحمد والترمذى وابن ماجة وابن حبان .

قوله « تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب » قال القرطبى: السربال واحد السرابيل ، وهى الثياب والقُمُص ، يعنى أنهن يُلطَّخن بالقطران ، فيكون لهن كالقمص ، حتى يكون اشتعال النار بأجسادهن أعظم ، ورائحتهن أنتن ، وألمهن بسبب الجرب أشد . وروى عن ابن عباس : إن القطران هو النحاس المذاب .

قال : « ولهما عن زيد بن خالد قال « صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالْحُدَيبية على إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس ، فقال : أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بى ، كافر بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بى ، مؤمن بالكوكب » .

زيد بن خالد الجهنى صحابى مشهور ، مات سنة ثمان وستين ، وقيل : غير ذلك ، وله خمس وثمانون سنة .

قوله « صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم » أى بنا ، فاللام بمعنى الباء . قال الحافظ : وفيه إطلاق ذلك مجازاً . وإنما الصلاة لله .

قوله « بالحديبية » بالمهملة المضمومة وتخفيف يائها وتثقل .

قوله « على إثر سماء كانت من الليل » بكسر الهمزة وسكون المثلثة على المشهور ، وهو ما يعقب الشىء .

قوله « سماء » أى مطر ؛ لأنه ينزل من السحاب ، والسماء يطلق على كل ما ارتفع .

فلما انصرف أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر . فأما مَن قال مُطِرْنا بفضل الله ورحمته ،

قوله « فلما انصرف » أى من صلاته ، أى التفت إلى المأمومين ، كما يدل عليه قوله « أقبل على الناس » ويحتمل أنه أراد السلام .

قوله « هل تدرون » لفظ استفهام ومعناه التنبيه . وفى النسائى « ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة ؟ » وهذا من الأحاديث القدسية . وفيه : إلقاء العالم على أصحابه المسألة ليخبرهم .

قوله « قالوا الله ورسوله أعلم » فيه : حسن الأدب للمسئول عما لا يعلم أن يكل العلم إلى عالمه . وذلك يجب .

قوله « أصبح من عبادى » الإضافة هنا للعموم بدليل التقسيم إلى مؤمن وكافر ، كقوله تعالى : (٦٤ : ٢ هو الذى خلقكم : فمنكم كافر ، ومنكم مؤمن) .

قوله « مؤمن بى وكافر » إذا اعتقد أن للنوء تأثيراً فى إنزال المطر فهذا كفر ، لأنه أشرك فى الربوبية والمشرك كافر . وإن لم يعتقد ذلك فهو من الشرك الأصغر ؛ لأنه نسب نعمة الله إلى غيره ، ولأن الله لم يجعل النوء سبباً لإنزال المطر فيه ، وإنما هو فضل من الله ورحمة يحبسه إذا شاء وينزله إذا شاء .

ودل هذا الحديث على أنه لا يجوز لأحد أن يضيف أفعال الله الى غيره ولو على سبيل المجاز . وأيضاً ، الباء تحتمل معانى ، وكلها لا تصـــدق بهذا اللفظ ، فليست للسببية ولا للاستعانة ، لما عرفت من أن هذا باطل . ولا تصدق أيضاً على أنها للمصاحبة ؛ لأن المطر قد يجىء فى هذا الوقت وقد لا يجىء فيه . وإنما يجىء المطر فى الوقت الذى أراد الله مجيئه فيه برحمته وحكمته وفضله . فكل معنى تحمل عليه الباء فى هذا اللفظ المنهى عنه فاسد . فيظهر على هذا : تحريم هــذه اللفظة مطلقاً لفساد المعنى . وقد تقدم القطع بتحريمه فى كلام صاحب الفروع والإنصاف .

قال المصنف رحمه الله « وفيه التفطن للإيمان فى هذا الموضع » يشير إلى أنه الإخلاص .

قوله « فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته » فالفضل والرحمة صفتان لله ، ومذهب

فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب .

وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب »

ولهما من حديث ابن عباس بمعناه ، وفيه : « قال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا . فأنزل الله هذه الآيات (٥٦ : ٧٥ — ٨٢ فلا أقسم بمواقع النجوم .

أهل السنة والجماعة : أن ماوصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات الذات : كالحياة والعلم ، وصفات الأفعال ، كالرحمة التى يرحم بها عباده : كلها صفات لله قائمة بذاته ، ليست قائمة بغيره فتفطن لهذا فقد غلط فيه طوائف .

وفى هذا الحديث أن نعم الله لا يجوز أن تضاف إلا إليه وحده ، وهو الذى يحمد عليها ، وهذه حال أهل التوحيد .

قوله « وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا » إلى آخره ، تقدم ما يتعلق بذلك .

قال المصنف رحمه الله « وفيه : التفطن للكفر فى هذا الموضع » .

يشير إلى أن نسبة النعمة إلى غير الله كفر ، ولهذا قطع بعض العلماء بتحريمه ، وإن لم يعتقد تأثير النوء بإنزال المطر ، فيكون من كفر النعم ؛ لعدم نسبتها إلى الذى أنعم بها ، ونسبتها إلى غيره كما سيأتى فى قوله تعالى (١٦ : ٨٣ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) .

قال القرطبى فى شرح حديث زيد بن خالد : وكانت العرب إذا طلع نجم من المشرق وسقط آخر من المغرب فحدث عند ذلك مطر أو ريح ، فمنهم من ينسبه إلى الطالع ، ومنهم من ينسبه إلى الغارب ؛ نسبة إيجاد واختراع ، ويطلقون ذلك القول المذكور فى الحديث . فنهى الشارع عن إطلاق ذلك ، لئلا يعتقد أحد اعتقادهم ولا يتشبه بهم فى نطقهم . انتهى .

قوله : فمنهم من ينسبه نسبة إيجاد — يدل على أن بعضهم كان لا يعتقد ذلك . كما قال تعالى (٢٩ : ٦٣ ولئن سألتهم من أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل : الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون) فدل على أن منهم من يعرف و يقر بأن الله هو الذى أوجد المطر ، وقد يعتقد هؤلاء أن للنوء فيه شيئاً من التأثير ، والقرطبى فى شرحه لم يصرح أن العرب كلهم يعتقدون ذلك المعتقد الذى ذكره . فلا اعتراض عليه بالآية للاحتمال المذكور .

قوله « ولهما من حديث ابن عباس بمعناه ، وفيه : « قال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا فأنزل الله هذه الآيات (٥٦ : ٧٥ — ٨٢ فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم

وإنه لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم .

لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون . لايمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين . أفبهذا الحديث أنتم مدهنون . وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ؟)

و بلفظه عن ابن عباس قال « مُطر الناس على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أصبح من الناس شاكر ، ومنهم كافر . قالوا : هذه رحمة الله . وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا . قال : فنزلت هذه الآية (فلا أقسم بمواقع النجوم) » .

هذا قسم من الله عز وجل ، يقسم بما شاء من خلقه على ما شاء . وجواب القسم (إنه لقرآن كريم) فتكون « لا » صلة لتأكيد النفى ، فتقدير الكلام : ليس الأمر كما زعمتم فى القرآن أنه سحر ، أو كهانة ، بل هو قرآن كريم . قال ابن جرير: قال بعض أهل العربية : معنى قوله (فلا أقسم) فليس الأمر كما تقولون ، ثم استؤنف القسم بعد ، فقيل : أقسم بمواقع النجوم . قال ابن عباس : يعنى نجوم القرآن ، فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا ثم نزل مفرقاً فى السنين بعد ، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية . ومواقعها : نزولها شيئاً بعد شيء . وقال مجاهد : مواقع النجوم مطالعها ومشارقها . واختاره ابن جرير وعلى هذا فتكون المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه — وهو القرآن — من وجوه :

أحدها : أن النجوم جعلها الله ليهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، وآيات القرآن يهتدى بها فى ظلمات الغى والجهل . فتلك هداية فى الظلمات الحسية ، والقرآن هداية فى الظلمات المعنوية ، فجمع بين الهدايتين مع ما فى النجوم من الزينة الظاهرة ، وفى القرآن من الزينة الباطنة ومع مافى النجوم من الرجوم للشياطين ، وفى القرآن من رجوم شياطين الجن والإنس ، والنجوم آياته المشهودة العيانية ، والقرآن آياته المتلوة السمعية ، مع مافى مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول، ذكره ابن القيم رحمه الله .

وقوله (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) قال ابن كثير: أى وإن هذا القسم الذى أقسمت به لقسم عظيم ، لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم به عليه .

وقوله (إنه لقرآن كريم) هذا هو المقسم عليه ، وهو القرآن ، أى إنه وحى الله وتنزيله وكلامه ، لا كما يقول الكفار : إنه سحر أو كهانة ، أو شعر . بل هو قرآن كريم : أى عظيم كثير الخير ؛ لأنه كلام الله .

في كتاب مكنون . لايمسه إلا المطهرون .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : فوصفه بما يقتضى حسنه وكثرة خيره ومنافعه وجلالته ؛ فإن الكريم هو البهى الكثير الخير العظيم ، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله ، والله سبحانه وتعالى وصف نفسه بالكرم ، ووصف به كلامه ، ووصف به عرشه ، ووصف به ما كثر خيره وحسن منظره من النبات وغيره ، ولذلك فسر السلف « الكريم » بالحسن قال الأزهرى : الكريم اسم جامع لما يحمد ، والله تعالى كريم جميل الفعال . وإنه لقرآن كريم يحمد ، لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة .

قوله (في كتاب مكنون) أي في كتاب معظم محفوظ موقر . قاله ابن كثير .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : اختلف المفسرون في هذا ، فقيل : هو اللوح المحفوظ والصحيح أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة ، وهو المذكور في قوله (٨٠ : ١٣ — ١٦ في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدى سفرة . كرام بررة) ويدل على أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة قوله (لا يمسه إلا المطهرون) فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه .

قوله (لا يمسه إلا المطهرون) قال ابن عباس رضى الله عنهما : (لا يمسه إلا المطهرون) قال « الكتاب الذى في السماء » ، وفي رواية « لا يمسه إلا المطهرون يعنى الملائكة » وقال قتادة « لا يمسه عند الله إلا المطهرون . فأما في الدنيا فإنه يمسه المجوسى النجس والمنافق الرجس » واختار هذا القول كثيرون . منهم ابن القيم رحمه الله ورجحه . وقال ابن زيد : زعمت قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون كما قال تعالى (٢٦ : ٢١٠ — ٢١٢ وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغى لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون) قال ابن كثير : هذا قول جيد . وهو لا يخرج عن القول قبله . وقال البخارى رحمه الله تعالى في صحيحه في هذه الآية : « لا يجد طعمه إلا من آمن به » .

قال ابن القيم رحمه الله : هذا من إشارة الآية وتنبيهها ، وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته وفهمه وتدبره إلا من يشهد أنه كلام الله تكلم به حقاً ، وأنزله على رسوله وحياً . لا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه .

وقال آخرون (لا يمسه إلا المطهرون) أي من الجنابة والحدث . قالوا : ولفظ الآية خبر

تنزيلٌ من ربِّ العالمين .
أفبهذا الحديث أنتم مُدْهِنُون . وتجعلون رزقكم أنكم تُكذِّبون ؟) .

ومعناه الطلب . قالوا : والمراد بالقرآن هٰهنا المصحف . واحتجوا على ذلك بما رواه مالك في الموطأ عن عبد الله بن ... بى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : « إن في الكتاب الذى كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم : أن لا يمس القرآن إلا طاهر » .

وقوله « تنزيل من رب العالمين » قال ابن كثير : هذا القرآن منزل من الله رب العالمين وليس كما يقولون : إنه سحر أو كهانة أو شعر ، بل هو الحق الذى لا مرية فيه ، وليس وراءه حق نافع . وفى هذه الآية : أنه كلام الله تكلم به .

قال ابن القيم رحمه الله : ونظيره (٣٢ : ١٣ ولكن حق القول منى) وقوله (١٦ : ١٠٢ قل نزله روح القدس من ربك بالحق) هو إثبات علو الله تعالى على خلقه . فإن النزول والتنزيل الذى تعقله العقول وتعرفه الفطر هو وصول الشيء من أعلى إلى أسفل ، ولا يرد عليه قوله (٣٩ : ٦ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) لأنا نقول : إن الذى أنزلها فوق سمواته . فأنزلها لنا بأمره .

قال ابن القيم رحمه الله : وذكر التنزيل مضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة لملكه لهم وتصرفه فيهم ، وحكمه عليهم ، وإحسانه إليهم ، وإنعامه عليهم ، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سُدًى ، ويدعهم هملا ، ويخلقهم عبثاً ، لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم ؟ فمن أقر بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله وصحة ما جاء به ، وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق ، وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس . وتلك إنما تكون لخواص العقلاء .

قوله : (أفبهذا الحديث أنتم مُدْهنون ؟) قال مجاهد : أتريدون أن تمالئوهم فيه ، وتركنوا إليهم ؟ .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ثم وبخهم على وضعهم الإدهان فى غير موضعه ، وأنهم يداهنون فيما حقه أن يصدع به ويعرف به ، ويعض عليه بالنواجذ ، وتثنى عليه الخناصر ،

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الواقعة .

الثانية : ذكر الأربع التى من أمر الجاهلية .

الثالثة : ذكر الكفر فى بعضها .

الرابعة : أن من الكفر مالا يُخْرِج من الملة .

الخامسة : قوله : «أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر» بسبب نزول النعمة .

السادسة : التفطن للإيمان فى هذا الموضع .

السابعة : التفطن للكفر فى الموضع .

الثامنة : التفطن لقوله : « لقد صدق نوء كذا وكذا » .

التاسعة : إخراج العالم للتعليم للمسألة بالاستفهام عنها ، لقوله : « أتدرون ماذا قال ربكم ؟ » .

العاشرة : وعيد النائحة .

وتعقد عليه القلوب والأفئدة ، ويحارب ويسالم لأجله ، ولا يلتوى عنه يمنة ويسرة ، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره ، ولا محاكمة إلا إليه ، ولا مخاصمة إلا به ، ولا اهتداء فى طرق المطالب العالية إلا بنوره ، ولا شفاء إلا به ، فهو روح الوجود ، وحياة العالم ، ومدار السعادة وقائد الفلاح وطريق النجاة ، وسبيل الرشاد ، ونور البصائر . فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه ، ولم ينزل للمداهنة ، وإنما نزل بالحق وللحق ، والمداهنة إنما تكون فى باطل قوى لا تمكن إزالته ، أو فى حق ضعيف لا تمكن إقامته ، فيحتاج المداهن إلى أن يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل ، فأما الحق الذى قام به كل حق فكيف يداهن به ؟

قوله (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) تقدم الكلام عليها أول الباب ، والله تعالى أعلم .

باب

قول الله تعالى : (٢ : ١٠٢ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) .

قوله « باب قول الله تعالى :

(٢ : ١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) » .

لما كانت محبته سبحانه هي أصل دين الإسلام الذي يدور عليه قطب رحاه ، فبكمالها يكمل ، و بنقصها ينقص توحيد الإنسان ، نبه المصنف على ذلك بهذه الترجمة .

قوله تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً — الآية) قال في شرح المنازل : أخبر تعالى أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً ، فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية ، فإن أحداً من أهل الأرض لا يثبت هذا الند ، بخلاف ندّ المحبة . فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم . ثم قال تعالى (والذين آمنوا أشد حبًّا لله) وفي تقدير الآية قولان : أحدهما : والذين آمنوا أشد حبًّا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها و يعظمونها من دون الله .

وروى ابن جرير عن مجاهد في قوله تعالى (يحبونهم كحب الله) مباهاة ومضاهاة للحق بالأنداد (والذين آمنوا أشد حبًّا لله) من الكفار لأوثانهم . ثم روى عن ابن زيد قال : هؤلاء المشركون أندادهم آلهتهم التي عبدوا مع الله يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله ، والذين آمنوا أشد حبًّا لله من حبهم آلهتهم . انتهى .

والثاني : والذين آمنوا أشد حبًّا لله من المشركين بالأنداد لله ؛ فإن محبة المؤمنين خالصة ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها ، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة . والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى (يحبونهم كحب الله) فإن فيها قولين أيضاً ، أحدهما : يحبونهم كما يحبون الله . فيكون قد أثبت لهم محبة الله ، ولكنها محبة أشركوا فيها مع الله تعالى أندادهم . والثاني : أن المعنى : يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله ، ثم بين تعالى أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم .

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يرجح القول الأول ويقول : إنما ذموا بأن شركوا بين الله وبين أندادهم فى المحبة ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له ، وهذه التسوية المذكورة فى قوله تعالى حكاية عنهم وهم فى النار ، أنهم يقولون لآلهتهم وأندادهم وهى محضرة معهم فى العذاب (٢٦ : ٩٧ ، ٩٨ تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين) ومعلوم أنهم ما سووهم برب العالمين فى الخلق والربوبية وإنما سووهم به فى المحبة والتعظيم ، وهذا أيضاً هو العدل المذكور فى قوله تعالى (٦ : ١ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) به غيره فى العبادة التى هى المحبة والتعظيم .

وقال تعالى (٣ : ٣١ قل : إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ، وهذه تسمى آية المحبة . قال بعض السلف : ادعى قوم محبة الله ، فأنزل الله تعالى آية المحبة (قل : إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها ، فدليلها وعلامتها : اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفائدتها وثمرتها : محبة المرسِل لكم ، فما لم تحصل منكم المتابعة فمحبتكم له غير حاصلة ، ومحبته لكم منتفية .

وقال تعالى (٥ : ٥٤ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم) ذكر لهم أربعُ علامات :

إحداها : أنهم أذلة على المؤمنين ، قيل معناه : أرقاء رحماء مشفقين عاطفين عليهم ، فلما ضمن « أذلة » هذا المعنى عداه بأداة « على » قال عطاء رحمه الله : للمؤمنين كالولد لوالده وكالعبد لسيده ، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته (أشداء على الكفار رحماء بينهم) .

العلامة الثالثة الجهاد فى سبيل الله بالنفس واليد والمال واللسان . وذلك تحقيق دعوى المحبة .

العلامة الرابعة : أنهم لا تأخذهم فى الله لومة لائم . وهذه علامة صحة المحبة . فكل محب أخذه اللوم على محبوبه فليس بمحب على الحقيقة . وقال تعالى (١٧ : ٥٧ أولئك

الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه) فذكر المقامات الثلاثة : الحب . وهو ابتغاء القرب إليه ، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة . والرجاء والخوف يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب ، ومن المعلوم قطعاً أنه لا يتنافس إلا فى قرب من يحب قربه ، وحب قربه تبع لمحبة ذاته ، بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه . وعند الجهمية والمعطلة : ما من ذلك كله شىء ؛ فإنه عندهم لا تقرب ذاته من شىء ، ولا يقرب من ذاته شىء ، ولا يحب . فأنكروا حياة القلوب ، ونعيم الأرواح وبهجة النفوس ، وقرة العيون ، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة . ولذلك ضربت قلوبهم بالقسوة وضرب دونهم ودون الله حجاب على معرفته ومحبته ، فلا يعرفونه ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته ، فذكرهم أعظم آثامهم وأوزارهم ، بل يعاقبون من يذكره بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله ، ويرمونهم بالأدواء التى هم أحق بها وأهلها . وحسب ذى البصيرة وحياة القلب ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت والتنفير عن محبة الله تعالى ومعرفته وتوحيده . والله المستعان .

وقال رحمه الله تعالى أيضاً : لا تحد المحبة بحد أوضح منها ، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء . فحدها وجودها ولا توصف بوصف أظهر من المحبة ، وإنما يتكلم الناس فى أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها . وأجمع ما قيل فى ذلك : ما ذكره أبو بكر الكتانى عن الجنيد .

قال أبو بكر « جرت مسألة فى المحبة بمكة — أعزها الله — فى أيام الموسم ، فتكلم الشيوخ فيها ، وكان الجنيد أصغرهم سنًّا ، فقالوا ما عندك يا عراقى ، فأطرق رأسه ، ودمعت عيناه ثم قال : عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرق قلبه أنوار هيبته ، وصفا شرابه من كأس مودته ، وانكشف له الحياء من أستار غيبه ، فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو لله وبالله ، ومع الله . فبكى الشيوخ . وقالوا : ما على هذا مزيد ، جبرك الله يا تاج العارفين » .

وذكر رحمه الله تعالى : أن الأسباب الجالبة للمحبة عشرة :

أحدها : قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به .

وقوله : (٩ : ٢٤ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموالٌ اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكنُ ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره) .

الثانى : التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض .

الثالث : دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال ، فنصيبه من المحبة على قدر هذا .

الرابع : إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى .

الخامس : مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها وتقلبه فى رياض هذه المعرفة وميادينها .

السادس : مشاهدة بره وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة .

السابع — وهو — أعجبها : انكسار القلب بين يديه .

الثامن : الخلوة وقت النزول الإلهى وتلاوة كتابه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة .

التاسع : مجالسة المحبين الصادقين ، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم ، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيداً لحالك ، ومنفعة لغيرك .

العاشر : مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل .

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة ، ودخلوا على الحبيب .

قوله « قول الله تعالى (٩ : ٢٤ قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين) » .

أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتوعد من أحب أهله وماله وعشيرته وتجارته ومسكنه فآثرها ، أو بعضها على فعل ما أوجبه الله عليه من الأعمال التى يحبها الله تعالى ويرضاها ، كالهجرة والجهاد ونحو ذلك .

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : أى إن كانت هذه الأشياء (أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا) أى انتظروا ماذا يحل بكم من عقابه . روى الإمام أحمد

عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » أخرجاه .

وأبو داود — واللفظ له — من حديث أبي عبد الرحمن السلمى عن عطاء الخراسانى عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا تبايعتم بالعِينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلّط الله عليكم ذُلا لا ينزعه عنكم حتى تراجعوا دينكم » .

فلا بد من إيثار ما أحبه الله من عبده وأراده على ما يحبه العبد ويريده ، فيحب ما يحبه الله ، ويبغض ما يبغضه ، ويوالى فيه ويعادى فيه ، ويتابع رسوله صلى الله عليه وسلم كما تقدم فى آية المحنة ونظائرها .

قوله « عن أنس رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » أخرجاه . أى البخارى ومسلم .

قوله « لا يؤمن أحدكم » أى الإيمان الواجب ، والمراد كماله ، حتى يكون الرسول أحب إلى العبد من ولده ووالده والناس أجمعين ، بل ولا يحصل هذا الكمال إلا بأن يكون الرسول أحب إليه من نفسه ، كما فى الحديث : « أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : يا رسول الله لأنت أحب إلى من كل شىء إلا من نفسى . فقال : والذى نفسى بيده ، حتى أكون أحب إليك من نفسك . فقال له عمر . فإنك الآن أحب إلى من نفسى ، فقال : الآن يا عمر » رواه البخارى .

فمن قال : إن المنفى هو الكمال ، فإن أراد الكمال الواجب الذى يذم تاركه ويعرّض للعقوبة فقد صدق ، وإن أراد أن المنفى الكمال المستحب ، فهذا لم يقع قط فى كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . قاله شيخ الإسلام رحمه الله .

فمن ادعى محبة النبى صلى الله عليه وسلم بدون متابعته وتقديم قوله على قول غيره فقد كذب ، كما قال تعالى (٢٤ : ٤٧ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا . ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك . وما أولئك بالمؤمنين) فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لكن كل مسلم يكون محباً بقدر ما معه من الإسلام ، وكل مسلم لا بد أن يكون

ولهما عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثٌ مَن كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون اللهُ ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ،

مؤمناً ، وإن لم يكن مؤمناً الإيمان المطلق ، لأن ذلك لا يحصل إلا لخواص المؤمنين .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : وعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر ، أو ولدوا على الإسلام والتزموا شرائعه ، وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله ، فهم مسلمون ومعهم إيمان مجمل . لكن دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم يحصل شيئاً فشيئاً ، إن أعطاهم الله ذلك ؛ وإلا فكثير من الناس لا يصلون إلى اليقين ولا إلى الجهاد ، ولو شُكِّكوا لشكوا ، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا ، إذ ليس عندهم من علم اليقين ما يدرأ الريب ، ولا عندهم من قوة الحب لله ورسوله ما يقدمونه على الأهل والمال ، فهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة ؛ وإن ابتلوا بمن يدخل عليهم شبهات توجب ريبهم ، فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب ، وإلا صاروا مرتابين . وانتقلوا إلى نوع من النفاق . انتهى .

وفي هذا الحديث : أن الأعمال من الإيمان ، لأن المحبة عمل القلب .

وفيه : أن محبة الرسول صلى الله عليه وسلم واجبة تابعة لمحبة الله لازمة لها ، فإنها محبة لله ولأجله ، تزيد بزيادة محبة الله في قلب المؤمن وتنقص بنقصها ، وكل من كان محبًّا لله فإنما يحب في الله ولأجله كما يحب الإيمان والعمل الصالح . وهذه المحبة ليس فيها شيء من شوائب الشرك كالاعتماد عليه ورجائه في حصول مرغوب منه أو دفع مرهوب منه . وما كان فيها ذلك فمحبته مع الله ، لما فيها من التعلق على غيره والرغبة إليه من دون الله ، فبهذا يحصل التمييز بين المحبة في الله ولأجله ، التي هي من كمال التوحيد ، وبين المحبة مع الله التي هي محبة الأنداد من دون الله ، لما يتعلق في قلوب المشركين من الإلهية التي لا تجوز إلا لله وحده .

قوله « ولهما عنه — أي البخاري ومسلم . عن أنس رضي الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار » .

وفى رواية « لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله الخ » .

قوله « ثلاث » أى ثلاث خصال .

قوله « من كنّ فيه » أى وجدت فيه تامة .

قوله « وجد بهن حلاوة الإيمان » الحلاوة هنا : هى التى يعبر عنها بالذوق ؛ لما يحصل به من لذة القلب ونعيمه وسروره وغذائه ، وهى شىء محسوس يجده أهل الإيمان فى قلوبهم .

قال السيوطى رحمه الله فى التوشيح « وجد حلاوة الإيمان » فيه : استعارة تخييلية . شبه رغبة المؤمن فى الإيمان بشىء حلو ، وأثبت له لازم ذلك الشىء ، وأضافه إليه .

وقال النووى : معنى حلاوة الإيمان : استلذاذ الطاعات وتحمل المشاق : وإيثار ذلك على أغراض الدنيا ، ومحبة العبد لله بفعل طاعته وترك مخالفته ، وكذلك الرسول صلى الله عليه وسلم .

قال يحيى بن معاذ : حقيقة الحب فى الله : أن لا يزيد بالبر ، ولا ينقص بالجفاء .

قوله « أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » يعنى بالسوى : ما يحبه الإنسان بطبعه ، كمحبة الولد والمال والأزواج ونحوها ، فتكون « أحب » هنا على بابها .

وقال الخطابى : المراد بالمحبة هنا : حب الاختيار لا حب الطبع . كذا قال .

وأما المحبة الشركية التى قد تقدم بيانها فقليلها وكثيرها ينافى محبة الله ورسوله . وفى بعض الأحاديث « أحبوا الله بكل قلوبكم » فمن علامات محبة الله ورسوله : أن يحب ما يحبه الله ويكره ما يكرهه الله ، ويؤثر مرضاته على ما سواه ، ويسعى فى مرضاته ما استطاع ، ويبعد عما حرمه الله ويكرهه أشد الكرهة ، ويتابع رسوله ويمتثل أمره ويترك نهيه كما قال تعالى (٤ : ٨٠ من يطع الرسول فقد أطاع الله) فمن آثر أمر غيره على أمره وخالف ما نهى عنه فذلك عَلَمٌ على عدم محبته لله ورسوله ؛ فإن محبة الرسول من لوازم محبة الله ، فمن أحب الله وأطاعه أحب الرسول وأطاعه ، ومن لا فلا ؛ كما فى آية المحنة ونظائرها . والله المستعان .

كما يكره أن يقذف فى النار » .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن هذه الثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان ، لأن وجود الحلاوة للشىء يتبع المحبة له . فمن أحب شيئاً واشتهاه إذا حصل له مراده ، فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك ، واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذى هو المحبوب أو المشتهى . قال : فحلاوة الإيمان المتضمنة للذة والفرح تتبع كمال محبة العبد لله . وذلك بثلاثة أمور : تكميل هذه المحبة ، وتفريغها ، ودفع ضدها . فتكميلها : أن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما ، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحب ، بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

قلت : ومحبة الله تعالى تستلزم محبة طاعته ، فإنه يحب من عبده أن يطيعه . والمحب يحب ما يحبه محبوبه ولا بد .

ومن لوازم محبة الله أيضاً : محبة أهل طاعته ، كمحبة أنبيائه ورسله والصالحين من عباده ، فمحبة ما يحبه الله ومن يحبه الله من كمال الإيمان ، كما فى حديث ابن عباس الآتى .

قال : وتفريغها : أن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، قال : ودفع ضدها : أن يكره ضد الإيمان كما يكره أن يقذف فى النار

قوله « أحب إليه مما سواهما » فيه : جمع ضمير الله تعالى وضمير رسوله صلى الله عليه وسلم وفيه قولان :

أحدهما : أنه ثنى الضمير هنا إيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين ، لا كل واحدة ، فإنها وحدها لاغية . وأمر بالإفراد فى حديث الخطيب إشعاراً بأن كل واحد من العصيانين مستقل بإلزام الغواية ؛ إذ العطف فى تقدير التكرير ، والأصل استقلال كل من المعطوفين فى الحكم .

الثانى : حمل حديث الخطيب على الأدب والأولى ، وهذا على الجواز .

وجواب ثالث : وهو أن هذا ورد على الأصل ، وحديث الخطيب ناقل فيكون أرجح .

قوله « كما يكره أن يقذف فى النار » أى يستوى عنده الأمران . وفيه : رد على الغلاة الذين يتوهمون أن صدور الذنب من العبد نقص فى حقه مطلقاً ، وإن تاب منه .

وفى رواية : « لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى » إلى آخره .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « من أحب فى الله ، وأبغض فى الله ، ووالَى فى الله ، وعادى فى الله ،

والصواب : أنه إن لم يكن يتب كان نقصاً ، وإن تاب فلا ، ولهذا كان المهاجرون والأنصار رضى الله عنهم أفضل هذه الأمة مع كونهم فى الأصل كفاراً فهداهم الله إلى الإسلام ، والإسلام يمحو ما قبله وكذلك الهجرة ، كما صح الحديث بذلك .

قوله : وفى رواية « لا يجد أحد » هذه الرواية أخرجها البخارى فى الأدب من صحيحه . ولفظها « لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وحتى أن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » .

وقد تقدم أن المحبة هنا عبارة عما يجده المؤمن من اللذة والبهجة والسرور والإجلال والهيبة ولوازم ذلك ، قال الشاعر :

أهابك إجلالا ، وما بك قدرة علىَّ ، ولكن ملء عين حبيبها

قوله « وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال « من أحب فى الله ، وأبغض فى الله ، ووالى فى الله ، وعادى فى الله ، فإنما تنال ولاية الله بذلك ، ولن يجد عبد طعم الإيمان ، وإن كثرت صلاته وصومه ، حتى يكون كذلك . وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يُجدِى على أهله شيئاً » رواه ابن جرير .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم الجملة الأولى منه فقط .

قوله « من أحب فى الله » أى أحب أهل الإيمان بالله وطاعته من أجل ذلك .

قوله « وأبغض فى الله » أى أبغض من كفر بالله وأشرك به وفسق عن طاعته لأجل ما فعلوه مما يسخط الله وإن كانوا أقرب الناس إليه ، كما قال تعالى (٥٨ : ٢٢ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله — الآية) .

قوله « ووالى فى الله » هذا والذى قبله من لوازم محبة العبد لله تعالى ، فمن أحب الله تعالى أحب فيه ، ووالى أولياءه . وعادى أهل معصيته وأبغضهم ، وجاهد أعداءه ونصر أنصاره .

فإنما تُنال وَلاية الله بذلك .

ولن يجدَ عبدٌ طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك .
وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يُجدِي على أهله شيئا »
رواه ابن جرير .

وكلما قويت محبة العبد لله فى قلبه قويت هذه الأعمال المترتبة عليها ، و بكمالها يكمل توحيد العبد و يكون ضعفها على قدر ضعف محبة العبد لربه ؛ فمقلّ ومستكثر ومحروم .

قوله « فإنما تنال ولاية الله بذلك » أى توليه لعبده . و « ولاية » بفتح الواو لا غير : أى الأخوة والمحبة والنصرة ، وبالكسر الإمارة ، والمراد هنا الأول . ولأحمد والطبرانى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله و يبغض لله . فإذا أحب لله وأبغض لله ، فقد استحق الولاية لله » وفى حديث آخر « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله عز وجل » رواه الطبرانى .

قوله « ولن يجد عبد طعم الإيمان » إلى آخره : أى لا يحصل له ذوق الإيمان ولذته وسروره وإن كثرت صلاته وصومه ، حتى يكون كذلك ، أى حتى يحب فى الله ، و يبغض فى الله ، و يعادى فى الله ، و يوالى فيه .

وفى حديث أبى أمامة مرفوعاً « من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » رواه أبو داود .

قوله « وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يجدى على أهله شيئاً » أى لا ينفعهم بل يضرهم ، كما قال تعالى (٤٣ : ٦٧ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) فإذا كانت البلوى قد عمت بهذا فى زمن ابن عباس خير القرون فما زاد الأمر بعد ذلك إلا شدة ، حتى وقعت الموالاة على الشرك والبدع والفسوق والعصيان ، وقد وقع ما أخبر به صلى الله وسلم بقوله « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريباً كما بدأ » . وقد كان الصحابة رضى الله عنهم من المهاجرين والأنصار فى نبيهم صلى الله عليه وسلم وعهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما يؤثر بعضهم بعضاً على نفسه محبة فى الله وتقرباً إليه ، كما قال تعالى (٥٩ : ٩ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) وعن ابن عمر رضى الله عنهما

وقال ابن عباس فى قوله تعالى : (٢ : ١٦٦ وتقطعتْ بهم الأسباب) قال «المودة».

قال « لقد رأيتُنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وما منا أحدٌ يرى أنه أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم » رواه ابن ماجة .

قوله « وقال ابن عباس فى قوله تعالى (٢ : ١٦٦ وتقطعت بهم الأسباب) قال «المودة» هذا الأثر رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه .

قوله « قال : المودَّة » أى التى كانت بينهم فى الدنيا خانتهم أحوج ما كانوا إليها ، وتبرأ بعضهم من بعض ، كما قال تعالى (٢٩ :٢٥ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودَّة بينكم فى الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ، ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) .

قال العلامة ابن القيم فى قوله تعالى (٢ : ١٦٦ ، ١٦٧ إذ تبرأ الذى اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعوا ورأوا العذاب — الآيتين) فهؤلاء المتبوعين كانوا على الهدى ، وأتباعهم ادعوا أنهم على طريقهم ومنهاجهم ، وهم مخالفون لهم سالكين غير طريقهم ، ويزعمون أن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم ، فيتبرأون منهم يوم القيامة ، فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله ، وهذا حال كل من اتخذ من دون الله وليجة وأولياء ، يوالى لهم ، ويعادى لهم ، ويغضب لهم ، فإن أعماله كلها باطلة ، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونصبه ، إذ لم يجرد موالاته ومعاداته وحبه وبغضه وانتصاره وإيثاره لله ورسوله ، فأبطل الله عز وجل ذلك العمل كله . وقطع تلك الأسباب . فينقطع يوم القيامة كل سبب ووصلة ووسيلة ومودّة كانت لغير الله ، ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وربه . وهو حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله ، وتجريده عبادته لله وحده ولوازمها : من الحب والبغض ، والعطاء والمنع ، والموالاة والمعاداة ، والتقريب والإبعاد ، وتجريد متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم تجريداً محضاً بريئاً من شوائب الالتفات إلى غيره ، فضلا عن الشرك بينه وبين غيره ، فضلا عن تقديم قول غيره عليه . فهذا السبب هو الذى لا ينقطع بصاحبه ، وهذه هى النسبة بين العبد وربه ، وهى نسبة العبودية المحضة ، وهى آخيته التى يجول ما يجول وإليها مرجعه ، ولا تتحقق إلا بتجريده متابعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم ، وما عرفت إلا بهم ، ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم . وقد قال تعالى (٢٥ : ٢٣

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية البقرة .

الثانية : تفسير آية براءة .

الثالثة : وجوب محبته صلى الله عليه وسلم على النفس والأهل والمال .

الرابعة : نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام .

الخامسة : أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها .

السادسة : أعمال القلب الأربعة التي لا تنال ولاية الله إلا بها ، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها .

السابعة : فهم الصحابي للواقع : أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا .

الثامنة : تفسير (وتقطعت بهم الأسباب » .

التاسعة : أن من المشركين من يحب الله حبا شديداً .

العاشرة : الوعيد على من كان الثمانية أحب إليه من دينه .

الحادية عشرة : أن من اتخذ نداً تساوى محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر .

وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) فهذه هي الأعمال التي كانت في الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم ولغير وجهه ، يجعلها الله هباء منثوراً ، لا ينتفع منها صاحبها بشيء أصلا ، وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة : أن يرى سعيه ضائعاً . وقد سعد أهل السعي النافع بسعيهم ، انتهى ملخصاً .

باب

قول الله تعالى : (٣ : ١٧٥ إنما ذٰلكم الشيطان يخوف أولياءه ، فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين).

قوله « باب قول الله تعالى :

(٣ : ١٧٥ إنما ذٰلكم الشيطان يخوِّف أولياءه ، فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) » .

الخوف من أفضل مقامات الدين وأجلها ، وأجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله تعالى . قال الله تعالى : (٢١ : ٢٨ وهم من خشيته مشفقون) وقال تعالى : (١٦ : ٥٠ يخافون ربهم من فوقهم) وقال تعالى : (٥٥ : ٤٦ ولمن خاف مقام ربه جنتان) وقال تعالى : (٦٦ : ٥١ فإياى فارهبون) وقال تعالى : (٥ : ٤٤ فلا تخشوا الناس واخشون) وأمثال هذه الآيات فى القرآن كثير .

والخوف من حيث هو على ثلاثة أقسام :

أحدها : خوف السر ، وهو أن يخاف من غير الله من وثن أو طاغوت أن يصيبه بما يكره ، كما قال تعالى عن قوم هود عليه السلام إنهم قالوا له : (١١ : ٥٤ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال: إنى أشهد الله ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون) وقال تعالى : (٣٩ : ٦٣ ويخوفونك بالذين من دونه) وهذا هو الواقع من عباد القبور ونحوها من الأوثان ، يخافونها ويخوفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها وأمروا بإخلاص العبادة لله ، وهذا ينافى التوحيد .

الثانى : أن يترك الإنسان ما يجب عليه ، خوفاً من بعض الناس ، فهذا محرم وهو نوع من الشرك بالله المنافى لكمال التوحيد ، وهذا هو سبب نزول هذه الآية ، كما قال تعالى (٣ : ١٧٣ — ١٧٥ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم . إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه — الآية) وفى الحديث

وقوله : (٩ : ١٨ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أُولئك أن يكونوا من المهتدين) .

« إن الله يقول للعبد يوم القيامة : ما منعك : إذا رأيت المنكر أن لا تغيره ؟ فيقول : رب خشية الناس ، فيقول : إياى كنت أحق أن تخشى » .

الثالث : الخوف الطبيعى ، وهو الخوف من عدو أو سبع أو غير ذلك ، فهذا لا يذم . كما قال تعالى فى قصة موسى عليه السلام (٢٨ : ٢١ فخرج منها خائفاً يترقب — الآية) .

ومعنى قوله (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه) أى يخوفكم أولياءه (فلا تخافوهم وخافون) وهذا نهى من الله تعالى للمؤمنين أن يخافوا غيره ، وأمر لهم أن يقصروا خوفهم على الله ، فلا يخافون إلا إياه ، وهذا هو الإخلاص الذى أمر الله به عباده ورضيه منهم . فإذا أخلصوا له الخوف وجميع العبادة أعطاهم ما يرجون وأمنهم من مخاوف الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى (٣٩ — ٣٦ أليس الله بكاف عبده ؟ ويخوفونك بالذين من دونه — الآية) .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : ومن كيد عدو الله : أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه ، لئلا يجاهدوهم ، ولا يأمروهم بمعروف ، ولا ينهوهم عن منكر . وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه . ونهانا أن نخافهم . قال : والمعنى عند جميع المفسرين : يخوفهم بأوليائه . قال قتادة : يعظمهم فى صدوركم ، فكلما قوى إيمان العبد زال خوف أولياء الشيطان من قلبه ، وكلما ضعف إيمانه قوى خوفه منهم . فدلت هذه الآية على أن إخلاص الخوف من كمال شروط الإيمان .

قوله « وقول الله تعالى (٩ : ١٨ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله — الآية) » .

أخبر تعالى أن مساجد الله لا يعمرها إلا أهل الإيمان بالله واليوم الآخر ، الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا بجوارحهم ، وأخلصوا له الخشية دون من سواه ، فأثبت لهم عمارة المساجد بعد أن نفاها عن المشركين ؛ لأن عمارة المساجد بالطاعة والعمل الصالح ، والمشرك وإن عمل فعمله (٢٤ : ٣٩ كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) أو (١٤ : ١٨ كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف) وما كان كذلك فالعدم خير منه ، فلا تكون

وقوله (٢٩ : ١٠ ومن الناس من يقول : آمنا بالله ، فإذا أُوذى فى الله ، جعل فتنة الناس كعذاب الله — الآية) .

المساجد عامرة إلا بالإيمان الذى معظمه التوحيد مع العمل الصالح الخالص من شوائب الشرك والبدع ، وذلك كله داخل فى مسمى الإيمان المطلق عند أهل السنة والجماعة .

قوله « ولم يخش إلا الله » قال ابن عطية : يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة ، ولا محالة أن الإنسان يخشى المحاذير الدنيوية ، وينبغى أن يخشى فى ذلك كله قضاء الله وتصريفه .

وقال ابن القيم رحمه الله : الخوف عبودية القلب . فلا يصلح إلا لله ، كالذل والإنابة والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب .

قوله (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما : «يقول : إن أولئك هم المهتدون ، وكل « عسى » فى القرآن فهى واجبة» وفى الحديث « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان ، قال الله تعالى : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) » رواه أحمد والترمذى والحاكم عن أبى سعيد الخدرى .

قوله « (٢٩ : ١٠ ومن الناس من يقول : آمنا بالله، فإذا أوذىَ فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) » .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : يقول تعال مخبراً عن صفات قوم من المكذبين الذين يدَّعون الإيمان بألسنتهم ، ولم يثبت فى قلوبهم : إنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة فى الدنيا اعتقدوا أنها من نقمة الله بهم ، فارتدوا عن الإسلام ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : « يعنى فتنته أن يرتد من دينه إذا أوذى فى الله » .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين : إما أن يقول أحدهم : آمنا ، وإما أن لا يقول ذلك . بل يستمر على السيئات والكفر ، فمن قال آمنا امتحنه ربه . وابتلاه وفتنه . والفتنة : الابتلاء والاختبار ، ليتبين الصادق من الكاذب ، ومن لم يقل : آمنا ، فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه . فمن آمن بالرسل وأطاعهم عاداه أعداؤهم وآذوه وابتلى بما يؤلمه ، ومن لم يؤمن بهم ولم يطعهم عوقب فى الدنيا والآخرة

وحصل له مايؤلمه ، وكان هــذا الألم أعظم وأدوم من ألم أتباعهم . فلا بد من حصول الألم لــكل نفس ، آمنت أو رغبت عن الإيمان ، لــكن المؤمن يحصل له الألم فى الدنيـا ابتداء ثم تــكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة ، والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتــداء ، ثم يصير فى الألم الدائم ، والإنسان لابد أن يعيش مع الناس ، والناس لهم إرادات وتصورات ، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها ، وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه ، وإن وافقهم حصل له العذاب تارة منهم وتارة من غيرهم ، كمن عنده دين وتُقى حلَّ بين قوم فجّار ظلمة لا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم أو سكوته عنهم ، فإن وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرِّهم فى الابتداء ، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداء . لو أنــكر عليهم وخالفهم ، وإن سلم منهم فلا بد أن يهان ويعاقب على يد غيرهم .

فالحزم كل الحزم فى الأخذ بما قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها لمعاوية رضى الله عنه « من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً » .

فمن هداه الله وألهمه رشده ، ووقاه شر نفسه ، امتنع من الموافقة على فعل المحرم ، وصبر على عداوتهم ، ثم تــكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة . كما كانت للرسل وأتباعهم .

ثم أخبر تعالى عن حال الداخل فى الإيمان بلا بصيرة وأنه إذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس له ، وهى أذاهم ونيلهم إياه بالمــكروه ، وهو الألم الذى لا بد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم ، جعل ذلك فى فراره منه وتركه السبب الذى يناله به : كعذاب الله الذى فرَّ منه المؤمنون بالإيمان .

فالمؤمنون لــكمال بصيرتهم فرّوا من ألم عذاب الله إلى الإيمان ، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قرب . وهذا لضعف بصيرته فرَّ من ألم أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم ، ففر من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله . فجعل ألم فتنة الناس فى الفرار منه بمنزلة عذاب الله . وغُبن كل الغبن ؛ إذِ استجار من الرَّمْضاء بالنار ، وفر من ألم ساعة إلى ألم الأبد . و إذا نصر الله جنده وأولياءه قال : إنى كنت معكم ، والله أعلم بمـا انطوى عليه صدره من النفاق . انتهى .

وفى الآية : رد على المرجئة والــكرّامية ، و وجهه : أنه لم ينفع هؤلاء قولهم : آمنا بالله .

عن أبى سعيد رضى الله عنه مرفوعاً : « إن من ضَعف اليقين : أن تُرضِىَ الناس بسخط الله »

مع عدم صبرهم على أذى من عاداهم فى الله ، فلا ينفع القول والتصديق بدون العمل . فلا يصدق الإيمان الشرعى على الإنسان إلا باجتماع الثلاثة : التصديق بالقلب وعمله ، والقول باللسان ، والعمل بالأركان . وهذا قول أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفاً ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

قوله « عن أبى سعيد رضى الله عنه مرفوعاً « إن من ضَعف اليقين : أن ترضى الناس بسخط الله ، وأن تحمدهم على رزق الله ، وأن تذُمَّهم على ما لم يؤتك الله : إن رزق الله لا يجره حرص حريص ، ولا يرده كراهة كاره » .

هذا الحديث رواه أبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى وأعله بمحمد بن مروان السدى وقال : ضعيف ، وفيه أيضاً عطية العوفى ، ذكره الذهبى فى الضعفاء والمتروكين ، ومعنى الحديث صحيح ، وتمامه : « وإن الله بحكمته جعل الروح والفرح فى الرضى واليقين ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط » .

قوله « إن من ضعف اليقين » الضعف يضم ويحرك ، ضد القوة ، ضعُف ككرم ونصر ، ضعفاً ، وضعفة ، وضعافية ، فهو ضعيف وضعوف وضعفان ، والجمع : ضعاف وضعفاء وضعفة وضَعفَى وضعافى . أو الضَّعف ـ بالفتح ـ فى الرأى ، وبالضم فى البدُن ، فهى ضعيفة وضعوف . و « اليقين » كمال الإيمان . قال ابن مسعود « اليقين الإيمان كله ، والصبر نصف الإيمان » رواه أبو نعيم فى الحليـة ، والبيهقى فى الزهد من حديثه مرفوعاً . قال : ويدخل فى ذلك تحقيق الإيمان بالقدر السابق ، كما فى حديث ابن عباس مرفوعاً « فإن استطعت أن تعمل بالرضى فى اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن فى الصبْر على ما تكره خيراً كثيراً » وفى رواية « قلت : يا رسول الله كيف أصنع باليقين ؟ قال : أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك » .

قوله « أن ترضى الناس بسخط الله » أى تؤثر رضاهم على رضى الله ، وذلك إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله وإجلاله وهيبته ما يمنعه من استجلاب رضى المخلوق بما يجلب له سخط خالقه وربه ومليكه ، الذى يتصرف فى القلوب ويفرج الكروب ويغفر الذنوب .

وأن تحمدهم على رزق الله ، وأن تذمهم على مالم يؤتك الله ، إن رزق الله لا يجره حرص حريص ، ولا يرده كراهية كاره » .

وبهذا الاعتبار يدخل فى نوع من الشرك ؛ لأنه آثر رضى المخلوق على رضى الله . وتقرب إليه بما يسخط الله . ولا يسلم من هذا إلا من سلمه الله ، ووفقه لمعرفته ومعرفة ما يجوز على الله من إثبات صفاته على ما يليق بجلاله ، وتنزيهه تعالى عن كل ما ينافى كماله ، ومعرفة توحيده فى ربوبيته وإلهيته . وبالله التوفيق .

قوله « وأن تحمدهم على رزق الله » أى على ما وصل إليك من أيديهم ، بأن تضيفه إليهم وتحمدهم عليه ، فإن المتفضل فى الحقيقة هو الله وحده الذى قدره لك وأوصله إليك ، وإذا أراد أمراً قيّض له أسباباً . ولا ينافى هذا حديث « من لا يشكر الناس لا يشكر الله » لأن شكرهم إنما هو بالدعاء لهم ، لكون الله ساقه على أيديهم ، فتدعو لهم أو تكافئهم ، الحديث « من صنع إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه » فإضافة الصنيعة إليهم لكونهم صاروا سبباً فى إيصال المعروف إليك ، والذى قدره وساقه هو الله وحده .

قوله « وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله » لأنه لم يقدر لك ما طلبته على أيديهم . فلو قدره لساقته المقادير إليك . فمن علم أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده ، وأنه هو الذى يرزق العبد بسبب وبلا سبب ، ومن حيث لا يحتسب ، لم يمدح مخلوقاً على رزق ، ولم يذمه على منع ، ويفوض أمره إلى الله ، ويعتمد عليه فى أمر دينه ودنياه . وقد قرر النبى هذا المعنى بقوله فى الحديث « إن رزق الله لا يجره حرص حريص ، ولا يرده كراهية كاره » كما قال تعالى : (٣٥ : ٦ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها . وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : اليقين يتضمن اليقين فى القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته ، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره ، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقناً لا بوعده ولا برزقه ، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك : إما ميل إلى ما فى أيديهم فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم ، وإما ضعف تصديقه بما وعد الله أهل طاعته

وعن عائشة رضى الله عنها : أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « من التمس رِضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن التمس رِضى الناس بسخط الله سَخِط الله عليه وأسخط عليه الناس » رواه ابن حبان فى صحيحه .

من النصر والتأييد والثواب فى الدنيا والآخرة . فإنك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفاك مؤونتهم . وإرضاؤهم بما يسخطه إنما يكون خوفاً منهم ورجاء لهم ، وذلك من ضعف اليقين . وإذا لم يقدّر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك فالأمر فى ذلك إلى الله لا لهم . فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فإذا ذممتهم على ما لم يقدر كان ذلك من ضعف يقينك ، فلا تخفهم ولا ترجهم ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك ، ولكن من حمده الله ورسوله منهم فهو المحمود ، ومن ذمه الله ورسوله منهم فهو المذموم . ولما قال بعض وفد بنى تميم « أى محمد أعطنى . فإن حمدى زَيْن وذَمّى شَيْن ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : ذاك الله » . ودل الحديث على أن الإيمان يزيد وينقص ، وأن الأعمال من مسمى الإيمان .

قوله « وعن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من التمس رضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس » رواه ابن حبان فى صحيحه » .

هذا الحديث رواه ابن حبان بهذا اللفظ ، ورواه الترمذى عن رجل من أهل المدينة قال « كتب معاوية رضى الله عنه إلى عائشة رضى الله عنها : أن اكتبى لى كتابا توصينى فيه ، ولا تكثرى علىّ ، فكتبت عائشة رضى الله عنها إلى معاوية : سلام عليك ، أما بعد : فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من التمس رضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس رضى الناس بسخط الله وكَلَه الله إلى الناس . والسلام عليك » ورواه أبو نعيم فى الحلية .

قوله « من التمس » : أى طلب .

قال شيخ الإسلام : وكتبت عائشة إلى معاوية ، وروى أنها رفعته « من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً » هذا لفظ المرفوع . ولفظ الموقوف « من أرضى الله بسخط الناس رضى الله عنه

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية آل عمران .

الثانية : تفسير آية براءة .

الثالثة : تفسير آية العنكبوت .

الرابعة : أن اليقين يضعف ويقوى .

الخامسة : علامة ضعفه . ومن ذلك هذه الثلاث .

السادسة : أن إخلاص الخوف لله من الفرائض .

السابعة : ذكر ثواب من فعله .

الثامنة : ذكر عقاب من تركه .

وأرضى عنه الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذاماً » وهذا من أعظم الفقه فى الدين ؛ فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه وكان عبده الصالح ، والله يتولى الصالحين ، والله كاف عبده (٦٥ : ٢ ، ٣ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب) والله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب . وأما كون الناس كلهم يرضون عنه فقد لا يحصل ذلك . لكن يرضون عنه إذا سلموا من الأغراض ، وإذا تبين لهم العاقبة . « ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً » كالظالم الذى يعضُّ على يديه . وأما كون حامده ينقلب ذاماً ، فهذا يقع كثيراً ويحصل فى العاقبة . فإن العاقبة للتقوى لا تحصل ابتداء عند أهوائهم . اه .

وقد أحسن من قال :

إذ صح منك الود يا غاية المنى   فكل الذى فوق التراب تراب

قال ابن رجب رحمه الله : فن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب ؟ أم كيف يرضى التراب بسخط الملك الوهاب ؟ إن هذا لشىء عجاب .

وفى الحديث عقوبة من خاف الناس وآثر رضاهم على الله ، وأن العقوبة قد تكون فى الدين ، عياذاً بالله من ذلك . كما قال تعالى : (٩ : ٧٨ فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) .

باب

قول الله تعالى : (٥ : ٢٣ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) .

قوله « باب قول الله تعالى (٥ : ٢٣ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) » .

قال أبو السعادات : يقال : توكل بالأمر ، إذا ضمن القيام به ، ووكلت أمرى إلى فلان : إذا اعتمدت عليه ، ووكّل فلان فلاناً : إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته ، أو عجزاً من القيام بأمر نفسه اه .

وأراد المصنف رحمه الله : بهذه الترجمة بالآية : بيان أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى فإن تقديم المعمول يفيد الحصر : أى وعلى الله فتوكلوا لا على غيره ، فهو من أجمع أنواع العبادة وأعظمها ، لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة ، فإنه إذا اعتمد على الله فى جميع أموره الدينية والدنيوية ، دون كل من سواه صح إخلاصه ومعاملته مع الله تعالى ، فهو من أعظم منازل (إياك نعبد وإياك نستعين) فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله ، كما فى الآية ، وكما قال تعالى : (١٠ : ٨٤ قال موسى : يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) وقوله : (٧٣ : ٩ رب المشرق والمغرب ، لا إله إلا هو ، فاتخِذْه وكيلا) . والآيات فى الأمر به كثيرة جداً . قال الإمام أحمد رحمه الله : « التوكل عمل القلب » .

وقال ابن القيم فى معنى الآية المترجم بها : فجعل التوكل على الله شرطا فى الإيمان ، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه ، وفى الآية الأخرى (١٠ : ٨٤ قال موسى : يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) فجعل دليل صحة الإسلام التوكل ، وكلما قوى إيمان العبد كان توكله أقوى ، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل ، وإذا كان التوكل ضعيفاً كان دليلاً على ضعف الإيمان ولا بد . والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة ، وبين التوكل والإيمان ، وبين التوكل والتقوى ، وبين التوكل والإسلام ، وبين التوكل والهداية .

فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان ، ولجميع أعمال الإسلام ، وأن منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس ، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن ، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل .

وقوله : (٨ : ٢ إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ،

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : وما رجا أحد مخلوقاً ولا توكل عليه إلا خاب ظنه فيه ، فإنه مشرك (٢٢ : ٣١ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ من السماء ، فَتَخْطَفُهُ الطيرُ أَوْ تَهْوِي به الريحُ في مكانٍ سَحيق) .

قال الشارح رحمه الله تعالى : قلت : لكن التوكل على الله قسمان :

أحدهما : التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله ، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم : من نصر أو حفظ أو رزق أو شفاعة ، فهذا شرك أكبر .

الثاني : التوكل في الأسباب الظاهرة ، كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما أقدره الله تعالى عليه : من رزق ، أو دفع أذى ونحو ذلك ، فهو نوع شرك أصغر . والوكالة الجائزة : هي توكيل الإنسان في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه ، لكن ليس له أن يعتمد عليه في حصول ما وُكل فيه ، بل يتوكل على الله في تيسير أمره الذي يطلبه بنفسه أو نائبه ، وذلك من جملة الأسباب التي يجوز فعلها ، ولا يعتمد عليها بل يعتمد على المسبب الذي أوجد السبب والمسبب .

قال « وقول الله تعالى (٨ : ٢ — ٤ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم — الآيات) » .

قال ابن عباس في الآية « المنافقون لا يدخل في قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون على الله ، ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف المؤمنين فقال (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) « فأدوا فرائضه » رواه ابن جرير وابن أبي حاتم . ووَجَلُ القلب من الله يستلزم القيام بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ، قال السدي : (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) . هو الرجل يريد أن يظلم ، أو قال : يَهِمّ بمعصية ، فيقال له : اتق الله ، اتق الله ، فيجل قلبه » رواه ابن أبي شيبة وابن جرير .

قوله (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) استدل الصحابة رضي الله عنهم والتابعون

وعلى ربهم يتوكلون) .

وقوله : (٨ : ٦٤ يا أيها النبيُّ ، حَسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) .

ومن تبعهم من أهل السنة بهذه الآية ونظائرها على زيادة الإيمان ونقصانه .

قال عمير بن حبيب الصحابي « إن الإيمان يزيد وينقص ، فقيل له : وما زيادته ونقصانه ؟ قال : إذا ذكرنا الله وخشيناه ، فذلك زيادته ، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا ، فذلك نقصانه » رواه ابن سعد .

وقال مجاهد « الإيمان يزيد وينقص ، وهو قول وعمل » رواه ابن أبي حاتم .

وحكى الإجماع على ذلك الشافعي وأحمد وأبو عبيد وغيرهم رحمهم الله تعالى .

قوله (وعلى ربهم يتوكلون) أي يعتمدون عليه بقلوبهم ، مفوضين إليه أمورهم فلا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك وحده ، والمعبود وحده لا شريك له . وفي الآية : وصف المؤمنين حقاً بثلاث مقامات من مقامات الإحسان ، وهي : الخوف ، وزيادة الإيمان ، والتوكل على الله وحده . وهذه المقامات تقتضي كمال الإيمان ، وحصول أعماله الباطنة والظاهرة . مثال ذلك : الصلاة ، فمن أقام الصلاة وحافظ عليها ، وأدى الزكاة كما أمره الله استلزم ذلك العمل بما يقدر عليه من الواجبات ، وترك جميع المحرمات ، كما قال تعالى (٢٩ : ٤٥ إن الصلاة تَنهَى عن الفحشاء والمنكر ، وَلَذِكرُ الله أكبرُ) .

قال « وقوله (٨ : ٦٤ يا أيها النبيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَن اتبعك من المؤمنين)» قال ابن القيم رحمه الله : أي الله كافيك وكافي أتباعَك ، فلا تحتاجون معه إلى أحد . وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

وقيل : المعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون .

قال ابن القيم رحمه الله ، وهذا خطأ محض لا يجوز حمل الآية عليه ، فإن الحسب والكفاية لله وحده كالتوكل والتقوى والعبادة ، قال الله تعالى (٨ : ٦٢ وإن يريدوا أن يخدَعوك فإنَّ حَسْبَكَ الله ، وهو الذي أيَّدَكَ بنَصْرِهِ وبالمؤمنين) ففرق بين الحسب والتأييد ، فجعل الحسب له وحده وجعل التأييد له بنصره وبعباده ، وأثنى على أهل التوحيد

وقوله : (٦٥ : ٣ ومن يتوكل على الله فهو حسبه) .

من عباده حيث أفردوه بالحسب ، فقال تعالى (٣ : ١٧٣ الذين قال لهم الناسُ إن الناسَ قد جمعوا لكم فَاخْشَوْهُمْ ، فزادهم إيماناً ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل) ولم يقولوا : حسبنا الله ورسوله ، ونظير هذا قوله سبحانه (٩ : ٥٩ وقالوا : حسبنا الله سَيُؤْتِينا الله من فضله ورسوله ، إنا إلى الله راغبون) فتأمل كيف جعل الإيتاء لله والرسول ، وجعل الحسب له وحده ، فلم يقل : وقالوا حسبنا الله ورسوله ، بل جعله خالص حقه ، كما قال (إنا إلى الله راغبون) فجعل الرغبة إليه وحده ، كما قال تعالى (وإلى ربك فارغب) فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب لله وحده ، كما أن العبادة والتقوى والسجود والنذر والحلف لا يكون إلا له ، سبحانه وتعالى . انتهى .

وبهذا يتبين مطابقة الآية للترجمة ، فإذا كان هو الكافى لعبده وجب ألا يتوكل إلا عليه ، ومتى التفت بقلبه إلى سواه وَكَلَهُ الله إلى من التفت إليه ، كما فى الحديث : « مَنْ تَعَلَّقَ شيئاً وُكِلَ إليه » .

قال « وقول الله تعالى (٦٥ : ٣ ومن يتوكل على الله فهو حسبه) » .

قال ابن القيم رحمه الله وغيره : أى كافيه : ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ، ولا يضره إلا أذًى لا بد منه ، كالحر والبرد والجوع والعطش . وأما أن يضره بما يبلغ مراده منه فلا يكون أبداً ، وفرق بين الأذى الذى هو فى الظاهر إيذاء ، وفى الحقيقة إحسان وإضرار بنفسه ، وبين الضرر الذى يتشفى به منه ، قال بعض السلف : جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه ، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته ، فقال (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) فلم يقل : فله كذا وكذا من الأجر . كما قال فى الأعمال ، بل جعل نفسه سبحانه كافىَ عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه ، فلو توكل العبد على الله حق توكله ، وكادته السموات والأرض ومن فيهن ، لجعل الله له مخرجاً ، وكفاه رزقه ونصره . انتهى .

وفى أثر رواه أحمد فى الزهد عن وهب بن منبه قال « قال الله عز وجل فى بعض كتبه : بعزتى ، إنه من اعتصم بى فكادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن ،

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين أُلقِىَ فى النار ، وقالها محمدٌ صلى الله عليه وسلم حين قالوا له : (إنَّ الناسَ قد جمعوا لكم فاخشوْهم ، فزادهم إيمانًا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل) » . رواه البخارى والنسائى .

فإنى أجعل له من ذلك مخرجاً ، ومن لم يعتصم بى ، فإنى أقطع يديه من أسباب السماء ، وأخسف من تحت قدميه الأرض ، فأجعله فى الهواء ، ثم أَكِلُه إلى نفسه ، كفى بى لعبدى مآلا ، إذا كان عبدى فى طاعتى أعطيه قبل أن يسألنى ، وأستجيب له قبل أن يدعونى ، فأنا أعلم بحاجته التى ترفق به منه » .

وفى الآية : دليل على فضل التوكل ، وأنه أعظم الأسباب فى جلب المنافع ودفع المضار ؛ لأن الله تعالى علق الجملة الأخيرة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط ، فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه ؛ لأن الله تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له ، فعلم أن توكله هو سبب كون الله حَسْبًا له .

وفيها : تنبيه على القيام بالأسباب مع التوكل ، لأنه تعالى ذكر التقوى ، ثم ذكر التوكل كما قال تعالى (٥ : ١١ واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فجعل التوكل مع التقوى الذى هو قيام بالأسباب المأمور بها ، فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض ، وإن كان مشوباً بنوع من التوكل ، فلا ينبغى للعبد أن يجعل توكله عجزاً ، ولا عجزه توكلا ، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التى لايتم المقصود إلا بها كلها . ذكره ابن القيم بمعناه .

قال « وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال « حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها : إبراهيم حين ألقى فى النار ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل) رواه البخارى والنسائى .

قوله « حسبنا الله » أى كافينا ، فلا نتكل إلا عليه ، قال تعالى (٣٩ : ٣٦ أليس الله بكاف عبده ؟) .

قوله « ونعم الوكيل » أى نعم الموكول إليه ، كما قال تعالى (٢٢ : ٧٨ واعتصموا بالله

فيه مسائل :

الأولى : أن التوكل من الفرائض . الثانية : أنه من شروط الإيمان .

الثالثة : تفسير آية الأنفال . الرابعة : تفسير الآية فى آخرها .

الخامسة : تفسير آية الطلاق .

السادسة : عِظم شأن هذه الكلمة : أنها قول إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم فى الشدائد .

هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير) ومخصوص « نعم » محذوف تقديره « هو » .

قال ابن القيم رحمه الله : هو حسب من توكل عليه وكافى من لجأ إليه ، وهو الذى يُؤَمِّن خوف الخائف ، ويجير المستجير ، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه ، وانقطع بكليته إليه ، تولاه وحفظه وحرسه وصانه ، ومن خافه واتقاه ، أمنه مما يخاف ويحذر ، ويجلب إليه مايحتاج إليه من المنافع .

قوله « قالها إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقى فى النار » قال تعالى (٢١ : ٦٨ – ٧٠ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ، قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين) .

قوله « وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) » وذلك بعد منصرف قريش والأحزاب من أحد « بلغه أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكرَّة عليهم ، فخرج النبى صلى الله عليه وسلم فى سبعين راكباً حتى انتهى إلى حمراء الأسد ، فألقى الله الرعب فى قلب أبى سفيان . فرجع إلى مكة بمن معه ، ومرّ به ركب من عبد القيس فقال : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة . قال : فهل أنتم مبلغون محمداً عنى رسالة ؟ قالوا : نعم . قال : فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم . فمر الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذى قال أبو سفيان . فقال : حسبنا الله ونعم الوكيل » ففى هاتين القصتين فضل هذه الكلمة العظيمة . وأنها قول الخليلين عليهما الصلاة والسلام فى الشدائد . وجاء فى الحديث : « إذا وقعتم فى الأمر العظيم فقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » .

باب

قول الله وتعالى : (٧ : ٩٩ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون)

قوله « باب قول الله تعالى :

(٧ : ٩٩ أفأمنوا مكر الله ، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) » .

قصد المصنف رحمه الله بهذه الآية التنبيه على أن الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب وأنه ينافى كمال التوحيد ، كما أن القنوط من رحمة الله كذلك . وذلك يرشد إلى أن المؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، وأرشد إليه سلف الأمة والأئمة .

ومعنى الآية : أن الله تبارك وتعالى لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل بيّن أن الذى حملهم على ذلك هو الأمن من مكر الله وعدم الخوف منه . كما قال تعالى (٧ : ٩٦ ــ ٩٨ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ؟ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضُحًى وهم يلعبون ؟ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) أى الهالكون . وذلك أنهم أمنوا مكر الله لما استدرجهم بالسراء والنِّعَم ، فاستبعدوا أن يكون ذلك مكراً .

قال الحسن رحمه الله : « من وسَّع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأى له » .

وقال قتادة (بَغتَ القومَ أمرُ الله ، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سَلْوتهم ونعمتهم وغِرَّتهم . فلا تغتروا بالله » .

وفى الحديث : « إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج » رواه أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم .

وقال إسماعيل بن رافع « من الأمن من مكر الله : إقامة العبد على الذنب ، يتمنى على الله المغفرة » رواه ابن أبى حاتم .

وهذا هو تفسير المكر فى قول بعض السلف « يستدرجهم الله بالنعم إذا عصوه ، ويملى لهم ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر » . وهذا هو معنى المكر والخديعة ونحو ذلك . ذكره ابن ابن جرير بمعناه .

وقوله : (١٥ : ٥٦ ومن يقنط من رحمةِ ربه إلا الضالون ؟) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الكبائر ؟ فقال : الشركُ بالله ، واليأسُ من روح الله ، والأمنُ من مَكْر الله » .

قال « وقول الله تعالى (١٥ : ٥٦ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ؟) » .

القنوط : استبعاد الفرج واليأس منه . وهو يقابل الأمن من مكر الله . وكلاهما ذنب عظيم . وتقدم ما فيه لمنافاته لكمال التوحيد .

وذكر المصنف رحمه الله تعالى هذه الآية مع التى قبلها ؛ تنبيها على أنه لا يجوز لمن خاف الله أن يقنط من رحمته ، بل يكون خائفاً راجياً ، يخاف ذنوبه ويعمل بطاعته ، ويرجو رحمته ، كما قال تعالى (٣٩ : ٩ أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائما يَحْذرُ الآخرةَ ويرجو رحمة ربه) وقال (٢ : ٢١٨ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) فالرجاء مع المعصية وتَرك الطاعة غرور من الشيطان : ليوقع العبد فى المخاوف مع ترك الأسباب المنجية من المهالك ، بخلاف حالِ أهل الإيمان الذين أخذوا بأسباب النجاة خوفا من الله تعالى ، وهرباً من عقابه ، وطمعاً فى المغفرة ، ورجاء لثوابه .

والمعنى : أن الله تعالى حكى قول خليله إبراهيم عليه السلام ، لما بشَّرته الملائكة بابنه إسحاق (١٥ : ٥٤ قال أبشَّرتمونى على أنْ مَسَّنِيَ الكِبَرُ ، فبم تبشرون ؟) لأن العادة أن الرجل إذا كبر سنه وسن زوجته استبعد أن يولد له منها . والله على كل شىء قدير ، فقالت الملائكة (بشرناك بالحق) الذى لا ريب فيه ؛ فإن الله إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون (فلا تكن من القانطين) أى من الآيسين ، فقال عليه السلام (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ؟) فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ماهو أبلغ من ذلك وأعظم ؛ لكنه — والله أعلم — قال ذلك على وجه التعجب .

قوله « إلا الضالون » قال بعضهم : إلا المخطئون بطريق الصواب ، أو إلا الكافرون كقوله (١١ : ٨٧ إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) .

قوله « وعن ابن عباس رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الكبائر ؟ فقال : الشرك بالله ، واليأس من رَوْح الله ، والأمن من مكر الله » .

هذا الحديث رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس . ورجاله ثقات إلا شبيب بن بشر . فقال ابن معين : ثقة . وَلَيَّنَه أبو حاتم . ابن كثير : في إسناده نظر . والأشبه أن يكون موقوفا .

قوله « الشرك بالله » هو أكبر الكبائر . قال ابن القيم رحمه الله : الشرك بالله هضْمٌ للربوبية ، وتنقصٌ للإلهية ، وسوء ظن برب العالمين . انتهى .

ولقد صدق ونصح قال تعالى : (٦ : ١ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) وقال تعالى : (٣١ : ١٣ إن الشرك لظلم عظيم) ولهذا لا يغفره الله إلا بالتوبة منه .

قوله « واليأس من روح الله » أي قطع الرجاء والأمل من الله فيما يخافه ويرجوه ، وذلك إساءة ظن بالله ، وجهل به وبسعة رحمته وجوده ومغفرته .

قوله « والأمنُ من مكر الله » أي من استدراجه للعبد ، وسلبه ما أعطاه من الإيمان نعوذ بالله من ذلك . وذلك جهل بالله وبقدرته ، وثقة بالنفس وعجب بها .

واعلم أن هذا الحديث لم يُرد به حَصْر الكبائر في الثلاث ، بل الكبائر كثيرة وهذه الثلاث من أكبر الكبائر المذكورة في الكتاب والسنة . وضابطها : ما قاله المحققون من العلماء : كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب . زاد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : أو نفي الإيمان .

قلت : ومن برىء منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو قال « ليس منا من فعل كذا وكذا » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما « هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع ، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار » .

قوله « وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال « أكبر الكبائر : الإشراك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله » رواه عبد الرزاق » .

ورواه ابن جرير بأسانيد صحاح عن ابن مسعود رضي الله عنه .

قوله « أكبر الكبائر : الإشراك بالله » أي في ربوبيته أو عبادته . وهذ بالإجماع

والقنوط من رحمة الله ، واليأسُ من رَوْحِ الله » رواه عبد الرزاق .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الأعراف .

الثانية : تفسير آية الحِجْر .

الثالثة : شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله .

الرابعة : شدة الوعيد فى القنوط .

قوله « والقنوط من رحمة الله » قال أبو السعادات : هو أشد اليأس .

وفيه : التنبيه على الرجاء والخوف ، فإذا خاف فلا يقنط ولا ييأس ، بل يرجو رحمة الله . وكان السلف يستحبون أن يقوى فى الصحة الخوف ، وفى المرض الرجاء . وهذه طريقة أبى سليمان الدرانى وغيره . قال : و ينبغى للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف ، فإذا غلب الرجاء الخوف فسد القلب . قال تعالى: (٦٧ : ١٢ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير) وقال(١٤ : ٣٧ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) وقال تعالى(٢٣ : ٦٠، ٦١ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وَجِـلَةٌ أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لهـا سابقون) وقال تعالى (٣٩ : ٩ أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة و يرجو رحمة ربه ؟ ـ الآية) . قدم الحذر على الرجاء فى هذه الآية .

باب

(من الإيمان بالله : الصبر على أقدار الله)

وقوله تعالى : (٦٤ : ١١ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ،

قوله « باب من الإيمان بالله : الصبر على أقدار الله »

قال الإمام أحمد : ذكر الله تعالى الصبر فى تسعين موضعاً من كتابه . وفى الحديث الصحيح «الصبر ضياء» رواه أحمد ومسلم ، وللبخارى ومسلم مرفوعاً « ما أُعطِيَ أحد عطاءخيراً وأوسع من الصبر » قال عمر رضى الله عنه : « وجدنا خير عيشنا بالصبر » رواه البخارى .

قال على رضى الله عنه « إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد — ثم رفع صوته — فقال : ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له » .

واشتقاقه : من صبر إذا حبس ومنع . والصبر حبس النفس عن الجزع ، وحبس اللسان عن التشكى والتسخط ، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهما . ذكره ابن القيم رحمه الله .

واعلم أن الصبر ثلاثة أقسام : صبر على ما أمر الله به ، وصبر عما نهى عنه ، وصبر على ما قدّره من المصائب .

قوله « وقول الله تعالى (٦٤ : ١١ ومن يؤمن بالله يَهْدِ قلبه) » .

وأول الآية (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله) أى بمشيئته وإرادته وحكمته ، كما قال فى الآية الأخرى (٥٧ : ٢٢ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير) وقال (٢ : ١٥٥ — ١٥٧ و بشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله و إنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) .

قوله « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » قال ابن عباس فى قوله (إلا بإذن الله) « إلا بأمر الله » يعنى عن قدره ومشيئته (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) أى من أصابته مصيبة فعلم أنها بقدر الله فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه وعوضه عما فاته من الدنيا هدى فى قلبه ، ويقينا صادقاً . وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه .

والله بكل شيء عليم) .

قال عَلْقمة : «هو الرجلُ تصيبه المصيبة فيعلمُ أنها من عند الله، فيرضى ويسلم».

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اثنتان في الناس هُمَا بهم كفرٌ :

قوله (والله بكل شي عليم) تنبيه على أن ذلك إنما يصدر عن علمه المتضمن لحكمته . وذلك يوجب الصبر والرضا .

قوله « قال علقمة : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله ، فيرضى و يسلم » .

هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .

وعلقمة : هو ابن قيس بن عبد الله النخعي الكوفي . ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وسمع من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم رضي الله عنهم . وهو من كبار التابعين وأجلائهم وعلمائهم وثقاتهم . مات بعد الستين .

قوله « هو الرجل تصيبه المصيبة — الخ » هذا الأثر رواه الأعمش عن أبي ظبيان . قال « كنا عند علقمة فقرئ عليه هذه الآية (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) قال : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى و يسلم » هذا سياق ابن جرير .

وفي هذا دليل على أن الأعمال من مسمى الإيمان . قال سعيد بن جبير (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) يعني يسترجع . يقول : إنا لله و إنا إليه راجعون . وفي الآية : بيان أن الصبر سبب لهداية القلوب ، وأنها من ثواب الصابرين .

قوله « وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت » .

أي : هما بالناس كفر حيث كانتا من أعمال الجاهلية ، وهما قائمتان بالناس ولا يسلم منهما إلا من سلمه الله تعالى ، ورزقه علماً و إيماناً يستضيء به . ولكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافراً كالكفر المطلق . كما أنه ليس من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير مؤمناً الإيمان المطلق . وفرق بين الكفر المعرف باللام كما في قوله « ليس بين العبد و بين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة و بين كفر منكّر في الإثبات .

الطعنُ فى النَّسب ، والنياحة على الميت » .

ولهما عن ابن مسعود مرفوعا : « ليس مِنَّا من ضرب الخـدود ، وشقَّ الجيوب ، ودعا بدَعْوَى الجاهلية » .

قوله « الطعن فى النسب » أى عيبه ، يدخل فيه أن يقال : هـذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه .

قوله « والنياحة على الميت » أى رفع الصوت بالندب ، وتعداد فضائل الميت ؛ لما فيه من التسخط على القدر المنافى للصبر ، كقول النائحة : واعضداه ، واناصراه ، ونحو ذلك .

وفيه : دليل على أن الصبر واجب ، وأن من الكفر ما لا ينقل عن الملة .

قوله « ولهما عن ابن مسعود مرفوعاً « ليس منا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية » .

هذا من نصوص الوعيد . وقد جاء عن سفيان الثورى وأحمد كراهية تأويلها ؛ ليكون أوقع فى النفوس وأبلغ فى الزجر ، وهو يدل على أن ذلك ينافى كمال الإيمان الواجب .

قوله « من ضرب الخدود » وقال الحافظ : خص الخد لكونه الغالب ، وإلا فضرب بقية الوجه مثله .

قوله (وشق الجيوب) هو الذى يدخل فيه الرأس من الثوب ، وذلك من عادة أهل الجاهلية حزناً على الميت .

قوله « ودعا بدعوى الجاهلية » قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : هو ندب الميت : وقال غيره : هو الدعاء بالويل والثبور . وقال ابن القيم رحمه الله : الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصبية ، ومثله التعصب إلى المذاهب والطوائف والمشايخ ، وتفضيل بعضهم على بعض ، يدعو إلى ذلك ، ويوالى عليه ويعادى . فكل هذا من دعوى الجاهلية .

وعند ابن ماجة وصححه ابن حبان عن أبى أمامة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الخامشة وجهها ، والشاقة جيبها ، والداعية بالويل والثبور » .

وهذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر ، وقد يعفى عن الشىء اليسير من ذلك إذا كان صدقاً ، وليس على وجه النوح والتسخط . نص عليه أحمد رحمه الله ؛ لما وقع لأبى بكر وفاطمة رضى الله عنهما لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن أنس رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا أراد الله بعبده الخير عَجَّلَ له العقوبة فى الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشرَّ أمسك عنه بذنبه حتى يُوافى به يوم القيامة » .

وليس فى هذه الأحاديث ما يدل على النهى عن البكاء ؛ لما فى الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مات ابنه إبراهيم قال : « تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون» . وفى الصحيحين عن أسامة بن زيد رضى الله عنه : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق الى احدى بناته ولها صبى فى الموت ، فرُفع اليه ونفسه تَقَعْقَع كأنها شَنٌّ ، ففاضت عيناه ، فقال سعد : ما هذا يارسول الله؟ قال : هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده ، و إنما يرحم الله من عباده الرحماء » .

قوله « وعن أنس رضى الله عنه . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا أراد الله بعبده الخيرَ عجل له العقوبة فى الدنيا ، و إذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة » .

هذا الحديث رواه الترمذى والحاكم . وحسنه الترمذى . وأخرجه الطبرانى والحاكم عن عبد الله بن مغفل . وأخرجه ابن عَدى عن أبى هريرة ، والطبرانى عن عمار بن ياسر .

قوله « إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا » أى يصب عليه البلاء والمصائب لما فرط من الذنوب منه ، فيخرج منها وليس عليه ذنب يوافى به يوم القيامة .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : المصائب نعمة ؛ لأنها مكفرات للذنوب ، وتدعو إلى الصبر فيثاب عليها . وتقتضى الإنابة إلى الله والذل له ، والإعراض عن الخلق ، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة . فنفس البلاء يكفر الله به الذنوب والخطايا . وهذا من أعظم النعم . فالمصائب رحمة ونعمة فى حق عموم الخلق ، إلا أن يدخل صاحبها بسببها فى معاصى أعظم مما كان قبل ذلك فيكون شراً عليه من جهة ما أصابه فى دينه ، فإن من الناس من إذا ابتلى بفقر أو مرض أو وجع حصل له من النفاق والجزع ومرض القلب والكفر الظاهر وترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له الضر فى دينه ، فهذا كانت العافية خيراً له من جهة ما أورثته المصيبة ، لا من جهة نفس المصيبة ، كما أن من أوجبت له

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن عِظَم الجزاء مع عظَم البلاء ،

المصيبة صبراً وطاعة ، كانت فى حقه نعمة دينية ، فهى بعينها فعل الرب عز وجل ورحمة للخلق . والله تعالى محمود عليها ، فمن ابتلى فرزق الصبر كان الصبر عليه نعمة فى دينه ، وحصل له بعد ما كفّر من خطاياه رحمة ، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه ، قال تعالى : (٢ : ١٥٧ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) وحصل له غفران السيئات ورفع الدرجات . فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك . انتهى ملخصاً .

قوله « وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه » أى أخّر عنه العقوبة بذنبه « حتى يوافى به يوم القيامة » وهو بضم الياء وكسر الفاء منصوبا بحتى مبنياً للفاعل . قال العزيزى : أى لا يجازيه بذنبه فى الدنيا حتى يجىء فى الآخرة مستوفر الذنوب وافيها ، فيستوفى ما يستحقه من العقاب . وهذه الجملة هى آخر الحديث . فأما قوله : وقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن عِظم الجُزاء مع عظم البلاء » إلى آخره . فهو أول حديث آخر ، لكن لما رواهما الترمذى بإسناد واحد صحابى واحد جعلهما المصنف كالحديث الواحد .

وفيه : التنبيه على حسن الرجاء وحسن الظن بالله فيما يقضيه لك ، كما قال تعالى (٢ : ٢١٦ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

قوله « وقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن عظم الجُزاء مع عظم البلاء . وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم . فمن رضى فله الرضى ، ومن سخط فله السخط » حسنه الترمذى .

قال الترمذى : حدثنا قتيبة حدثنا الليث عن يزيد بن أبى حبيب عن سعد بن سنان عن أنس ، فذكر الحديث السابق ثم قال : وبهذا الإسناد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن عظم الجُزاء — الحديث » ثم قال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . ورواه ابن ماجة . وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد رفعه « إذا أحب الله قوماً ابتلاهم ، فمن صبر فله الصبر ، ومن جزع فله الجزع » قال المنذرى : رواته ثقات .

قوله « إن عظم الجزاء » بكسر العين وفتح الظاء فيها : ويجوز ضمها مع سكون الظاء . أى : من كان ابتلاؤه أعظم كمية وكيفية .

وإن الله تعالى إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » حسنه الترمذى .

وقد يحتج بهذا الحديث من يقول : إن المصائب يثاب عليها مع تكفير الخطايا ، ورجح ابن القيم أن ثوابها تكفير الخطايا فقط إلا إذا كانت سبباً لعمل صالح ، كالصبر والرضا والتوبة والاستغفار ، فإنه حينئذ يثاب على ما تولد منها ، وعلى هذا يقال فى معنى الحديث : إن عظم الجزاء مع عظم البلاء إذا صبر واحتسب .

قوله « وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم » ولهذا ورد فى حديث سعد « سئل النبى صلى الله عليه وسلم أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ؛ يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقّة ابتلى على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة » رواه الدارمى وابن ماجة والترمذى وصححه .

وهذا الحديث ونحوه من أدلة التوحيد ، فإذا عرف العبد أن الأنبياء والأولياء يصيبهم البلاء فى أنفسهم الذى هو فى الحقيقة رحمة ، ولا يدفعه عنهم إلا الله ، عرف أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا دفعاً ، فلأن لا يملكوه لغيرهم وأحرى ، فيحرم قصدهم والرغبة إليهم فى قضاء حاجة أو تفريج كربة ، وفى وقوع الابتلاء بالأنبياء والصالحين من الأسرار والحكم والمصالح وحسن العاقبة مالا يحصى .

قوله « فمن رضى فله الرضا » أى من الله تعالى . والرضا قد وصف الله تعالى به نفسه فى مواضع من كتابه ، كقوله تعالى : (٩٨ : ٨ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه) ومذهب السلف وأتباعهم من أهل السنة : إثبات الصفات التى وصف الله بها نفسهُ ، ووصفه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على مايليق بجلاله وعظمته إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل . فإذا رضى الله تعالى عنه حصل له كل خير ، وسلم من كل شر ، والرضا : هو أن يسلم العبد أمره إلى الله ، ويحسن الظن به ، ويرغب فى ثوابه . وقد يجد لذلك راحة وانبساطاً ؛ محبة لله وثقة به ، كما قال ابن مسعود رضى الله عنه : « إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح فى اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية التّغابن .

الثانية : أن هذا من الإيمان بالله .

الثالثة : الطعن فى النسب .

الرابعة : شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية .

الخامسة : علامة إرادة الله بعبده الخير .

السادسة : إرادة الله به الشر .

السابعة : علامة حب الله للعبد .

الثامنة : تحريم السخط .

التاسعة : ثواب الرضا بالبلاء .

قوله « ومن سخط » وهو بكسر الخاء . قال أبو السعادات : السخط الكراهية للشيء وعدم الرضا به . أى من سخط على الله فيما دبره فله السخط ، أى من الله ، وكفى بذلك عقوبة . وقد يستدل به على وجوب الرضا . وهو اختيار ابن عقيل . واختار القاضى عدم الوجوب ، ورجحه شيخ الإسلام وابن القيم .

قال شيخ الإسلام : ولم يجيء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر . وإنما جاء الثناء على أصحابه . قال : وأما ما يروى « من لم يصبر على بلائى ولم يرض بقضائى فليتخذ ربا سوائى » فهذا إسرائيلى ، لم يصح عن النبى صلى الله عليه وسلم .

قال شيخ الإسلام : وأعلى من ذلك — أى من الرضا — أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها . اهـ والله أعلم .

باب

(ما جاء فى الرياء)

وقول الله تعالى : (١٨ : ١١٠ قل: إنما أنا بشر مثلكم يوحَى إلىَّ أنما إلٰهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

قوله « باب ما جاء فى الرياء »

أى : من النهى والتحذير . قال الحافظ : هو مشتق من الرؤية والمراد به : إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها . والفرق بينه وبين السمعة : أن الرياء لما يرى من العمل كالصلاة . والسمعة لما يسمع كالقراءة والوعظ والذكر . ويدخل فى ذلك التحدث بما عمله .

قوله « وقول الله تعالى : (١٨ : ١١٠ قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلٰهكم إله واحد) أى : ليس لى من الربوبية ولا من الإلٰهية شيء ، بل ذلك كله لله وحده لا شريك له ، أوحاه إلىّ (فمن كان يرجو لقاء ربه) أى : يخافه (فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) قوله « أحداً » نكرة فى سياق النهى تعم ، وهذا العموم يتناول الأنبياء والملائكة والصالحين والأولياء وغيرهم .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : أما اللقاء : فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة ، وقالوا : لقاء الله يتضمن رؤيته سبحانه وتعالى يوم القيامة ، وذكر الأدلة على ذلك .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى فى الآية : أى كما أن الله واحد لا إله سواه ، فكذلك ينبغى أن تكون العبادة له وحده لا شريك له ، فكما تفرد بالإلٰهية يجب أن يفرد بالعبودية ، فالعمل الصالح : هو الخالص من الرياء المقيد بالسنة .

وفى الآية دليل على أن أصل الدين الذى بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم والمرسلين قبله ، هو إفراده تعالى بأنواع العبادة ، كما قال تعالى : (٢١ : ٢٥ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه : لا إله إلا أنا ، فاعبدون) والمخالف لهذا الأصل من هذه الأمة أقسام : إما طاغوت ينازع الله فى ربوبيته وإلٰهيته ، ويدعو الناس إلى عبادته ، أو طاغوت يدعو

وعن أبى هريرة مرفوعاً : قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى تركتُه وشِرْكَه » رواه مسلم .

الناس إلى عبادة الأوثان ، أو مشرك يدعو غير الله و يتقرب إليه بأنواع العبادة أو بعضها ، أو شاك فى التوحيد ، أهو حق ، أم يجوز أن يجعل لله شريك فى عبادته ؟ أو جاهل يعتقد أن الشرك دين يقرب إلى الله : وهذا هو الغالب على أكثر العوام لجهلهم وتقليدهم من قبلهم لما اشتدت غرْبةُ الدين ونسى العلم بدين المرسلين .

قوله « وعن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا « قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه » رواه مسلم .

قوله « من عمل عملا أشرك فيه غيرى » أى مَن قصد بعمله غيرى من المخلوقين تركته وشركه . ولابن ماجة « فأنا منه برىء وهو للذى أشرك » قال الطيبى : الضمير المنصوب فى قوله « تركته » يجوز أن يرجع إلى العمل .

قال ابن رجب رحمه الله : واعلم أن العمل لغير الله أقسام ، فتارة يكون رياء محضاً كحال المنافقين . كما قال تعالى (٤ : ١٢٤ وإذ اقاموا إلى الصلاة قاموا كُسالَى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا) وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن فى فرض الصلاة والصيام . وقد يصدر فى الصدقة أو الحج الواجب أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التى يتعدى نفعها ، فإن الإخلاص فيها عزيز ، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط ، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة .

وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء ، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه — وذكر أحاديث تدل على ذلك منها : هذا الحديث ، وحديث شداد بن أوس مرفوعا « من صلى يرائى فقد أشرك ، ومن صام يرائى فقد أشرك ، ومن تصدق يرائى فقد أشرك ، وإن الله عز وجل يقول : أنا خير قسم لمن أشرك بى ، فمن أشرك بى شيئا فإن جدة عمله وقليله وكثيره لشريكه الذى أشرك به . أنا عنه غنى » رواه أحمد ، وذكر أحاديث فى المعنى ، ثم قال : فإن خالط نية الجهاد مثلا نية غير الرياء ، مثل أخذ أجرة للخدمة أو أخذ شىء من الغنيمة أو التجارة ، نقص بذلك أجر جهادة ، ولم يبطل بالكلية .

وعن أبى سعيد مرفوعًا : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيح الدجال ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : الشرك الخفى ، يقوم الرجل فيصلى فيزين صلاته ، لما يرى من نظر رجل » رواه أحمد .

قال ابن رجب : وقال الإمام أحمد رحمه الله : التاجر والمستأجر والمكرى أجرهم على قدر ما يخلص من نياتهم فى غزواتهم ، ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه وماله لا يخلط به غيره .

وقال أيضاً فيمن يأخذ جعل الجهاد : إذا لم يخرج لأجل الدراهم فلا بأس كأنه خرج لدينه إن أعطى شيئاً أخذه . وروى عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما : « إذا أجمع أحدكم على الغزو فعوضه الله رزقاً فلا بأس بذلك ، وأما إن أحدكم أعطى دراهم غزا ، وإن لم يعط لم يغز ، فلا خير فى ذلك » . وروى عن مجاهد رحمه الله : أنه قال فى حج الجمال وحج الأجير وحج التاجر « هو تام لا ينقص من أجرهم شىء » أى لأن قصدهم الأصلى كان هو الحج دون التكسب . قال : وأما إن كان أصل العمل لله ، ثم طرأ عليه نية الرياء : فإن كان خاطراً ثم دفعه فلا يضره بغير خلاف ، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا ، فيجازى على أصل نيته ؟ فى ذلك اختلاف بين العلماء من السلف ، قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير ، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك ، وأنه يجازى بنيته الأولى ، وهو مروى عن الحسن وغيره . وفى هذا المعنى جاء حديث أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنه سئل عن الرجل يعمل العمل من الخير يحمده الناس عليه ، فقال تلك ما جُلُّ بشرى المؤمن » رواه مسلم . انتهى ملخصاً .

قلت : وتمام هذا المقام يتبين فى شرح حديث أبى سعيد إن شاء الله تعالى .

قوله : وعن أبى سعيد رضى الله عنه مرفوعاً » ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيح الدجال ؟ قالوا : بلى ، قال : الشرك الخفى ، يقوم الرجل فيصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل » رواه أحمد .

وروى ابن خزيمة فى صحيحه عن محمود بن لبيد قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيها الناس ، إياكم وشرك السرائر ، قالوا : يا رسول الله وما شرك

السرائر؟ قال : يقوم الرجل فيصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل إليه . فذلك شرك السرائر » .

قوله « عن أبى سعيد » الخدرى . وتقدم .

قوله « الشرك الخفى » سماه خفياً لأن صاحبه يظهر أن عمله لله وقد قصد به غيره ، أو شركه فيه بتزيين صلاته لأجله . وعن شداد بن أوس قال : « كنا نعد الرياء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر » رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الإخلاص ، وابن جرير فى التهذيب ، والطبرانى والحاكم وصححه .

قال ابن القيم : وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء والتصنع للخلق والحلف بغير الله ، وقول الرجل للرجل : ما شاء الله وشئت ، وهذا من الله ومنك . وأنا بالله وبك ، ومالى إلا الله وأنت ، وأنا متوكل على الله وعليك ، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا . وقد يكون هذا شركا أكبر بحسب حال قائله ومقصده . انتهى .

ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله ، وكذلك المتابعة ، كما قال الفضيل ابن عياض رحمه الله فى قوله تعالى (٦٧ : ٢ ليبلوكم أيكم أحسن عملا) قال « أخلصه وأصوبه ، قيل يا أبا على ، ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً ، فالخالص ما كان لله والصواب ما كان على السنة » .

وفى الحديث من الفوائد : شفقة النبى صلى الله عليه وسلم على أمته ونصحه لهم ، وأن الرياء أخوف على الصالحين من فتنة الدجال . فإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يخافه على سادات الأولياء مع قوة إيمانهم وعلمهم ، فغيرهم ممن هو دونهم بأضعاف أولى بالخوف من الشرك ، أصغره وأكبره .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الكهف .

الثانية : الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله .

الثالثة : ذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنى .

الرابعة : أن من الأسباب : أنه تعالى خير الشركاء .

الخامسة : خوف النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه من الرياء .

السادسة : أنه فسر ذلك بأن يصلي المرء لله ، لكن يُزَيِّنها لما يرى من نظر رجل إليه .

باب

(من الشرك : إرادة الإنسان بعمله الدنيا)

وقوله تعالى : (١١ : ١٥ ، ١٦ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نُوَفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النـار وحبط ما صنعوا فيها ، وباطلٌ ما كانوا يعملون) .

قوله « باب من الشرك : إرادة الإنسان بعمله الدنيا »

فإن قيل : فما الفرق بين هذه الترجمة و بين ترجمة الباب قبله ؟

قلت : بينهما عموم وخصوص مطلق ، يجتمعان فى مادة ، وهو ما إذا أراد الإنسان بعمله التزين عند الناس والتصنع لهم والثناء ، فهذا رياء كما تقدم بيانه ، كحال المنافقين . وهو أيضاً إرادة الدنيا بالتصنع عند الناس ، وطلب المدحة منهم والإكرام . ويفارقه الرياء بكونه عمل عملا صالحاً ، أراد به عرضاً من الدنيا ، كمن يجاهد ليأخذ مالا ، كما فى الحديث « تعس عبد الدينار » أو يجاهد للمغنم أو غير ذلك من الأمور التى ذكرها شيخنا عن ابن عباس رضى الله عنه وغيره من المفسرين فى معنى قوله تعالى (١١ : ١٥ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) .

وأراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة وما بعدها : أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافى كمال التوحيد الواجب ، ويحبط الأعمـال ، وهو أعظم من الرياء ؛ لأن مريد الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثير من عمله ، وأما الرياء فقد يعرض له فى عمل دون عمل ، ولا يسترسل معه ، والمؤمن يكون حذراً من هذا وهذا .

قال « وقوله تعالى (١١ : ١٥ ، ١٦ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون) » .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : « من كان يريد الحياة الدنيا ، أى ثوابها . وزينتها » أى مالها « نوف » أى نوفر لهم ثواب أعمالهم بالصحة والسرور فى المال والأهل والولد « وهم

فيها لا يبخسون » لا ينقصون ، ثم نسختها (١٧ : ١٨ ، ١٩ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد) الآيتين » رواه النحاس فى ناسخه .

قوله « ثم نسختها » أى قيدتها فلم تبق الآية على إطلاقها .

وقال قتادة : « من كانت الدنيا همه وطلبته ونيته جازاه الله بحسناته فى الدنيا ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء . وأما المؤمن فيجازى بحسناته فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة » ذكره ابن جرير بسنده ، ثم ساق حديث أبى هريرة عن ابن المبارك عن حيوة بن شريح قال : حدثنى الوليد بن أبى الوليد أبو عثمان أن عقبة بن مسلم حدثه أن شُفَىّ ابن ماتع الأصبحى حدثه « أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : أبو هريرة . قال : فدنوت منه حتى قعدت بين يديه ، وهو يحدث الناس . فلما سكت وخلا . قلت : أنشدك بحقٍّ وبحقٍّ لما حدثتنى حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم عَقَلْتَه وعلمته . قال : فقال أبو هريرة : أفعل ، لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا البيت ما فيه أحد غيرى وغيره ، ثم نَشَغ أبو هريرة نَشْغَة ، ثم أفاق فقال : لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا البيت ما فيه أحد غيرى وغيره ، ثم نَشَغ أبو هريرة نشغة أخرى ، ثم مال خارًّا على وجهه ، واشتد به طويلا . ثم أفاق فقال : حدثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى القيامة ليقضى بينهم ، وكلُّ أمّةٍ جاثية . فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ، ورجل قُتل فى سبيل الله ، ورجل كثير المال . فيقول الله تبارك وتعالى للقارئ : ألم أعلمك ما أنزلتُ على رسولى ؟ قال : بلى يارب . قال : فماذا عملت فيما علمت ؟ قال : كنت أقوم آناء الليل وآناء النهار . فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال فلان قارئ ، فقد قيل ذلك . ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له : ألم أوسع عليك حتى لم أدَعْك تحتاج إلى أحد ؟ قال : بلى يارب ، قال : فما عملت فيما آتيتك ؟ قال : كنت أصل الرحم وأتصدق ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال فلان جواد ، فقد قيل ذلك . ويؤتى بالذى قتل فى سبيل الله فيقال له : فبماذا قتلت ؟ فيقول : أُمرتُ بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله له : بل

أردت أن يقال : فلان جرىء ، فقد قيل ذلك . ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتى ، فقال : يا أبا هريرة ، أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعّر بهم النار يوم القيامة » .

وقد سئل شيخنا المصنف رحمه الله عن هذه الآية ؟ فأجاب بما حاصله : ذكر عن السلف فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم ، ولا يعرفون معناه .

فمن ذلك : العمل الصالح يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله : من صدقة وصلاة ، وصلة وإحسان إلى الناس ، وترك ظلم ، ونحو ذلك مما يفعله الإنسان أو يتركه خالصاً لله ، لكنه لا يريد ثوابه فى الآخرة ، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته ، أو حفظ أهله وعياله ، أو إدامة النعمة عليهم ، ولا همة له فى طلب الجنة والهرب من النار ، فهذا يعطى ثواب عمله فى الدنيا وليس له فى الآخرة من نصيب . وهذا النوع ذكره ابن عباس .

النوع الثانى : وهو أكبر من الأول وأخوف ، وهو الذى ذكره مجاهد فى الآية : أنها نزلت فيه : وهو أن يعمل أعمالا صالحة ونيته رياء الناس ، لا طلب ثواب الآخرة .

النوع الثالث : أن يعمل أعمالا صالحة يقصد بها مالا ، مثل أن يحج لمال يأخذه أو يهاجر لدنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها ، أو يجاهد لأجل المغنم ، فقد ذكر أيضاً هذا النوع فى تفسير هذه الآية ، وكما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم أو رياستهم ، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد ، كما هو واقع كثيراً .

النوع الرابع : أن يعمل بطاعة الله مخلصاً فى ذلك لله وحده لا شريك له ، ولكنه على عمل يكفره كفراً يخرجه عن الإسلام ، مثل اليهود والنصارى إذا عبدوا الله ، أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة ، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام بالكلية ، إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله فى الدار الآخرة ، لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام وتمنع قبول أعمالهم ، فهذا النوع أيضاً قد ذكر فى هذه الآية عن أنس بن مالك وغيره ، وكان السلف يخافون منها ، قال بعضهم : لو أعلم أن الله تقبل منى سجدة واحدة لتمنيت الموت لأن الله تعالى يقول (٥ : ٢٧ إنما يتقبل الله من المتقين) .

ثم قال : بقى أن يقال : إذا عمل الرجل الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج ابتغاء وجه الله ، طالباً ثواب الآخرة ، ثم بعد ذلك عمل أعمالا قاصداً بها الدنيا ، مثل أن يحج

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « تَعِسَ عبدُ الدينار، تَعِسَ عبد الدرهم، تَعِسَ عبدُ الخَمِيصة، تعس عبدُ الخميلة، إن أُعطيَ رضيَ. وإن لم يُعط سَخِط »

فرضه لله، ثم يحج بعده لأجل الدنيا كما هو واقع، فهو لما غلب عليه منهما. وقد قال بعضهم: القرآن كثيراً ما يذكر أهل الجنة الخلص وأهل النار الخلص، ويسكت عن صاحب الشائبتين، وهو هذا وأمثاله اه.

قوله في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « تَعِس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أعطي رضي، وإن لم يُعط سخط، تعس وانتُكِس، وإذا شِيك فلا انتُقِش. طُوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله. أشعث رأسه، مُغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، وإن استأذن لم يؤذن له، وإن شَفع لم يشفع ».

قوله « في الصحيح » أي صحيح البخاري.

قوله « تعس » هو بكسر العين ويجوز الفتح، أي سقط، والمراد هنا: هلك، قاله الحافظ. وقال في موضع آخر: وهو ضد سَعد: أي شقي، وقال أبو السعادات: يقال تعس يتعس: إذا عَثَر وانكب لوجهه. وهو دعاء عليه بالهلاك.

قوله « عبد الدينار » هو المعروف من الذهب كالمثقال في الوزن.

قوله « تعس عبد الدرهم » وهو من الفضة، قدره الفقهاء بالشعير وزناً، وعندنا منه درهم من ضرب بني أمية وهو زنة خمسين حبة شعير وخُمسا حبة، سماه عبداً له؛ لكونه هو المقصود بعمله، فكل من توجه بقصده لغير الله فقد جعله شريكا له في عبوديته كما هو حال الأكثر.

قوله « تعس عبد الخميصة » قال أبو السعادات: هي ثوب خَزٍّ أو صوف معلَّم، وقيل: لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء مُعلَّمة، وتُجمع على خمائص. والخميلة بفتح الخاء المعجمة — وقال أبو السعادات: ذات الخمل — ثياب لها خَمَل من أي شيء كان.

تعِسَ وانْتُكسَ . وإذا شِيكَ فلا انْتُقِشَ .

قوله « تعس وانتكس » قال الحافظ : هو بالمهملة ، أى عاوده المرض . وقال أبو السعادات : أى انقلب على رأسه . وهو دعاء عليه بالخيبة . قال الطيبي : فيه الترقى بالدعاء عليه ؛ لأنه إذا تعس انكبّ على وجهه . وإذا انتُكس انقلب على رأسه بعد أن سقط .

قوله « وإذا شيك أى أصابته شوكة « فلا انتقش » أى فلا يقدر على إخراجها بالمنقاش . قاله أبو السعادات .

المراد : أن من كانت هذه حاله فإنه يستحق أن يدعى عليه بما يسوءه فى العواقب ، ومن كانت هذه حاله فلابد أن يجد أثر هذه الدعوات فى الوقوع فيما يضره فى عاجل دنياه وآجل أخراه .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : فسماه النبى صلى الله عليه وسلم عبد الدينار والدرهم وعبد القطيفة وعبد الخميصة . وذكر فيه ما هو دعاء بلفظ الخبر ، وهو قوله « تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش » وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح ؛ لكونه تعس وانتكس ، فلا نال المطلوب ، ولا خلص من المكروه ، وهذه حال من عبدِ المال وقد وصف ذلك بأنه « إن أعطى رضى ، وإن ، مُنع سَخِط » كما قال تعالى (٨ : ٥٨ ومنهم من يَلمِزُكَ فى الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يُعْطَوْا منها إذا هم يَسْخَطون) فرضاؤهم لغير الله وسخطهم لغير الله ، وهكذا حال من كان متعلقاً منها برياسة أو صورة ونحو ذلك من أهواء نفسه ، إن حصل له رضى ، وإن لم يحصل له سخط ، فهذا عبد ما يهواه من ذلك وهو رقيق له ؛ إذ الرق والعبودية فى الحقيقة هو رِقُّ القلب وعبوديته ، فما استرقّ القلب واستعبده فهو عبده — إلى أن قال :

وهكذا أيضاً طالب المال ، فإن ذلك يستعبده ويسترقه ، وهذه الأمور نوعان .

فنها : ما يحتاج إليه العبد ، كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك ، فهذا يطلب من الله ويرغب إليه فيه ، فيكون المال عنده يستعمله فى حاجته بمنزلة حماره الذى يركبه ، وبساطه الذى يجلس عليه ، من غير أن يستعبده فيكون هلوعاً .

ومنها : مالا يحتاج إليه العبد ، فهذا ينبغى أن لا يعلق قلبه بها فإذا تعلق قلبه بها

صار مستعبداً لها ، وربما صار مستعبداً ومعتمداً على غير الله فيها ، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله ولا حقيقة التوكل عليه ، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله ، وشعبة من التوكل على غير الله ، وهذا من أحق الناس بقوله صلى الله عليه وسلم « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة ، تعس عبد الخميلة » وهذا هو عبد لهذه الأمور ، ولو طلبها من الله ، فإن الله إذا أعطاه إياها رضى ، وإن منعه إياها سخط ، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضى الله ، ويسخطه ما يسخط الله ، ويُحِبُّ ما أحبه الله ورسوله ، ويبغض ما أبغض الله ورسوله ، ويوالى أولياء الله ، ويعادى أعداء الله ، فهذا الذى استكمل الإيمان ، انتهى ملخصاً .

قوله « طوبى لعبد » قال أبوا السعادات « طوبى » اسم الجنة ، وقيل : هى شجرة فيها ويؤيد هذا : ما روى ابن وهب بسنده عن أبى سعيد قال « قال رجل : يا رسول الله ، وما طوبى ؟ قال : شجرة فى الجنة مسيرة مائة سنة ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها » ورواه الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى سمعت عبد الله بن لهيعة حدثنا درّاج أبو السمح : بأن لهيثم حدثه عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أن رجلا قال : يا رسول الله ، طوبى لمن رآك وآمن بك قال : طوبى لمن رآنى وآمن بى ، وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى . قال له رجل : وما طوبى ؟ قال : شجرة فى الجنة مسيرة مائة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها » وله شواهد فى الصحيحين وغيرهما ، وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه هٰهنا أثراً غريباً عجيباً ، قال وهب رحمه الله « إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها : زَهرها رياط ، وورقها بُرود ، وقضبانها عَنْبر ، وبطحاؤها ياقوت ، وترابها كافور ، ووَحَلها مسك ، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل ، وهى مجلس لأهل الجنة ، بينما هم فى مجلسهم إذ أتتهم ملائكة من ربهم يقودون نُجُباً مزمومة بسلاسل من ذهب ، وجوهها كالمصابيح من حسنها ، ووبَرها كخزِّ المرعِزّى من لينه ، عليها رحال ألواحها من ياقوت ، ودفوفها من ذهب ، وثيابها من سندس وإستبرق ، فينيخونها ويقولون : إن ربنا أرسلنا

إليكم لتزوروه وتسلموا عليه ، قال : فيركبونها ، قال : فهى أسرع من الطائر ، وأوطأ من الفراش . خَبًّا من غير مهنة ، يسير الراكب إلى جنب أخيه ، وهو يكلمه ويناجيه ، لا تصيب أذن راحلة منها أذن صاحبتها ، ولا برك راحلة برك صاحبتها ، حتى إن الشجرة لتنتحى عن طريقهم لئلا تفرق بين الرجل وأخيه. قال : فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه . فإذا رأوه قالوا : اللهم أنت السلام ومنك السلام ، وحق لك الجلال والإكرام ، قال : فيقول تبارك وتعالى عندذلك : أنا السلام ومنى السلام وعليكم حقت رحمتى ومحبتى ، ومرحباً بعبادى الذين خشونى بالغيب وأطاعوا أمرى . قال فيقولون : ربنا إنا لم نعبدك حق عبادتك ، ولم نقدرك حق قدرك ، فائذن لنا بالسجود قدامك . قال : فيقول الله : إنها ليست بدار نَصَب ولا عبادة ، ولكنها دار ملك ونعيم ، وإنى قد رفعت عنكم نصب العبادة ، فسلونى ما شئتم ، بأن لكل رجل منكم أمنيته فيسألونه ، حتى إن أقصرهم أمنية ليقول : ربى ، تنافس أهل الدنيا فى دنياهم فتضايقوا فيها، رب فآتنى من كل شىء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا ، فيقول الله تعالى : لقد قَصَّرت بك اليوم أمنيتك . ولقد سألت دون منزلتك ، هذا لك منى وسأتحفك بمنزلتى ؛ لأنه ليس فى عطائى نكد ولا قِصَر يَدٍ . قال : ثم يقول : اعرضوا على عبادى مالم تبلغ أمانيهم ولم يخطر لهم على بال . قال : فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيهم التى فى أنفسهم ، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مُقَرَّنة على كل أربعة منهم سرير من ياقوتة واحدة . على كل سرير منها قبة من ذهب مفرغة . فى كل قبة منها فرش من فرش الجنة مظاهرة . فى كل قبة منها جاريتان من الحور العين ، على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة ، وليس فى الجنة لون إلا وهو فيهما . ولا ريح طيب إلا قد عبق بهما . ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة ، حتى يظن من يراهما أنهما من دون القبة . يرى مخهما من فوق سوقهما كالسلك الأبيض فى ياقوتة حمراء ، يريان له من الفضل على صحابته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل . ويرى لهما مثل ذلك ثم يدخل عليهما فيحييانه ويقبلانه ويعانقانه ويقولان له : والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك . ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفاً فى الجنة ، حتى ينتهى كل رجل منهم إلى منزلته التى أعدت له » .

وقد روى هذا الأثر ابن أبى حاتم بسنده عن وهب بن منبه وزاد . « فانظروا

إلى مواهب ربكم الذى وهب لكم ، فإذا بقباب فى الرفيق الأعلى ، وغرف مبنية بالدر والمرجان ، أبوابها من ذهب ، وسررها من ياقوت ، وفرشها من سندس وإستبرق ، ومنابرها من نور ، يفور من أبوابها وعراصها نور مثل شعاع الشمس ، عنده مثل الكوكب الدرى فى النهار المضىء ، وإذا بقصور شامخة فى أعلى عليين من الياقوت يزهو نورها . فلولا أنه مُسَخَّر إذاً لالتمع الأبصار ، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض . وما كان منها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر ، وما كان منها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالأرجوان الأصفر ، مُبَوَّبة بالزمرد الأخضر والذهب الأحمر والفضة البيضاء ، قوائمها وأركانها من الجوهر ، وشُرَفها قباب من لؤلؤ ، وبروجها غرف من المرجان فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم ، قربت لهم براذين من ياقوت أبيض منفوخ فيها الروح ، تحتها الولدان المخلدون ، بيد كل وليد منهم حكمة برذون من تلك البراذين ، ولجمها وأعنتها من فضة بيضاء منظومة بالدر والياقوت ، سرر موضونة مفروشة بالسندس والإستبرق ، فانطلقت بهم تلك البراذين تزف بهم ، فينظرون رياض الجنة . فلما انتهوا إلى منازلهم وجدوا الملائكة قعوداً على منابر من نور ، ينتظرونهم ليزوروهم ويصافحوهم ويهنئوهم كرامة ربهم . فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تطاول به عليهم وما سألوا وما تمنوا ، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربع جنان : جنتان ذواتا أفنان ، وجنتان مدهامتان ، وفيهما عينان نضاختان وفيهما من كل فاكهة زوجان ، وحور مقصورات فى الخيام ، فلما تبوءوا منازلهم واستقروا قرارهم قال لهم ربهم (هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا : نعم) وربنا قال : هل رضيتم ثواب ربكم ؟ قالوا : ربنا رضينا فارض عنا ، قال : فبرضائى عنكم أحللتكم دارى ونظرتم إلى وجهى ، فعند ذلك قالوا (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزَنَ إن ربنا لغفور شكور ، الذى أحلّنا دار المقامة من فضله ، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) وهذا سياق غريب وأثر عجيب ولبعضه شواهد فى الصحيحين .

وقال خالد بن مَعدان « إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى ، ضُروع كلها ، ترضع صبيان أهل الجنة ، وإن سقط المرأة يكون فى نهر من أنهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيامة ، فيبعث ابن أربعين سنة » رواه ابن أبى حاتم .

أَخَذَ بِعِنانِ فَرَسه فى سبيل الله ، أَشْعَثَ رأْسُهُ مُغْبَرَّةً قدماه . إن كان فى الحِراسة كان فى الحِراسة ، وإن كان فى السَّاقة كان فى السَّاقَة . إن استأْذَنَ لم يُؤْذَن له ، وإن شفع لم يُشَفَّع » .

قوله « أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله » أى فى جهاد المشركين .

قوله « أشعث » مجرور بالفتحة لأنه اسم لا ينصرف للوصفية ووزن الفعل ، و « رأسه » مرفوع على الفاعلية ، وهو طائر الشعر ، شغله الجهاد فى سبيل الله عن التنعم بالأدهان وتسريح الشعر .

قوله « مغبرة قدماه » هو بالجر صفة ثانية لعبد .

قوله « إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة » هو بكسر الحاء أى حماية الجيش عن أن يهجم العدو عليهم .

قوله « كان فى الحراسة » أى غير مقصر فيها ولا غافل ، وهذا اللفظ يستعمل فى حق من قام بالأمر على وجه الكمال .

قوله « وإن كان فى الساقة كان فى الساقة » أى فى مؤخرة الجيش ، يقلب نفسه فى مصالح الجهاد ، فكل مقام يقوم فيه إن كان ليلا أو نهاراً ، رغبة فى ثواب الله وطلباً لمرضاته ومحبة لطاعته .

قال ابن الجوزى رحمه الله : وهو خامل الذكر لا يقصد السمو .

وقال الخلخالى : المعنى: ائتماره بما أمر ، وإقامته حيث أقيم ، لا يفقد من مقامه ، وإنما ذكر الحراسة والساقة لأنهما أشد مشقة . انتهى . وفيه : فضل الحراسة فى سبيل الله .

قوله « إن استأذن لم يؤذن له » أى إن استأذن على الأمراء ونحوهم لم يؤذن له ؛ لأنه لا جاه له عندهم ولا منزلة ؛ لأنه ليس من طلابها . وإنما يطلب ما عند الله لا يقصد بعمله سواه .

قوله « وإن شفع » بفتح أوله وثانيه (لم يشفع) بفتح الفاء مشددة . يعنى لو ألجأته الحال إلى أن يشفع فى أمر يحبه الله ورسوله لم تقبل شفاعته عند الأمراء ونحوهم .

وروى الإمام أحمد ومسلم عن أبى هريرة مرفوعاً « رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره » .

قال الحافظ : فيه ترك حب الرياسة والشهوة : وفضل الخمول والتواضع . انتهى .

وروى الإمام أحمد أيضاً عن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير قال : قال عثمان رضى الله عنه ـ وهو يخطب على منبره « إنى محدثكم حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يكن يمنعنى أن أحدثكم به إلا الظن بكم . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : حرسُ ليلة فى سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها و يصام نهارها » .

وروى الحافظ بن عساكر فى ترجمة عبد الله بن المبارك : قال عبد الله بن محمد قاضى نصيبين : حدثنى محمد بن إبراهيم بن أبى سكينة أنه أملى عليه عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس وواعده الخروج . وأنشدها معه إلى الفضيل بن عياض فى سنة سبع وسبعين ومائة . قال :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا　　لعلمت أنك فى العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه　　فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله فى باطل　　فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ، ونحن عبيرنا　　رَهَج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا　　قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوى غبار خيل الله فى　　أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا :　　ليس الشهيد بميت . لا يكذب

قال : فلقيت الفضيل بكتابه فى المسجد الحرام فلما قرأه ذرفت عيناه فقال : صدق أبو عبد الرحمن ونصحنى ، ثم قال : أنت ممن يكتب الحديث ؟ قلت : نعم ، قال لى : اكتب هذا الحديث ، وأملى على الفضيلُ بن عياض : حدثنا منصور بن المعتمر عن أبى صالح عن أبى هريرة « أن رجلا قال : يا رسول الله ، علمنى عملا أنال به ثواب المجاهدين فى سبيل الله فقال : هل تستطيع أن تصلى فلا تفتر ، وتصوم فلا تفطر ؟ فقال : يا رسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك ، ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم : فو الذى نفسى بيده لو طُوِّقت ذلك ما بلغت فضل المجاهدين فى سبيل الله . أما علمت أن فرس المجاهد ليَستَنّ فى طِوَله فيكتب له بذلك حسنات ؟ » .

فيه مسائل :

الأولى : إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة .

الثانية : تفسير آية هود .

الثالثة : تسمية الإنسان المسلم عبدَ الدينار والدرهم والخميصة .

الرابعة : تفسير ذلك بأنه إن أُعطى رضىَ ، وإن لم يعط سخط .

الخامسة : قوله : « تعِسَ وانتكس » .

السادسة : قول « وإذا شيك فلا انتقش » .

السابعة : الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات .

باب

(من أطاع العلماء والأمراء فى تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله ، فقد اتخذهم أربابا من دون الله) .

وقال ابن عباس : « يُوشِكُ أن تنزل عليكم حجارة من السماء ؛ أقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر ؟ » .

قوله : « باب من أطاع العلماء والأمراء فى تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله ، فقد اتخذهم أربابا من دون الله »

لقول الله تعالى (٩ : ٣١ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) وتقدم تفسير هذا فى أصل المصنف رحمه الله عند ذكر حديث عدى بن حاتم رضى الله عنه .

قوله « وقال ابن عباس رضى الله عنهما » يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء . أقول : قال رسول الله صلى عليه وسلم ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر ؟ » .

قوله « يوشك » بضم أوله وكسر الشين المعجمة : أى يقرب و يسرع .

وهذا القول من ابن عباس رضى الله عنهما جواب لمن قال له « إن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما لا يريان التمتع بالعمرة إلى الحج ، ويريان أن إفراد الحج أفضل » أو ما هو معنى هذا ، وكان ابن عباس يرى أن التمتع بالعمرة إلى الحج واجب ويقول « إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط فقد حلَّ من عمرته شاء أم أبى » لحديث سُراقة بن مالك حين أمرهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يجعلوها عمرة ، ويحلوا إذا طافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة ، فقال سراقة « يا رسول الله ، أعامنا هذا أم للأبد ؟ فقال: بل للأبد » والحديث فى الصحيحين ، وحينئذ فلا عذر لمن استفتى أن ينظر فى مذاهب العلماء وما استدل به كل إمام ويأخذ من أقوالهم ما دل عليه الدليل إذا كان له ملكة يقتدر بها على ذلك . كما قال تعالى (٤ : ٥٩ فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) .

وللبخارى ومسلم وغيرهما : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما أهديت ، ولولا أن معى الهدى لأحللت » هذا لفظ البخارى فى حديث عائشة رضى الله عنها . ولفظه فى حديث جابر « افعلوا ما أمرتكم به ، فلولا أنى سُقتُ الهدْى لفعلت مثل الذى أمرتكم » فى عدة أحاديث تؤيد قول ابن عباس .

وبالجملة ، فلهذا قال ابن عباس لما عارضوا الحديث برأى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما « يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء — الحديث » .

وقال الإمام الشافعى رحمه الله « أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد » .

وقال الإمام مالك رحمه الله تعالى « ما منا إلا رادٌّ ومردود عليه ، إلا صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم » وكلام الأئمة فى هذا المعنى كثير .

وما زال العلماء رحمهم الله يجتهدون فى الوقائع : فمن أصاب منهم فله أجران ، ومن أخطأ فله أجر ، كما فى الحديث ، لكن إذا استبان لهم الدليل أخذوا به وتركوا اجتهادهم . وأما إذا لم يبلغهم الحديث ، أولم يثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم عندهم فيه حديث ، أو ثبت وله معارض أو مخصص ونحو ذلك . فحينئذ يسوغ للإمام أن يجتهد . وفى عصر الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى إنما كان طلب الأحاديث ممن هى عنده باللقِىّ والسماع ، ويسافر الرجل فى طلب الحديث إلى الأمصار عدة سنين . ثم اعتنى الأئمة بالتصانيف ودونوا الأحاديث ورووها بأسانيد ، وبينوا صحيحها من حسنها من ضعيفها . والفقهاء صنفوا فى كل مذهب . وذكروا حجج المجتهدين . فسهل الأمر على طالب العلم . وكل إمام يذكر الحكم بدليله عنده ، وفى كلام ابن عباس رضى الله عنهما ما يدل على أن من بلغه الدليل فلم يأخذ به — تقليداً لإمامه — فإنه يجب الإنكار عليه بالتغليظ ؛ لمخالفته الدليل .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أحمد بن عمر البزاز ، حدثنا زياد بن أيوب ، حدثنا أبو عبيدة الحداد عن مالك بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال : « ليس منا أحد إلا يؤخذ من قوله ويدع غير النبى صلى الله عليه وسلم » .

وعلى هذا : فيجب الإنكار على من ترك الدليل لقول أحد من العلماء ، كائناً من كان ، ونصوص الأئمة على هذا ، وأنه لا يسوغ التقليد إلا فى مسائل الاجتهاد التى لا دليل فيها

وقال الإمام أحمد : عجبتُ لقوم عرفوا الإسناد وصحّته ، ويذهبون إلى رأى سفيان . والله تعالى يقول: (٢٤ : ٦٣ فَلْيَحْذَرِ الذين يخالفون عن أمرهْ أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) أتدرى ما الفتنة ؟ الفتنة : الشرك .

يرجع إليه من كتاب ولا سنة ، فهذا هو الذى عناه بعض العلماء بقوله : لا إنكار فى مسائل الاجتهاد . وأما من خالف الكتاب والسنة : فيجب الرد عليه ، كما قال ابن عباس والشافعى ومالك وأحمد ، وذلك مجمع عليه ، كما تقدم فى كلام الإمام الشافعى رحمه الله تعالى .

قوله « وقال الإمام أحمد : عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته ويذهبون إلى رأى سفيان والله تعالى يقول (٢٤ : ٦٣ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) أتدرى ما الفتنة ؟ الفتنة : الشرك ، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع فى قلبه شىء من الزّيغ فيهلك » .

هذا الكلام من الإمام أحمد رحمه الله رواه عنه الفضل بن زياد وأبو طالب . قال الفضل عن أحمد « نظرت فى المصحف فوجدت طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فى ثلاث وثلاثين موضعاً ، ثم جعل يتلو (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة — الآية) فذكر من قوله : الفتنة الشرك — إلى قوله — فيهلك » ثم جعل يتلو هذه الآية (٤ : ٦٥ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) .

وقال أبو طالب عن أحمد وقيل له « إن قوما يدعون الحديث ويذهبون إلى رأى سفيان وغيره . فقال : أعجب لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الإسناد وصحته يدعونه ، ويذهبون إلى رأى سفيان وغيره . قال الله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) أتدرى ما الفتنة ؟ الفتنة : الكفر . قال الله تعالى (٢ : ٢١٧ والفتنة أكبر من القتل) فيدعون الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأى » ذكر ذلك عنه شيخ الإسلام رحمه الله تعالى .

قوله « عرفوا الإسناد » أى إسناد الحديث وصحته ، فإذا صح إسناد الحديث فهو صحيح عند أهل الحديث وغيرهم من العلماء .

وسفيان : هو الثورى الإمام الزاهد ، العابد الثقة الفقيه ، وكان له أصحاب يأخذون عنه ، ومذهبه مشهور يذكره العلماء رحمهم الله فى الكتب التى يذكر فيها مذاهب الأئمة ، كالتمهيد لابن عبد البر ، والاستذكار له ، وكتاب الإشراف على مذاهب الأشراف لابن المنذر ، والمحلى لابن حزم ، والمغنى لأبى محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة الحنبلى ، وغير هؤلاء .

فقول الإمام أحمد رحمه الله : « عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته الخ » إنكار منه لذلك . وأنه يؤول إلى زيغ القلوب الذى يكون به المرء كافراً . وقد عمت البلوى بهذا المنكر ، خصوصاً ممن ينتسب إلى العلم ، نصبوا الحبائل فى الصد عن الأخذ بالكتاب والسنة ، وصدوا عن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم وتعظيم أمره ونهيه ، فمن ذلك قولهم : لا يستدل بالكتاب والسنة إلا المجتهد والاجتهاد قد انقطع ويقول : هذا الذى قلدته أعلم منك بالحديث وبناسخه ومنسوخه ، ونحو ذلك من الأقوال التى غايتها ترك متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم الذى لا ينطق عن الهوى ، والاعتماد على قول من يجوز عليه الخطأ ، وغيره من الأئمة يخالفه ويمنع قوله بدليل ، فما من إمام إلا والذى معه بعض العلم لا كله . فالواجب على كل مكلف ، إذا بلغه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله وفهم معنى ذلك : أن ينتهى إليه ويعمل به ، وإن خالفه من خالفه ، كما قال تعالى (٧ : ٣ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون) وقال تعالى (٢٩ : ٥١ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟ إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) وقد تقدم حكاية الإجماع على ذلك ؛ وبيان أن المقلد ليس من أهل العلم ، وقد حكى أيضاً أبو عمر بن عبد البر وغيره الإجماع على ذلك .

قلت : ولا يخالف فى ذلك إلا جهال المقلدة ، لجهلهم بالكتاب والسنة ، ورغبتهم عنهما ، وهؤلاء وإن ظنوا أنهم قد اتبعوا الأئمة فإنهم فى الحقيقة قد خالفوهم ، واتبعوا غير سبيلهم ، كما قدمنا من قول مالك والشافعى وأحمد ، ولكن فى كلام أحمد رحمه الله إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم ، وإنما ينكر على من بلغته الحجة وخالفهم لقول إمام من الأئمة ، وذلك إنما نشأ عن الإعراض عن تدبر كتاب الله وسنة رسوله والإقبال على كتب من تأخر والاستغناء بها عن الوحيين ، وهذا يشبه ما وقع من أهل الكتاب الذين قال الله فيهم (٩ : ٣١ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) كما سيأتى بيان ذلك فى حديث عدى بن حاتم .

فيجب على من نصح نفسه إذا قرأ كتب العلماء ونظر فيها وعرف أقوالهم أن يعرضها على ما فى الكتاب والسنة ، فإن كل مجتهد من العلماء ومن تبعه وانتسب إلى مذهبه لا بد أن يذكر دليله والحق فى المسألة واحد ، والأئمة مثابون على اجتهادهم ، فالمنصف يجعل النظر فى كلامهم وتأمله طريقاً إلى معرفة المسائل واستحضارها ذهناً وتمييزاً للصواب من الخطأ بالأدلة التى يذكرها المستدلون ، ويعرف بذلك من هو أسعد بالدليل من العلماء فيتبعه ، والأدلة على هذا الأصل فى كتاب الله أكثر من أن تحصر ، وفى السنة كذلك ، كما أخرج أبو داود بسنده عن أناس من أصحاب معاذ « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يبعث معاذاً إلى اليمن قال : كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بكتاب الله تعالى ، قال : فإن لم تجد فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فإن لم تجد فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا فى كتاب الله ؟ قال : أجتهد رأيى ولا آلو ، قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله » وساق بسنده عن الحارث بن عمر عن أناس من أصحاب معاذ بن جبل رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن — بمعناه » .

والأئمة رحمهم الله لم يقصروا فى البيان ، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة ، لعلمهم أن من العلم شيئاً لم يعلموه ، وقد يبلغ غيرهم ، وذلك كثير ، كما لا يخفى على من نظر فى أقوال العلماء .

قال أبو حنيفة رحمه الله : إذا جاء الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء عن الصحابة رضى الله عنهم فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء عن التابعين فنحن رجال وهم رجال .

وقال : إذا قلت قولا وكتاب الله يخالفه فاتركوا قولى لكتاب الله . قيل : إذا كان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يخالفه ؟ قال : اتركوا قولى لخبر الرسول صلى الله عليه وسلم . قيل : إذا كان قول الصحابة يخالفه ؟ قال اتركوا قولى لقول الصحابة .

وقال الربيع : سمعت الشافعى رحمه الله يقول : إذا وجدتم فى كتابى خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا ما قلت .

لعله إذا رَدَّ بعض قوله أن يقع فى قلبه شىء من الزيغ فيهلك » .

عن عَدِيّ بن حاتم : « أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية (٩: ٣١ اتخذوا أحبارهم ورُهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم .

وقال : إذا صح الحديث بما يخالف قولى فاضربوا بقولى الحائط .

وقال مالك : كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتقدم له مثل ذلك ، فلا عذر لمقلد بعد هذا . ولو استقصينا كلام العلماء فى هذا لخرج عما قصدناه من الاختصار ، وفيما ذكرناه كفاية لطالب الهدى .

قوله « لعله إذا رد بعض قوله » أى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « أن يقع فى قلبه شىء من الزيغ فيهلك » نبه رحمه الله أن رد قول الرسول صلى الله عليه وسلم سبب لزيغ القلب ، وذلك هو الهلاك فى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى (٦١ : ٤ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم . والله لا يهدى القوم الفاسقين) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله فى معنى قول الله تعالى (٢٤ : ٦٣ فليحذر الذين يخالفون عن أمره) فإذا كان المخالف لأمره قد حُذر من الكفر والشرك ؛ أو من العذاب الأليم ، دل على أنه قد يكون مفضياً إلى الكفر والعذاب الأليم . ومعلوم أن إفضاءه إلى العذاب الأليم هو مجرد فعل المعصية ، فإفضاؤه إلى الكفر إنما هو لما يقترن به من الاستخفاف فى حق الأمر ؛ كما فعل إبليس لعنه الله تعالى اهـ .

وقال أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى عن الضحاك (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة) قال « يطبع على قلبه فلا يؤمن أن يظهر الكفر بلسانه فتضرب عنقه » .

قال أبو جعفر بن جرير : أدخلت « عن » لأن معنى الكلام : فليحذر الذين يلوذون عن أمره ، ويدبرون عنه معرضين .

قوله « أو يصيبهم » فى عاجل الدنيا عذاب من الله موجع على خلافهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله « عن عدى بن حاتم رضى الله عنه : أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية (٩ : ٣١ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم — الآية)

وما أمروا إلا ليعبدوا إلهـًا واحداً ، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾ فقلت له : إنا لسنا نعبدهم . قال : أليس يحرمون ما أحلَّ الله ، فتحرمونه ، ويحلون ما حرم الله ، فتحلونه ؟ فقلت : بلى . قال : فتلك عبادتهم » رواه أحمد والترمذي وحسنه .

فقلت له : « إنا لسنا نعبدهم . قال : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فتحلونه ؟ فقلت : بلى . قال : فتلك عبادتهم » رواه أحمد والترمذي وحسنه .

هذا الحديث قد روى من طرق . فرواه ابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني ، وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي .

قوله « عن عدي بن حاتم » أي الطائي المشهور . وحاتم هو ابن عبد الله بن سعد ابن الحشرج — بفتح الحاء — المشهور بالسخاء والكرم . قدم عدي على النبي صلى الله عليه وسلم في شعبان سنة تسع من الهجرة فأسلم . وعاش مائة وعشرين سنة .

وفي الحديث دليل على أن طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادة لهم من دون الله ، ومن الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ؛ لقوله تعالى في آخر الآية : (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) ونظير ذلك قوله تعالى (٦ : ١٢١ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، وإنه لفسق ، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) وهذا قد وقع فيه كثير من الناس مع من قلدوهم لعدم اعتبارهم الدليل إذا خالف المقلَّد ، وهو من هذا الشرك . ومنهم من يغلو في ذلك ويعتقد أن الأخذ بالدليل — والحالة هذه — يكره ، أو يحرم ؛ فعظمت الفتنة . ويقول : هم أعلم منا بالأدلة ، ولا يأخذ بالدليل إلا المجتهد ، وربما تفوهوا بذم من يعمل بالدليل ، ولا ريب أن هذا من غربة الإسلام كما قال شيخنا رحمه الله في المسائل .

فتغيرت الأحوال ، وآلت إلى هذه الغاية . فصارت عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال ، ويسمونها ولاية ، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه . ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من ليس من الصالحين ، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين .

وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم فيما يخالف ما شرعه الله ورسوله : فقد عمت بها البلوى

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية النور .

الثانية : تفسير آية براءة .

الثالثة : على معنى العبادة التي أنكرها عدى .

الرابعة : تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر ، وتمثيل أحمد بسفيان .

الخامسة : تغير الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال ، وتسمى الولاية وعبادة الأحبار : هي العلم والفقه ، ثم تغيرت الحال إلى أن عُبِدَ من دون الله من ليس من الصالحين . وعُبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين

قديماً وحديثاً في أكثر الولاة بعد الخلفاء الراشدين وهلم جراً . وقد قال تعالى (٢٨ : ٥٠ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، ومَنْ أَضَلُّ ممن اتبع هواه بغير هُدًى من الله ؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين) .

وعن زياد بن حُدير قال : قال لى عمر رضى الله عنه : « هل تعرف ما يهدمُ الإسلام ؟ قلت : لا . قال : يهدمه زَلّة العالم ، وجدال المنافق بالقرآن ، وحكم الأئمة المضلين » . رواه الدارمى .

جعلنا الله وإياكم من الذين يهدون بالحق و به يعدلون .

باب

قول الله تعالى : (٤ : ٦٠ — ٦٢ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكوا إلى الطاغوت ،

باب « قول الله تعالى :

(٤ : ٦٠ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك — الآيات) »

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : والآية ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة ، وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل ، وهو المراد بالطاغوت هٰهنا .

وتقدم ما ذكره العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى فى حده للطاغوت ، وأنه كل ما تجاوز به العبد حده : من معبود أو متبوع أو مطاع ، فكل من حاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فقد حاكم إلى الطاغوت الذى أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكفروا به ، فإن التحاكم ليس إلا إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن كان يحكم بهما ، فمن تحاكم إلى غيرهما فقد تجاوز به حده ، وخرج عما شرعه الله ورسله صلى الله عليه وسلم ، وأنزله منزلة لا يستحقها ، وكذلك من عبد شيئاً دون الله فإنما عبد الطاغوت ، فإن كان المعبودا صالحاً صارت عبادة العابد له راجعة إلى الشيطان الذى أمره بها ، كما قال تعالى (١٠ : ٢٨ — ٣٠ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أنتم وشركاؤكم ، فزيّلنا بينهم ، وقال شركاؤهم : ما كنتم إيانا تعبدون . فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إنْ كنّا عن عبادتكم لغافلين . هنالك تَبلو كلُّ نفس ما أسلفت ورُدوا إلى الله مولاهم الحق ، وضل عنهم ما كانوا يفترون) وكقوله (٣٤ : ٤٠ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) وإن كان ممن يدعو إلى عبادة نفسه ، أو كان شجراً أو حجراً أو قبراً أو غير ذلك مما يتخذه المشركون أصناماً على صور الصالحين والملائكة وغير ذلك ، فهى من الطاغوت الذى أمر الله تعالى عباده أن يكفروا بعبادته ، ويتبرأوا منه ، ومن عبادة كل معبود سوى الله كائناً من كان ، وهذا كله من عمل الشيطان وتسويله ، فهو الذى دعا إلى كل باطل وزَينه لمن فعله ، وهذا ينافى التوحيد الذى هو معنى شهادة أن لا إله

وقد أمروا أن يكفروا به، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً .

إلا الله ، فالتوحيد : هو الكفر بكل طاغوت عبده العابدون من دون الله ، كما قال تعالى (٦٠ : ٤ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم إنا بُرَآءُ منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا و بينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) وكل من عبد غير الله فقد جاوز به حده وأعطاه من العبادة ما لا يستحقه .

قال الإمام مالك رحمه الله « الطاغوت : ما عبد من دون الله » .

وكذلك من دعا إلى تحكيم غير الله ورسوله فقد ترك ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ورغب عنه ، وجعل لله شريكا فى الطاعة ، وخالف ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أمره الله تعالى به فى قوله (٥ : ٤٩ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) وقوله تعالى : (٤ : ٦٥ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت و يسلموا تسليما) فمن خالف ما أمر الله به رسوله صلى الله عليه وسلم بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله ، أو طلب ذلك اتباعاً لما يهواه و يريده ، فقد خلع ربقة الإسلام والإيمان من عنقه ، وإن زعم أنه مؤمن ، فإن الله تعالى أنكر على من أراد ذلك ، وأكذبهم فى زعمهم الإيمان لما فى ضمن قوله : « يزعمون » من نفى إيمانهم ، فإن «يزعمون» إنما يقال غالباً لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب لمخالفته لموجبها ، وعمله بما ينافيها ، يحقق هذا قوله (وقد أمروا أن يكفروا به) لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد ، كما فى آية البقرة . فإذا لم يحصل هذا الركن لم يكن موحداً . والتوحيد هو أساس الإيمان الذى تصلح به جميع الأعمال وتفسد بعدمه . كما أن ذلك بين فى قوله تعالى (٢ : ٢٥٦ فمن يكفر بالطاغوت و يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى — الآية) وذلك أن التحاكم إلى الطاغوت إيمان به .

وقوله (ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً) يبين تعالى فى هذه الآية : أن التحاكم إلى الطاغوت مما يأمر به الشيطان و يزينه لمن أطاعه ، و يبين أن ذلك مما أضل به الشيطان من أضله . وأكده بالمصدر ، ووصفه بالبعد ، فدل على أن ذلك من أعظم الضلال وأبعده عن الهدى .

وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً)

وقوله : (٢: ١١ إذا قيل لهم: لا تفسدوا فى الأرض قالوا: إنما نحن مصلحون)

ففى الآية أربعة أمور : الأول : أنه من إرادة الشيطان . الثانى أنه ضلال . الثالث : تأكيده بالمصدر . الرابع : وصفه بالبعد عن سبيل الحق والهدى .

فسبحان الله ! ما أعظم هذا القرآن وما أبلغه ، وما أدله على أنه كلام رب العالمين ، أوحاه إلى رسوله الكريم ، و بلغه عبده الصادق الأمين . صلوات الله وسلامه عليهما .

قوله (و إذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله و إلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً) بين تعالى أن هذه صفة المنافقين ، وأن من فعل ذلك أو طلبه ، و إن زعم أنه مؤمن فإنه فى غاية البعد من الإيمان .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : هذا دليل على أن من دعى إلى تحكيم الكتاب والسنة فأبى أنه من المنافقين .

قوله « و يصدون » لازم وهو بمعنى يعرضون ؛ لأن مصدره « صدوداً » فما أكثر من اتصف بهذا الوصف ، خصوصاً ممن يدعى العلم . فإنهم صدوا عما توجبه الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم إلى أقوال من يخطىء كثيراً ممن ينتسب إلى الأئمة الأربعة فى تقليدهم من لا يجوز تقليده ، واعتمادهم على قول من لا يجوز الاعتماد على قوله ، و يجعلون قوله المخالف لنص الكتاب والسنة وقواعد الشريعة هو المعتمد عندهم الذى لا تصح الفتوى إلا به . فصار المتبع للرسول صلى الله عليه وسلم بين أولئك غريباً ، كما تقدم التنبيه على هذا الباب الذى قبل هذا .

فتدبر هذه الآيات وما بعدها يتبين لك ما وقع فيه غالب الناس من الإعراض عن الحق وترك العمل به فى أكثر المواقع . والله المستعان .

قوله : « ٢ : ١١ و إذا قيل لهم : لا تفسدوا فى الأرض قالوا : إنما نحن مصلحون) قال أبو العالية فى الآية : يعنى لا تعصوا فى الأرض ؛ لأن من عصى الله فى الأرض ، أو أمر

وقوله : (٧ : ٥٦ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعًا . إن رحمة الله قريب من المحسنين) .

بمعصية الله : فقد أفسد فى الأرض ؛ لأن صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله و رسوله . وقد أخبر تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام فى قوله تعالى : (١٢ : ٧٠ — ٧٢ ثم أذن مؤذن : أيتها العير إنكم لسارقون — إلى قوله — قالوا : تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين) فدلت الآية على أن كل معصية فساد فى الأرض .

ومناسبة الآية للترجمة : أن التحاكم إلى غير الله و رسوله من أعمال المنافقين ، وهو من الفساد فى الأرض .

وفى الآية : التنبيه على عدم الاغترار بأقوال أهل الأهواء ، و إن زخرفوها بالدعوى . وفيها : التحذير من الاغترار بالرأى ، مالم يقم على صحته دليل من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فما أكثر من يصدق بالكذب و يكذب بالصدق إذا جاءه ، وهذا من الفساد فى الأرض ، ويترتب عليه من الفساد أمور كثيرة تخرج صاحبها عن الحق وتدخله فى الباطل . نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة فى الدين والدنيا والآخرة .

فتدبر تجد ذلك فى حال الأكثر إلا من عصمه الله ، ومنَّ عليه بقوة داعى الإيمان ، وأعطاه عقلا كاملا عند ورود الشهوات ، و بصراً نافذاً عند ورود الشبهات ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

قوله (٧ : ٥٦ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها) قال أبو بكر بن عياش فى الآية : إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى أهل الأرض وهم فى فساد ، فأصلحهم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم . فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فهو من المفسدين فى الأرض .

وقال ابن القيم رحمه الله : قال أكثر المفسرين : لا تفسدوا فيها بالمعاصى ، والدعاء إلى غير طاعة الله ، بعد إصلاح الله لها ببعث الرسل ، و بيان الشريعة ، والدعاء إلى طاعة الله ؛ فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به : هو أعظم فساد فى الأرض ، بل فساد الأرض فى الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره ، فالشرك والدعوة إلى غير الله و إقامة

وقوله : (٥ : ٥٠ أَفَحُكْمَ الجاهلية يَبْغون ، ومن أحسنُ من الله حكما لقوم يوقنون ؟) .

معبود غيره ، ومطاع متبع غير رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو أعظم فساد الأرض ، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا بأن يكون الله وحده هو المعبود المطاع ، والدعوة له لا لغيره ، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا ، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم . فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة . ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه : توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ، وكل شر في العالم وفتنة و بلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه : مخالفة رسوله ، والدعوة إلى غير الله ورسوله . اهـ .

ووجه مطابقة هذه الآية للترجمة : أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعظم ما يفسد الأرض من المعاصي ، فلا صلاح لها إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو سبيل المؤمنين ، كما قال تعالى (٤ : ١١٥ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى و يتبع غير سبيل المؤمنين نُوَلِّه ما تولى ونُصْلِه جهنم وساءت مصيراً) .

قوله « وقول الله تعالى (٥ : ٥٠ أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟) » .

قال ابن كثير رحمه الله : ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات والضلالات ، كما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن جنكزخان الذي وضع لهم « الياسق » وهو عبارة عن كتاب أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى : من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية ، وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره وهواه . فصارت في بنيه شرعاً يقدمونها على الحكم بالكتاب والسنة . فمن فعل ذلك : فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم بسواه في قليل ولا كثير .

قوله (ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟) استفهام إنكار ، أي لا حكم أحسن

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » قال النووى : حديث صحيح ، رويناه فى كتاب الحجة بإسناد صحيح .

من حكمه تعالى وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس له فى الطرف الآخر مشارك ، أى : ومن أعدل من الله حكماً لمن عقل عن الله شرعه ، وآمن وأيقن أنه تعالى أحكم الحاكمين ، وأرحم بعباده من الوالدة بولدها ، العليم بمصالح عباده ، القادر على كل شىء ، الحكيم فى أقواله وأفعاله ، وشرعه وقدره ؟ .

وفى الآية : التحذير من حكم الجاهلية ، واختياره على حكم الله ورسوله . فمن فعل ذلك فقد أعرض عن الأحسن ، وهو الحق ، إلى ضده من الباطل .

قوله : « عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » قال النووى : حديث صحيح ، رويناه فى كتاب الحجة بإسناد صحيح .

هذا الحديث رواه الشيخ أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسى الشافعى فى كتاب « الحجة على تارك المحجة » بإسناد صحيح ، كما قاله المصنف رحمه الله عن النووى . ورواه الطبرانى وأبو بكر بن عاصم ، والحافظ أبو نعيم فى الأربعين التى شرط لها أن تكون من صحيح الأخبار ، وشاهده فى القرآن : قوله تعالى (٤ : ٦٥ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم — الآية) وقوله (٣٣ : ٢٦ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) وقوله : (٢٨ : ٥٠ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) ونحو هذه الآيات .

قوله « لا يؤمن أحدكم » : أى لا يكون من أهل كمال الإيمان الواجب الذى وعد الله أهله عليه بدخول الجنة والنجاة من النار . وقد يكون فى درجة أهل الإساءة والمعاصى من أهل الإسلام .

قوله « حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » . « الهوى » بالقصر ، أى : ما يهواه وتحبه نفسه وتميل إليه ، فإن كان الذى تحبه وتميل إليه نفسه ويعمل به تابعاً لما جاء به

رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخرج عنه إلى ما يخالفه ، فهذه صفة أهل الإيمان المطلق ، وإن كان بخلاف ذلك أو فى بعض أحواله أو أكثرها انتفى عنه من الإيمان كماله الواجب ، كما فى حديث أبى هريرة « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » يعنى أنه بالمعصية ينتفى كمال الإيمان الواجب ، وينزل عنه فى درجة الإسلام ، وينقص إيمانه ، فلايطلق عليه الإيمان إلا بقيد المعصية ، أو الفسوق فيقال : مؤمن عاص ، أو يقال : مؤمن بإيمانه فاسق بمعصيته ، فيكون معه مطلق الإيمان الذى لا يصح إسلامه إلا به . كما قال تعالى (٤ : ٩٢ فتحرير رقبة مؤمنة) والأدلة على ما عليه سلف الأمة وأئمتها — : أن الإيمان قول وعمل ونية ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية : من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم — أكثر من أن تحصر . فمن ذلك قوله تعالى (٢ : ١٤٣ وما كان الله ليضيع إيمانكم) أى صلاتكم إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة ، وقول النبى صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس « آمركم بالإيمان بالله وحده أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ شهادة أن لا إله إلا الله » الحديث ، وهو فى الصحيحين والسنن . والدليل على أن الإيمان يزيد قوله تعالى (٧٤ : ٣٢ ويزداد الذين آمنوا إيماناً — الآية) . وقوله (٩ : ١٢٤ وأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً — الآية) خلافاً لمن قال : إن الإيمان هو القول ، وهم المرجئة ، ولمن قال : إن الإيمان هو التصديق كالأشاعرة . ومن المعلوم عقلا وشرعاً : أن نية الحق تصديق ، والعمل به تصديق ، وقول الحق تصديق . وليس مع أهل البدع ما ينافى قول أهل السنة والجماعة . ولله الحمد والمنة . قال الله تعالى (٢ : ١٧٧ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر — إلى قوله — أولئك الذين صدقوا) أى فيما عملوا به فى هذه الآية من الأعمال الظاهرة والباطنة . وشاهده فى كلام العرب قولهم : حملة صادقة . وقد سمى الله تعالى «الهوى» المخالف لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إلهاً ، فقال تعالى (٢٥ : ٤٣ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) قال بعض المفسرين لا يهوى شيئاً إلا ركبه .

قال ابن رجب رحمه الله : أما معنى الحديث : فهو أن الإنسان لا يكون مؤمناً كامل الإيمان الواجب حتى أن تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الأوامر والنواهى وغيرها . فيحب ما أمر به ، ويكره ما نهى عنه ، وقد رد القرآن بمثل هذا المعنى

فى غير موضع ، وذم سبحانه من كره ما أحبه الله ، أو أحب ما كرهه الله ، كما قال تعالى (٤٧ : ٢٨ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله محبة توجب له الإتيان بما أوجب عليه منه ، فإن زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه منه كان ذلك فضلا ، وأن يكره ما يكرهه الله كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه ، فإن زادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيهاً كان ذلك فضلا . فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه أوجب ذلك له أن يحب بقلبه : ما يحب الله ورسوله ، ويكره ما يكرهه الله ورسوله . فيرضى ما يرضى به الله ورسوله ، ويسخط ما يسخط الله ورسوله ، ويعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض ، فإن عمل بجوارحه شيئاً يخالف ذلك ، بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله ، وترك ما يحبه الله ورسوله ، مع وجوبه والقدرة عليه — دل ذلك على نقص محبته الواجبة، فعليه أن يتوب من ذلك ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة التى هى ركن العبادة إذا كملت . فجميع المعاصى تنشأ عن تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله . وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى فى مواضع من كتابه ، فقال تعالى (٢٨ : ٥٠ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟) وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع . ولهذا سمى أهلها أهل الأهواء ، وكذلك المعاصى إنما تنشأ من تقديم الهوى على محبة الله ومحبة ما يحبه ، وكذلك حب الأشخاص : الواجب فيه أن يكون تبعاً لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيجب على المؤمن محبة من يحبه الله من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عموماً ، ولهذا كان من علامات وجود حلاوة الإيمان : أن يحب المرء لا يحبه إلا لله فتحرم موالاة أعداء الله ومن يكرهه الله عموماً ، وبهذا يكون الدين كله لله . ومن أحب لله وأبغض لله ، وأعطى لله ومنع لله : فقد استكمل الإيمان ، ومن كان حبه وبغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه : كان ذلك نقصاً فى إيمانه الواجب . فتجب التوبة من ذلك . انتهى ملخصاً .

ومناسبة الحديث للترجمة : بيان الفرق بين أهل الإيمان وأهل النفاق والمعاصى فى أقوالهم وأفعالهم وإراداتهم .

وقال الشعبي : « كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة فقال اليهودي : نتحاكم إلى محمد — لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة — وقال المنافق نتحاكم إلى اليهود ؛ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة . فاتفقا أن يأتيا كاهناً في جهينة فيتحاكما إليه ، فنزلت (ألم تر إلى الذين يزعمون — الآية) .

وقيل : « نزلت في رجلين اختصما فقال أحدهما : نترافع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال الآخر : إلى كعب بن الأشرف . ثم ترافعا إلى عمر ، فذكر له

قوله « وقال الشعبي » هو عامر بن شراحيل الكوفي ، عالم أهل زمانه ، وكان حافظاً علامة ، ذا فنون . كان يقول : « ما كتبت سوداء في بيضاء » ، وأدرك خلقاً كثيرا من الصحابة وعاش بضعاً وثمانين سنة . قاله الذهبي .

وفيما قاله الشعبي ما يبين أن المنافق يكون أشد كراهة لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى . ويكون أشد عداوة منهم لأهل الإيمان ، كما هو الواقع في هذه الأزمنة وقبلها من إعانة المنافقين العدو على المسلمين ، وحرصهم على إطفاء نور الإسلام والإيمان ، ومن تدبر ما في التاريخ وما وقع منهم من الوقائع عرف أن هذا حال المنافقين قديماً وحديثاً ، وقد حذر الله نبيه صلى الله عليه وسلم من طاعتهم والقرب منهم ، وحضه على جهادهم في مواضع من كتابه ، قال تعالى (٦٦ : ٩ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم — الآية) وفي قصة عمر رضي الله عنه وقتله المنافق الذي طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي : دليل على قتل من أظهر الكفر والنفاق . وكعب بن الأشرف هذا كان شديد العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم والأذى له ، والإظهار لعداوته ، فانتقض به عهده . وحل به قتله . وروى مسلم في صحيحه عن عمر : سمعت جابراً يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لكعب ابن الأشرف ؟ فإنه قد آذى الله ورسوله ، قال محمد بن مسلمة : يا رسول الله ، أتحب أن أقتله ؟ قال : نعم . قال : ائذن لي فلأقل ، قال : قل . فأتاه فقال له ، وذكر بينهما وقال : إن هذا الرجل قد أراد صدقة وقد عنّانا . فلما سمعه قال : وأيضاً والله لَتَمَلُّنَّه ، قال : إنا قد اتبعناه الآن ، ونكره أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير أمره ، قال : وقد أردت أن تسلفني سلفاً . قال : فما ترهنني ؟ قال : ما تريده ؟ قال نساءكم ؟ قال : أنت أجمل العرب ، أنرهنك

أحدهما القصة . فقال للذى لم يرض برسول الله صلى الله عليه وسلم : أ كذلك ؟ قال نعم : فضربه بالسيف فقتله » .

نساءنا ؟ قال : ترهنونى أولادكم ؟ قال : يسب ابن أحدنا فيقال . رُهن فى وَسْقين من تمر . ولكن نرهنك اللامة — يعنى السلاح — قال : فنعم . وواعده أن يأتيه بالحارث وأبى عبس ابن جبر وعباد بن بشر . قال : فجاءوا فدعوه ليلا فنزل إليهم — قال سفيان قال غير عمرو : قالت له امرأته : إنى أسمع صوتا كأنه صوت دم ، قال : إنما هذا محمد بن مسلمة ورضيعة وأبو نائلة . إن الكريم لو دعى إلى طعنة ليلا لأجاب ، قال محمد : إنى إذا جاء فسوف أمد يدى إلى رأسه ، فإذا استمكنت منه فدونكم ، قال : فلما نزل — وهو متوشح — قالوا : نجد منك ريح الطيب ، قال : نعم ، تحتى فلانة أعطر نساء العرب ، قال : فتأذن لى أن أشم منه ؟ قال : نعم فَشُمَّ ، فتناول فشم ، ثم قال : أتأذن لى أن أعود ؟ قال : فاستمكن من رأسه . ثم قال : دونكم . قال : فقتلوه » .

وفى قصة عمر : بيان أن المنافق المغموص بالنفاق إذا أظهر نفاقه قتل ، كما فى الصحيحين وغيرهما : أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما ترك قتل من أظهر نفاقه منهم تأليفاً للناس ، فإنه قال « لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » فصلوات الله وسلامه عليه .

باب

من جحد شيئاً من الأسماء والصفات : وقول الله تعالى (١٣ : ٣٠ وهم يكفرون بالرحمن ، قل : هو ربى ، لا إله إلا هو عليه توكلت . وإليه متاب) .

قوله « باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات ـ وقول الله تعالى (١٣ : ٣٠ وهم يكفرون بالرحمن ، قل : هو ربى ، لا إله إلا هو عليه توكلت . وإليه متاب) » .

سبب نزول هذه الآية معلوم مذكور فى كتب التفسير وغيرها . وهو أن مشركى قريش جحدوا اسم «الرحمن» عناداً ، وقال تعالى (١٧ : ١١٠ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) و « الرحمن » اسمه وصفته ، دل هذا الاسم على أن الرحمة صفته سبحانه ؛ وهى من صفات الكمال . فإذا كان المشركون جحدوا اسماً من أسمائه تعالى ، وهو من الأسماء التى دلت على كماله سبحانه وبحمده ، فجحود معنى هذا الاسم ونحوه من الأسماء يكون كذلك . فإن جَهْم بن صفوان ومن تبعه يزعمون أنها لا تدل على صفة قائمة بالله تعالى . وتبعهم على ذلك طوائف من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم . فلهذا كفرهم كثيرون من أهل السنة . قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى :

ولقد تقلد كفرهم خمسون فى   عشر من العلماء فى البلدان
واللالكائى الإمام حكاه عنـ   ـهم بل حكاه قبله الطبرانى

فإن هؤلاء الجهمية ومن وافقهم على التعطيل جحدوا ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله ، وبنوا هذا التعطيل على أصل باطل أصّلوه من عند أنفسهم ، فقالوا : هذه الصفات هى صفات الأجسام . فيلزم من إثباتها أن يكون الله جسما . هذا منشأ ضلال عقولهم ، لم يفهموا من صفات الله إلا ما فهموه من خصائص صفات المخلوقين ، فشبهوا الله فى ابتداء آرائهم الفاسدة بخلقه ، ثم عطلوه عن صفات كماله ، وشبهوه بالناقصات والجمادات والمعدومات ، فشبهوا أولا ، وعطلوا ثانياً ، وشبهوه ثالثاً بكل ناقص ومعدوم . فتركوا مادل عليه الكتاب والسنة من إثبات ماوصف الله به نفسه ووصفه به رسوله على مايليق بجلاله وعظمته . وهذا هو الذى عليه سلف الأمة وأئمتها . فإنهم أثبتوا لله ما أثبته لنفسه له رسوله صلى الله عليه وسلم ، إثباتا بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل . فإن الكلام فى الصفات فرع عن الكلام

وفى صحيح البخارى قال علىّ : « حَدِّثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يُكَذَّبَ الله ورسوله ؟ » .

فى الذات يحتذى حذوه ، فكما أن هؤلاء المعطلة يثبتون لله ذاتاً لا تشبه الذوات ، فأهل السنة يقولون ذلك ، ويثبتون ما وصف الله به نفسه ، ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله ، لا يشبهون صفاته صفات خلقه ، فإنهم آمنوا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يتناقضوا ، وأولئك المعطلة كفروا بما فى الكتاب والسنة من ذلك ، وتناقضوا . فبطل قول المعطلين بالعقل والنقل ، ولله الحمد والمنة ، وإجماع أهل السنة من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة المسلمين .

وقد صنف العلماء رحمهم الله تعالى فى الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم فى إبطال هذه البدع ومافيها من التناقض والتهافت ، كالإمام أحمد فى رده المشهور ، وكتاب السنة لابنه عبد الله ، وصاحب الحيدة عبد العزيز الكنانى فى رده على بشر المريسى ، وكتاب السنة لأبى عبدالله المروزى ، ورد عثمان بن سعيد على الكافر العنيد ، وهو بشر المريسى ، وكتاب التوحيد لإمام الأئمة محمد بن خذيمة الشافعى ، وكتاب السنة لأبى بكر الخلال ، وأبى عثمان الصابونى الشافعى ، وشيخ الإسلام الأنصارى ، وأبى عمر بن عبد البر النمرى ، وخلق كثير من أصحاب الأئمة الأربعة وأتباعهم ، وأهل الحديث ومن متأخريهم أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة ، وشيخ الإسلام ابن تيمية وأصحابه وغيرهم رحمهم الله تعالى . فلله الحمد والمنة على بقاء السنة وأهلها مع تفرق الأهواء وتشعب الآراء . والله أعلم .

قوله « وفى صحيح البخارى عن على رضى الله عنه : حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟ » .

« على » هو أمير المؤمنين أبو الحسن على بن أبى طالب ، وأحد الخلفاء الراشدين . وسبب هذا القول — والله أعلم — ماحدث فى خلافته من كثرة إقبال الناس على الحديث ، وكثرة القصاص وأهل الوعظ . فيأتون فى قصصهم بأحاديث لا تعرف من هذا القبيل . فربما استنكرها بعض الناس وردها . وقد يكون لبعضها أصل أو معنى صحيح ، فيقع بعض المفاسد لذلك ، فأرشدهم أمير المؤمنين رضى الله عنه إلى أنهم لا يحدثون عامة الناس إلا بما هو معروف ، ينفع الناس فى أصل دينهم وأحكامه ، من بيان الحلال من الحرام الذى كلفوا

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس « أنه رأى رجلا انتفض — لما سمع حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصفات ، استنكاراً لذلك — فقال : ما فَرَقُ هؤلاء ؟ يجدون رِقَّة عند مُحكمه ويهلكون عند متشابهه » انتهى .

به علماً وعملا ، دون ما يشغل عن ذلك ، مما قد يؤدى إلى رد الحق وعدم قبوله ، فيفضى بهم إلى التكذيب ، ولا سيما مع اختلاف الناس فى وقته ، وكثرة خوضهم وجدلهم .

وقد كان شيخنا المصنف رحمه الله لا يحب أن يقرأ على الناس إلا ما ينفعهم فى أصل دينهم وعباداتهم ومعاملاتهم الذى لا غنى لهم عن معرفته ، وينهاهم عن القراءة فى مثل كتب ابن الجوزى . كالمنعش ، والمرعش ، والتبصرة ، لما فى ذلك من الإعراض عما هو أوجب وأنفع وفيها ما الله به أعلم مما لا ينبغى اعتقاده . والمعصوم من عصمة الله .

وقد كان أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ينهى القصاص عن القصص، لما فى قصصهم من الغرائب والتساهل فى النقل وغير ذلك ، ويقول « لا يقص إلا أمير أو مأمور » وكل هذا محافظة على لزوم الثبات على الصراط المستقيم علماً وعملا ونية وقصداً ، وترك كل ما كان وسيلة إلى الخروج عنه من البدع ووسائلها ، والله الموفق للصواب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قوله « وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس « أنه رأى رجلا انتفض — لما سمع حديثاً عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الصفات ، استنكاراً لذلك — فقال : ما فرق هؤلاء ؟ يجدون رقة عند محكمه ، ويهلكون عند متشابهه » .

قوله « وروى عبد الرزاق » هو ابن همام الصنعانى المحدث ، محدث اليمن صاحب التصانيف ، أكثر الرواية عن معمر بن راشد صاحب الزهرى . وهو شيخ عبد الرزاق يروى عنه كثيراً .

ومعمر — بفتح الميمين وسكون العين — أبو عروة بن أبى عمرو ، راشد الأزدى الحرانى ثم اليمانى ، أحد الأعلام من أصحاب محمد بن شهاب الزهرى ، يروى عنه كثيراً .

قوله «عن ابن طاوس» هو عبد الله بن طاوس اليمانى . قال معمر : كان من أعلم الناس بالعربية . وقال ابن عيينة : مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

قوله « عن أبيه » هو طاوس بن كَيْسان الْجَنَدى — بفتح الجيم والنون — الإمام العلم ، قيل : اسمه ذكوان . قاله ابن الجوزى .

قلت : وهو من أئمة التفسير ومن أوعية العلم . قال فى تهذيب الكمال . عن الوليد الموقرى عن الزهرى قال : « قدمت على عبد الملك بن مروان ، فقال : من أين قدمت يا زهرى ؟ قال قلت : من مكة ، قال : ومن خَلَّفت يسودها وأهلها ؟ قلت : عطاء بن أبى رباح ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قلت : من الموالى ، قال : فَبِمَ سادهم ؟ قال قلت : بالديانة والرواية . قال : إن أهل الديانة والرواية لينبغى أن يسودوا . قال : فمن يسود أهل اليمن ؟ قلت : طاوس بن كيسان ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قال قلت : من الموالى ؟ قال : فبم سادهم ؟ قلت : بما ساد به عطاء . قال : إنه لينبغى ذلك ، قال : فمن يسود أهل مصر ؟ قلت : يزيد بن حبيب ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قال قلت : من الموالى ، قال : فمن يسود أهل الشام ؟ قلت : مكحول ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قال قلت : من الموالى ، عبد نوبى أعتقته امرأة من هذيل . قال : فمن يسود أهل الجزيرة ؟ قلت : ميمون بن مِهْيان ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قال قلت : من الموالى . قال : فمن يسود أهل خراسان ؟ قال قلت : الضحاك ابن مزاحم ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قال قلت : من الموالى . قال : فمن يسود أهل البصرة ؟ قال قلت : الحسن البصرى ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قال قلت: من الموالى ، قال : ويلك ، ومن يسود أهل الكوفة ؟ قال قلت : إبراهيم النخعى ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قال قلت : من العرب ، قال : ويلك يا زهرى ، فرجت عنى ، والله لتسودن الموالى على العرب فى هذا البلد ، حتى يُخطب لها على المنابر والعرب تحتها ؟ قال : قلت : يا أمير المؤمنين ، إنما هو دين من حفظه ساد ومن ضيعه سقط » .

قوله « عن ابن عباس » قد تقدم ، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن ، ودعا له النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال « اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل » وروى عنه أصحابه أئمة التفسير كمجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعطاء بن أبى رباح ، وطاوس وغيرهم .

قوله « ما فرق هؤلاء » يستفهم من أصحابه ، يشير إلى أناس ممن يحضر مجلسه من عامة الناس ، فإذا سمعوا شيئا من محكم القرآن ومعناه حصل معهم فَرَق أى خوف ، فإذا سمعوا شيئاً من أحاديث الصفات انتفضوا كالمنكرين له ، فلم يحصل منهم الإيمان الواجب الذى أوجبه الله تعالى على عباده المؤمنين. قال الذهبى : حدث وكيع عن إسرائيل بحديث «إذا جلس الرب على الكرسى » فاقشعر رجل عند وكيع . فغضب وكيع . وقال « أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث ولا ينكرونها » أخرجه عبد الله بن أحمد فى كتاب الرد على الجهمية وربما حصل معهم من عدم تلقيه بالقبول ترك ما يوجب من الإيمان به ، فتشبه حالهم حال من قال الله فيهم (٢ : ٨٥ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟) فلا يسلم من الكفر إلا من عمل بما يوجب عليه فى ذلك ، من الإيمان بكتاب الله كله واليقين ، كما قال تعالى (٣ : ٧ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون : آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذّكر إلا أولو الألباب) فهؤلاء الذين ذكرهم ابن عباس تركوا ما وجب عليهم من الإيمان بما لم يعرفوا معناه من القرآن ، وهو حق لا يرتاب فيه مؤمن ، وبعضهم يفهم منه غير المراد من المعنى الذى أراد الله ، فيحمله على غير معناه ، كما جرى لأهل البدع ، كالخوارج والرافضة والقدرية ، ونحوهم مما يتأول بعض آيات القرآن على بدعته . وقد وقع منهم الابتداع والخروج عن الصراط المستقيم ، فإن الواقع من أهل البدع وتحريفهم لمعنى الآيات يبين معنى قول ابن عباس رضى الله عنهما .

وسبب هذه البدع جهل أهلها وقصورهم فى الفهم ، وعدم أخذ العلوم الشرعية على وجهها ، وتلقيها من أهلها العارفين لمعناها الذين وفقهم الله تعالى لمعرفة المراد ، والتوفيق بين النصوص ، والقطع بأن بعضها لا يخالف بعضا ، ورد المتشابه إلى المحكم ، وهذه طريقة أهل السنة والجماعة فى كل زمان ومكان . فلله الحمد لا نحصى ثناء عليه .

﴿ ذكر ما ورد عن علماء السلف فى المتشابه ﴾

قال فى الدر المنثور : أخرج الحاكم — وصححه — عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد ، فنزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف : زجر ، وأمر ، وحلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ،

وأمثال فأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، وافعلوا ما أمرتم به ، وانتهوا عما نهيتم عنه ، واعتبروا بأمثاله ، واعملوا بمحكمه ، وآمنوا بمتشابهه ، وقولوا : آمنا به كل من عند ربنا » .

قال : وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله تعالى (٣ : ٧ فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه — الآية) قال : طلب القوم التأويل ، فأخطأوا التأويل وأصابوا الفتنة ، وطلبوا ما تشابه منه ، فهلكوا بين ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (آيات محكمات) قال « منهن قوله تعالى (٦ : ١٥١ — ١٥٣ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) إلى ثلاث آيات ، ومنهن (١٧ : ٢٣ — ٣٩ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) إلى آخر الآيات » .

وأخرج ابن جرير من طريق أبى مالك عن أبى صالح عن ابن عباس ، وعن مُرّة عن ابن مسعود وناس من الصحابة رضى الله عنهم « المحكمات : الناسخات التى يعمل بهن ، والمتشابهات : المنسوخات » .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن إسحاق بن سويد أن يحيى بن يَعمُر وأبا فاختة تراجعا هذه الآية (هُنّ أمُّ الكتاب) فقال أبو فاختة « هن فواتح السور ، منها يستخرج القرآن « الم ذلك الكتاب » منها استخرجت البقرة و « الم . الله لا إله إلا هو » منها استخرجت آل عمران . وقال يحيى : هن اللاتى فيهن الفرائض ، والأمر والنهى والحلال والحرام ، والحدود وعماد الدين » .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير قال : « (المحكمات) فيهن حجة الرب وعصمة العباد ، ودفع الخصوم والباطل ، ليس فيها تصريف ولا تحريف عما وضعت عليه (وأخر متشابهات) فى الصدق ، لهن تصريف وتحريف وتأويل ، ابتلى الله بهن العباد ، كما ابتلاهم بالحلال والحرام ، لا يصرفن إلى الباطل ، ولا يحرفن عن الحق » .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان : إنما قال (هن أم الكتاب) لأنه ليس من أهل دين لا يرضى بهن (وأخر متشابهات) يعنى فيما بلغنا « الم » و « المص » و « المر » .

ولما سمعت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر « الرحمن » أنكروا ذلك . فأنزل الله فيهم (وهُمْ يَكْفُرُون بالرحمن) .

قلت : وليس فى هذه الآثار ونحوها ما يشعر بأن أسماء الله تعالى وصفاته من المتشابه ، وما قال النفاة من أنها من المتشابه دعوى بلا برهان .

قوله « ولما سمعت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الرحمن أنكروا ذلك . فأنزل الله فيهم (١٣ : ٣٠ وهم يكفرون بالرحمٰن) » روى ابن جرير عن قتادة (وهم يكفرون بالرحمن) ذُكر لنا أن النبى صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية حين صالح قريشاً كتب « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، فقال مشركو قريش: لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك لقد ظلمناك ، ولكن اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله دعنا نقاتلهم . فقال : لا . اكتبوا كما يريدون ، إلى محمد بن عبد الله فلما كتب الكاتب (بسم الله الرحمن الرحيم) قالت قريش : أما الرحمن فلا نعرفه . وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم . فقال أصحابه : دعنا نقاتلهم . قال : لا . ولكن اكتبوا كما يريدون » .

وروى أيضاً عن مجاهد قال قوله (١٣ : ٥٠ كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهمُ الذى أوحينا إليك . وهم يكفرون بالرحمن ، قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب) قال « هذا ما كاتب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً فى الحديبية ، كتب (بسم الله الرحمن الرحيم) فقالوا : لا نكتب الرحمن ، ولا ندرى ما الرحمن ؟ ولا نكتب إلا باسمك اللهم . قال الله تعالى (وهم يكفرون بالرحمن) الآية » .

وروى أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ساجداً : يا رحمن يا رحيم . فقال المشركون : هذا يزعم أنه يدعو واحداً ، وهو يدعو مثنى مثنى . فأنزل الله (١٧ : ١١٠ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) الآية » .

فيه مسائل :

الأولى : عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات .

الثانية : تفسير آية الرَّعْد .

الثالثة : تركُ التحديث بما لا يفهم السامع .

الرابعة : ذكر العلَّة أنه يُفضى إلى تكذيب الله ورسوله ، ولو لم يتعمد المنكر .

الخامسة : كلام ابن عباس لمن استنكر شيئا من ذلك ، وأنه أهلكه .

باب

قول الله تعالى : (١٦ : ٨٣ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون) .

قوله « باب قول الله تعالى (١٦ : ٨٣ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون) .

ذكر المصنف رحمه الله ما ذكر بعض العلماء فى معناها . وقال ابن جرير : فإن أهل التأويل اختلفوا فى المعنى بالنعمة . فذكر عن سفيان عن السدى (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) قال « محمد صلى الله عليه وسلم » وقال آخرون : بل معنى ذلك : أنهم يعرفون أن ما عدد الله تعالى ذكره فى هذه السورة من النعم عند الله ، وأن الله هو المنعم عليهم بذلك ، ولكنهم ينكرون ذلك ، فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم .

وأخرج عن مجاهد « يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ، قال : هى المساكن والأنعام وما يرزقون منها ، والسرابيل من الحديد والثياب ، تعرف هذا كفار قريش ثم تنكره ، بأن تقول : هذا كان لآبائنا فورّثونا إياه » وقال آخرون : معنى ذلك أن الكفار إذا قيل لهم : من رزقكم ؟ أقروا بأن الله هو الذى يرزقهم ، ثم ينكرونه بقولهم : رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا .

وذكر المصنف مثل هذا عن ابن قتيبة . وهو أبو محمد عبدالله بن مسلم قتيبة الدِّيْنَوَرِى قاضى مصر النحوى اللغوى ، صاحب المصنفات البديعة المفيدة المحتوية على علوم جمة ، اشتغل ببغداد : وسمع الحديث على إسحاق بن راهويه وطبقته . توفى سنة ست وسبعين ومائتين .

وقال آخرون ما ذكره المصنف : « عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلى » أبو عبد الله الكوفى الزاهد ، عن أبيه وعائشة وابن عباس . وعنه قتادة وأبو الزبير والزهرى ، وثقه أحمد وابن معين . قال البخارى : مات بعد العشرين ومائة (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) قال « إنكارهم إياها : أن يقول الرجل : لولا فلان ما كان كذا وكذا . ولولا فلان ما أصبت كذا وكذا » .

قال مجاهد ما معناه « هو قول الرجل : هذا مالى ، ورثته عن آبائى » .

وقال عَون بن عبد الله « يقولون : لولا فلان لم يكن كذا » .

وقال قتيبة « يقولون : هذا بشفاعة آلهتنا » .

وقال أبو العباس — بعد حديث زَيْد بن خالد الذى فيه : أن الله تعالى قال : « أصبح من عبادى مؤمنٌ بى وكافر — الحديث » وقد تقدم — وهذا كثير فى الكتاب والسنة ، يَذُمُّ سبحانه مَنْ يُضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به .

قال بعض السلف : هو كقولهم : كانت الريح طيبة ، والملاح حاذقا ، ونحو ذلك مما هو جارٍ على ألسِنة كثير .

واختار ابن جرير القول الأول ، واختار غيره أن الآية تعم ما ذكره العلماء فى معناها . وهو الصواب . والله أعلم .

قوله « قال مجاهد » هو شيخ التفسير ، الإمام الربانى ، مجاهد بن جَبْر المكى مولى بنى مخزوم . قال الفضل بن ميمون : سمعت مجاهداً يقول : عرضت المصحف على ابن عباس مرات ، أقفه عند كل آية ، وأسأله : فيم نزلت ؟ وكيف نزلت ؟ وكيف معناها ؟ توفى سنة اثنتين ومائة . وله ثلاث وثمانون سنة رحمه الله .

قوله « وقال أبو العباس » هو شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية ، الإمام الجليل رحمه الله « بعد حديث زيد بن خالد » وقد تقدم فى باب ما جاء فى الاستسقاء بالأنواء . قال « وهذا كثير فى الكتاب والسنة ، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره و يشرك به . قال بعض السلف : هو كقولهم : كانت الريح طيبة ، والملاح حاذقاً . ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير » اه .

وكلام شيخ الإسلام يدل على أن حكم هذه الآية عام فيمن نسب النعم إلى غير الله الذى أنعم بها ، وأسند أسبابها إلى غيره ، كما هو مذكور فى كلام المفسرين المذكور بعضه هنا .

قال شيخنا رحمه الله : وفيه اجتماع الضدين فى القلب ، وتسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير معرفة النعمة وإنكارها .

الثانية : معرفة أن هذا جار على ألسنة كثير .

الثالثة : تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة .

الرابعة : اجتماع الضدين فى القلب .

باب

قول الله تعالى : (٢ : ٢٢ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون)

قوله « باب قول الله تعالى (٢ : ٢٢ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) .

الند : المثل والنظير . وجعل الند لله : هو صرف أنواع العبادة — أو شىء منها — لغير الله، كحال عبدة الأوثان الذين يعتقدون فيمن دعوه ورجوه أنه ينفعهم ويدفع عنهم ، ويشفع لهم . وهذه الآية فى سياق قوله تعالى : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) قال العماد ابن كثير رحمه الله فى تفسيره : قال أبو العالية : لاتجعلوا لله أنداداً أى عدلاء شركاء . وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدى وأبو مالك وإسماعيل بن أبى خالد .

وقال ابن عباس (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) أى لا تشركوا بالله شيئاً من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه ربكم لا رب لكم يرزقكم غيره وقد علمتم أن الذى يدعوكم الرسول إليه من توحيده هو الحق الذى لاشك فيه . وكذلك قال قتادة وعن قتادة ومجاهد (لا تجعلوا لله أنداداً) قال : أكفاء من الرجال تطيعونهم فى معصية الله وقال ابن زيد « الأنداد » هى الآلهة التى جعلوها معه ، وجعلوا لها مثل ماجعلوا له. وعن ابن عباس (فلا تجعلوا لله أنداداً) أشباهاً . وقال مجاهد (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) قال تعلمون أنه إله واحد فى التوراة والإنجيل وذكر حديثاً فى معنى هذه الآية الكريمة ، وهو ما فى مسند

أحمد عن الحارث الأشعرى أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات : أن يعمل بهن ، وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن ، وأنه كاد أن يبطىء بها . فقال له عيسى عليه السلام : إن الله أمرك بخمس كلمات : أن تعمل بهن ، وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن ، فإما أن تبلغهن ، و إما أن أبلغهن ، فقال : يا أخى ؛ إنى أخشى إن سبقتنى أن أعذب أو يخسف بى . قال : فجمع يحيى بن زكريا بنى إسرائيل فى بيت المقدس ، حتى امتلأ المسجد وقُعد على الشّرَف . فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن الله أمرنى بخمس كلمات : أن أعمل بهن ، وآمركم أن تعملوا بهن ، أولاهن : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، فإن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو وَرِق فجعل يعمل و يؤدى غَلّته إلى غير سيده ، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ؟ و إن الله خلقكم ورزقكم ، فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً . وآمركم بالصلاة ، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت . فإذا صليتم فلا تلتفتوا . وآمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صُرة من مسك فى عصابة كلهم يجد ريح المسك . وإن خَلوف فم الصائم أطيب عند الله من المسك . وآمركم بالصدقة ، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه . فقال لهم : هل لكم أن أفتدى نفسى منكم ؟ فجعل يفتدى بالقليل والكثير حتى فَكّ نفسه . وآمركم بذكر الله كثيراً ، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً فى أثره ، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه ، و إن العبد أحصنُ ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله . قال : وقال رسول صلى الله عليه وسلم : وأنا آمركم بخمس ، الله أمرنى بهن : الجماعة ، والسمع ، والطاعة ، والهجرة ، والجهاد فى سبيل الله . فإنه من خرج من الجماعة قِيدَ شبر فقد خلع رِبقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع ، ومن دعا بدعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثَى جهنم . قالوا : يارسول الله وإن صلى وصام ؟ فقال : و إن صلى وصام ، وزعم أنه مسلم ، فادعوا المسلمين بأسمائهم التى سماهم الله عز وجل : المسلمين المؤمنين ، عبادَ الله » .

وهذا حديث حسن ، والشاهد منه فى هذه الآية : قوله « إن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً » وهذه الآية دالة على توحيد الله تعالى بالعبادة وحده لا شريك له . وقد استدل بها كثير من المفسرين على وجود الصانع . وهى دالة على ذلك بطريق الأولى .

قال ابن عباس فى الآية « الأنداد : هو الشركُ ، أخفى من دَبيبِ النملِ على صَفاةٍ سوداء فى ظُلْمَةِ الليل . وهو أن تقول : والله ، وحياتك يافلان . وحياتى ، وتقول : لولا كُليبة هذا لأتانا اللصوص . ولولا البطُّ فى الدار لأتانا اللصوص . وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل : لولا الله وفلان ، لا تجعل فيها فلانا . هذا كلُّه به شركٌ » رواه ابن أبى حاتم .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

والآيات الدالة على هذا المقام فى القرآن كثيرة جداً . وسئل أبو نواس عن ذلك ؟ فأنشد :

تأمل فى نبات الأرض ، وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لُجين ناظرات ... بأحداق هى الذهب السبيك
على قُضُب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز :

فياعجباً ، كيف يعصَى الإلـٰه ، أم كيف يجحده الجاحد ؟
وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه واحد

قوله « وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى الآية : الأنداد هو الشرك ، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة الليل . وهو أن تقول : والله ، وحياتك يا فلان وحياتى ، وتقول : لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص ، ولولا البط فى الدار لأتانا اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت . وقول الرجل : لولا الله وفلان . لا تجعل فيها فلاناً . هذا كله به شرك « رواه ابن أبى حاتم » . بين ابن عباس رضى الله عنهما أن هذا كله من الشرك ، وهو الواقع اليوم على ألسن كثير ممن لا يعرف التوحيد ولا الشرك . فتنبه لهذه الأمور . فإنها من المنكر العظيم الذى يجب النهى عنه والتغليظ فيه لكونه من أكبر الكبائر . وهذا من ابن عباس رضى الله عنهما تنبيه بالأدنى من الشرك على الأعلى .

قوله « وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« مَن حلفَ بغـير الله فقد كفر أو أشركَ » رواه الترمذى ، وحسنه وصححه الحاكم .

وقال ابن مسعود : « لأن أحلفَ بالله كاذباً أحبُّ إلىَّ من أن أحلف بغيره صادقاً .

« من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك » رواه الترمذى وحسنه وصححه الحاكم » .

قوله « فقد كفر أو أشرك » يحتمل أن يكون شكا من الراوى . ويحتمل أن تكون « أو » بمعنى الواو ، فيكون قد كفر وأشرك . ويكون من الكفر الذى هو دون الكفر الأكبر . كما هو من الشرك الأصغر . وورد مثل هذا عن ابن مسعود بهذا اللفظ .

قوله : وقال ابن مسعود «لأن أحلف بالله كاذباً أحبُّ إلىَّ من أن أحلف بغيره صادقاً» .

ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذباً كبيرة من الكبائر ، لكن الشرك أكبر من الكبائر وإن كان أصغر ، كما تقدم بيان ذلك ، فإذا كان هذا حال الشرك الأصغر فكيف بالشرك الأكبر الموجب للخلود فى النار ؟ كدعوة غير الله والاستغاثة به ، والرغبة إليه ، وإنزال حوائجه به ، كما هو حال الأكثر من هذه الأمة فى هذه الأزمان وما قبلها : من تعظيم القبور ، واتخاذها أوثاناً ، والبناء عليها ، واتخاذها مساجد ، وبناء المشاهد باسم الميت لعبادة من بنيت باسمه وتعظيمه ، والإقبال عليه بالقلوب والأقوال والأعمال . وقد عظمت البلوى بهذا الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله ، وتركوا ما دل عليه القرآن العظيم من النهى عن هذا الشرك وما يوصل إليه . قال تعالى (٧ : ٣٧ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ،حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا : أينما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا : ضلوا عنا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) كفرهم الله تعالى بدعوتهم من كانوا يدعونهم من دونه فى دار الدنيا . وقال تعالى (٧٢:١٨ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) وقال تعالى (٧٢ : ٢٠ ، ٢١ قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحداً . قل إنى لا أملك لكم ضرًّا ولا رشداً) وهؤلاء المشركون عكسوا الأمر ، فخالفوا ما بلّغه الرسولُ الأمة وأخبر به عن نفسه صلى الله عليه وسلم ، فعاملوه بما نهاهم عنه من الشرك بالله والتعلق على غير الله ، حتى قال قائلهم :

وعن حذيفة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقولوا : ماشاء الله وشاء فلان ، ولـكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان » رواه أبو داود بسند صحيح .

وجاء عن إبراهيم النَّخَعِي « أنه يكره أن يقول : أعوذ بالله وبك ويجوز

يا أكرم الخلق مالى من ألوذ به — سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تـكن فى معادى آخذاً بيدى — فضلا ؛ وإلا فقل : يازلة القدم

فإن من جودك الدنيا وضرتها — ومن علومك علم اللوح والقـلم

فانظر إلى هذا الجهل العظيم ، حيث اعتقد أنه لا نجاة له إلا بعياذه ولياذه بغير الله ، إلى هذا الإطراء العظيم الذى تجاوز الحد فى الإطراء ، الذى نهى عنه صلى الله عليه وسلم بقوله « لاتطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد . فقولوا عبد الله ورسوله » رواه مالك وغيره ، وقدقال تعالى (٦ : ٥٠ قل لا أقول لـكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لـكم إنى ملك) .

فانظر إلى هذه المعارضة العظيمة للـكتاب والسنة ، والمحادة لله ورسوله . وهـذا الذى يقوله هذا الشاعر هو الذى فى نفوس كثير ، خصوصاً ممن يدعون العلم والمعرفة . ورأوا قراءة هذه المنظومة ونحوها لذلك وتعظيمها من القربات . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

قوله « وعن حذيفة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ، ولـكن قولوا ما شاء الله ، ثم شاء فلان » رواه أبو داود بسند صحيح » .

وذلك لأن المعطوف بالواو يكون مساويا للمعطوف عليه ، لـكونها إنما وضعت لمطلق الجمع . فلا تقتضى ترتيباً ولا تعقيباً . وتسوية المخلوق بالخالق شرك ، إن كان فى الأصغر - مثل هذا — فهو أصغر ، وإن كان فى الأكبر فهو أكبر . كما قال الله تعالى عنهم فى الدار الآخرة (٢١ : ٩٧ ، ٩٨ تالله إن كنا لفى ضـلال مبين إذ نسويكم برب العالمين) بخلاف المعطوف بـ « ثم » فإن المعطوف بها يكون متراخياً عن المعطوف عليه بمهلة . فلا محذور لـكونه صار تابعاً .

قوله « وعن إبراهيم النخعى « أنه يكره أن يقول الرجل : أعوذ بالله وبك . ويجوز

أن يقول : بالله ثم بك . قال ويقول : لولا الله ثم فلان . ولا تقولوا : لولا الله وفلانٌ » .

أن يقول : بالله ثم بك . قال : ويقول : لولا الله ثم فلان . ولا تقولوا : لولا الله وفلان » .

وقد تقدم الفرق بين ما يجوز وما لا يجوز من ذلك . وهذا إنما هو فى الحى الحاضر الذى له قدرة وسبب فى الشىء . وهو الذى يجرى فى حقه مثل ذلك . وأما فى حق الأموات الذين لا إحساس لهم بمن يدعوهم ، ولا قدرة لهم على نفع ولا على ضر . فلا يقال فى حقهم شىء من ذلك . فلا يجوز التعلق عليه بشىء ما ، بوجه من الوجوه . والقرآن يبين ذلك وينادى بأنه يجعلهم آلهة إذا سُئلوا شيئاً من ذلك ، أو رغب إليهم أحد بقوله، أو عمله الباطن أو الظاهر . فمن تدبر القرآن ورزق فهمه صار على بصيرة من دينه . و بالله التوفيق .

والعلم لا يؤخذ قسراً و إنما يؤخذ بأسباب ذكرها بعضهم فى قوله :

أخى ، لن تنال العلم إلا بستة   سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء ، وحرص ، واجتهاد ، و بلغة   وإرشاد أستاذ ، وطول زمان

وأعظم من هذه الستة : من رزقه الله تعالى الفهم والحفظ ، وأتعب نفسه فى تحصيله ، فالله الموفق لمن شاء من عباده . كما قال تعالى (٤ : ١١٣ وعلمناك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) .

ولقد أحسن العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى حيث قال :

والجهـــل داء قاتل وشفاؤه   أمران فى التركيب متفقان
نص من القرآن ، أو من سنة   وطبيب ذاك العــالم الربانى
والعــلم أقسام ثلاث ، مالها   من رابع ، والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعــله   وكذلك الأسماء للرحمٰن
والأمر والنهى الذى هو دينه   وجزاؤه يوم المعاد الثانى
والكل فى القرآن والسنن التى   جاءت عن المبعوث بالقرآن
والله ما قال امرؤ متحذلق   بسواهما إلا من الهذيان

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية البقرة فى الأنداد .

الثانية : أن الصحابة رضى الله عنهم يفسرون الآية النازلة فى الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر .

الثالثة : أن الحلف بغير الله شرك .

الرابعة : أنه إذا حلف بغير الله صادقا فهو أكبر من اليمين الغَموس .

الخامسة : الفرق بين الواو وثُمَّ فى اللفظ .

باب

« ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله »

عن ابن عمر رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تحلفوا بآبائكم . من حُلف له بالله فليُصدِّق . ومن حُلِف له بالله فلْيَرْضَ . ومن لم يرضَ فليس من الله » رواه ابن ماجة بسند حسن .

قوله : « باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله »

عن ابن عمر رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تحلفوا بآبائكم . من حلف له بالله فليصدق ، ومن حُلف له بالله فليرض ، ومن لم يرض فليس من الله » رواه ابن ماجة بسند حسن .

قوله « لا تحلفوا بآبائكم » تقدم النهى عن الحلف بغير الله عموما .

قوله «من حلف له بالله فليصدق» هذا مما أوجبه الله تعالى على عباده ، وحضهم عليه فى كتابه . قال تعالى (٩ : ١١٩ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) وقال (٣٣ : ٣٥ والصادقين والصادقات) وقال (٤٧ : ٢١ فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم) وهو حال أهل البر ، كما قال تعالى (٢ : ١٧٧ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين — إلى قوله : أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) .

وقوله « ومن حُلف له بالله فليرض ، ومن لم يرض فليس من الله » أما إذا لم يكن له بحكم الشريعة على خصمه إلا اليمين فأحلفه ، فلا ريب أنه يجب عليه الرضا . وأما إذا كان فيما يجرى بين الناس مما قد يقع فى الاعتذارات من بعضهم لبعض ونحو ذلك ، فهذا من حق المسلم على المسلم : أن يقبل منه إذا حلف له معتذراً أو متبرئاً من تهمة . ومن حقه عليه : أن يحسن به الظن إذا لم يتبين خلافه ، كما فى الأثر عن عمر رضى الله عنه « ولا تظنن بكلمة خرجت من مسلم شرًّا وأنت تجد لها فى الخير محملا » .

وفيه : من التواضع والألفة والمحبة وغير ذلك من المصالح التى يحبها الله مالا يخفى على من له فهم . وذلك من أسباب اجتماع القلوب على طاعة الله ، ثم إنه يدخل فى حسن

فيه مسائل :

الأولى : النهى عن الحلف بالآباء .

الثانية : الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى .

الثالثة : وعيد من لم يرض .

الخلق الذى هو أثقل ما يوضع فى ميزان العبد ، كما فى الحديث وهو من مكارم الأخلاق .

فتأمل أيها الناصح لنفسه ما يصلحك مع الله تعالى : من القيام بحقوقه ، وحقوق عباده وإدخال السرور على المسلمين ، وترك الانقباض عنهم والترفع عليهم . فإن فيه من الضرر مالا يخطر بالبال ولا يدور بالخيال . و بسط هذه الأمور وذكر ما ورد فيها مذكور فى كتب الأدب وغيرها . فمن رزق ذلك والعمل بما ينبغى العمل به منه ، وترك ما يجب تركه من ذلك : دل على وفور دينه ، وكمال عقله . والله الموفق والمعين لعبده الضعيف المسكين . والله أعلم .

باب

(قول : ما شاء الله وشئت)

عن قُتَيلة : « أن يهوديًا أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنكم تشركون تقولون : ما شاء الله وشئت »

قوله : « باب قول : ما شاء الله وشئت »

عن قتيلة « أن يهوديًّا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنكم تشركون . تقولون : ما شاء الله وشئت ، وتقولون : والكعبة . فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة ، وأن يقولوا : ما شاء الله ثم شئت » رواه النسائي وصححه .

قوله « عن قتيلة » بمثناة مصغرة بنت صيفي الأنصارية صحابية مهاجرة ، لها حديث في سنن النسائي ، وهو المذكور في الباب . ورواه عنها عبد الله بن يسار الجعفي .

وفيه : قبول الحق ممن جاء به كائنًا من كان . وفيه : بيان النهي عن الحلف بالكعبة ، مع أنها بيت الله التي حجها وقصدها بالحج والعمرة فريضة . وهذا يبين أن النهي عن الشرك بالله عام لا يصلح منه شيء ، لا لملك مقرب ولا نبي مرسل . ولا للكعبة التي هي بيت الله في أرضه . وأنت ترى ما وقع من الناس اليوم من الحلف بالكعبة وسؤالها ما لا يقدر عليه إلا الله . ومن المعلوم أن الكعبة لا تضر ولا تنفع . وإنما شرع الله لعباده الطواف بها والعبادة عندها وجعلها للأمة قبلة ، فالطواف بها مشروع والحلف بها ودعاؤها ممنوع . فميز أيها المكلف بين ما يشرع وما يمنع ، وإن خالفك من خالفك من جهلة الناس الذين هم كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا .

قوله « إنكم تشركون وتقولون : ما شاء الله وشئت » والعبد وإن كانت له مشيئة فمشيئته تابعة لمشيئة الله ، ولا قدرة له على أن يشاء شيئًا إلا إذا كان الله قد شاءه ، كما قال تعالى (٨١ : ٢٨ ، ٢٩ لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) وقوله (٧٦ : ٢٩ ، ٣٠ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا . وما تشاءون إلا أن يشاء الله ، إن الله كان عليما حكيما) .

وتقولون : والـكعبة . فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : وربِّ الـكعبة . وأَن يقولوا : ما شاء الله ثم شئت » رواه النسائى وصححه .

وله أيضا عن ابن عباس رضى الله عنه : « أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما شاء الله وشئت ، فقال : أجعلتنى له ندًّا ؟ ما شاء الله وحده » .

ولابن ماجه : عن الطُّفيل — أخى عائشة لأمها — قال : « رأيتُ كأنى

وفى هذه الآيات والحديث : الرد على القدرية والمعتزلة نفاة القدر ، الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراده الله تعالى من العبد وشاءه ، وسيأتى ما يبطل قولهم فى « باب ما جاء فى منكرى القدر » إن شاء الله تعالى ، وأنهم مجوس هذه الأمة .

وأما أهل السنة والجماعة فتمسكوا بالـكتاب والسنة فى هذا الباب وغيره . واعتقدوا أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله تعالى فى كل شىء مما يوافق ما شرعه الله وما يخالفه ، من أفعال العباد وأقوالهم . فالـكل بمشيئة الله وإرادته . فما وافق ما شرعه رضيه وأحبه . وما خالفه كرهه من العبد ، كما قال تعالى : (٣٩ : ٧ إن تـكفروا فإن الله غنى عنـكم ولا يرضى لعباده الـكفر — الآية) .

وفيـه : بيان أن الحلف بالـكعبة شرك ؛ فإن النبى صلى الله عليه وسلم أقر اليهودى على قوله : « إنـكم تشركون » .

قوله « وله أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما : «أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم : ما شاء الله وشئت ، قال : أجعلتنى لله ندًّا ؟ بل ماشاء الله وحده » .

هذا يقرر ما تقدم من أن هذا شرك ؛ لوجود التسوية فى العطف بالواو .

وقوله « أجعلتنى لله ندًّا ؟ » فيه بيان أن من سوّى العبد بالله ولو فى الشرك الأصغر فقد جعله ندًّا لله ، شاء أم أبى ، خلافا لما يقوله الجاهلون ، مما يختص بالله تعالى من عبادة ، وما يجب النهى عنه من الشرك بنوعيه . و «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين»

قوله « ولابن ماجة عن الطفيل أخى عائشة لأمها قال « رأيت فيما يرى النائم كأنى

أتيت على نفرٍ من اليهود ، قلت : إنكم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون : عُزير ابنُ الله . قالوا : وإنكم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون : ماشاء الله وشاء محمد . ثم مررت بنفر من النصارى فقلت : إنكم لأنتم القومُ ، لولا أَنكم تقولون : المسيحُ ابن الله . قالوا : وإنكم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد . فلما أصبحتُ أخبرتُ بها من أخبرت . ثم أتيتُ النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، قال : هل أخبرت بها أحداً ؟ قلت : نعم . قال : فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعدُ ، فإن طُفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم ، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها . فلا تقولوا : ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا : ما شاء الله وحده » .

أتيت على نفر من اليهود ؛ فقلت : من أنتم ؟ قالوا : نحن اليهود . قلت : إنكم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون : عزيز ابن الله . قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد ، ثم مررت بنفر من النصارى . فقلت : من أنتم ؟ قالوا : نحن النصارى . قلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : المسيح ابن الله ، قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد ، فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ، ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال : هل أخبرت بها أحداً ؟ قلت : نعم. قال : فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : أما بعد فإن طفيلا رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم ، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها . فلا تقولوا : ماشاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا : ما شاء الله وحده » .

قوله « عن الطفيل أخي عائشة لأمها » هو الطفيل بن عبد الله بن سَخْبرة أخو عائشة لأمها ، صحابي له حديث عند ابن ماجة ، وهو ما ذكره المصنف في الباب .

وهذه الرؤيا حق أقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل بمقتضاها . فنهاهم أن يقولوا : ما شاء الله وشاء محمد ، وأمرهم أن يقولوا « ما شاء الله وحده » .

فيه مسائل :

الأولى : معرفة اليهود بالشرك الأصغر .

الثانية : فهم الإنسان إذا كان له هوى .

الثالثة : قوله صلى الله عليه وسلم . « أجعلتني لله نداً ؟ » فكيف بمن قال .
« مالى من ألوذ به سواك » والبيتين بعده ؟

الرابعة : أن هذا ليس من الشرك الأكبر لقوله : يمنعنى كذا وكذا » .

الخامسة : أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحى .

السادسة : أنها قد تكون سبباً لشرح بعض الأحكام.

وهذا الحديث والذى قبله أمرهم فيه أن يقولوا « ما شاء الله وحده » . ولا ريب أن هذا أكمل فى الإخلاص وأبعد عن الشرك من أن يقولوا « ثم شاء فلان » لأن فيه التصريح بالتوحيد المنافى للتنديد من كل وجه . فالبصير يختار لنفسه أعلى مراتب الكمال فى مقام التوحيد والإخلاص .

قوله « كان يمنعنى كذا وكذا أن أنهاكم عنها » ورد فى بعض الطرق « أنه كان يمنعه الحياء منهم وبعد هذا الحديث الذى حدثه به الطفيل عن رؤياه خطبهم صلى الله عليه وسلم فنهى عن ذلك نهيا بليغا ، فما زال صلى الله عليه وسلم يبلغهم حتى أكمل الله له الدين وأتم له به النعمة ، وبلّغ البلاغ المبين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

وفيه معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « الرؤيا الصالحة جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة » .

قلت : وإن كانت رؤيا منام فهى وحى ، يثبت ما يثبت بها بالوحى أمراً ونهياً .
والله أعلم .

باب

(من سَبَّ الدهرَ فقد آذَى الله)

وقول الله تعالى (٤٥ : ٢٤ وقالوا : ما هى إلا حياتُنا الدُّنيا نموت ونحْيا ، وما يُهْلِـكُنا إلا الدَّهر ، وما لهم بذلك من عِلْم ، إنْ هُمْ إلا يَظُنُّون) .

قوله : « باب من سب الدهر فقد آذى الله »

وقول الله تعالى (٤٥ : ٢٤ وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلـكنا إلا الدهر) .

قال العماد ابن كثير فى تفسيره : يخبر تعالى عن دهرية الـكفار ومن وافقهم من مشركى العرب فى إنـكار المعاد (وقالوا : ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلـكنا إلا الدهر) ما ثم إلا هذه الدار ، يموت قوم ويعيش آخرون ، وما ثم معاد ولا قيامة ، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد ، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم ، وهم ينكرون البدأة والرجعة ، وتقول الفلاسفة الدهرية الدورية ، المنـكرون للصانع ، المعتقدون أن فى كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شىء إلى ما كان عليه . وزعموا أن هذا قد تـكرر مرات لا تتناهى ، فـكابروا المعقول وكذبوا المنقول ، ولهذا قالوا (وما يهلـكنا إلا الدهر) قال الله تعالى (وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) أى يتوهمون ويتخيلون . فأما الحديث الذى أخرجه صاحبا الصحيح وأبو داود والنسائى من رواية سفيان بن عيينة عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى : يؤذينى ابن آدم يَسُبُّ الدهر وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلب الليل والنهار » وفى رواية « لا تسبوا الدهر فإنى أنا الدهر » وفى رواية « لا يقل ابن آدم : يا خيبة الدهر ، فإنى أنا الدهر ، أرسل الليل والنهار ، فإن شئت قبضتهما » اهـ .

قال فى شرح السنة : حديث متفق على صحته أخرجاه من طريق معمر من أوجه عن أبى هريرة قال : ومعناه أن العرب كان من شأنها ذم الدهر أى سبه عند النوازل ؛ لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمـكاره . فيقولون : أصابتهم قوارع الدهر

في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم ، يَسُبُّ الدهرَ وأنا الدهرُ ، أُقلِّبُ الليلَ والنهارَ » .

وأبادهم الدهر ، فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها فكان مرجع سبها إلى الله عز وجل إذ هو الفاعل في الحقيقة الأمور التي يصنعونها فنهوا عن سب الدهر . اه باختصار .

وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جداً بهذا الطريق . قال « كان أهل الجاهلية يقولون : إنما يهلكنا الليل والنهار ، وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا ، فقال الله في كتابه (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) . ويسبون الدهر . فقال الله عز وجل « يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار » .

وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن منصور عن سريج بن النعمان عن ابن عيينة مثله . ثم روى عن يونس عن ابن وهب عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يقول الله تعالى : يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر ، بيدي الليل والنهار » وأخرجه صاحب الصحيح والنسائي من حديث يونس بن يزيد به .

وقال محمد بن إسحاق عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله عز وجل : استقرضت عبدي فلم يعطني ، ويسبني عبدي ، يقول : وادهراه ، وأنا الدهر » .

قال الشافعي وأبو عبيد وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا : يا خيبة الدهر فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه ، وإنما فاعلها هو الله تعالى . فكأنما سبوا الله سبحانه ؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة ، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار ؛ لأن الله هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال ، هذا أحسن ما قيل في تفسيره — وهو المراد — والله أعلم .

وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عَدِّهم « الدهر » من الأسماء الحسنى أخذاً من هذا الحديث . اه .

وفى رواية : « لاتسبوا الدهر ؛ فإن الله هو الدهر » .

فيه مسائل :

الأولى : النهى عن سب الدهر .

الثانية : تسميته أذى لله .

الثالثة : التأمل فى قوله : « فإن الله هو الدهر » .

الرابعة : أنه قد يكون سابًّا ، ولو لم يقصده بقلبه .

وقد بين معناه فى الحديث بقوله « أُقَلِّب الليلَ والنهار » وتقليبه تصرفه تعالى فيه بما يحبه الناس ويكرهونه .

وفى هذا الحديث زيادة لم يذكرها المصنف رحمه الله تعالى ، وهى قوله « بيدى الأمر»

قوله : وفى رواية « لا تسبوا الدهر ؛ فإن الله هو الدهر » .

معنى هذه الرواية : هو ما صرح به فى الحديث من قوله « وأنا الدهر ، أقلب الليل والنهار » يعنى أن ما يجرى فيه من خير وشر بإرادة الله وتدبيره بعلم منه تعالى وحكمة ، لا يشاركه فى ذلك غيره ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، فالواجب عند ذلك حمده فى الحالتين وحسن الظن به سبحانه و بحمده والرجوع إليه بالتوبة والإنابة . كما قال تعالى (٧ : ١٦٨ و بلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يذكرون) وقال تعالى (٢١ : ٣٥ ونبلوكم بالشر والخير فتنة و إلينا ترجعون) ونسبة الفعل إلى الدهر ومسبته كثيرة ، كما فى أشعار الوالدين ، كابن المعتز والمتنبى وغيرهما . وليس منه وصف السنين بالشدة ونحو ذلك . كقوله تعالى (١٢ : ٤٨ ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد — الآية) وقال بعض الشعراء :

إن الليالى من الزمان مهولة تُطوَى وتنشر بينها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة وطوالهن مع السرور قصــار

وقال أبو تمام :

أعوام وصل كاد يُنْسى طيبها ذِكرى النوى ، فـكأنها أيام
ثم انبرت أيام هجر أعقبت نحوى أسًى ، فـكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها فـكأنها وكأنهم أحــلام

باب

« التسمى بقاضى القضاة ونحوه »

فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن أخنَعَ اسمٍ عند الله رجلٌ تسمى ملك الأملاك ، لا مالك إلا الله » .

قال سفيان : « مثل شاهان شاه » .

وفى رواية : « أغْيظُ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه » .

قوله : « باب التسمى بقاضى القضاة ونحوه »

ذكر المصنف رحمه الله هذه الترجمة إشارة إلى النهى عن التسمى بقاضى القضاة قياساً على ما فى حديث الباب ؛ لكونه شبهه فى المعنى ، فينهى عنه .

قوله فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك ، لا مالك إلا الله » .

لأن هذا اللفظ إنما يصدق على الله تعالى . فهو ملك الأملاك . لا ملك أعظم ولا أكبر منه ، مالك الملك ذو الجلال والإكرام . وكل ملك يؤتيه الله من يشاء من عباده فهو عارية يسرع ردها إلى المعير . وهو الله تعالى ، ينزع المِلكَ من مُلكِهِ تارة ، وينزع الْمُلْكَ منه تارة ، فيصير لا حقيقة له سوى اسم زال مسماه ، وأما رب العالمين فملكه دائم كامل لا انتهاء له بيده القسط يخفضه ويرفعه ، ويحفظ على عباده أعمالهم بعلمه سبحانه وتعالى ، وما تكتبه الحفظة عليهم ،فيجازى كل عامل بعمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . كما ورد فى الحديث « اللهم لك الحمد كله . ولك الملك كله . وبيدك الخير كله . وإليك يرجع الأمر كله . أسألك من الخير كله . وأعوذ بك من الشر كله » .

قوله « قال سفيان » يعنى ابن عيينة « مثل شاهنشاه » عند العجم عبارة عن ملك الأملاك ، ولهذا مثل به سفيان ؛ لأنه عبارة عنه بلغة العجم .

قوله « وفى رواية : أغيظ رجل على الله وأخبثه » .

قوله : « أخنع » يعني : أوضع .

قوله « أغيظ » من الغيظ وهو مثل الغضب والبغض . فيكون بغيضاً إلى الله ، مغضوباً عليه والله أعلم .

قوله « وأخبثه » وهو يدل أيضاً على أن هذا خبيث عند الله . فاجتمعت فى حقه هذه الأمور لتعاظمه فى نفسه وتعظيم الناس له بهذه الكلمة التى هى من أعظم التعظيم ، فتعظمه فى نفسه وتعظيم الناس له بما ليس له بأهل ، وضعه الله يوم القيامة ، فصار أخبث الخلق وأبغضهم إلى الله وأحقرهم ؛ لأن الخبيث البغيض عند الله يكون يوم القيامة أحقر الخلق وأخبثهم ، لتعاظمه فى نفسه على خلق الله بنعم الله .

قوله « أخنع ، يعنى : أوضع » هذا هو معنى « أخنع » فيفيد ماذكرنا فى معنى « أغيظ » أنه يكون حقيراً بغيضاً عند الله .

وفيه التحذير من كل ما فيه تعاظم . كما أخرج أبو داود عن أبى مِجلز قال « خرج معاوية رضى الله عنه على ابن الزبير وابن عامر . فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير . فقال معاوية لابن عامر : اجلس ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار » وأخرجه الترمذى أيضاً ، وقال : حسن .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئاً على عصا ، فقمنا إليه . فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم ، يعظم بعضهم بعضاً » رواه أبو داود .

قوله «أغيظ رجل» هذا من الصفات التى تمر كما جاءت ، وليس شىء مما ورد فى الكتاب والسنة إلا ويجب اتباع الكتاب والسنة فى ذلك وإثباته على وجه يليق بجلال الله وعظمته تعالى ، إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل كما تقدم . والباب كله واحد ، وهذا هو قول أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الفرق الناجية من الثلاث والسبعين فرقة . وهذا التفرق والاختلاف إنما حدث فى أواخر القرن الثالث وما بعده كما لا يخفى على من له معرفة بما وقع فى الأمة من التفرق والاختلاف والخروج عن الصراط المستقيم ، والله المستعان .

فيه مسائل :

الأولى : النهى عن التسمى بملك الأملاك .

الثانية : أن ما فى معناه مثله ، كما قال سفيان .

الثالثة : التفطن للتغليظ فى هذا ونحوه ، مع القطع بأنَّ القلبَ يقصد معناه .

الرابعة : التفطن أن هذا لأجل الله سبحانه .

باب

(احترام أسماء الله تعالى ، وتغيير الاسم لأجل ذلك)

عن أبى شريح « أنه كان يُكنَى أبا الحكم ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : إن الله هو الحكَمَ ، وإليه الحُكْمُ .

قوله « باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك » .

عن أبى شريح « أنه كان يكنى أبا الحكم . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : إن الله هو الحكم وإليه الحكم ، فقال : إن قومى إذا اختلفوا فى شىء أتونى فحكمت بينهم فرضى كلا الفريقين . فقال : ما أحسن هذا . فما لك من الولد ؟ قلت : شريح ومسلم وعبد الله . قال : فمن أكبرهم ؟ قلت : شريح . قال : فأنت أبو شريح » رواه أبو داود وغيره .

قوله « عن أبى شريح » قال فى خلاصة التذهيب : هو أبو شريح الخزاعى ، اسمه خويلد بن عمرو أسلم يوم الفتح ، له عشرون حديثاً ، اتفقا على حديثين وانفرد البخارى بحديث ، وروى عنه أبو سعيد المقبرى ونافع بن جبير وطائفة . قال ابن سعد : مات بالمدينة سنة ثمان وستين . وقال الشارح : اسمه هانئ بن يزيد الكندى ، قاله الحافظ وقيل : الحارث الضبابى قاله المزّى .

قوله « يكنى » الكنية ما صدر بأب أو أم ونحو ذلك واللقب ما ليس كذلك كزين العابدين ونحوه .

وقول النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله هو الحكم وإليه الحكم » فهو سبحانه الحكم

فى الدنيا والآخرة ؛ يحكم بين خلقه فى الدنيا بوحيه الذى أنزل على أنبيائه و رسله ، وما من قضية إلا والله فيها حكم بما أنزل على نبيه من الكتاب والحكمة ، وقد يسر الله معرفة أكثر ذلك لأكثر العلماء من هذه الأمة ؛ فإنها لا تجتمع على ضلالة ، فإن العلماء وإن إختلفوا فى بعض الأحكام فلا بد أن يكون المصيب فيهم واحداً ، فمن رزقه الله تعالى فوة الفهم ، وأعطاه ملكة يقتدر بها على فهم الصواب من أقوال العلماء ، يسر له ذلك بفضله ومنّه عليه ، و إحسانه إليه ، فما أجلّها من عطية ، فنسأل الله من فضله .

قوله « وإليه الحكم فى الدنيا والآخرة » كما قال تعالى (٤٢ : ١٠ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله) وقال (٤ : ٥٩ فإن تنازعتم فى شيء فردُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) فالحكم إلى الله هو الحكم إلى كتابه والحكم إلى رسوله هو الحكم إليه فى حياته و إلى سننه بعد وفاته .

وقد قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ لما بعثه إلى اليمن « بِمَ تحكم ؟ قال : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى . فقال : الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله إلى ما يرضى رسول الله » فمعاذ من أجَلّ علماء الصحابة بالأحكام ومعرفة الحلال من الحرام ، ومعرفة أحكام الكتاب والسنة . ولهذا ساغ له الاجتهاد إذا لم يجد للقضية حكما فى كتاب الله ، ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم بخلاف ما يقع اليوم وقبله من أهل التفريط فى الأحكام ممن يجهل حكم الله فى كتابه وسنة رسوله ، فيظن أن الاجتهاد يسوغ له مع الجهل بأحكام الكتاب والسنة وهيهات .

وأما يوم القيامة فلا يحكم بين الخلق إلا الله عز وجل إذا نزل لفصل القضاء بين العباد فيحكم بين خلقه بعلمه . وهو الذى لا يخفى عليه خافية من أعمال خلقه (٤ : ٤٠ إن الله لا يظلم مثقال ذرة و إن تك حسنة يضاعفها و يؤت من لدُنْه أجراً عظيما) والحكم يوم القيامة إنما هو بالحسنات والسيئات ، فيؤخذ للمظلوم من الظالم ، من حسناته بقدر ظلامته إن كان له حسنات . و إن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم ، فطرح على سيئات الظالم لا يزيد على هذا مثقال ذرة ، ولا ينقص هذا عن حقه بمثقال ذرة .

فقال : إن قومى إذا اختلفوا فى شىء أتونى فحكمت بينهم ، فرضىَ كلا الفريقين . فقال : ما أحسن هذا فمالك من الولد؟ قال شُريح ، ومسلم ، وعبد الله . قال : فمن أكبرهم ؟ قلت : شريح . قال : فأنت أبو شريح » رواه أبو داود وغيره .

فيه مسائل :

الأُولى : احترام أسماء الله وصفاته ، ولو لم يقصد معناه .

الثانية : تغيير الاسم لأجل ذلك .

الثالثة : اختيار أكبر الأبناء للكُنْية .

قوله : « فإن قومى إذا اختلفوا فى شىء أتونى فحكمت بينهم فرضى كلا الفريقين ، فقال : ما أحسن هذا » فالمعنى — والله أعلم — أن أبا شريح لما عرف منه قومه أنه صاحب إنصاف وتحرٍّ للعدل بينهم ، ومعرفة ما يرضيهم من الجانبين ، صار عندهم مرضيا ، وهذا هو الصلح ؛ لأن مداره على الرضى لا على الإلزام ، ولا على الكهان وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ولا على الاستناد إلى أوضاع أهل الجاهلية من أحكام كبرائهم وأسلافهم التى تخالف حكم الكتاب والسنة . كما قد يقع اليوم كثيراً ، كحال الطواغيت الذين لا يلتفتون إلى حكم الله ولا إلى حكم رسوله . وإنما المعتمد عندهم ما حكموا به بأهوائهم وآرائهم .

وقد يلتحق بهذا بعض المقلدة لمن لم يسغ تقليده فيعتمد على قول من قلده ويترك ما هو الصواب ، الموافق لأصول الكتاب والسنة . والله المستعان .

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « فما لك من الولد ؟ قال شريح ، ومسلم ، وعبد الله . قال : فمن أكبرهم ؟ قلت : شريح . قال : فأنت أبو شريح » فيه : تقديم الأكبر فى الكنية وغيرها غالباً . وجاء هذا المعنى فى غير ما حديث . والله أعلم .

باب

(من هَزَل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول)

وقول الله تعالى : (٩ : ٦٥ ولئن سألتهم ليقولنَّ : إنما كنا نخوض ونلعب. قل : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟) .

عن ابن عمر، ومحمد بن كعبٍ ، وزيد بن أسْلَم ، وقتادة ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ أنه قال رجل في غَزْوة تَبوك : « ما رأينا مثل قُرَّائنا هؤلاء أرْغَبُ بطونا ، ولا أكذب ألسنًا ، ولا أجبنُ عند اللقاء ، يعني رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه القراء . فقال له عَوْفُ بن مالك : كذبت ، ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذهب عوف إلى رسول الله صلى الله

قوله « باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول » أي : فقد كفر .

قوله « وقول الله تعالى (٩ : ٦٥ ولئن سألتهم ليقولن : إنما كنا نخوض ونلعب . قل : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟) » .

قال العماد ابن كثير رحمه الله في تفسيره قال أبو مَعْشر المدني عن محمد بن كعب القُرظي وغيره : « قالوا : قال رجل من المنافقين : ما أرى مثل قُرَّائنا هؤلاء ؟ أرغبنا بطونا ، وأكذبنا ألسناً ، وأجبننا عند اللقاء ، فرُفع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ارتحل وركبَ ناقته ، فقال : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ، ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق ، فقال (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ، إن نعفُ عن طائفة منكم نعذِّب طائفة بأنهم كانوا مجرمين) وإن رجليه ليسفعان الحجارة ، وما يلتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متعلق بِنِسْعَة ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم » وقال عبد الله بن وهب . أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر قال : « قال رجل في غزوة تبوك في مجلس : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ، ولا أكذب ألسناً ، ولا أجبن عند اللقاء ، فقال رجل في المجلس ، كذبتَ ، ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ ذلك رسول الله

عليه وسلم ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه . فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ارتحل وركب ناقته فقال : يارسول الله ، إنما كُنَّا نخوض ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق . قال ابن عمر : كأنى أنظر إليه

صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن . قال عبد الله بن عمر : وأنا رأيته متعلقاً بحِقْب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم تَنكُبه الحجارة ، وهو يقول : يارسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم » وقد رواه الليث عن هشام بن سعد بنحو من هذا .

وقال ابن إسحاق « وقد كان جماعة من المنافقين منهم : وديعة بن ثابت أخو بنى أمية ابن زيد بن عمرو بن عوف ، ورجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له مخشى بن حِمْير ، يشيرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منطلق إلى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكأنا بكم غداً مُقرَّنين فى الحبال ، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين . فقال مخشى بن حمير : والله لوددت أنى أقاضى على أن يُضرَبَ كلُّ رجل منا مائة جلدة ، وإنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيما بلغنى — لعمار بن ياسر : أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل : بلى قلتم كذا وكذا ، فانطلق إليهم عمار ، فقال ذلك لهم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون إليه ، فقال وديعة بن ثابت — ورسول الله واقف على راحلته — فجعل يقول وهو آخذ بحقبها : يارسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب . فقال مخشى بن حمير : يارسول الله قعد بى اسمى واسم أبى ، فكأن الذى عناه أى بقوله تعالى (إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة) فى هذه الآية : مخشى بن حمير ، فسُمِّى : عبدَ الرحمن ، وسأل الله أن يُقتل شهيداً لايُعلم بمكانه ، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر » .

وقال عكرمة فى تفسير هذه الآية : « كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول : اللهم إنى أسمع آية وأنا أعنى بها تقشعرّ منها الجلود وتَجِلُ منها القلوب . اللهم فاجعل وفاتى قتلا فى سبيلك ، لا يقول أحد أنا غسلت ، أنا كفنت . أنا دفنت ، قال : فأصيب يوم اليمامة ، فما أحد من المسلمين إلا وقد وُجدَ غيرُه » .

متعلقاً بِنِسْعَة ناقةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الحجارة تَنكبُ رجليه ، وهو يقول : إنما كنا نخوض ونلعب . فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أبالله وآياته ورسله كنتم تستهزئون ؟ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) ما يلتفت إليه وما يزيده عليه » .

وقوله (لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) أي بهذه المقالة التي استهزأتم بها (إن نعف عن طائفة منكم) أي مخشي بن حمير (نعذّب طائفة) أي لايعفى عن جميعكم ولا بد من عذاب بعضكم (إنهم كانوا مجرمين) أي بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة . انتهى .

قال شيخ الإسلام : وقد أمره الله تعالى أن يقول لهم (قد كفرتم بعد إيمانكم) وقول من يقول : إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولا بقلوبهم : لا يصح ؛ لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر ، فلا يقال قد كفرتم بعد إيمانكم ، فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر ، وإن أريد أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان ، فهم لم يظهروا للناس إلا لخواصهم ، وهم مع خواصهم ما زالوا كذلك ، ولا يدل اللفظ على أنهم مازالوا منافقين .

وقال رحمه الله في موضع آخر : فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم : إنما تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له ، بل إنما كنا نخوض ونلعب ، وبين أن الاستهزاء بآيات الله كفر ، ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدراً بهذا الكلام ، ولو كان الإيمان في قلبه لمنعه أن يتكلم بهذا الكلام ، والقرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه ، كقوله تعالى (٢٤ : ٤٧ ـ ٥٢ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ـ إلى قوله : إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون) فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول ، وأخبر أن المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا ، فبين أن هذا من لوازم الإيمان . انتهى .

وفيه : بيان أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها أو عمل يعمل به وأشدها خطراً إرادات القلوب ، فهي كالبحر الذي لا ساحل له ، ويفيد الخوف من النفاق الأكبر ،

فيه مسائل :

الأولى : وهى العظيمة — أن مَنْ هَزَل بهذا : إنه كافر .

الثانية : أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائنا من كان .

الثالثة : الفرق بين النميمة ، وبين النصيحة لله ولرسوله .

الرابعة : الفرقُ بين العفو الذى يُحبُّه الله ، وبين الغِلْظة على أعداء الله .

الخامسة: أن من الاعتذار ما ينبغى أن يُقبلَ .

فإن الله تعالى أثبت لهؤلاء إيمانا قبل أن يقولوا ما قالوه ، كما قال ابن أبى مليكة « أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه » نسأل الله السلامة والعفو والعافية فى الدنيا والآخرة .

باب

قول الله تعالى : (٤١ : ٥٠ ولئن أذقناه رحمةً مِنّا من بعد ضَرّاء مَسَّته ليقولنَّ : هذا لى ، وما أظن الساعة قائمةً ، ولئن رددت إلى رَبِّى إن لى عنده للحُسْنَى ، فلنُنَبِّئَنَّ الذين كفروا بما عملوا ، ولنُذيقنَّهم من عذاب غليظ) .

قال مجاهد : « هذا بعملى وأنا محقوق به » .

وقال ابن عباس : « يريد من عندى » .

وقوله : (قال : إنما أوتيته على علم عندى) قال قتادة : « على علم منى بوجوه المكاسب » .

قوله «باب قول الله تعالى (٤١ : ٥٠ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته) الآية » .

ذكر المصنف رحمه الله تعالى عن ابن عباس وغيره من المفسرين فى معنى هذه الآية وما بعدها ما يكفى فى المعنى ويشفى .

قوله « قال مجاهد : هذا بعملى وأنا محقوق به » وقال ابن عباس : « يريد من عندى » وقوله (قال إنما أوتيته على علم عندى) قال قتادة « على علم منى بوجوه المكاسب » وقال آخرون « على علم من الله أنى له أهل » وهذا معنى قول مجاهد : « أوتيته على شرف » . وليس فيما ذكروه اختلاف ، وإنما هى أفراد المعنى .

قال العماد ابن كثير رحمه الله فى معنى قوله تعالى (٣٩ : ٤٩ وإذا خوّلناه نعمة منا قال : إنما أوتيته على علم بل هى فتنة) يخبر أن الإنسان فى حال الضر يضرع إلى الله تعالى وينيب إليه ويدعوه ، ثم إذا خوّله نعمة منه طغى وبغى و (قال إنما أوتيته على علم) أى لما يعلم الله من استحقاق له ، ولولا أنى عند الله حظيظ لما خوّلنى هذا . قال تعالى (بل هى فتنة) أى ليس الأمر كما زعمتم بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصى ؟ مع علمنا المتقدم بذلك (بل هى فتنة) أى اختبار (ولكن أكثرهم لا يعلمون) فلهذا يقولون ما يقولون ، ويدعون ما يدعون (قد قالها الذين من قبلهم) أى قد قال هذه المقاله وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون)

وقال آخرون : « على علم من الله أنى له أهل » وهذا معنى قول مجاهد : « أوتيته على شرف » .

وعن أبى هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن ثلاثة من بنى إسرائيل : أبرصَ ، وأقرعَ ، وأعمى . فأراد الله أن يبتليهم ، فبعث إليهم مَلَكاً . فأتى الأبرصَ ، فقال : أىُّ شىء أحبُّ إليك ؟ قال : لونٌ حسن ، وجلد حسن ، ويَذهَبُ عنى الذى قد قذَرنى الناسُ به . قال : فمسحه فذهب عنه قَذَره فأُعطِىَ لوناً حسناً وجلداً حسناً. قال : فأىُّ المال أحبُّ إليك ؟ قال : الإبل أو البقر — شك إسحاق ، فأُعطىَ ناقة عُشَراء ، وقال : بارك الله لك فيها . قال : فأتى الأقرعَ ، فقال : أىُّ شىء أحبُّ إليك ؟ قال : شعر حسن . ويذهب عنى الذى قد قَذرنى الناس به ، فمسحه ، فذهب عنه ، وأُعطى شعراً حسناً . فقال : أىُّ المال أحبُّ إليك ؟ قال : البقر أو الإبل ، فأُعطى بقرة حاملا . قال : بارك الله لك فيها ، فأتى الأعمى ، فقال : أىُّ شىء أحبُّ إليك ؟ قال : أن يردَّ الله إلىَّ

أى فما صح قولهم ، ولا نفعهم جمعهم وما كانوا يكسبون ، كما قال تعالى مخبراً عن قارون (٢٨ : ٧٦ ـ ٧٨ إذ قال له قومه لا تفرح ، إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين . قال : إنما أوتيته على علم عندى ، أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ؟ ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون) وقال تعالى (٢٦ : ٢٣٨ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين) اهـ.

قوله « وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن ثلاثة ـ الحديث .

« أخرجاه » أى البخارى ومسلم ، والناقة العشراء — بضم العين وفتح الشين وبالمد — هى الحامل .

بصَرى فأبصر به الناس . فمسحه ، فردَّ الله إليه بصره . قال : فأىُّ المال أحبُّ إليك ؟ قال : الغنم . فأعطى شاة والداً . فأُنْتِجَ هذان ، وَوَلَّد هذا . فكان لهذا وادٍ من الإبل ، ولهذا وادٍ من البقر ، ولهذا وادٍ من الغنم . قال : ثم إنه أتى الأبرصَ فى صورته وهيئته . فقال : رجلٌ مسكين قد انقطعت بى الحِبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال — بعيراً أَتَبَلَّغُ به فى سفرى ، فقال : الحقوق كثيرة ، فقال كأنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يَقْذَرُكَ الناس ، فقيراً ، فأعطاك الله عز وجل المال؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر فقال : إن كنت كاذبًا فصيَّرك الله إلى ما كنتَ وأتى الأقرعَ فى صورته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، وردَّ عليه مثل ما ردَّ عليه هذا فقال : إن كنتَ كاذبا فَصيَّرك الله إلى ما كنتَ . قال : وأتى الأعمى فى صورته ، فقال : رجلٌ مسكين وابنُ سبيل . قد انقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ لى اليومَ إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رَدَّ عليك بصرك شاةً أَتَبَلَّغُ بها فى سفرى فقال : قد كنت أعمى فرَدَّ الله إلىَّ بصرى ، فخذْ ما شئتَ ، ودَعْ ما شئتَ ، فوالله لا أَجْهَدُكَ اليومَ بشىء أخذته لله ، فقال : أَمْسِكْ مالك ، فإنما ابتُليتم ، فقد رضىَ الله عنك ، وسَخِطَ على صاحبيك » أخرجاه.

قوله (أنتج) وفى رواية (فنتج) معناه : تولى نتاجها ، والناتج للناقة كالقابلة للمرأة .

قوله (ولد هذا) هو بتشديد اللام ، أى تولى ولادتها ، وهو بمعنى (أنتج) فى الناقة . فالمولد والناتج والقابلة بمعنى واحد ، لكن هذا للحيوان ، وذلك لغيره .

وقوله (انقطعت بى الحبال) هو بالحاء المهملة والباء الموحدة ، هى الأسباب .

قوله (لا أجهدك) معناه : لا أشق عليك فى رد شىء تأخذ ، أو تطلبه من مالى ، ذكره النووى .

وهذا حديث عظيم ، وفيه معتبر : فإن الأولَين جحدا نعمة الله ، فما أقرا لله بنعمة ،

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآية .

الثانية : ما معنى : (ليقولنَّ هذا لى)

الثالثة : ما معنى قوله : (إنما أُوتيته على علم عندى) .

الرابعة : ما فى هذه القصة العجيبة من العِبَرِ العظيمة .

ولا نسبا النعمة إلى المنعم بها ، ولا أديا حق الله ، فحلَّ عليهما السخط ، وأما الأعمى فاعترف بنعمة الله ونسبها إلى من أنعم عليه بها ، وأدى حق الله فيها ، فاستحق الرضا من الله بقيامه بشكر النعمة لما أتى بأركان الشكر الثلاثة التى لا يقوم الشكر إلا بها ، وهى الإقرار بالنعمة ، ونسبتها إلى المنعم ، وبذلها فيما يحب .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة ، فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلا بها لم يشكرها ، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضاً ، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها ، ومن عرف النعمة والمنعم بها ، وأقرّ بها ولم يجحدها ، ولكن لم يخضع له ولم يحبه ويرض به وعنه ، ولم يشكره أيضاً ، ومن عرفها وعرف المنعم بها وأقر بها ، وخضع للمنعم بها ، وأحبه ورضى به وعنه ، واستعملها فى محابه وطاعته ، فهذا هو الشاكر لها ، فلا بد فى الشكر من علم القلب ، وعمل يتبع العلم ، وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له .

قوله (قذرنى الناس) بكراهة رؤيته وقربه منهم .

باب

قول الله تعالى : (٧ : ١٩٠ فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما ، فتعالى الله عما يشركون) .

قوله : قول الله تعالى :

(٧ : ١٩٠ فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما ، فتعالى الله عما يشركون) .

قال الإمام أحمد رحمه الله فى معنى هذه الآية : حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سَمُرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال : سَمِّيه عبد الحارث ؛ فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاش . وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره » . وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار بُندار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به . ورواه الترمذى فى تفسير هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبد الصمد به ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه . ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعاً ، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . و رواه الإمام أبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيره عن أبى زرعة الرازى عن هلال بن فياض عن عمر بن إبراهيم به مرفوعاً .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا سهيل بن يوسف عن عمرو عن الحسن (جعلا له شركاء فيما آتاهما) قال « كان هـذا فى بعض أهل الملل ولم يكن بآدم » . وحدثنا بشر بن معاذ قال : حدثنى يزيد ، حدثنا سعيد عن قتادة قال « كان الحسن يقول : هم اليهود والنصارى ، رزقهم الله أولاداً فهوّدوا ونصّروا » وهذا إسناد صحيح عن الحسن رحمه الله .

قال العماد ابن كثير فى تفسيره : وأما الآثار : فقال محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال : « كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فتعبدهم لله وتسميهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك ، فيصيبهم الموت ؛ فأتاهما إبليس فقال : أما إنكما

قال ابن حزم : اتفقوا على تحريم كل اسم مُعبَّد لغيرِ الله ، كعبد عمرو ، وعبد الكعبة ، وما أشبه ذلك .

لو تسميانه بغير الذى تسميانه به لعاش ، فولدت له رجلا فسماه عبد الحارث ، ففيه أنزل الله (هو الذى خلقكم من نفس واحدة — الآية) . وقال العوفى عن ابن عباس : « فأتاهما الشيطان فقال : هل تدريان ما يولد لكما ؟ أم هل تدريان ما يكون : أبهيمة أم لا ؟ وزين لهما الباطل ؛ إنه لغوىٌّ مبين ، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا ، فقال لهما الشيطان : إنكما إن لم تسمياه بى لم يخرج سويًّا ، ومات كما مات الأول . فسميا ولدهما عبد الحارث ، فذلك قوله تعالى (فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما ، فتعالى الله عما يشركون) » .

وذكر مثله عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . ورواه ابن أبى حاتم . وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ، ومن الطبقة الثانية : قتادة والسدى وجماعة من الخلف ، ومن المفسرين والمتأخرين جماعات لا يحصون كثرة . قال العماد ابن كثير : وكأن أصله — والله أعلم — مأخوذ من أهل الكتاب .

قلت : وهذا بعيد جداً .

قوله « قال ابن حزم : اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله ، كعبد عمرو ، وعبد الكعبة ، وما أشبه ذلك ، حاشى عبد المطلب »

« ابن حزم » : هو عالم الأندلس ، أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبى الظاهرى . صاحب التصانيف ، توفى سنة ست وخمسين وأربعمائة . وله اثنتان وسبعون سنة .

وعبد المطلب هذا :هو جد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو ابن هاشم بن عبد مناف ابن قُصَىٍّ بن كلاب بن مُرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وما فوق عدنان مختلف فيه . ولا ريب أنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام .

حكى رحمه الله اتفاق العلماء على تحريم كل ما عُبِّد لغير الله ؛ لأنه شرك فى الربوبية والإلهية ؛ لأن الخلق كلهم ملك لله وعبيد له ، استعبدهم لعبادته وحده ، وتوحيده فى ربوبيته وإلهيته ، فمنهم من عبد الله ووحده فى ربوبيته وإلهيته ، ومنهم من أشرك به فى إلهيته

حاشى عبدَ المطلب .

وأقر له بربوبيته وأسمائه وصفاته ، وأحكامه القدرية جارية عليهم ولا بد ، كما قال تعالى (١٩ : ٩٣ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً) فهذه هى العبودية العامة . وأما العبودية الخاصة فإنها تختص بأهل الإخلاص والطاعة ، كما قال تعالى(أليس الله بكاف عبده ؟) ونحوها .

قوله (حاشى عبد المطلب) هذا استثناء من العموم المستفاد من « كل » وذلك أن تسميته بهذا الاسم لا محذور فيها ؛ لأن أصله من عبودية الرق ، وذلك أن المطلب أخو هاشم قدم المدينة ، وكان ابن أخيه « شيبة » هذا قد نشأ فى أخواله بنى النجار من الخزرج ؛ لأن هاشماً تزوج فيهم امرأة ، فجاءت منه بهذا الابن ، فلما شب فى أخواله ، و بلغ سن التمييز سافر به عمه المطلب إلى مكة بلد أبيه وعشيرته فقدم به مكة وهو رديفه ، فرآه أهل مكة وقد تغير لونه بالسفر ، فحسبوه عبداً للمطلب ، فقالوا : هذا عبد المطلب ، فعلق به هذا الاسم وركبه ، فصار لا يذكر ولا يدعى إلا به . فلم يبق للأصل معنى مقصود وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « أنا ابن عبد المطلب » وقد صار معظما فى قريش والعرب فهو سيد قريش وأشرفهم فى جاهليته ، وهو الذى حفر زمزم وصارت له السقاية وفى ذريته من بعده . و « عبد الله » والد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد بنى عبد المطلب ، وتوفى فى حياة أبيه . قال الحافظ صلاح الدين العلائى فى كتاب الدرة السنية فى مولد خير البرية كان سن أبيه عبد الله حين حملت منه آمنة برسول الله صلى الله عليه وسلم نحو ثمانية عشر عاماً ، ثم ذهب إلى المدينة ليمتار منها تمراً لأهله ، فمات بها عند أخواله بنى عدى بن النجار والنبى صلى الله عليه وسلم حمل على الصحيح . انتهى .

قلت : وصار النبى صلى الله عليه وسلم لما وضعته أمه فى كفالة جده عبد المطلب . قال الحافظ الذهبى : وتوفى أبوه عبد الله وللنبى صلى الله عليه وسلم ثمانية وعشرون شهراً ، وقيل : أقل من ذلك ، وقيل : وهو حمل . توفى بالمدينة ، وكان قد قدمها ليمتار تمراً . وقيل : بل مر بها راجعا من الشام ، وعاش خمسة وعشرين سنة . قال الواقدى : وذلك أثبت الأقاويل فى سنه و وفاته . وتوفيت أمه آمنة بالأبواء ، وهى راجعة به صلى الله عليه وسلم إلى مكة من زيارة أخوال أبيه بنى عدى بن النجار ، وهو يومئذ ابن ست سنين ومائة

وعن ابن عباس فى الآية « قال : لما تغشاها آدم حملت ، فأتاهما إبليس . فقال : إنى صاحبكما الذى أخرجتكما من الجنة لتطيعُننى أو لأجعلنَّ له قرنى أيل فيخرج من بطنك فيشقه . ولأفعلنَّ ولأفعلنَّ ، يخوِّفهما . سمِّياه عبد الحارث . فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتاً . ثم حملت ، فأتاهما . فقال مثل قوله : فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتاً . ثم حملت فأتاهما ، فذكر لهما . فأدركهما حُبُّ الولد ، فسمياه عبد الحارث ، فذلك قوله (جعلا له شركاء فيما آتاهما) » رواه ابن أبى حاتم.

وله بسند صحيح عن قتادة قال : « شركاء فى طاعته ، ولم يكن فى عبادته » .

وله بسند صحيح عن مجاهد فى قوله : (لئن آتيتنا صالحاً) قال : « أشفقا أن أن لا يكون إنساناً » وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما .

فيه مسائل :

الأولى : تحريم كل اسم معبد لغير الله . الثانية : تفسير الآية .

الثالثة : أن هذا الشرك فى مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها .

الرابعة : أن هِبَة الله للرجل البنت السوية من النعم .

الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك فى الطاعة والشرك فى العبادة .

يوم . وقيل : ابن أربع سنين . فلما ماتت أمه حملته أم أيمن مولاته إلى جده ، فكان فى كفالته إلى أن توفى جده ، وللنبى صلى الله عليه وسلم ثمان سنين ، فأوصى به إلى عمه أبى طالب . اهـ

قوله « وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى الآية » قدمنا نظيره عن عباس فى المعنى

قوله « وله بسند صحيح عن قتادة قال : « شركاء فى طاعته ، ولم يكن فى عبادته » .

قال شيخنا رحمه الله : هذا الشرك فى مجرد تسمية ، لم يقصدا حقيقته التى يريدها إبليس وهو محمل حسن ، تبين أن ما وقع من الأبوين من تسميتهما ابنهما عبد الحارث إنما هو مجرد تسمية لم يقصدا تعبيده لغير الله . وهذا معنى قول قتادة : « شركاء فى طاعته ولم يكن فى عبادته » .

باب

قول الله تعالى (٧ : ١٨٠ ولله الأسمـــاء الحسنى فادعوه بها ، وذَرُوا الذين يُلْحِدُون فى أسمائه — الآية) .

قوله : « باب قول الله تعالى :

(٧ : ١٨٠ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه — الآية) » .

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى عليه وسلم قال « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » أخرجاه فى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة . ورواه البخارى عن أبى اليمان عن أبى الزناد عن الأعرج عنه . وأخرجه الجوزجانى عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب بسنده مثله . وزاد بعد قوله « يحب الوتر : هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن المهيمن . العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدئ ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الأحد ، الفرد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المعطى ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد ، الصبور ، » ثم قال الترمذى : هذا حديث غريب : وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة ، ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث ، والذى عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء

ذكر ابن أبى حاتم عن ابن عباس : « (يلحدون فى أسمائه) : يشركون »
وعنه : « سمُّوا اللات من الإله ، والعُزَّى من العزيز » :
وعن الأعمش : « يدخلون فيها ما ليس منها » .

فى هذا الحديث مدرج فيه ، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعانى عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك . أى أنهم جمعوها من القرآن . كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان وأبى زيد اللغوى ، والله أعلم .

هذا ما ذكره العماد ابن كثير فى تفسيره ، ثم قال : ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة فى تسعة وتسعين ، بدليل ما رواه أحمد عن يزيد بن هارون عن فضيل بن مرزوق عن أبى سلمة الجهنى عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما أصاب أحداً قط هَمٌّ ولا حَزَن فقال : اللهم إنى عبدك ابن عبدك ، ابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماضٍ فِيَّ حكمك عَدْلٌ فىّ قضاؤك . أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك : أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب هَمِّى وغمى . إلا أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله مكاناً فرحاً . فقيل : يا رسول الله ألا نتعلمها ؟ فقال : بلى : ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها » وقد أخرجه أبو حاتم وابن حبان فى صحيحه .

وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى (وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) قال « إلحاد الملحدين : أن ادعوا اللات فى أسماء الله » وقال ابن جريج عن مجاهد (وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) قال : اشتقوا اللات من الله ، واشتقوا العُزَّى من العزيز » .

وقال قتادة « يلحدون : يشركون » وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس « الإلحاد : التكذيب » .

وأصل الإلحاد فى كلام العرب : العدول عن القصد ، والميل والجور والانحراف . ومنه اللحد فى القبر ؛ لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر . قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

وحقيقة الإلحاد فيها الميل بالإشـ ـراك والتعطيل والنكران

وأسماء الرب تعالى كلها أسماء وأوصاف تعرف بها تعالى إلى عباده ، ودلت على كماله جل وعلا .

وقال رحمه الله : فالإلحاد : إما بجحدها و إنكارها ، و إما بجحد معانيها ، و إما بتحريفها عن الصواب ، و إخراجها عن الحق بالتأويلات ، و إما أن يجعلها أسماء لهذه المخلوقات كإلحاد أهل الاتحاد . فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون ، محمودها ومذمومها . حتى قال زعيمهم : هو المسمى بمعنى كل اسم ممدوح عقلا وشرعاً وعرفاً . و بكل اسم مذموم عقلا وشرعاً وعرفاً . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . انتهى .

قلت : والذى عليه أهل السنة والجماعة قاطبة ، متقدمهم ومتأخرهم : إثبات الصفات التى وصف الله بها نفسه ، ووصفه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما يليق بجلال الله وعظمته إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل . كما قال تعالى (٤٢ : ١١ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) وأن الكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذات ، يحتذى حذوه ومثاله . فكما أنه يجب العلم بأن لله ذاتاً حقيقة لا تشبه شيئاً من ذوات المخلوقين ، فله صفات حقيقة لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين ، فمن جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ، أو تأوله على غير ما ظهر من معناه : فهو جهمى ، قد اتبع غير سبيل المؤمنين . كما قال تعالى : (٤ : ١٥١ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى و يتبع غير سبيل المؤمنين : نولِّه ما تولى ، ونُصله جهنم وساءت مصيراً) .

وقال العلامة ابن القيم — رحمه الله تعالى — أيضاً :

فائدة جليلة

ما يجرى صفة أو خبراً على الرب تبارك وتعالى أقسام :

أحدها : ما يرجع إلى نفس الذات ، كقولك : ذات ، وموجود .

الثانى : ما يرجع إلى صفاته ونعوته ، كالعليم ، والقدير ، والسميع ، والبصير .

الثالث : ما يرجع إلى أفعاله : كالخالق ، والرزاق .

الرابع : التنزيه المحض ، ولا بد من تضمنه ثبوتاً ؛ إذ لا كمال فى العدم المحض ، كالقدوس ، والسلام .

فيه مسائل :

الأولى : إثبات الأسماء . الثانية : كونها حسنى .

الثالثة : الأمر بدعائه بها .

الرابعة : ترك من عارضَ من الجاهلين الملحدين .

الخامسة : تفسير الإلحاد فيها . السادسة : وعيد من ألحد .

الخامس : — ولم يذكره أكثر الناس — وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة ، بل دال على معان ، نحو المجيد ، العظيم ، الصمد ؛ فإن المجيد : من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال ، ولفظه يدل على هذا . فإنه موضوع للسعة والزيادة والكثرة ، فمنه « استمجد المرخ والعفار » وأمجد الناقة : علفها ، ومنه (ذو العرش المجيد) صفته للعرش ، لسعته وعظمته وشرفه ، وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترناً بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه فى مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء ، وكثرته ودوامه ، فأتى فى هذا المطلوب باسم يقتضيه ، كما تقول : اغفر لى وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم ، فهو راجع إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته ، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه ، ومنه الحديث الذى فى الترمذى « أَلِظُّوا بياذا الجلال والإكرام » ومنه « اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان ، بديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام » فهذا سؤال له ، وتوسل إليه بحمده ، وأنه : لا إله إلا هو المنان ، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته ، وما أحق ذلك بالإجابة ، وأعظمه موقعاً عند المسئول . وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد .

السادس : صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر ، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو الغنى الحميد ، الغفور القدير ، الحميد المجيد ، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة فى القرآن ، فإن « الغنى » صفة كمال ، و « الحمد » كذلك ، واجتماع « الغنى » مع « الحمد » كمال آخر ، فله ثناء من غناه ، وثناء من حمده ، وثناء من اجتماعهما ، وكذلك الغفور القدير ، والحميد المجيد ، والعزيز الحكيم ، فتأمله ؛ فإنه من أشرف المعارف .

باب

(لا يقال : السلام على الله)

في الصحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « كنا إذا كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة قلنا : السلام على الله من عباده ، السلام على فلان وفلان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تقولوا : السـلامُ على الله ، فإن الله هو السلام » .

قوله : « باب لا يقال : السلام على الله »

قوله « في الصحيح عن ابن مسعود — الخ » وهذا الحديث رواه البخاري ومسلم ، وأبو داود والنسائي وابن ماجة ، من حديث شقيق بن سلمة عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال « كنا إذا جلسنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة ، قلنا : السلام على الله قبل عباده ، السلام على فلان وفلان — الحديث ، وفي آخره ذكر التشهد الأخير » رواه الترمذي من حديث الأسود بن يزيد عن ابن مسعود ، وذكر في حديث سبب النهي عن ذلك بقوله « فإن الله هو السلام ومنه السلام » وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من الصلاة المكتوبة يستغفر ثلاثاً ، ويقول « اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت ياذا الجلال والإكرام » وفي الحديث « إن هذا هو تحية أهل الجنة لربهم تبارك وتعالى » وفي التنزيل ما يدل على أن الرب تبارك وتعالى يسلم عليهم في الجنة ، كما قال تعالى (٣٦ : ٥٨ سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم) .

ومعنى قوله « إن الله هو السلام » : أن الله سالم من كل نقص ، ومن كل تمثيل ، فهو الموصوف بكل كمال ، المنزه عن كل عيب ونقص .

قال العلامة ابن القيم في بدائع الفوائد : السلام اسم مصدر ، وهو من ألفاظ الدعاء ، يتضمن الإنشاء والإخبار ، فجهة الخبرية فيه لا تناقض الجهة الإنشائية ، وهو معنى السلام المطلوب عند التحية ، وفيه قولان مشهوران .

الأول : أن السلام هنا هو الله عز وجل ، ومعنى الكلام : نزلت بركته عليكم ،

ونحو ذلك . فاختير فى هذا المعنى من أسمائه عز وجل اسم « السلام دون غيره من الأسماء .

الثانى : أن السلام مصدر بمعنى السلامة ، وهو المطلوب المدعو به عند التحية ، ومن حجة أصحاب هذا القول : أنه يأتى مُنَــكرًا ، فيقول المسلّم « سلام عليــكم » ولو كان اسماً من أسماء الله لم يستعمل كذلك ، ومن حجتهم أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى ، وإنما المقصود منه : الإيذان بالسلامة خبراً ودعاء .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : وفصل الخطاب أن يقال : الحق فى مجموع القولين ، فــكل منهما بعض الحق ، والصواب فى مجموعهما ، وإنما يتبين ذلك بقاعدة ، وهى : أن حق من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل فى كل مطلوب ، ويتوسل بالاسم المقتضى لذلك المطلوب ، المناسب لحصوله ، حتى إن الداعى متشفع إلى الله تعالى متوسل به إليه ، فإذا قال : رب اغفر لى وتب علىّ إنك أنت التواب الغفور . فقد سأله أمرين ، وتوسل إليه باسمين من أسمائه مقتضيين لحصول مطلوبه . وقال صلى الله عليه وسلم لأبى بكر رضى الله عنه وقد سأله ما يدعو به « قل : اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التى هى أهم عند الرجل ، أتى فى طلبها بصيغة اسم من أسماء الله تعالى وهو «السلام» الذى تطلب منه السلامة . فتضمن لفظ السلام معنيين : أحدهما : ذكر الله ، والثانى : طلب السلامة وهو مقصود المسلم . فقد تضمن « سلام عليــكم » اسماً من أسماء الله ، وطلب السلامة منه . فتأمل هذه الفائدة . وحقيقته : البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب . وعلى هذا المعنى تدور تصاريفه ، فمن ذلك قولهم : سلمك الله ، ومنه دعاء المؤمنين على الصراط « رب سلم سلم » ومنه سلم الشيء لفلان ، أى خلص له وحده . قال تعالى (٣٩ : ٢٩ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلماً لرجل) أى خالصاً له وحده لا يملــكه معه غيره . ومنه السلم ضد الحرب ، لأن كل واحد من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر ، ولهذا بنى فيه على المفاعلة ، فقيل : المسالمة مثل المشاركة . ومنه : القلب السليم ، وهو النقى من الدغل والعيب . وحقيقته : الذى قد سلم لله وحده ، فخلص من دغل الشرك وغله ، ودغل الذنوب والمخالفات ، فهو مستقيم على صدق حبه ، وحسن معاملته . وهذا هو الذى ضمن له النجاة من عذاب الله والفوز بكرامته .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير السلام .

الثانية : أنه تحية .

الثالثة : أنها لا تصلح لله .

الرابعة : العلة فى ذلك .

الخامسة: تعليمهم التحية التى تصلح لله .

ومنه أخذ الإسلام ، فإنه من هذه المادة ؛ لأنه الاستسلام والانقياد لله ، والتخلص من شوائب الشرك ، فسلم لربه وخلص له ، كالعبد الذى سلم لمولاه ليس له فيه شركاء متشاكسون . ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم الخالص لربه ، وللمشرك به .

باب

(قول : اللهم اغفر لى إن شئت)

فى الصحيح عن أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لا يقلْ أحدكم : اللهم اغفر لى إن شئت ، اللهم ارحمنى إن شئت ، لِيَعْزِمَ المسألة ؛ فإن الله لا مُكْرِهَ له » .

قوله : « باب قول : اللهم اغفر لى إن شئت »

يعنى : أن ذلك لا يجوز ، لورود النهى عنه فى حديث الباب .

قوله « فى الصحيح عن أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يقل أحدكم : اللهم اغفر لى إن شئت ، اللهم ارحمنى إن شئت ، ليعزم المسألة ؛ فإن الله لا مكره له » بخلاف العبد ، فإنه قد يعطى السائل مسألته لحاجته إليه ، أو لخوفه أو رجائه ، فيعطيه مسألته وهو كاره . فاللائق بالسائل للمخلوق أن يعلق حصول حاجته على مشيئة المسئول ، مخافة أن يعطيه وهو كاره . بخلاف رب العالمين ، فإنه تعالى لا يليق به ذلك لكمال غناه عن جميع خلقه ، وكمال جوده وكرمه ، وكلهم فقير إليه ، محتاج لا يستغنى عن ربه طرفة عين ، وعطاؤه كلام . وفى الحديث يَمِينُ الله مَلْأَى ، لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار ؛ أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فإنه لم يغض ما فى يمينه ، وفى يده الأخرى القسط يخفضه ويرفعه » يعطى تعالى لحكمة ، ويمنع لحكمة ، وهو الحكيم الخبير . فاللائق بمن سأل الله أن يعزم المسألة ، فإنه لا يعطى عبده شيئاً عن كراهة ، ولا عن عظم مسألة .

وقد قال بعض الشعراء فيمن يمدحه :

ويعظم فى عين الصغير صغارها   ويصغر فى عين العظيم العظائم

وهذا بالنسبة إلى ما فى نفوس أرباب الدنيا ، وإلا فإن العبد يعطى تارة ، ويمنع أكثر ويعطى كرهاً ؛ والبخل عليه أغلب . وبالنسبة إلى حاله هذه فليس عطاؤه بعظيم ، وأما ما يعطيه الله تعالى عباده فهو دائم مستمر يجود بالنوال قبل السؤال ، من حين وضعت النقطة فى الرحم . فنعمه على الجنين فى بطن أمه دارّة ، يربيه أحسن تربية ، فإذا وضعت أمه

ولمسلم : « وليُعْظِم الرغبةَ ، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه » .

فيه مسائل :

الأولى : النهى عن الاستثناء فى الدعاء .

الثانية : بيان العلة فى ذلك .

الثالثة : قوله : « ليعزم المسألة » .

الرابعة : إعظام الرغبة .

الخامسة : التعليل لهذا الأمر .

عطف عليه والديه ورباه بنعمه حتى يبلغ أشدّه ، يتقلب فى نعم الله مدة حياته ، فإن كانت حياته على الإيمان والتقوى ازدادت نعم الله تعالى عليه إذا توفاه أضعاف أضعاف ما كان عليه فى الدنيا من النعم التى لا يقدر قدرها إلا الله ، مما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين المتقين . وكل ما يناله العبد فى الدنيا من النعم وإن كان بعضها على يد مخلوق فهو بإذن الله وإرادته وإحسانه إلى عبده ، فالله تعالى هو المحمود على النعم كلها ، فهو الذى شاءها وقدرها ، وأجراها عن كرمه وَفضله . فله النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن . قال تعالى (١٦ : ٥٣ وما بكم من نعمة فمن الله ، ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون) وقد يمنع سبحانه عبده إذا سأله لحكمة وعلم بما يصلح عبده من العطاء والمنع ، وقد يؤخر ما سأله عبده لوقته المقدر ، أو ليعطيه أكثر . فتبارك الله رب العالمين .

وقوله « ولمسلم : « وليعظم الرغبة » أى فى سؤاله ربه حاجته . فإنه يعطى العظائم كرماً وجوداً وإحساناً . فالله تعالى لا يتعاظمه شيء أعطاه ، أى ليس شيء عنده يعظم ، وإن عظم فى نفس المخلوق ، لأن سائل المخلوق لا يسأله إلا ما يهون عليه بذله ، بخلاف رب العالمين ، فإن عطاءه كلام (٣٦ : ٨٢ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن ، فيكون) فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

باب

(لا يقول : عبدى وأَمَتى)

فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يقلْ أحدُ كم : أطعِمْ رَبَّكَ ، وَضِّىءْ رَبَّك . وليقلْ : سيِّدى ومولاى ، ولا يقل أحدكم : عبدىَ وأمتى ، وليقل : فَتَاى وفتاتى وغلامى » .

قوله : « باب لا يقول : عبدى وأمتى »

ذكر الحديث الذى فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يقولن أحدكم : أطعم ربك ، وضىء ربك . وليقل : سيدى ومولاى . ولا يقل أحدكم : عبدى وأمتى ، وليقل : فتاى وفتاتى وغلامى » .

هذه الألفاظ المنهى عنها . وإن كانت تطلق لغة . فالنبى صلى الله عليه وسلم نهى عنها تحقيقاً للتوحيد ، وسدًّا لذرائع الشرك ، لما فيها من التشريك فى اللفظ ؛ لأن الله تعالى هو رب العباد جميعهم فإذا أطلق على غيره شاركه فى الاسم . فينهى عنه لذلك . وإن لم يقصد بذلك التشريك فى الربوبية التى هى وصف الله تعالى . وإنما المعنى أن هذا مالك له ، فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار . فالنهى عنه حسما لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق ، وتحقيقاً للتوحيد . وبعداً عن الشرك حتى فى اللفظ . وهذا من أحسن مقاصد الشريعة ، لما فيه من تعظيم الرب تعالى ، وبعده عن مشابهة المخلوقين ، فأرشدهم صلى الله عليه وسلم إلى ما يقوم مقام هذه الألفاظ . وهو قوله « سيدى ومولاى » وكذا قوله « ولا يقل أحدكم : عبدى وأمتى » لأن العبيد عبيد الله . والإماء إماء الله . قال الله تعالى (١٩ : ٩٣ إنْ كلُّ من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا) ففى إطلاق هاتين الكلمتين على غير الله تشريك فى اللفظ ، فنهاهم عن ذلك تعظيما لله تعالى ، وأدباً وبعداً عن الشرك ، وتحقيقا للتوحيد وأرشدهم إلى أن يقولوا « فتاى وفتاتى وغلامى » وهذا من باب حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد ، فقد بلغ صلى الله عليه وسلم أمته كل ما فيه لهم نفع ، ونهاهم عن كل ما فيه نقص فى الدين . فلا خير إلا دلهم عليه ، خصوصاً فى تحقيق التوحيد ، ولا شر إلا حذرهم منه ، خصوصاً ما يقرب من الشرك لفظا ، وإن لم يقصد به . وبالله التوفيق .

فيه مسائل :

الأولى : النهيُ عن قول : عبدى وأمتى .

الثانية : لا يقول العبد : رَبِّى ، ولا يقال له : أطْعِمْ رَبَّك .

الثالثة : تعليم الأول قول : فتاى وفتاتى وغلامى .

الرابعة : تعليم الثانى قول : سيدى ومولاى .

الخامسة : التنبيه للمراد ، وهو تحقيق التوحيد حتى فى الألفاظ .

باب

(لا يُرَدُّ مَنْ سأَلَ بالله)

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من

قوله : « باب لا يردُّ من سأل بالله »

ظاهر الحديث النهى عن رد السائل إذا سأل بالله . لكن هذا العموم يحتاج إلى تفصيل بحسب ما ورد فى الكتاب والسنة ، فيجب إذا سأل السائل ما له فيه حق كبيت المال أن يجاب فيعطى منه على قدر حاجته ومايستحقه وجوبا ، وكذلك إذا سأل المحتاج من فى ماله فضل فيجب أن يعطيه على حسب حاله ومسألته ، خصوصاً إذا سأل من لا فضل عنده ، فيستحب أن يعطيه على قدر حال المسئول مالا يضر به ولا يضر عائلته ، وإن كان مضطراً وجب أن يعطيه ما يدفع ضرورته .

ومقام الإنفاق من أشرف مقامات الدين ، وتفاوت الناس فيه بحسب ما جبلوا عليه من الكرم والجود ، وضدها من البخل والشح . فالأول : محمود فى الكتاب والسنة . والثانى : مذموم فيهما . وقد حث الله تعالى عباده عن الإنفاق لعظم نفعه وتعديه وكثرة ثوابه . قال الله تعالى : (٢ : ٢٦٧ ، ٢٦٨ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ، ولستم بآخذيه إلا تغمضوا فيه ، واعلموا

سألَ بالله فأعطوه ، ومن استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن دعاكم فأجيبوه ، ومَنْ صنع إليكم معروفًا فكافئوه ،

أن الله غنى حميد . الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم) وقال تعالى (٥٥ : ٧ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) وذلك الإنفاق من خصال البر المذكورة فى قوله (٢ : ١٧٧ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين — الآية (فذكره بعد ذكر أصول الإيمان وقبل ذكر الصلاة . وذلك — والله أعلم — لتعدى نفعه . وذكره تعالى فى الأعمال التى أمر بها عباده . وتعبدهم بها ووعدهم عليها الأجر العظيم . قال تعالى : (٣٣ : ٣٥ إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات . والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما) .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحث أصحابه على الصدقة حتى النساء ؛ نصحاً للأمة وحثاً لهم على ما ينفعهم عاجلا وآجلا . وقد أثنى الله سبحانه على الأنصار رضى الله عنهم بالإيثار ، فقال تعالى (٥٩ : ٩ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) . والإيثار من أفضل خصائص المؤمن كما تفيده هذه الآية الكريمة . وقد قال تعالى (٧٦ : ٨ ، ٩ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) .

والآيات والأحاديث فى فضل الصدقة كثيرة جداً ، ومن كان سعيه للآخرة رغب فى هذا ورغب . وبالله التوفيق .

قوله « من دعاكم فأجيبوه » هذا من حقوق المسلمين بعضهم على بعض : إجابة دعوة المسلم ، وتلك من أسباب الألفة والمحبة بين المسلمين .

قوله « ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه » ندبهم صلى الله عليه وسلم إلى المكافأة

فإن لم تجدوا ما تـكافئونه فادعوا له ، حتى تُروا أنـكم قد كافأتموه « رواه أبو داود والنسائى بسند صحيح .

فيه مسائل :

الأولى : إعاذة من استعاذ بالله — الثانية : إعطاء من سأل بالله .

الثالثة : إجابة الدعوة . — الرابعة : المكافأة فى الصنيعة .

الخامسة : أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه .

السادسة : قوله : حتى ترون أنـكم قد كافأتموه .

على المعروف من المروءة التى يحبها الله ورسوله ، كما دل عليه هذا الحديث ، ولا يهمل المكافأة على المعروف إلا اللئام من الناس ، و بعض اللئام يكافئ على الإحسان بالإساءة ، كما يقع كثيرا من بعضهم . نسأل الله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة ، بخلاف حال أهل التقوى والإيمان ، فإنهم يدفعون السيئة بالحسنة ؛ طاعة لله ومحبة لما يحبه لهم و يرضاه ، كما قال تعالى (٢٣ : ٩٦ — ٩٨ ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون . وقل : رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون) وقال تعالى : (٤١ : ٣٤ ، ٣٥ ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك و بينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حَظٍّ عظيم) . وهم الذين سبقت لهم من الله تعالى السعادة .

قوله « فإن لم تجدوا ما تـكافئونه فادعوا له » أرشدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن الدعاء فى حق من لم يجد المكافأة : مكافأة للمعروف ، فيدعو له على حسب معرفته .

قوله « تروا — بضم التاء تظنوا — أنكم قد كافأتموه » ويحتمل أنها مفتوحة بمعنى : تعلموا . ويؤيده ما فى سنن أبى داود من حديث ابن عمر « حتى تعلموا » فتعين الثانى للتصريح به . وفيه « من سألكم بالله فأجيبوه » أى إلى ما سأل . فيكون بمعنى أعطوه وعند أبى داود فى رواية أبى نُهيك عن ابن عباس « من سألكم بوجه الله فأعطوه » وفى رواية عبيد الله القواريرى لهذا الحديث « ومن سألكم بالله » كما فى حديث ابن عمر .

باب
(لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة)

عن جابر قال : قال رســـول الله صلى الله عليه وسلم « لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة » رواه أبو داود .

قوله : « باب لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة »

ذكر فيه حديث جابر — رواه أبو داود عن جابر — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يسأل بوجه الله إلا الجنة » .

وهنا سؤال : وهو أنه قد ورد فى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم عند منصرفه من الطائف حين كذبه أهل الطائف ومن فى الطائف من أهل مكة ، فدعا النبى صلى الله عليه وسلم بالدعاء المأثور « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس . أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تَكِلنِي ؟ إلى بعيد يَتَجَهَّمُنِي ، أو إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، غير أن عافيتك هى أوسع لى » وفى آخره « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة : أن يَحُلَّ علىّ غضبك ، أو ينزلَ بى سخطك . لك العُتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » . والحديث المروى فى الأذكار « اللهم أنت أحق من ذُكر ، وأحق من عُبد — وفى آخره — أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له السموات والأرض » وفى حديث آخر « أعوذ بوجه الله الكريم ، وباسم الله العظيم وبكلماته التامة ، من شر السامة واللامة ، ومن شر ما خلقت أى رب ، ومن شر هذا اليوم ومن شر ما بعده ، ومن شر الدنيا والآخرة » وأمثال ذلك فى الأحاديث المرفوعة بالأسانيد الصحيحة أو الحسان .

فالجواب : أن ما ورد من ذلك فهو فى سؤال مايقرب إلى الجنة ، أو ما يمنعه من الأعمال التى تمنعه من الجنة ، فيكون قد سأل بوجه الله وبنور وجهه ما يقرب إلى الجنة كما فى الحديث الصحيح « اللهم إنى أسألك الجنة وما يقرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول وعمل » بخلاف ما يختص بالدنيا كسؤال المال والرزق

فيه مسائل :

الأولى : النهى أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب .

الثانية : إثبات صفة الوجه .

والسعة فى المعيشة رغبة فى الدنيا ، مع قطع النظر عن كونه أراد بذلك ما يعينه على عمل الآخرة . فلا ريب أن الحديث يدل على المنع من أن يسأل حوائج دنياه بوجه الله .

وعلى هذا : فلا تعارض بين الأحاديث . كما لا يخفى والله أعلم .

وحديث الباب من جملة الأدلة المتواترة فى الكتاب والسنة على إثبات الوجه لله تعالى فإنه صفة كمال ، وسلبه غاية النقص والتشبيه بالناقصات ، كسلبهم جميع الصفات أو بعضها ، فوقعوا فى أعظم مما فروا منه . تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وطريقة أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفاً : الإيمان بما وصف الله به نفسه فى كتابه ، ووصفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنته على ما يليق بجلال الله وعظمته ، فيثبتون له ما أثبته لنفسه فى كتابه وأثبته لنفسه له رسوله صلى الله عليه وسلم ، وينفون عنه مشابهة المخلوق ، فكما أن ذات الله لا تشبه الذوات ، فصفاته كذلك لا تشبه الصفات ، فمن نفاها فقد سلبه الكمال .

باب

(ما جاء فى اللَّوّ)

وقول الله تعالى (٣ : ١٥٤ يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ماقُتِلْنا هٰهنا).

وقوله : (٣ : ١٦٩ الذين قالوا لإخوانهم — وقَعَدوا — : لو أطاعونا ما قُتِلوا).

قوله : « باب ما جاء فى اللّوّ »

أى : من الوعيد والنهى عنه عند الأمور المكروهة ، كالمصائب إذا جرى بها القدر ، لما فيه من الإشعار بعدم الصبر والأسى على ما فات ، مما لا يمكن استدراكه ، فالواجب التسليم للقدر ، والقيام بالعبودية الواجبة ، وهو الصبر على ما أصاب العبد مما يكره . والإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان الستة . وأدخل المصنف رحمه الله أداة التعريف على « لو » وهذه فى هذا المقام لا تفيد تعريفاً كنظائرها ؛ لأن المراد هذا اللفظ كما قال الشاعر :

رأيت الوليد بن اليزيد مباركا   شديداً بأعباء الخلافة كاهله

قوله « وقول الله عز وجل (٣ : ١٥٤ يقولون : « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هٰهنا) » .

قاله بعض المنافقين يوم أحد ؛ لخوفهم وجزعهم وخَوَرهم .

قال ابن إسحاق : فحدثنى يحيى بن عَبَّاد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال : قال الزبير « لقد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم . فما منا رجل إلا ذقنه فى صدره ، قال : فوالله إنى لأسمع قول مُعَتِّب بن قُشير ما أسمعه إلا كالحُلم : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هٰهنا) . فحفظتها منه ، وفى ذلك أنزل الله عز وجل (يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هٰهنا) لقول معتب » رواه ابن أبى حاتم . قال الله تعالى (قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهمُ القتل إلى مضاجعهم) أى هذا قدر مقدّر من الله عز وجل ، وحكم حتم لازم لا محيد عنه ولا مناص منه .

وقوله (٣ : ١٦٩ الذين قالوا لإخوانهم — وقعدوا — لو أطاعونا ماقُتِلوا — الآية) .

قال العماد ابن كثير (الذين قالوا لإخوانهم — وقعدوا — لو أطاعونا ما قتلوا) أى لو سمعوا مشورتنا عليهم بالقعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل . قال الله تعالى : (قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) أى إذا كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت ، فينبغى لكم أن لا تموتوا ، والموت لا بد آت إليكم ، ولو كنتم فى بروج مشيدة ، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين . قال مجاهد عن جابر بن عبد الله : « نزلت الآية فى عبد الله بن أبىّ وأصحابه » يعنى أنه هو الذى قال ذلك ، وأخرج البيهقى عن أنس : أن أبا طلحة قال « غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم أحد ، فجعل يسقط سيفى وآخذه . ويسقط وآخذه . قال: والطائفة الأخرى — المنافقون — ليس لها هَمٌّ إلا أنفسهم، أجبن قوم ، وأرعبه ، وأخذله للحق (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) إنما هم أهل ريب وشك بالله عز وجل » .

قوله (قد أهمتهم أنفسهم) يعنى لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : لما ذكر ما وقع من عبد الله بن أبىّ وغزوة أحد قال : فلما انخذل يوم أحد وقال « يَدَعُ رأيى ورأيه ، ويأخذ برأى الصبيان ؟ » أو كما قال — انخذل معه خلق كثير ، كان كثير منهم لم ينافق قبل ذلك . فأولئك كانوا مسلمين وكان معهم إيمان ، هو الضوء الذى ضرب الله به المثل . فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق لماتوا على الإسلام ، ولم يكونوا من المؤمنين حقاً ، الذين امتحنوا فثبتوا على المحنة ، ولا من المنافقين حقاً ، الذين ارتدوا عن الإيمان بالمحنة . وهذا حال كثير من المسلمين فى زماننا أو أكثرهم ، إذا ابتلوا بالمحنة التى يتضعضع فيها أهل الإيمان ينقص إيمانهم كثيراً ، وينافق كثير منهم . ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالباً ، وقد رأينا — ورأى غيرنا — من هذا ما فيه عبرة . وإذا كانت العافية ، أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين، وهم مؤمنون بالرسل باطناً وظاهراً ، لكنه إيمان لا يثبت على المحنة ، ولهذا يكثر فى هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم ، وهؤلاء من الذين قالوا آمنا ، فقيل لهم (لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) أى الإيمان المطلق الذى أهله هم المؤمنون حقاً ؛ فإن هذا هو

فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : احرص على ما ينفعُك ، واستعن بالله ولا تَعْجزَن .

الإيمان إذا أطلق فى كتاب الله تعالى ، كما دل عليه الكتاب والسنة ، فلم يحصل لهم ريب عند المحن التى تقلقل الإيمان فى القلوب . انتهى .

قوله : وقد رأينا — ورأى غيرنا — من هذا ما فيه عبرة .

قلت : ونحن كذلك رأينا من ذلك ما فيه عبرة عند غلبة العدو ، من إعانتهم العدو على المسلمين ، والطعن فى الدين ، وإظهار العداوة والشماتة ، وبذل الجهد فى إطفاء نور الإسلام ، وذهاب أهله ، وغير ذلك مما يطول ذكره . والله المستعان .

قوله « فى الصحيح — أى صحيح مسلم — عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : احرص — الحديث » .

اختصر المصنف رحمه الله هذا الحديث ، وتمامه : عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير . احرص على ما ينفعك » أى : فى معاشك ومعادك . والمراد : الحرص على فعل الأسباب التى تنفع العبد فى دنياه وأخراه ، مما شرعه الله تعالى لعباده من الأسباب الواجبة والمستحبة والمباحة ، ويكون العبد فى حال فعله السبب مستعيناً بالله وحده دون كل ما سواه ؛ ليتم له سببه وينفعه ، ويكون اعتماده على الله تعالى فى ذلك لأن الله تعالى هو الذى خلق السبب والمسبب ، ولا ينفعه سبب إلا إذا نفعه الله به ، فيكون اعتماده فى فعل السبب على الله تعالى . ففعل السبب سنة ، والتوكل على الله توحيد . فإذا جمع بينهما : تم له مراده بإذن الله .

قوله « ولا تعجزن » النون نون التأكيد الخفيفة ، نهاه صلى الله عليه وسلم عن العجز وذمه ، والعجز مذموم شرعاً وعقلا ، وفى الحديث « الكيِّس من دانَ نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبعَ نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى » فأرشده صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث إذا أصابه ما يكره أن لا يقول : لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن يقول : قدّر الله وما شاء فعل ، أى : هذا قدر الله ، والواجب التسليم للقدر ، والرضى به ، واحتساب الثواب عليه .

وإن أصابك شئ فلا تقل : لو أنى فعلت لكان كذا ، ولكن قل : قدَّر الله وما شاء فعل ؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان » .

قوله « فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » أى : لما فيها من التأسف على مافات والتحسر ولوم القدر ، وذلك ينافى الصبر والرضى ، والصبر واجب ، والإيمان بالقدر فرض ، قال تعالى (٥٧ : ٢٢ ، ٢٣ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور) .

قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد » وقال الإمام أحمد « ذكر الله الصبر فى تسعين موضعاً من القرآن » .

قال شيخ الإسلام رحمه الله — وذكر حديث الباب بتمامه — ثم قال فى معناه : لا تعجز عن مأمور ، ولا تجزع من مقدور ، ومن الناس من يجمع كلا الشرين ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالحرص على النافع والاستعانة بالله ، والأمر يقتضى الوجوب ، وإلا فالاستحباب . ونهى عن العجز وقال : « إن الله يلوم على العجز » والعاجز ضد : (الذين هم ينتصرون) فالأمر بالصبر والنهى عن العجز مأمور به فى مواضع كثيرة ؛ وذلك لأن الإنسان بين أمرين : أمر أمِرَ بفعله ، فعليه أن يفعله ويحرص عليه ، ويستعين الله ولا يعجز . وأمرٌ أصيب به من غير فعله ، فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه ، ولهذا قال بعض العقلاء — ابن المقفع وغيره — الأمور أمران : أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه ، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه . وهذا فى جميع الأمور لكن عند المؤمن : الذى فيه حيلة هو ما أمره الله به ، وأحبه له . فإن الله لم يأمره إلا بما فيه حيلة له ، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وقد أمره بكل خير له فيه حيلة . وما لا حيلة له فيه هو ما أصيب به من غير فعله . واسم الحسنات والسيئات يتناول قسمين : فالأفعال مثل قوله تعالى (٦ : ١٦٠ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها) ومثل قوله تعالى (١٧ : ٧ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها) ومثل قوله تعالى (٤٢ : ٤٠ وجزاء سيئة سيئة مثلها) ومثلها قوله تعالى (٢ : ٨١ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته) إلى آيات كثيرة من هذا الجنس . والله أعلم .

والقسم الثانى : ما يجرى على العبد بغير فعله من النعم والمصائب ، كما قال تعالى (٤ : ٧٩ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) والآية قبلها ، فالحسنة فى هاتين الآيتين : النعم ، والسيئة : المصائب ، هذا هو الثانى من القسمين .

وأظن شيخ الإسلام رحمه الله ذكره فى هذا الموضع ، ولعل الناسخ أسقطه ، والله أعلم .

ثم قال رحمه الله : فإن الإنسان ليس مأموراً أن ينظر إلى القدر عند ما يؤمر به من الأفعال ، ولكن عند ما يجرى عليه من المصائب التى لاحيلة له فى دفعها ، فما أصابك بفعل الآدميين أو بغير فعلهم فاصبر عليه ، وارض وسلم ، قال تعالى (٦٤ : ١١ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه) ولهذا قال آدم لموسى : « أتلومنى على أمر قَدَّرَهُ الله علىّ قبل أن أُخلق بأربعين سنة ؟ فحج آدم موسى » لأن موسى قال له : « لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة » فلامه على المصيبة التى حصلت بسبب فعله ، لا لأجل كونها ذنباً ، وأما كونه لأجل الذنب ـ كما يظنه طوائف من الناس ـ فليس مراداً بالحديث ، فإن آدم عليه السلام كان قد تاب من الذنب ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس . انتهى .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : فتضمن هذا الحديث أصولا عظيمة من أصول الإيمان .

أحدها : أن الله سبحانه موصوف بالمحبة وأنه يحب حقيقة .

الثانى : أنه يحب مقتضى أسمائه وصفاته ، وما يوافقها ، فهو القوى ، ويحب المؤمن القوى ، وهو وتر يحب الوتر ، وجميل يحب الجمال ، وعليم يحب العلماء ، ونظيف يحب النظافة ، ومؤمن يحب المؤمنين ، ومحسن يحب المحسنين ، وصابر يحب الصابرين ، وشاكر يحب الشاكرين .

ومنها : أن محبته للمؤمنين تتفاضل ، فيحب بعضهم أكثر من بعض .

ومنها : أن سعادة الإنسان فى حرصه على ما ينفعه فى معاشه ومعاده ، والحرص : هو بذل الجهد واستفراغ الوسع ، فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محموداً . وكماله كله فى مجموع هذين الأمرين : أن يكون حريصاً ، وأن يكون حرصه على ما ينتفع به ، فإن حرص على مالا ينفعه ، أو فعل ما ينفعه من غير حرص : فاته من الكمال بقدر ما فاته من ذلك ، فالخير كله فى الحرص على ما ينفع .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآيتين في آل عمران .

الثانية : النهي الصريح عن قول : « لو » إذا أصابك شيء .

الثالثة : تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان .

الرابعة : الإرشاد إلى الكلام الحسن .

الخامسة : الأمر بالحرص على ما ينفع ، مع الاستعانة بالله .

السادسة : النهي عن ضد ذلك ، وهو العجز .

ولما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه : أمره أن يستعين بالله ليجتمع له مقام (إياك نعبد و إياك نستعين) فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله تعالى . ولايتم إلا بمعونته ، فأمره أن يعبده و يستعين به . فالحريص على ما ينفعه المستعين بالله ، ضد العاجز فهذا إرشاد له قبل وقوع المقدور إلى ماهو من أعظم أسباب حصوله ، وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمة الأمور بيده ، ومصدرها منه ، ومردها إليه .

فإن فاته مالم يقدر له فله حالتان : عجز . وهو مفتاح عمل الشيطان ؛ فيلقيه العجز إلى « لو » ولا فائدة من « لو » ههنا ، بل هي مفتاح اللوم والعجز والسخط والأسف والحزن ، وذلك كله من عمل الشيطان . فنهاه صلى الله عليه وسلم عن افتتاح عمله بهذا الافتتاح ، وأمره بالحالة الثانية . وهي النظر إلى القدر وملاحظته ، ولو أنه قدر له : لم يفته ولم يغلبه عليه أحد ، فلم يبق له ههنا أنفع من شهود القدر ، ومشيئة الرب النافذة التي توجب وجوب المقدور وإن انتفت امتنع وجوده ، ولهذا قال : « فإن غلبك أمر فلا تقل : لو أني فعلت كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل » فأرشده إلى ما ينفعه في الحالتين : حالة حصول المطلوب ، وحالة فواته ، فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد أبداً ، بل هو أشد إليه ضرورة ، وهو يتضمن إثبات القدر ، والكسب والاختيار ، والقيام بالعبودية ظاهرا وباطنا في حالتي حصول المطلوب وعدمه ، و بالله التوفيق .

باب

(النهى عن سب الريح)

عن أُبَيٍّ بن كعب رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تَسُبُّوا الريح ، فإذا رأيتم ما تـكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها ، وخير ما أُمِرتْ به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها ، وشر ما أُمرت به » صححه الترمذى .

قوله : « باب النهى عن سب الريح »

عن أبى بن كعب رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تسبوا الريح . فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به » صححه الترمذى .

لأنها — أى الريح — إنما تهب عن إيجاد الله تعالى وخلقه لها وأمره ؛ لأنه هو الذى أوجدها وأمرها ، فسبتها مسبة للفاعل . وهو الله سبحانه . كما تقدم فى النهى عن سب الدهر ، وهذا يشبهه ، ولا يفعله إلا أهل الجهلَ بالله ودينه ، وبما شرعه لعباده ، فنهى صلى الله عليه وسلم أهل الإيمان عما يقوله أهل الجهل والجفاء ، وأرشدهم إلى مايجب أن يقال عند هبوب الرياح فقال « إذا رأيتم ما تـكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أُمرت به » يعنى إذا رأيتم ما تكرهون من الريح إذا هبت ، فارجعوا إلى ربكم بالتوحيد وقولوا « اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها ، وخير ما أمرت به . ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به » ففى هذا عبودية لله ، وطاعة له ولرسوله ، واستدفاع للشرور به ، وتعرض لفضله ونعمته ، وهذه حال أهل التوحيد والإيمان ، خلافا لحال أهل الفسوق والعصيان الذين حرموا ذوق طعم التوحيد الذى هو حقيقة الإيمان .

فيه مسائل :

الأولى : النهى عن سبّ الريح .

الثانية : الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره .

الثالثة : الإرشاد إلى أنها مأمورة .

الرابعة : أنها قد تؤمر بخير ، وقد تؤمر بشرّ .

باب

قول الله تعالى : (٣ : ١٥٤ يظنون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شىء ، قل إن الأمر كلَّهُ لله ؛ يُخفُون فى أنفسهم ما لا يُبدُون لك ، يقولون : لو كان لنا من الأمرِ شىءٌ ما قُتِلْنا هٰهُنا ، قل : لو كنتم فى بُيوتِكم لَبَرَز الذين كُتِبَ عليهم القَتْلُ إلى مضاجعهم ، وَلِيَبْتَلِيَ الله ما فى صُدوركم ولِيُمَحِّصَ ما فى قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور) .

قوله : « باب قول الله تعالى »

(٣ : ١٥٤ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر شىء ـ الآية)
وهذه الآية ذكرها الله تعالى فى سياق قوله تعالى فى ذكر وقعة أحد (ثم أنزل عليكم من بعد الغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طائفةً منكم) يعنى أهل الإيمان والثبات والتوكل الصادق ، وهم الجازمون بأن الله تعالى ينصر رسوله صلى الله عليه وسلم ، وينجز له مأموله ، ولهذا قال (وطائفة قد أَهَمَّتهم أنفُسُهم) يعنى لا يغشاهم النُّعَاس من الجزع والقلق والخوف (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) كما قال تعالى (٤٨ : ١٢ بل ظننتم أنْ لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ، وَزُيِّنَ ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السَّوء وكنتم قوماً بوراً) وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة ظنوا أنها الفيصلة ، وأن الإسلام قد باد وأهله ، وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الشنيعة .

وقوله : (٤٨ : ٦ الظانين بالله ظنَّ السوء عليهم دائرة السوء) .

قال ابن القيم فى الآية الأولى فُسِّرَ هذا الظنُّ بأنه سبحانه لا يَنْصُر رسوله ، وأن أمره سيضمحلُّ ، وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقَدَر الله وحكمته . ففسر بإنكار الحكمة ، وإنكار القدر ، وإنكار أن يتم أمرُ رسوله ، وأن يظهره الله على

عن ابن جريج قال : قيل لعبد الله بن أُبى : « قُتل بنو الخزرج اليوم ؟ قال : وهل لنا من الأمر شىء ؟ » .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى فى الكلام على ما تضمنته وقعة أحد : وقد فسر هذا الظن الذى لايليق بالله سبحانه بأنه لاينصر رسوله ، وأن أمره سيضمحل ، وأنه يسلمه للقتل ، وفسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضاء الله وقدره ، ولا حكمة له فيه ، ففسر بإنكار الحكمة ، وإنكار القدر ، وإنكار أن يتم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يظهره على الدين كله ، وهذا هو ظن السوء الذى ظنه المنافقون والمشركون فى سورة الفتح حيث يقول (٤٨ : ٦ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله غير الحق ظن السوْء عليهم دائرة السوْء ، وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدَّ لهم جهنم وساءت مصيراً) وإنما كان هذا هو ظن السوء وظن الجاهلية — وهو النسوب إلى أهل الجهل — وظن غير الحق ؛ لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وذاته المبرأة من كل عيب وسوء ، وخلاف ما يليق بحكمته وحمده وتفرده بالربوبية والإلهية ، وما يليق بوعده الصادق الذى لايخلفه ، وبكلمته التى سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم ، ولجنده بأنهم هم الغالبون . فمن ظن به أنهم لاينصر رسوله ولايتم أمره ، ولا يؤيده ويؤيد حزبه ويعليهم ويظفرهم بأعدائهم ويظهرهم ، وأنه لاينصر دينه وكتابه ، وأنه يُديل الشرك على التوحيد ، والباطل على الحق إدالة مستقرة ، يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالا لا يقوم بعده أبداً : فقد ظن بالله ظن السوء ، ونسبه إلى خلاف ما يليق بجلاله وكماله وصفاته ونعوته ، فإن حمده وعزته وحكمته وإلهيته تأبى ذلك ، وتأبى أن يذل حزبَه وجنده ، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به العادلين به ، فمن ظن به ذلك : فما عرفه ولا عرف أسماءه ولا عرف صفاته وكماله ، وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره ،

الدين كله وهذا هو ظنُّ السَّوء الذى ظن المنافقون والمشركون فى سورة الفتح
وإنما كان هذا ظن السوء لأنه ظن غير ما يليقُ به سبحانه ، وما يليقُ بحكمته
وحمده ووعده الصادق . فمن ظنَ أنه يُديلُ البـاطلَ على الحقِّ إدالةً مستقرة
يضمحلُّ معها الحق ، أو أنـكر أن يكونَ ما جَرَى بقضائه وقدره ، أو أنـكر أن

فما عرفه ولا عرف ربوبيته وعظمته ، وكذلك من أنـكر أن يكون قَدّر ما قدّره من ذلك وغيره لحـكمة بالغة وغاية محمودة يستحق الحمد عليها ، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة حبه ، وغاية مطلوبة هى أحب إليه من فواتها ، وأن تلك الأسباب المـكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحـكمة لإفضائها إلى ما يحب وإن كانت مكروهة له ، فما قدرها سدى ولا شاءها عبثاً ولا خلقها باطلا (٤٨ : ٢٧ ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) .

وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم ، وفيما يفعله بغيرهم ، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته ، وعرف موجب حكمته وحمده ، فمن قنط مَن رحمته وأيس من روحه : قد ظن به السوء ، ومن جَوّزَ عليه أن يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم ، ويسوى بينهم وبين أعدائه : فقد ظن به ظن السوء ، ومن ظن أنه يترك خلقه سُدًى معطلين عن الأمر والنهى ، لا يرسل إليهم رسله ولا ينزل عليهم كتبه ، بل يتركهم هَمَلاً كالأنعام : فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب فى دار يجازى المحسن فيها بإحسانه ، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله ، وأن أعداءه كانوا هم الـكاذبين : فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذى عمله خالصاً لوجهه على امتثال أمره ، ويبطله عليه بلا سبب من العبد ، وأنه يعاقبه بما لا صنع له فيه ولا اختيار له ولا قدرة ولا إرادة له فى حصوله ، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به ، أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الـكاذبين عليه بالمعجزات التى يؤيد بها أنبياءه ورسله ، ويجريها على أيديهم ليضلوا بها عباده ، وأنه يحسن منه كل شىء حتى تعذيب من أفنى عمره فى طاعته ، فيخلده فى الجحيم فى أسفل سافلين ، وينعم من استنفد عمره فى عداوته وعداوة رسله ودينه ، فيرفعه إلى أعلى

يكون قَدَرُه لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد ، بل زَعَم أن ذلك لمشيئة مجرَّدة . فذلك ظن الذين كفروا ، فويلٌ للذين كفروا من النار .

وأكثر الناس يظنون بالله ظَنَّ السَّوء فيما يختصُّ بهم ، وفيما يَفْعله بغيرهم ، ولا يَسْلَمُ من ذلك إلا مَنْ عَرَف الله وأسماءه وصفاته ، وموجِبَ حِكمته وحمده

عليين ، وكلا الأمرين فى الحسن عنده سواء ، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق ، وإلا فالعقل لا يقضى بقبح أحدهما وحسن الآخر : فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل ، وترك الحق لم يخبر به وإنما رمز إليه رموزاً بعيدة ، وأشار إليه إشارات ملغزة ولم يصرح به وصرح دائماً بالتشبيه والتمثيل الباطل ، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم فى تحريف كلامه عن مواضعه ، وتأويله على غير تأويله ، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة والتأويلات التى هى بالألغاز والأحاجى أشبه منها بالكشف والبيان ، وأحالهم فى معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم بآرائهم لا على كتابه . بل أراد منهم أن يحملوا كلامه على ما يعرفونه من خطابهم ولغتهم ، مع قدرته على أن يصرح لهم بالحق الذى ينبغى التصريح به ، ويريحهم من الألفاظ التى توقعهم فى اعتقاد الباطل فلم يفعل ، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان : فقد ظن به ظن السوء ، فإنه إن قال : إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذى عبر به هو وسلفه : فقد ظن بقدرته العجز ، وإن قال : إنه قادر . ولم يبين وعدل عن البيان وعن التصريح بالحق إلى ما يوهم ، بل يوقع فى الباطل المحال ، والاعتقاد الفاسد : فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء .

ومن ظن أنه هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله ، وأن الهدى والحق فى كلامهم وعباراتهم ، وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه والتمثيل والضلال ، وظاهر كلام المتهوِّكين والحيارى هو الهدى والحق : فهذا من أسوأ الظن بالله .

فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء ، ومن الظانين بالله غير الحق ظن الجاهلية .

ومن ظن به أن يكون فى مُلكه مالا يشاء ، ولا يقدر على إيجاده وتكوينه : فقد ظن بالله ظن السوء .

فَليَعْتَنِ اللبيبُ الناصحُ لنفسه بهذا ، وَلْيَتُبْ إلى الله ، وَلْيَسْتَغْفِرْهُ من ظنه بربه ظَنَّ السوء . ولو فتَّشْتَ مَنْ فتَّشْتَ لرأيت عنده تعَنُّتاً على القَدَر وملامةً له ، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا . فَمُسْتَقِلٌّ ومستكثر . وفَتِّشْ نفسك هل أنتَ سالم ؟

ومن ظن أنه كان معطلا من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل ، ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل ، ثم صار قادراً عليه بعد أن لم يكن قادراً : فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه لا يسمع ولا يبصر ، ولا يعلم الموجودات ، ولا عدد السموات ولا النجوم ولا بنى آدم وحركاتهم وأفعالهم ، ولا يعلم شيئاً من الموجودات فى الأعيان : فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه لا سمع له ولا بصر ، ولا علم ولا إرادة ، ولا كلام يقوم به ، وأنه لا يكلم أحداً من الخلق ولا يتكلم أبداً ، ولا قال ، ولا يقول ، ولا له أمر ولا نهى يقوم به : فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه ليس فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ، وأن نسبة ذاته إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل سافلين ، وإلى الأمكنة التى يرغب عن ذكرها ، وأنه أسفل كما أنه أعلى ، وأن من قال : سبحان ربى الأسفل كان كمن قال : سبحان ربى الأعلى : فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه .

ومن ظن أنه يحب الكفر والفسوق والعصيان ، ويحب الفساد كما يحب الإيمان والبر والطاعة والإصلاح : فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه لا يحب ولا يرضى ، ولا يغضب ولا يسخط ، ولا يوالى ولا يعادى ، ولا يقرُب من أحد من خلقه ولا يقرب منه أحد ، وأن ذات الشياطين فى القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين : فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه يسوى بين المتضادين ، أو يفرق بين المتساوين من كل وجه ، أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها ، فيخلد فاعل تلك الطاعات فى الجحيم أبد الآبدين بتلك الكبيرة ، ويحبط بها جميع طاعاته ويخلد فى العذاب

فإن تنجُ منها تنجُ من ذى عظيمةٍ   وإلا فإنى لا إخالُك ناجياً

كما يخلد من لم يؤمن به طرفة عين . واستنفد ساعات عمره فى مساخطة ومعاداة رسله ودينه : فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أن له ولداً أو شريكاً ، أو أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه ، أو أن بينه و بين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه ، وأنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه ، و يتوصلون بهم إليه ، و يجعلونهم وسائط بينه و بينهم ، فيدعونهم و يخافونهم : فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه .

ومن ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته ، كما يناله بطاعته والتقرب إليه . فقد ظن به خلاف حكمته ، وخلاف موجب أسمائه وصفاته ، وهو من ظن السوء .

ومن ظن به أنه إذا ترك شيئاً من أجله لم يعوضه خيراً منه ، أو من فعل شيئاً لأجله لم يعطه أفضل منه : فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه يغضب على عبده ويعاقبه ويحرمه بغير جرم ولا سبب من العبد ، إلا بمجرد المشيئة ومحض الإرادة : فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه إذا صدقه فى الرغبة والرهبة ، وتضرع إليه وسأله ، واستعان به وتوكل عليه أنه يخيبه ولا يعطيه ما سأله : فقد ظن به ظن السوء ، وظن به خلاف ما هو أهله .

ومن ظن أنه يثيبه إذا عصاه كما يثيبه إذا أطاعه ، وسأله ذلك فى دعائه : فقد ظن به خلاف ما تقتضيه حكمته وحمده ، وخلاف ما هو أهله وما لا يفعله .

ومن ظن به أنه إذا أغضبه وأسخطه وأوضع فى معاصيه ، ثم اتخذ من دونه أولياء ، ودعا من دونه ملكا أو بشراً حياً أو ميتاً يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه ، ويخلصه من عذابه : فقد ظن به ظن السوء .

فأكثر الخلق بل كلهم - إلا من شاء الله — يظنون بالله غير الحق وظن السوء ؛ فإن غالب بنى آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ناقص الحظ ، وأنه يستحق فوق ما شاءه الله وأعطاه ولسان حاله يقول : ظلمنى ربى ، ومنعنى ما أستحقه ، ونفسه تشهد عليه بذلك ، وهو بلسانه ينكره ولا يتجاسر على التصريح به . ومن فتش نفسه وتغلغل فى معرفة طواياه رأى ذلك فيها كامناً كمون النار فى الزناد ، فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما

فى زناده ، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً (وتعتباً) على القدر وملامة له ، واقتراحا عليه خلاف ماجرى به ، وأنه كان ينبغى أن يكون كذا وكذا ، فمستقل ومستكثر . وفتش نفسك : هل أنت سالم من ذلك ؟

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة   وإلا فإنى لا إخالك ناجيا

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع ، وَلْيَتُبْ إلى الله و يستغفره فى كل وقت من ظنه بر به ظن السوء ، وليظن السوء بنفسه التى هى مادة كل سوء ، ومنبع كل شر المركبة على الجهل والظلم . فهى أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين ، وأعدل العادلين ، وأرحم الراحمين ، الغنى الحميد ، الذى له الغنى التام ، والحمد التام ، والحكمة التامة ، المنزه عن كل سوء فى ذاته وصفاته ، وأفعاله وأسمائه ، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه ، وصفاته كذلك ، وأفعاله كلها حكمة ومصلحة ، ورحمة وعدل ، وأسماؤه كلها حسنى .

فلا تظنَنّ بربك ظنَّ سَوء   فإن الله أولى بالجميل
ولا تظنن بنفسك قَطُّ خيراً   فكيف بظالم جانٍ جهول
وقل : يا نفس مأوى كل سوء   أترجو الخير من ميت بخيل ؟
وظُنّ بنفسك السوأى تجدها   كذاك ، وخيرها كالمستحيل
وما بك من تُقى فيها وخير   فتلك مواهب الرب الجليل
وليس لها ولا منها ، ولكن   من الرحمن ، فاشكر للدليل   اهـ

قوله « الظانين بالله ظن السوء » قال ابن جرير فى تفسيره (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء) . الظانين بالله أنه لن ينصرك وأهل الإيمان بك على أعدائك ، ولن يظهر كلمته ، فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به . وذلك كان السوء من ظنونهم حتى ذكرها الله فى هذا الموضع . يقول تعالى ذكره : على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الذين ظنوا هذا الظن دائرة السوء : يعنى دائرة العذاب تدور عليهم به . واختلف القراء فى قراءة ذلك . فقرأ عامة قراء الكوفة (دائرة السوء) بفتح السين . وقرأ بعض قراء البصرة (دائرة السوء) بالضم . وكان الفراء يقول : الفتح أفشى فى السين . وقلّ ما تقول العرب (دائرة السوء) بضم السين .

وقوله : « وغضب الله عليهم ولعنهم » يعنى ونالهم الله بغضب منه ولعنهم . يقول :

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية آل عمران .

الثانية : تفسير آية الفتح .

الثالثة : الإخبار بأنَّ ذلك أنواعٌ لا تُحْصَر .

الرابعة : أنه لا يسلمُ من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعَرفَ نفسه

وأبعدهم فأقصاهم من رحمته (وأعد لهم جهنم) يقول : وأعد لهم جهنم يصلونها يوم القيامة (وساءت مصيرا) يقول : وساءت جهنم منزلا يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات .

وقال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء) أى : يتهمون الله فى حكمه ، ويظنون بالرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن يُقتلوا ويذهبوا بالكلية . ولهذا قال تعالى : (عليهم دائرة السوء) وذكر فى معنى الآية الآخرة نحواً مما ذكره ابن جرير رحمهما الله تعالى .

قوله « قال ابن القيم رحمه الله تعالى » الذى ذكره المصنف فى المتن قدمته لاندراجه فى كلامه الذى سقته من أوله إلى آخره .

باب

(ما جاء فى منكرى القدر)

وقال ابن عمر : « والذى نفس ابن عمر بيده ، لو كانَ لأحدهم مثلُ أحدٍ ذهباً ثم أنفقه فى سبيل الله ما قَبله الله منه ؛ حتى يُؤْمِنَ بالقدَر . ثم استدل بقول النبي صلى الله عليه وسلم : الإيمانُ أَنْ تؤمِنَ بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقَدَرِ خَيْرِه وشَرّه » رواه مسلم .

قوله : « باب ما جاء فى منكرى القدر » .

أى : من الوعيد الشديد ، ونحو ذلك .

أخرج أبو داود عن عبد العزيز بن أبى حازم عن أبيه عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « القدرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم » .

وعن عمر مولى غُفرة عن رجل من الأنصار عن حذيفة — وهو بن اليمان — رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكل أمة مجوس ، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون : لا قدر ، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته ، ومن مرض منهم فلا تعودوه ، وهم شيعة الدجال ، وحق على الله : أن يلحقهم بالدجال » .

قوله « وقال ابن عمر : والذى نفسى بيده — الخ » حديث ابن عمر هذا أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة عن يحيى بن يعمر قال : « كان أول من تكلم فى القدر بالبصرة معبد الجهنى ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميرى حاجين ، أو معتمرين . فقلنا : لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء فى القدر ؟ فوفق الله تعالى لنا عبد الله بن عمر داخلا فى المسجد ، فاكتنفته أنا وصاحبى ، فظننت أن صاحبى سيكل الكلام إلىّ ، فقلت : أبا عبد الرحمن ، إنه قد ظهر قِبلنا أناس يقرأون القرآن ، ويتقفّرون العلم يزعمون أن لا قدر ، وأن الأمر أنف ، فقال : إذا لقيتَ أولئك فأخبرهم أنى منهم برىء ، وأنهم منى براء . والذى يحلف به

وعن عُبادة بن الصَّامِت أنه قال لابنه : « يا بُنَيَّ ، إنك لن تجدَ طَعْمَ الإيمان حتى تعلَمَ أنَّ ما أصابكَ لم يَكُنْ ليُخطِئَك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أول ما خلقَ الله القلمَ ، فقال له : اكتبْ فقال : ربِّ ، وماذا أكتبُ قال : اكتبْ مقادير كلِّ شيء حتى تقوم الساعة .

عبد الله بن عمر ، لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه فى سبيل الله ما قبله الله منه ، حتى يؤمن بالقدر . ثم قال : حدثنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يُرَى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد . حتى جلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأسند رُكبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه . وقال : يا محمد ، أخبرنى عن الإسلام . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا . قال . صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال فأخبرنى عن الإيمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت . قال : فأخبرنى عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرنى عن الساعة ، وقال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرنى عن أمارتها قال : أن تلد الأَمَة ربَّتها ، وأن ترى الحفاة العُراة العالة رِعاء الشاء يتطاولون فى البنيان . قال : فانطلق . فلبثت ثلاثاً — وفى رواية : ملياً — ثم قال : يا عمر أتدرى من السائل ، قلتُ : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

ففى هذا الحديث أن الإيمان بالقدر من أصول الإيمان الستة المذكورة ، فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد ترك أصلا من أصول الدين وجحده ، فيشبه من قال الله فيهم (٢ : ٨٥ أفتؤمنوا ببعض الكتاب وتكفرون ببعض — الآية) .

قوله « وعن عبادة » قد تقدم ذكره فى باب فضل التوحيد ، وحديثه هذا رواه أبو داود ورواه الإمام أحمد بكماله قال : حدثنا الحسن بن سوار حدثنا ليث عن معاوية عن أيوب ابن زياد : حدثنى عبادة بن الوليد بن عبادة حدثنى أبى قال «دخلت على عبادة وهو مريض

يا بُنَىّ ، سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من ماتَ على غيرِ هذا فليس منى » .

وفى روايةٍ لأحمد : « إن أوّلَ ما خلق اللهُ تعالى القلم . فقال : اكتب ، فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة » .

وفى رواية لابن وهب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فمن لم يؤمن بالقدر خَيْرِه وشره أحْرقَه الله بالنار » .

وفى المسند والسنن عن ابن الديلمى قال « أتيت أُبَى بن كعب فقلت :

أتخايل فيه الموت ، فقلت : يا أبتاه أوصنى واجتهد لى ، فقال : أجلسونى . قال : يابنىّ إنك لن تجد طعم الإيمان ، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره ، قلت : يا أبتاه فكيف لى أن أعلم ما خير القدر وشره ؟ قال : تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، يابنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة . يا بنىّ ، إن مت ولست على ذلك دخلت النار » ورواه الترمذى بسنده المتصل إلى عطاء بن أبى رباح عن الوليد بن عبادة عن أبيه ، وقال : حسن صحيح غريب .

وفى هذا الحديث ونحوه : بيان شمول علم الله تعالى وإحاطته بما كان وما يكون فى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى (٦٥ : ١٢ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما) .

وقد قال الإمام أحمد رحمه الله لما سئل عن القدر ؟ قال « القدر قدرة الرحمن » واستحسن ابن عقيل هذا من أحمد رحمه الله .

والمعنى : أنه لا يمنع عن قدرة الله شىء . ونفاة القدر قد جحدوا كمال قدرة الله تعالى ، فضلوا عن سواء السبيل . وقد قال بعض السلف : ناظروهم بالعلم ، فإن أقروا به خصموا ، وإن جحدوه كفروا .

قوله « وفى المسند وسنن أبى داود عن ابن الديلمى » وهو أبو بسر — بالسين المهملة ،

فى نفسى شىء من القدَر ، فحدِّثنى بشىء لعل الله يُذهبه من قلبى ، فقال : لو أنفقت مثل أُحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك . ولو مُتَّ على غير هذا لكنت من أهل النار . قال : فأتيت عبد الله بن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، وزيد بن ثابت ، فكلهم حدثنى بمثل ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم ، حديث صحيح . رواه الحاكم فى صحيحه .

وبالباء المضمومة . ويقال : أبو بشر — بالشين المعجمة وكسر الباء — و بعضهم صحح الأول . واسمه عبد الله بن فيروز . ولفظ أبى داود قال « لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه ، عذبهم وهو غير ظالم لهم . ولو رحمهم لكانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم . ولو أنفقت مثل أحد ذهباً ماقبله الله منك حتى تؤمن بقدر ، وتعلم أن ماأصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار . قال : فأتيتُ عبدَ الله ابن مسعود فقال مثل ذلك ، ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك ، قال : ثم أتيت زيد بن ثابت ، قال فحدثنى عن النبى صلى الله عليه وسلم مثل ذلك » وأخرجه ابن ماجة .

وقال العماد ابن كثير رحمه الله : عن سفيان عن منصور عن ربعى بن حراش عن رجل عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله بعثنى بالحق ، ويؤمن بالبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر خيره وشره » وكذا رواه الترمذى عن النضر بنّ شميل عن شعبة عن منصور به . ورواه من حديث أبى داود الطيالسى عن شعبة عن ربعى عن على فذكره .

وقد ثبت فى صحيح مسلم من رواية عبد الله بن وهب وغيره عن أبى هانئ الخولانى عن أبى عبد الرحمن الحُبلى عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة — زاد ابن وهب — : وكان عرشه على الماء » رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن غريب .

وكل هذه الأحاديث وما فى معناها فيها الوعيد الشديد على عدم الإيمان بالقدر ، وهى

فيه مسائل :

الأولى : بيان كيفية الإيمان بالقدر .

الثانية : بيان كيفية الإيمان .

الثالثة : إحباط عمل من لم يؤمن به .

الرابعة : الإخبار أن أحداً لايجد طعم الإيمان حتى يؤمن به .

الخامسة : ذكر أول ماخلق الله .

السادسة : أنه جرى بالمقادير فى تلك الساعة إلى قيام الساعة

السابعة : بَرَاءته صلى الله عليه وسلم ممن لم يؤمن به .

الثامنة : عادَةُ السلف فى إزالة الشبهة بسؤال العلماء .

التاسعة : أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته . وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط .

الحجة على نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم . ومن مذهبهم : تخليد أهل المعاصى فى النار . وهذا الذى اعتقدوه من أكبر الكبائر ، وأعظم المعاصى .

وفى الحقيقة إذا اعتبرنا إقامة الحجة عليهم بما تواترت به نصوص الكتاب والسنة من إثبات القدر فقد حكموا على أنفسهم بالخلود فى النار إن لم يتوبوا . وهذا لازم لهم على مذهبهم هذا ، وقد خالفوا ما تواترت به أدلة الكتاب والسنة من إثبات القدر ، وعدم تخليد أهل الكبائر من الموحدين فى النار .

باب

(ما جاء فى المصورين)

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى : « ومن أظلم ممن ذهب يخلقُ كخلقى ، فليخلقوا ذَرَّةً أو ليخلقوا حبة ، أو ليخلقوا شعيرة » أخرجاه .

ولهما عن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أَشَدُّ الناسِ عذابا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله » .

قوله : « باب ما جاء فى المصورين »

أى : من عظيم عقوبة الله لهم وعذابه . وقد ذكر النبى صلى الله عليه وسلم العلة : وهى المضاهاة بخلق الله ؛ لأن الله تعالى له الخلق والأمر ، فهو رب كل شىء ومليكه ، وهو خالق كل شىء ، وهو الذى يصور جميع المخلوقات ، وجعل فيها الأرواح التى تحصل بها الحياة ، كما قال الله تعالى (٣٢ : ٧ — ٩ الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين : ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) فالمصور لما صور الصورة على شكل ما خلقه الله تعالى من إنسان وبهيمة صار مضاهئاً لخلق الله . فصار ما صوره عذابا له يوم القيامة ، وكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ . فكان أشد الناس عذابا ؛ لأن ذنبه من أكبر الذنوب .

فإذا كان هذا فيمن صور صورة على مثال ما خلقه الله تعالى من الحيوان ، فكيف بحال من سوّى المخلوق برب العالمين ، وشبهه بخلقه ، وصرف له شيئا من العبادة التى ما خلق الله الخلق إلا ليعبدوه وحده بما لا يستحقه غيره من كل عمل يحبه الله من العبد ويرضاه ؟ فتسوية المخلوق بالخالق بصرف حقه لمن لا يستحقه من خلقه ، وجعله شريكا له فيما اختص به تعالى وتقدس : هو أعظم ذنب عُصى الله تعالى به . ولهذا أرسل رسله ، وأنزل كتبه ؛ لبيان

ولهما عن بن عباس : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل مُصوِّرٍ في النار ، يُجعل له بكل صورةٍ صوّرها نفسٌ يعذب بها في جهنم » .

ولهما عنه مرفوعاً « من صور صورة في الدنيا كُلِّف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ » .

ولمسلم عن أبي الهيَّاجِ قال : « قال لي عليٌّ : ألا أبعثُك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أن لا تَدَعَ صورَةً إلا طَمَستها ، ولا قبرًا مُشرِفًا إلا سوّيته » .

هذا الشرك والنهي عنه ، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى . فنجى الله تعالى رسله ومن أطاعهم ، وأهلك من جحد التوحيد ، واستمر على الشرك والتنديد ، فما أعظمه من ذنب (٤ : ٤٨ ، ١١٦ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ، (٢٢ : ٤١ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح في مكان سحيق) .

قوله « ولمسلم عن أبي الهياج الأسدي ـ حيان بن حصين ـ قال : قال لي علي رضى الله عنه » هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه .

قوله « « ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أن لاتدع صورة إلا طمستها ، ولا قبراً مشرفا إلا سويته » .

فيه : تصريح بأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث علياً لذلك . أما الصور : فلمضاهاتها لخلق الله . وأما تسوية القبور : فلما في تعليتها من الفتنة بأربابها وتعظيمها ، وهو من ذرائع الشرك ووسائله : فصرف الهم إلى هذا وأمثاله من مصالح الدين ومقاصده وواجباته : ولما وقع التساهل في هذه الأمور وقع المحذور ، وعظمت الفتنة بأرباب القبور ، وصارت محطا لرحال العابدين المعظمين لها : فصرفوا لها جل العبادة : من الدعاء والاستعانة والاستغاثة ، والتضرع لها ، والذبح لها ، والنذور ، وغير ذلك من كل شرك محظور .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : ومن جمع بين سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في القبور ،

وما أمر به ، ونهى عنه ، وما كان عليه أصحابه ، و بين ما عليه أكثر الناس اليوم . رأى أحدهما مضاداً للآخر ، مناقضاً له بحيث لا يجتمعان أبداً . فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة إلى القبور ، وهؤلاء يصلون عندها وإليها . ونهى عن اتخاذها مساجد ، وهؤلاء يبنون عليها المساجد ، و يسمونها مشاهد ، مضاهاة لبيوت الله. ونهى عن إيقاد السرج عليها ، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها . ونهى عن أن تتخذ عيداً ، وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك ، و يجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر . وأمر بتسويتها ، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي – فذكر حديث الباب – وحديث ثمامه بن شُفَىّ وهو عند مسلم أيضاً قال « كنا مع فَضالة بن عُبيد بأرض الروم برودس ، فتُوُفى صاحب لنا ، فأمر فضالة بقبره فسوّى ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بتسويتها » وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين ، و يرفعونها عن الأرض كالبيت ، و يعقدون عليها القباب ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه . كما روى مسلم في صحيحه عن جابر رضى الله عنه قال « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تجصيص القبر ، وأن يعقد عليه ، وأن يبنى عليه » ونهى عن الكتابة عليها ، كما روى أبو داود في سننه عن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن تجصيص القبور ، وأن يكتب عليها » قال الترمذي : حديث حسن صحيح . وهؤلاء يتخذون عليها الألواح ، و يكتبون عليها القرآن وغيره ، ونهى أن يزاد عليها غير ترابها : كما روى أبو داود عن جابر أيضاً : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى أن يجصص القبر ، أو يكتب عليه ، أو يزاد عليه » وهؤلاء يزيدون عليه الآجر والجص والأحجار . قال إبراهيم النخعي : كانوا يكرهون الآجر على قبورهم .

والمقصود أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذينها أعياداً ، الموقدين عليها السرج ، الذين يبنون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، محادون لما جاء به ، وأعظم ذلك اتخاذها مساجد ، وإيقاد السرج عليها . وهو من الكبائر . وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه .

قال أبو محمد المقدسي : ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله ، ولأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة ، و إفراطاً في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام . قال : ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لعن الله اليهود والنصارى

اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . يحذّر ما صنعوا » متفق عليه . ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها ، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم ، والتمسح بها والصلاة عندها . انتهى .

وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجاً ، ووضعوا لها مناسك ، حتى صنف بعض غلاتهم فى ذلك كتاباً وسماه مناسك حج المشاهد ، مضاهاة منه القبور بالبيت الحرام ، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام ، ودخول فى دين عباد الأصنام ، فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقصده من النهى عما تقدم ذكره فى القبور ، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه ، ولا ريب أن فى ذلك من المفاسد ما يعجز عن حصره .

فمنها : تعظيم الموقع فى الافتتان بها . ومنها : اتخاذها أعياداً . ومنها : السفر إليها . ومنها : مشابهة عباد الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها والمجاورة عندها وتعليق الستور عليها وسدانتها ، وعُبَّادها يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام ، ويرون سدانتها أفضل من خدمة المساجد ، والويل عندهم لقيِّمها ليلة يطفىء القنديل المعلق عليها . ومنها : النذر لها ولسدانتها . ومنها : اعتقاد المشركين فيها أن بها يكشف البلاء وينصر على الأعداء ، ويستنزل غيث السماء ، وتفرج الكروب ، وتقضى الحوائج ، وينصر المظلوم ، ويجار الخائف إلى غير ذلك . ومنها : الدخول فى لعنة الله ورسوله ، باتخاذ المساجد عليها ، وإيقاد السرج عليها . ومنها : الشرك الأكبر الذى يفعل عندها .

ومنها : إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم، فإنهم يؤذيهم ما يفعل عند قبورهم ، ويكرهونه غاية الكراهية ، كما أن المسيح عليه السلام يكره ما يفعله النصارى عند قبره ، وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم ، ويوم القيامة يتبرأون منهم ، كما قال تعالى (٢٥ : ١٧ ، ١٨ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله ، فيقول : أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء ، أم هم ضلوا السبيل ؟ قالوا : سبحانك ! ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك أولياء ، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً) قال الله تعالى للمشركين (فقد كذبوكم بما تقولون) وقال تعالى (٥:١١٦ وإذ قال الله : يا عيسى ابن مريم ، أأنت قلت للناس اتخذونى وأمىَ إلهين من دون الله ؟

قال : سبحانك ! ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق — الآية) وقال تعالى (٣٤ : ٤٠ ، ٤١ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك ! أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) .

ومنها : إماتة السنن و إحياء البدع .

ومنها : تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله ، فإن عُباد القبور يقصدونها مع التعظيم والاحترام ، والخشوع ورقة القلب ، والعكوف بالهمة على الموتى بما لا يفعلونه فى المساجد ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا قريباً منه .

ومنها : أن الذى شرعه الرسول صلى الله عليه وسلم عند زيارة القبور إنما هو تذكّر الآخرة ، والإحسان إلى المزور بالدعاء له والترحم عليه ، والاستغفار له ، وسؤال العافية له ؛ فيكون الزائر محسناً إلى نفسه وإلى الميت : فقلَب هؤلاء المشركون الأمر ، وعكسوا الدين وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت ودعاءه والدعاء به ، وسؤاله حوائجهم ، واستنزال البركة منه ، ونصره لهم على الأعداء ، ونحو ذلك ، فصاروا مسيئين إلى أنفسهم وإلى الميت .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى الرجال عن زيارة القبور سداً للذريعة . فلما تمكن التوحيد فى قلوبهم أذن لهم فى زيارتها على الوجه الذى شرعه ، ونهاهم أن يقولوا هُجراً ، ومن أعظم الهجر : الشرك عندها قولا وفعلا .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « زوروا القبور ، فإنها تذكّر الموت » وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال « مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبور المدينة ، فأقبل عليهم بوجهه . فقال : السلام عليكم يا أهل القبور ، يغفر الله لنا ولكم ، أنتم سلفنا ونحن بالأثر » رواه أحمد والترمذى وحسنه .

فهذه الزيارة التى شرعها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته ، وعلمهم إياها ، هل تجد فيها شيئاً مما يعتمده أهل الشرك والبدع ؟ أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه ؟ وما أحسن ما قال مالك بن أنس رحمه الله « لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها » ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم ونقص إيمانهم : عرضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك .

ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه ، حتى كان أحدهم إذا سلم على النبى صلى

الله عليه وسلم ثم أراد الدعاء استقبل القبلة ، وجعل ظهره إلى جدار القبر ، ثم دعا ونص على ذلك الأئمة الأربعة : أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء ، حتى لا يدعو عند القبر ، فإن الدعاء عبادة ، وفى الترمذى وغيره « الدعاء هو العبادة » فجرد السلف العبادة لله ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أذن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدعاء لأصحابها والاستغفار لهم والترحم عليهم ، وأخرج أبو داود عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبرى عيداً ، وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » وإسناده جيد ، ورواته ثقات مشاهير .

وقوله « ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً » أى لا تعطلوها عن الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور . فأمر بتحرى النافلة فى البيوت ، ونهى عن تحرى النافلة عند القبور ، وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارى وأشباههم .

ثم إن فى تعظيم القبور واتخاذها أعياداً من المفاسد العظيمة التى لا يعلمها إلا الله ما يغضب لأجله كل من فى قلبه وقار لله وغيرة على التوحيد ، وتهجين وتقبيح للشرك ؛ ولكن مالجرح بميت إيلام .

فمن المفاسد : اتخاذها أعياداً والصلاة إليها ، والطواف بها ، وتقبيلها واستلامها ، وتعفير الخدود على ترابها ، وعبادة أصحابها ، والاستغاثة بهم ، وسؤالهم النصر والرزق والعافية وقضاء الدين ، وتفريج الكربات ، وإغاثة اللهفات ، وغير ذلك من أنواع الطلبات ، التى كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم . فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيداً ، وقد نزلوا عن الأكوار والدواب إذا رأوها من مكان بعيد ، فوضعوا لها الجباه ، وقبلوا الأرض ، وكشفوا الرءوس ، وارتفعت أصواتهم بالضجيج ، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج ، ورأوا أنهم قد أربوا فى الربح على الحجيج ، فاستغاثوا بمن لايبدئ ولا يعيد ، ونادوا ولكن من مكان بعيد ، حتى إذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين ، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ولا أجر من صلى إلى القبلتين ، فتراهم حول القبر رُكعاً سجداً ، يبتغون فضلا من الميت ورضوانا ، وقد ملأوا أكفهم خيبة وخسراناً .

فلغير الله — بل للشيطان — ما يراق هناك من العبرات ، ويرتفع من الأصوات ، ويطلب من الميت من الحاجات ، ويسأل من تفريج الكربات ، وإغاثة اللهفات ، وإغناء

فيه مسائل :

الأولى : التغليظ الشديد فى المصورين .

الثانية : التنبيه على العلة ، وهو تركُ الأدب مع الله ، لقوله « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى » .

الثالثة : التنبيه على قدرته ، وعجزهم ، لقوله « فليخلقوا ذرة أو حبة أو شعيرة » .

الرابعة : التصريح بأنهم أشَدُّ الناس عذابا .

الخامسة : أن الله يخلق بعدد كل صورة نفساً يعذب بها المصور فى جهنم .

السادسة : أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح .

السابعة : الأمر بطمسها إذا وجدت .

ذوى الفاقات ، ومعافاة ذوى العاهات والبليات ، ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين ، تشبيهاً له بالبيت الحرام الذى جعله الله مباركا وهدى للعالمين . ثم أخذوا فى التقبيل والاستلام . أرأيت الحجر الأسود وما يفعل به وفد البيت الحرام ؟ ثم عفروا لديه تلك الجباه والخدود ، التى يعلم الله أنها لم تعفر كذلك بين يديه فى السجود ، ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق ، واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن إذ لم يكن لهم عند الله من خلاق ، وقد قربوا لذلك الوثن القرابين ، وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين ، فلو رأيتهم يهنىء بعضهم بعضاً ويقول : أجزل الله لنا ولكم أجراً وافراً وحظا ، فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحجة المتخلف إلى البيت الحرام ، فيقول : لا ، ولا بحجك كل عام .

هذا ، ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم ، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم ؛ إذ هى فوق ما يخطر بالبال ، ويدور فى الخيال ، وهذا مبدأ عبادة الأصنام فى قوم نوح كما تقدم . وكل من شم أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور : سد الذريعة إلى هذا المحظور ، وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهى عنه وما يؤول إليه ، وأحكم فى نهيه عنه وتوعده عليه ، وأن الخير والهدى فى اتباعه وطاعته ، والشر والضلال فى معصيته ومخالفته . اهـ كلامه رحمه الله تعالى .

باب

(ما جاء فى كثرة الحلف)

وقول الله تعالى : (٥ : ٨٩ واحفظوا أيمانكم) .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الحلف مَنْفَقَةٌ للسِّلعة ، ممحقة للكسب » أخرجاه .

وعن سلمان : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ثلاثة لا يكلمهم الله

قوله : « باب ما جاء فى كثرة الحلف »

أى : من النهى عنه والوعيد . « وقول الله تعالى (٥ : ٨٩ واحفظوا أيمانكم) » .

قال ابن جرير : لا تتركوها بغير تكفير . وذكر غيره من المفسرين عن ابن عباس « يريد لاتحلفوا » . وقال آخرون : احفظوا أيمانكم عن الحنث فلا تحنثوا .

والمصنف أراد من الآية المعنى الذى ذكره ابن عباس ؛ فإن القولين متلازمان ، فيلزم من كثرة الحلف كثرة الحنث مع ما يدل عليه من الاستخفاف ، وعدم التعظيم لله ، وغير ذلك مما ينافى كمال التوحيد الواجب أو عدمه .

قوله « عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الحلف منفقة للسلعة ، ممحقة للكسب » أخرجاه . أى البخارى ومسلم . وأخرجه أبو داود والنسائى .

والمعنى : أنه إذا حلف على سلعته أنه أعطى فيها كذا وكذا ، أو أنه اشتراها بكذا وكذا ، وقد يظنه المشترى صادقاً فيما حلف عليه ، فيأخذها بزيادة على قيمتها ، والبائع كذاب ، وحلف طمعاً فى الزيادة ، فيكون قد عصى الله تعالى ، فيعاقب بمحق البركة ، فإذا ذهبت بركة كسبه دخل عليه من النقص أعظم من تلك الزيادة التى دخلت عليه بسبب حلفه ، وربما ذهب ثمن تلك السلعة رأساً ، وما عند الله لاينال إلا بطاعته . وإن تزخرفت الدنيا للعاصى فعاقبتها اضمحلال وذهاب وعقاب .

قوله « وعن سلمان رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ثلاثة

لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أُشَيْمِط زان ، وعائل مستكبر ، ورجل جعل الله بضاعته ، لا يشترى إلا بيمينه ، ولا يبيع إلا بيمينه » رواه الطبرانى بسند صحيح » .

و « سلمان » لعله سلمان الفارسى ، أبو عبد الله ، أسلم مقدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة وشهد الخندق ، روى عنه أبو عثمان النهدى وشرحبيل بن السمط وغيرهما . قال النبى صلى الله عليه وسلم « سلمان منا أهل البيت ، إن الله يحب من أصحابى أربعة : علياً ، وأبا ذر ، وسلمان ، والمقداد » أخرجه الترمذى وابن ماجة . قال الحسن : كان سلمان أميراً على ثلاثين ألفاً يخطب بهم فى عباءة يفترش نصفها ويلبس نصفها . توفى فى خلافة عثمان رضى الله عنه . قال أبو عبيدة : سنة ست وثلاثين عن ثلاثمائة وخمسين سنة . ويحتمل أنه سلمان بن عامر بن أوس الضبى .

قوله « ثلاثة لا يكلمهم الله » نفى كلام الرب تعالى وتقدس عن هؤلاء العصاة دليل على أنه يكلم من أطاعه . وأن الكلام صفة من صفات كماله . والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أظهر شىء وأبينه . وهذا هو الذى عليه أهل السنة والجماعة من المحققين قيام الأفعال بالله سبحانه ، وأن الفعل يقع بمشيئته تعالى وقدرته شيئاً فشيئاً ولم يزل متصفاً به . فهو حادث الآحاد قديم النوع ، كما يقول ذلك أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعى وأحمد وسائر الطوائف ، كما قال تعالى (٣٦ : ٨٢ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن ، فيكون) فأتى بالحروف الدالة على الحال والاستقبال أيضاً . وذلك فى القرآن كثير .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : فإذا قالوا لنا — يعنى النفاة — : فهذا يلزمه أن تكون الحوادث قائمة به ؟ قلنا : ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة ؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل . ولفظ الحوادث مجمل ، فقد يراد به الأعراض والنقائص ، والله تعالى منزه عن ذلك — ولكن يقوم به ما يشاء من كلامه وأفعاله ونحو ذلك ، مما دل عليه الكتاب والسنة . والقول الصحيح : هو قول أهل العلم والحديث الذين يقولون : لم يزل الله متكلما إذا شاء ، كما قال ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما من أئمة السنة . اهـ .

قلت : ومعنى قيام الحوادث به تعالى : قدرته عليها ، وإيجاده لها بمشيئته وأمره . والله أعلم .

ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : أُشَيمِط زانٍ . وعائلٌ مستكبرٌ ، ورجل جعل (الله) بضاعته ، لا يشترى إلا بيمينه ، ولا يبيع إلا بيمينه » رواه الطبرانى بسند صحيح .

وفى الصحيح عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير أمتى قرنى ، ثم الذين يَلُونهم ، ثم الذين يلونهم —

قوله « ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » لما عظم ذنبهم عظمت عقوبتهم ، فعوقبوا بهذه الثلاث التى هى أعظم العقوبات .

قوله « أشيمط زان » صغره تحقيرا له وذلك لأن داعى المعصية ضعف فى حقه ، فدل على أن الحامل له على الزنا : محبة المعصية والفجور ، وعدم خوفه من الله وضعف الداعى إلى المعصية مع فعلها يوجب تغليظ العقوبة عليه ، بخلاف الشاب ؛ فإن قوة داعى الشهوة منه قد تغلبه مع خوفه من الله ، وقد يرجع على نفسه بالندم ، ولومها على المعصية ، فينتهى ويراجع .

وكذا العائل المستكبر ليس له ما يدعوه إلى الكبر ؛ لأن الداعى إلى الكبر فى الغالب كثرة المال والنعم والرياسة . و « العائل » الفقير لا داعى له إلى أن يستكبر ، فاستكباره مع عدم الداعى إليه يدل على أن الكبر طبيعة له ، كامن فى قلبه ، فعظمت عقوبته ؛ لعدم الداعى إلى هذا الخلق الذميم ، الذى هو من أكبر المعاصى .

قوله « ورجل جعل الله بضاعته » بنصب الاسم الشريف ، أى الحلف به ، جعله بضاعته ، لملازمته له وغلبته عليه . وهذه أعمال تدل على أن صاحبها إن كان موحداً فتوحيده ضعيف ، وأعماله ضعيفة ، بحسب ما قام بقلبه وظهر على لسانه وعمله من تلك المعاصى العظيمة على قلة الداعى إليها . نسأل الله السلامة والعافية ، ونعوذ بالله من كل عمل لا يحبه ربنا ولا يرضاه .

قوله « وفى الصحيح » أى صحيح مسلم . وأخرجه أبو داود والترمذى . ورواه البخارى بلفظ « خيركم » .

قوله « عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير أمتى قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم — قال عمران : فلا أدرى : أذكر

قال عمران : فلا أدرى : أذكرَ بعد قرنه مرتين أو ثلاثا ؟ — ثم إن بعدكم قومٌ يشهدون ولا يُسْتَشهدون ، ويخونون ولا يُؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السِّمَن » .

بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً ؟ — ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يؤتمون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن » .

قوله « خير أمتي قرني » لفضيلة أهل ذلك القرن فى العلم والإيمان ، والأعمال الصالحة التي يتنافس فيها المتنافسون ، ويتفاضل فيها العاملون ، فغلب الخير فيها وكثر أهله ، وقلّ الشر فيها وأهله ، واعتز فيها الإسلام والإيمان ، وكثر فيها العلم والعلماء (ثم الذين يلونهم) فضّلوا على من بعدهم لظهور الإسلام فيهم وكثرة الداعى إليه ، والراغب فيه والقائم به وما ظهر فيه من البدع أنكر واستعظم وأزيل ، كبدعة الخوارج والقدرية والرافضة فهذه البدع وإن كانت قد ظهرت ، فأهلها فى غاية الذل والمقت والهوان والقتل فيمن عاند منهم ولم يتب .

قوله « فلا أدرى أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثا ؟ » هذا شك من راوى الحديث عمران بن حصين رضى الله عنه . والمشهور فى الروايات : أن القرون المفضلة ثلاثة ، الثالث دون الأولين فى الفضل ؛ لكثرة البدع فيه ، لكن العلماء متوافرون ، والإسلام فيه ظاهر ، والجهاد فيه قائم ، ثم ذكر ما وقع بعد القرون الثلاثة من الجفاء فى الدين ، وكثرة الأهواء .

فقال « ثم إن بعدكم قوما يشهدون ولا يستشهدون » لاستخفافهم بأمر الشهادة ، وعدم تحريهم الصدق ، وذلك لقلة دينهم ، وضعف إسلامهم .

قوله « ويخونون ولا يؤتمنون » يدل على أن الخيانة قد غلبت على كثير منهم أو أكثرهم .

قوله « وينذرون ولا يوفون » أى لا يؤدون ما وجب عليهم ، فظهور هذه الأعمال الذميمة يدل على ضعف إسلامهم وعدم إيمانهم .

قوله « ويظهر فيهم السمن » لرغبتهم فى الدنيا ، ونيل شهواتهم والتنعم بها ، وغفلتهم عن الدار الآخرة والعمل لها . وفى حديث أنس « لا يأتى على الناس زمان إلا والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم » قال أنس : سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فما زال الشر يزيد فى الأمة ، حتى ظهر الشرك والبدع فى كثير منهم ، حتى فيمن ينتسب إلى العلم ويتصدر للتعليم والتصنيف .

وفيه عن ابن مسعود : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « خير الناس قَرْنى ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجىء قوم تَسْبق شهادةُ أحدهم يَمينَه ، ويمينُه شهادته » .

وقال إبراهيم : « كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار » .

قلت : بل قد دعوا إلى الشرك والضلال والبدع ، وصنفوا فى ذلك نظما ونثراً ، فنعوذ بالله من موجبات غضبه .

قوله « وفيه عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجىء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته » .

قلت : وهذه حال من صرف رغبته إلى الدنيا ونسى المعاد ، فخف أمر الشهادة واليمين عنده تحملا وأداء ؛ لقلة خوفه من الله وعدم مبالاته بذلك ، وهذا هو الغالب على الأكثر. والله المستعان . فإذا كان هذ قد وقع فى صدر الإسلام الأول فما بعده أكثر بأضعاف . فكن من الناس على حذر .

قوله « قال إبراهيم — هو النخعى — كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار » وذلك لكثرة علم التابعين ، وقوة إيمانهم ومعرفتهم بربهم ، وقيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ لأنه من أفضل الجهاد ، ولا يقوم الدين إلا به . وفى هذا الرغبة فى تمرين الصغار على طاعة ربهم ونهيهم عما يضرهم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

فيه مسائل :

الأولى : الوصية بحفظ الأيمان .

الثانية : الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة ، ممحقة للبركة .

الثالثة : الوعيد الشديد فيمن لا يبيع ولا يشترى إلا بيمينه .

الرابعة : التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعى .

الخامسة : ذَمُّ الذين يحلفون ولا يستحلفون .

السادسة : ثناؤه صلى الله عليه وسلم على القرون الثلاثة أو الأربعة ، وذكر ما يحدث .

السابعة : ذَمُّ الذين يشهدون ولا يستشهدون .

الثامنة : كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد .

باب

(ما جاء فى ذمة الله وذمة نبيه)

وقوله : (١٦ : ٩١ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) .

وعن بُرَيدة

قوله : « باب ما جاء فى ذمة الله وذمة رسوله »

وقول الله تعالى (١٦ : ٩١ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا — الآية) .

قال العماد ابن كثير : وهذا مما يأمر الله تعالى به ، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق ، والمحافظة على الأيمان المؤكدة . ولهذا قال (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) ولا تعارض بين هذا وقوله (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) و بين قوله (ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم) أى لاتتركوها بلا تكفير . وبين قوله صلى الله عليه وسلم فى الصحيحين « إنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذى هو خير منها وتحللتها — وفى رواية — وكفّرت عن يمينى» لا تعارض بين هذا كله و بين الآية المذكورة هنا وهى (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) لأن هذه الأيمان المراد بها : الداخلة فى العهود والمواثيق ، لا الأيمان الواردة على حث أو منع ، ولهذا قال مجاهد فى الآية : يعنى الحلف أى حلف الجاهلية ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا حِلف فى الإسلام ، وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة » وكذا رواه مسلم ، ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذى كان أهل الجاهلية يفعلونه ، فإن فى التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه .

وقوله تعالى (إن الله يعلم ما تفعلون) تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها .

قوله « عن بُريدة » هو ابن الحُصيب الأسلمى . وهذا الحديث من رواية ابنه سليمان عنه . قاله فى المفهم .

قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا أمّر أميراً على جيش أو سَرِيَّة ، أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ، فقال : اغزوا بسم الله ، فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله .

اغزوا ولا تَغُلُّوا ولا تغدِروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً . وإذا لقيت عدوّك من المشركين ، فادعهم إلى ثلاث خصال — أو خلال —

قوله « قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله تعالى » فيه من الفقه : تأمير الأمراء ووصيتهم .

قال الحربى : السرية : الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها . والجيش : ما كان أكثر من ذلك . وتقوى الله : التحرز بطاعته من عقوبته .

قلت : وذلك بالعمل بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه .

قوله « ومن معه من المسلمين خيراً » أى ووصاه بمن معه أن يفعل معهم خيراً : من الرفق بهم ، والإحسان إليهم ، وخفض الجناح لهم ، وترك التعاظم عليهم .

قوله « اغزوا باسم الله » هذا أى اشرعوا فى فعل الغزو مستعينين بالله مخلصين له .

قلت : فتكون الباء فى « بسم الله » هنا للاستعانة والتوكل على الله .

قوله « قاتلوا من كفر بالله » هذا العموم يشمل جميع أهل الكفر المحاربين وغيرهم . وقد خصص منهم من له عهد ، والرهبان والنسوان ، ومن لم يبلغ الحلم ، وقد قال متصلا به « ولا تقتلوا وليداً » وإنما نهى عن قتل الرهبان والنسوان ، لأنه لا يكون منها قتال غالباً . وإن كان منهم قتال أو تدبير قتلوا .

قلت : وكذلك الذرارى والأولاد .

قوله « ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا » الغلول : الأخذ من الغنيمة من غير قسمتها . والغدر : نقض العهد . والتمثيل هنا : التشويه بالقتيل ، كقطع أنفه وأذنه والعبث به . ولا خلاف فى تحريم الغلول والغدر ، وفى كراهية المثلة .

قوله « وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال — أو خصال » الرواية بالشك وهو من بعض الرواة . ومعنى الخلال والخصال واحد .

فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين .

فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجرى عليهم حكم الله تعالى ، ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أبوا فاسألهم الجزية . فإن هم أجابوك فاقبل منهم

قوله « فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم » قيدناه عمن يوثق بعلمه وتقييده بنصب « أيتهن » على أن يعمل فيها « أجابوك » لا على إسقاط حرف الجر . و «ما» زائدة. ويكون تقدير الكلام : فإلى أيتهن أجابوك فاقبل منهم . كما تقول : جئتك إلى كذا وفى كذا . فيعدى إلى الثانى بحرف الجر .

قلت : فيكون فى ناصب « أيتهن » وجهان : ذكرهما الشارح . الأول : منصوب على الاشتغال . والثانى : على نزع الخافض .

قوله «ثم ادعهم إلى الاسلام » كذا وقعت الرواية فى جميع نسخ كتاب مسلم «ثم ادعهم بزيادة « ثم » والصواب إسقاطها . كما روى فى غير كتاب مسلم ، كمصنف أبى داود ، وكتاب الأموال لأبى عبيد ، لأن ذلك هو ابتداء تفسير الثلاث الخصال .

وقوله « ثم ادعهم إلى التحول من دراهم إلى دار المهاجرين » يعنى المدينة . وكان فى أول الأمر وجوب الهجرة إلى المدينة على كل من دخل فى الإسلام . وهذا يدل على أن الهجرة واجبة على كل من آمن من أهل مكة وغيرهم .

قوله « فإن أبوا أن يتحولوا » يعنى : أن من أسلم ولم يهاجر ولم يجاهد لا يُعطى من الخمس ولا من الفىء شيئاً . وقد أخذ الشافعى رحمه الله بالحديث فى الأعراب ، فلم ير لهم من الفىء شيئاً . وإنما لهم الصدقة المأخوذة من أغنيائهم فترد على فقرائهم . كما أن أهل الجهاد وأجناد المسلمين لاحق لهم فى الصدقة عنده ، ومصرف كل مال فى أهله . وسوّى مالك رحمه الله وأبو حنيفة رحمه الله بين المالين ، وجوّزا صرفهما للضعيف .

قوله « فإن هم أبوا فاسألهم الجزية » فيه : حجة لمالك وأصحابه ، والأوزاعى فى أخذ

وكُفّ عنهم فإن هم أبوا فاستعن بالله ، وقاتلهم .

الجزية من كل كافر : عربياً كان أو غيره ، كتابياً كان أو غيره . وذهب أبو حنيفة رحمه الله إلى أنها تؤخذ من الجميع ، إلا من مشركي العرب ومجوسهم . وقال الشافعي : لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب : عرباً كانوا أو عجماً . وهو قول الإمام أحمد في ظاهر مذهبه ، وتؤخذ من المجوس .

قلت: لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخذها منهم ، وقال « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » .

وقد اختلفوا في القدر المفروض من الجزية . فقال مالك : أربعة دنانير على أهل الذهب وأربعون درهماً على أهل الورق ، وهل ينقص منها الضعيف أولا ؟ قولان . وقال الشافعي : فيه دينار على الغني والفقير ، وقال أبو حنيفة رحمه الله ، والكوفيون على الغني ثمانية وأربعون درهماً ، والوسط أربعة وعشرون درهماً ، والفقير اثنا عشر درهما ، وهو قول أحمد بن حنبل رحمه الله .

قال يحيى بن يوسف الصرصري الحنبلي رحمه الله :

وقاتل يهوداً والنصارى وعصبة الجـ ... وس ، فإن هم سلموا الجزية اصدد
على الأدون اثني عشر درهماً افرضن ... وأربعــة من بعد عشرين زيد
لأوسطهم حالا ، ومن كان موسراً ... ثمـــانية مع أربعـين لتنقـد
وتسقط عن صبيانهم ونسائهم ... وشيخ لهم فانٍ وأعمى ومقعد
وذى الفقر والمجنون أو عبد مسلم ... ومن وجبت منهم عليه فيهتدى

وعند مالك وكافة العلماء : على الرجال الأحرار البالغين العقلاء دون غيرهم ، وإنما تؤخذ ممن كان تحت قهر المسلمين ، لا ممن نأى بداره ، ويجب تحويلهم إلى بلاد المسلمين أو حربهم .

قوله « وإذا حاصرت أهل حصن » الكلام إلى آخره فيه حجة لمن يقول من الفقهاء وأهل الأصول : إن المصيب في مسائل الاجتهاد واحد . وهو المعروف من مذهب مالك وغيره ووجه الاستدلال به : أنه صلى الله عليه وسلم قد نص على أن الله تعالى قد حكم حكماً معيناً في المجتهدات . فمن وافقه فهو المصيب ، ومن لم يوافقه فهو المخطىء .

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم ، أَهْوَنُ من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه . وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حُكم الله ، فلا تنزلهم ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدرى : أتصيب فيهم حكم الله أم لا ؟ » رواه مسلم .

قوله « وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه — الحديث » الذمة : العهد ، وتخفر : تنقض . يقال : أخفرت الرجل : إذا نقضت عهده ، وخفرته : أجرته ، ومعناه : أنه خاف من نقض من لم يعرف حق الوفاء للعهد ، كجملة الأعراب ، فكأنه يقول : إن وقع نقض من متعد معتد كان نقض عهد الخلق أهون من نقض عهد الله تعالى . والله أعلم .

قوله « وقول نافع وقد سئل عن الدعوة قبل القتال ذكر فيه : أن مذهب مالك يجمع بين الأحاديث فى الدعوة قبل القتال . قال : وهو أن مالكا قال : لا يقاتل الكفار قبل أن يُدْعَوا ، ولا تلتمس غرتهم إلا يكونوا قد بلغتهم الدعوة فيجوز أن تلتمس غرتهم . وهذا الذى صار إليه مالك هو الصحيح ؛ لأن فائدة الدعوة أن يعرف العدو أن المسلمين لا يقاتلون للدنيا ولا للعصبية ، وإنما يقاتلون للدين ، فإذا علموا بذلك أمكن أن يكون ذلك سبباً مميلا لهم إلى الانقياد إلى الحق ، بخلاف ما إذا جهلوا مقصود المسلمين . فقد يظنوا أنهم يقاتلون للملك وللدنيا فيزيدون عتوًّا وبغضاً . والله أعلم .

فيه مسائل :

الأولى : الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين .

الثانية : الإرشاد إلى أقل الأمرين خطراً .

الثالثة : قوله « اغزوا بسم الله في سبيل الله » .

الرابعة : قوله : « قاتلوا من كفر بالله » .

الخامسة : قوله : « استعن بالله وقاتلهم » .

السادسة : الفرق بين حُكم الله وحُكم العلماء .

السابعة : في كون الصحابي يحكم عند الحاجة ، بحكم لا يدرى : أيوافق حكم الله أم لا ؟

باب

(ما جاء فى الإقسام على الله)

عن جندب بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قال رجل : واللهِ لا يغفر الله لفلان ، فقال الله عز وجل : مَن ذا الذى يتألى علىّ أن لا أغفر لفلان ؟ إنى قد غفرت له ، وأحبطتُ عملك » رواه مسلم .

قوله . « باب ما جاء فى الإقسام على الله »

ذكر المصنف فيه حديث جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان . قال الله عز وجل : من ذا الذى يتألى علىّ أن لا أغفر لفلان ، إنى قد غفرت له ، وأحبطت عملك » رواه مسلم .

قوله « يتألى » أى يحلف ، والألية بالتشديد الحلف . وصح من حديث أبى هريرة قال البغوى فى شرح السنة ـ وساق بالسند إلى عكرمة بن عمار ـ قال « دخلت مسجد المدينة فنادانى شيخ قال : يا يمامى ، تعال ، وما أعرفه ، قال : لا تقولن لرجل : والله لا يغفر الله لك أبداً ولا يدخلك الجنة . قلت : ومن أنت يرحمك الله ؟ قال : أبو هريرة ، فقلت : إن هذه كلمة يقولها أحدنا لبعض أهله إذا غضب ، أو لزوجته أو لخادمه ، قال : فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن رجلين كانا فى بنى إسرائيل متحابين ، أحدهما مجتهد فى العبادة ، والآخر ؛ كأنه يقول مذنب ، فجعل يقول : أقصر عما أنت فيه . قال فيقول : خلّنى وربى ، قال : فوجده يوماً على ذنب استعظمه فقال : أقصر ، فقال : خلنى وربى ، أبعثت علىّ رقيباً ، فقال : والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة أبداً . قال : فبعث الله إليهما ملكا ، فقبض أرواحهما ، فاجتمعا عنده ، فقال للمذنب : ادخل الجنة برحمتى ، وقال للآخر : أتستطيع أن تحظر على عبدى رحمتى ؟ قال : لا يا رب . قال : اذهبوا به إلى النار . قال أبو هريرة : والذى نفسى بيده ، لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته » ورواه أبو داود فى سننه ، وهذا لفظه عن أبى هريرة رضى الله عنه يقول « كان رجلان فى بنى إسرائيل متآخيين فكان أحدهما يذنب ، والآخر مجتهد فى العبادة . فكان لا يزال

وفى حديث أبى هريرة « أن القائل رجل عابد . قال أبو هريرة : تكلم بكلمة أو بقت دنياه وآخرته » .

فيه مسائل :

الأولى : التحذير من التألى على الله .

الثانية : كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نمله .

الثالثة : أن الجنة مثل ذلك .

الرابعة : فيه شاهد لقوله : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة » الخ .

الخامسة : أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه .

المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول : أقصر ، فوجده يوماً على ذنب فقال له : أقصر ، فقال : خلنى وربى ، أبعثت علىّ رقيباً ؟ قال : والله لا يغفر الله لك ، ولا يدخلك الجنة ، فقبضت أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين ، فقال لهذا المجتهد : أكنت بى عالماً ، أو كنت على ما فى يدى قادراً ؟ فقال للمذنب : اذهب فادخل الجنة ، وقال للآخر : اذهبوا به إلى النار » .

قوله « وفى حديث أبى هريرة أن القائل رجل عابد » يشير إلى قوله فى هذا الحديث « أحدهما مجتهد فى العبادة » . وفى هذه الأحاديث : بيان خطر اللسان ، وذلك يفيد التحرز من الكلام ، كما فى حديث معاذ « قلت : يا رسول الله و إنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يَكُبّ الناس فى النار على وجوههم ــ أو قال على مناخرهم ــ إلا حصائد ألسنتهم ؟ » والله أعلم .

باب
(لا يُسْتشفع بالله على خلقه)

عن جُبير بن مطعم رضى الله عنه قال : « جاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، نُهِكَت الأنفس ، وجاع العيال ، وهَلَكتِ الأموال ، فاستسق لنا ربك ، فإنا نستشفع بالله عليك ، وبك على الله ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : سبحان الله ! سبحان الله ! فما زال يسبح حتى عُرِف ذلك فى وجوه أصحابه ، ثم قال : ويحك ، أتدرى ما الله ؟ إن شأن الله أعظم من ذلك . إنه لا يُستشفع بالله على أحد » . وذكر الحديث ، رواه أبو داود .

قوله : « باب لا يستشفع بالله على خلقه »

وذكر الحديث وسياق أبى داود فى سننه أتم مما ذكره المصنف رحمه الله ولفظه :

عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابى فقال : يا رسول الله ، جهدت الأنفس ، وضاعت العيال ، ونهكت الأموال ، وهلكت الأنعام ، فاستسق الله لنا ، فإنا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويحك ، أتدرى ما تقول ؟ وسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فما زال يسبح حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه ، ثم قال : ويحك ، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك ، ويحك ، أتدرى ما الله ؟ إن عرشه على سمواته لهكذا ــ وقال بأصبعه مثل القبة عليه ــ وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب » .

قال ابن بشار فى حديثه « إن الله فوق عرشه ، وعرشه فوق سمواته » .

قال الحافظ الذهبى : رواه أبو داود بإسناد حسن عنده فى الرد على الجهمية من حديث محمد بن إسحاق بن يسار .

قوله « ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه » فإنه تعالى رب كل شىء ومليكه ، والخير كله بيده ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، ولا راد لما قضى ، وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديراً . إنما أمره

إذا أراد شيئاً أن يقول له . كن فيكون . والخلق وما فى أيديهم ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء . وهو الذى يشفع الشافع إليه ، ولهذا أنكر على الأعرابى .

قوله « وسبح الله كثيراً وعظمه » لأن هذا القول لا يليق بالخالق سبحانه وبحمده « إن شأن الله أعظم من ذلك » .

وفى هذا الحديث : إثبات علو الله على خلقه ، وأن عرشه فوق سمواته . وفيه : تفسير الاستواء بالعلو كما فسره الصحابة والتابعون والأئمة ، خلافا للمعطلة والجهمية والمعتزلة ومن أخذ عنهم ، كالأشاعرة ونحوهم ممن ألحد فى أسماء الله وصفاته وصرفها عن المعنى الذى وضعت له ودلت عليه ، من إثبات صفات الله تعالى التى دلت على كماله جل وعلا ، كما عليه السلف الصالح والأئمة ومن تبعهم ممن تمسك بالسنة ، فإنهم أثبتوا ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله من صفات كماله ، على ما يليق بجلاله وعظمته ، إثباتا بلا تمثيل ، وتنزيلا بلا تعطيل .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى فى مفتاح دار السعادة — بعد كلام سبق فيما يُعرِّف العبد بنفسه وبربه من عجائب مخلوقاته — قال بعد ذلك :

والثانى : أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة ، فتفتح له أبواب السماء ، فيجول فى أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها ، ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهى به سير القلب إلى عرش الرحمن ، فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته ، ويرى السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، ويرى الملائكة حافين من حول العرش لهم زَجل بالتسبيح والتحميد ، والتقديس والتكبير ، والأمر ينزل من فوقه بتدبير الممالك والجنود التى لا يعلمها إلا ربها ومليكها ، فينزل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين ، وإعزاز قوم وإذلال آخرين ، وإنشاء ملك وسلب ملك ، وتحويل نعمة من محل إلى محل وقضاء الحاجات على اختلافها وتباينها وكثرتها : من جبر كسير ، وإغناء فقير ، وشفاء مريض ، وتفريج كرب ، ومغفرة ذنب ، وكشف ضر ، ونصر مظلوم ، وهداية حيران ، وتعليم جاهل ، وردِّ آبق ، وأمان خائف ، وإجارة مستجير ، ومدد لضعيف ، وإغاثة لملهوف ، وإعانة لعاجز ، وانتقام من ظالم ، وكف لعدوان ، فهى مراسيم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة ، تنفذ فى أقطار العوالم ، لا يشغله سمع شىء منها عن سمع غيره ، ولا تغلطه

كثرة المسائل والحوائج على اختلاف لغاتها وتباينها واتحاد وقتها، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، ولا تنقص ذرة من خزائنه، لا إله إلا هو العزيز الحكيم. فحينئذ يقوم القلب بين يدى الرحمن مطرقاً لهيبته خاشعاً لعظمته عانياً لعزته، فيسجد بين يدى الملك الحق المبين، سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد، فهذا سفر القلب وهو فى وطنه وداره ومحل ملكه، وهذا من أعظم ثمرته وربحه، وأجل منفعته وأحسن عاقبته، سفر هو حياة الأرواح، ومفتاح السعادة، وغنيمة العقول والألباب، لا كالسفر الذى هو قطعة من العذاب. اهـ كلامه رحمه الله.

وأما الاستشفاع بالرسول صلى الله عليه وسلم فى حياته، فالمراد به: استجلاب دعائه وليس خاصاً به صلى الله عليه وسلم، بل كل حى صالح يرجى أن يستجاب له، فلا بأس أن يطلب منه أن يدعو للسائل بالمطالب الخاصة والعامة، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم لعمر لما أراد أن يعتمر من المدينة «لا تنسنا يا أخى من صالح دعائك» وأما الميت: فإنما يشرع فى حقه الدعاء له على جنازته وعلى قبره وفى غير ذلك. وهذا هو الذى يشرع فى حق الميت. وأما دعاؤه: فلم يشرع، بل قد دل الكتاب والسنة على النهى عنه والوعيد عليه، كما قال تعالى (٣٥: ١٣، ١٤ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير. إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم، ولو سمعوا ما استجابوا لكم، ويوم القيامة يكفرون بشرككم) فبين الله تعالى أن دعاء من لا يسمع ولا يستجيب شرك يكفر به المدعو يوم القيامة: أى ينكره ويعادى من فعله، كما فى آية الأحقاف (٤٦: ٦ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء، وكانوا بعبادتهم كافرين) فكل ميت أو غائب لا يسمع ولا يستجيب ولا ينفع ولا يضر. والصحابة رضى الله عنهم، لا سيما أهل السوابق منهم كالخلفاء الراشدين، لم ينقل عن أحد منهم ولا عن غيرهم: أنهم أنزلوا حاجتهم بالنبى صلى الله عليه وسلم بعد وفاته، حتى فى أوقات الجدب. كما وقع لعمر رضى الله عنه لما خرج ليستسقى بالناس خرج بالعباس عم النبى صلى الله عليه وسلم، فأمره أن يستسقى لأنه حى حاضر يدعو ربه، فلو جاز أن يستسقى بأحد بعد وفاته لاستسقى عمر رضى الله عنه والسابقون الأولون بالنبى صلى الله عليه وسلم.

وبهذا يظهر الفرق بين الحى والميت؛ لأن المقصود من الحى دعاؤه إذا كان حاضراً. فإنهم فى الحقيقة إنما توجهوا إلى الله بطلب دعاء من يدعوه ويتضرع إليه، وهم كذلك

فيه مسائل :

الأولى : إنكاره على من قال نستشفع بالله عليك » .

الثانية : تغيره تغيراً عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة .

الثالثة : أنه لم ينكر عليه قوله « نستشفع بك على الله » .

الرابعة : التنبيه على تفسير سبحان الله .

الخامسة : أن المسلمين يسألونه صلى الله عليه وسلم الاستسقاء .

يدعون ربهم ، فمن تعدى المشروع إلى مالا يشرع ضل وأضل . ولو كان دعاء الميت خيراً لكان الصحابة إليه أسبق وعليه أحرص ، وبهم أليق ، وبحقه أعلم وأقوم . فمن تمسك بكتاب الله نجا ، ومن تركه واعتمد على عقله هلك . وبالله التوفيق .

باب

(ما جاء فى حماية النبي صلى الله عليه وسلم حِمى التوحيد ، وسدِّه طرق الشرك)

عن عبد الله بن الشِّخِّير رضى الله عنه قال « انطلقتُ فى وفد بنى عامر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلنا : أنت سيدنا . فقال : السيد الله تبارك وتعالى . قلنا : وأفضلنا فضلا ، وأعظمنا قولاً ، فقال : قولوا بقولكم ، أو بعض

قوله : « باب ماجاء فى حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد وسده طرق الشرك »

حمايته صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد عما يشو به من الأقوال والأعمال التى يضمحل معها التوحيد أو ينقص وهذا كثير فى السنة الثابتة عنه صلى الله عليه وسلم كقوله : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » وتقدم قوله « إنه لا يستغاث بى ، وإنما يستغاث بالله عز وجل » ونحو ذلك . ونهى عن التمادح وشدد القول فيه ، كقوله لمن مدح إنساناً « ويلك قطعت عنق صاحبك — الحديث » أخرجه أبو داود عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه « أن رجلا أثنى على رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : قطعت عنق صاحبك — ثلاثا » وقال « إذا لقيتم المداحين ، فاحثوا فى وجوههم التراب » أخرجه مسلم والترمذى وابن ماجة عن المقداد بن الأسود .

وفى هذا الحديث « نهى عن أن يقولوا : أنت سيدنا ، وقال: السيد الله تبارك وتعالى » ونهاهم أن يقولوا « وأفضلنا فضلا وأعظمنا قولا » وقال « لا يستجر ينكم الشيطان » .

وكذلك قوله فى حديث أنس « أن ناساً قالوا : يا رسول الله ، يا خيرنا وابن خيرنا » الخ . كره صلى الله عليه وسلم أن يواجهوه بالمدح فيفضى بهم إلى الغلو ، وأخبر صلى الله عليه وسلم أن مواجهة المادح للممدوح بمدحه — ولو بما هو فيه — من عمل الشيطان ؛ لما تفضى محبة المدح إليه من تعاظم الممدوح فى نفسه وذلك ينافى كمال التوحيد ؛ فإن العبادة لا تقوم إلا بقطب رحاها الذى لا تدرو إلا عليه ، وذلك غاية الذل فى غاية المحبة ، وكمال الذل يقتضى الخضوع والخشية والاستكانة لله تعالى ، وأن لا يرى نفسه إلا فى مقام الذم لها ،

قولـكم ، ولا يستجرينكم الشيطان » رواه أبو داود بسند جيد .

وعن أنس رضى الله عنه : « أن ناساً قالوا . يا رسول الله ، يا خيرنا ، وابن خيرنا ، وسيدَنا وابن سـيدنا . فقال : يا أيها النـاس ، قولوا بقولـكم ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد عبد الله ورسوله ، ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل » رواه النسائى بسند جيد .

والمعاتبة لها فى حق ربه ، وكذلك الحب لا تحصل غايته إلا إذا كان يحب ما يحبه الله ، ويكره ما يكرهه الله من الأقوال والأعمال والإرادات ، ومحبة المدح من العبد لنفسه تخالف ما يحبه الله منه ، والمادح يغره من نفسه فيكون آثما ، فمقام العبودية يقتضى كراهة المدح رأساً ، والنهى عنه صيانة لهذا المقام ، فمتى أخلص العبد الذل لله والمحبة له : خلصت أعماله وصحت ، ومتى أدخل عليها ما يشوبها من هذه الشوائب : دخل على مقام العبودية بالنقص أو الفساد ، وإذا أداه المدح إلى التعاظم فى نفسه و الإعجاب بها : وقع فى أمر عظيم ينافى العبودية الخاصة ، كما فى الحـديث « الـكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى شيئاً منهما عذبته » وفى الحديث « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » وهذه الآفات قد تكون محبة المدح سبباً لها وسلماً إليها ، والعجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وأما المـادح فقد يفضى به المدح إلى أن ينزل الممدوح منزلة لا يستحقها ، كما يوجد كثيرا فى أشعارهم من الغلو الذى نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذر أمته أن يقع منهم ، فقد وقع الـكثير منه حتى صرحوا فيه بالشرك فى الربوبية والإلهية والملك ، كما تقدمت الإشارة إلى شىء من ذلك . والنبى صلى الله عليه وسلم لما أكمل الله له مقام العبودية صار يكره أن يمدح ؛ صيانة لهذا المقام ، وأرشد الأمة إلى ترك ذلك نصحاً لهم ، وحماية لمقام التوحيد عن أن يدخله ما يفسده ، أو يضعفه من الشرك ووسائله (٢ : ٥٩ فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) ورأوا أن فعل ما نهاهم صلى الله عليه وسلم عن فعله قربة من أفضل القربات ، وحسنة من أعظم الحسنات .

وأما تسمية العبد بالسيد : فاختلف العلماء فى ذلك .

قال العلامة ابن القيم فى بدائع الفوائد : اختلف الناس فى جواز إطلاق السيد على

فيه مسائل :

الأولى : تحذير الناس من الغلوّ .

الثانية : ما ينبغي أن يقول : مَنْ قيل له : أنت سيدنا .

الثالثة : قوله : « لا يستجرينكم الشيطان » مع أنّهم لم يقولوا إلا الحق .

الرابعة : قوله « ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي » .

البشر . فمنعه قوم ، ونقل عن مالك ، واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم لما قيل له : « ياسيدنا » قال « السيد الله تبارك وتعالى » وجوّزه قوم ، واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار « قوموا إلى سيدكم » وهذا أصح من الحديث الأول . قال هؤلاء : السيد أحد ما يضاف إليه ، فلا يقال للتميمي سيد كندة ، ولا يقال الملك سيد البشر . قال: وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على هذا الاسم ، وفي هذا نظر ، فإن السيد إذا أطلق عليه تعالى فهو في منزلة المالك ، والمولى ، والرب ، لا بمعنى الذي يطلق على المخلوق . انتهى .

قلت : فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في معنى قول الله تعالى (٦: ١٦٤ قل أغير الله أبغي ربًّا « أي إلها وسيداً » وقال في قول الله تعالى (الله الصمد) « أنه السيد الذي كمل في جميع أنواع السؤدد » وقال أبو وائل « هو السيد الذي انتهى سؤدده » . وأما استدلالهم بقول النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار « قوموا إلى سيدكم » فالظاهر : أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يواجه سعداً به ، فيكون في هذا المقام تفصيل : والله أعلم .

باب

ما جاء فى قول الله تعالى : (٣٩ : ٦٧ وما قدروا الله حق قدره والأرضُ جميعاً قَبْضَتُه يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) .

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال « جاء حَبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا محمد ، إنّا نجد أن الله يجعل السموات على إصْبَع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء على إصبع ، والثرى على إصبع

قوله : « باب قول الله تعالى »

(٣٩ : ٦٧ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) » .

أى من الأحاديث والآثار فى معنى هذه الآية الكريمة .

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : يقول تعالى : ما قدر المشركون الله حق قدره ، حتى عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذى لا أعظم منه ، القادر على كل شىء ، المالك لكل شىء وكل شىء تحت قهره وقدرته . قال مجاهد : نزلت فى قريش ، وقال السُّدِّى : ما عظموه حق عظمته ، وقال محمد بن كعب : لو قدروه حق قدره ما كذبوه ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم . فمن آمن أن الله على كل شىء قدير ، فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره .

وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية ، الطريق فيها وفى أمثالها مذهب السلف وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف ـ وذكر حديث ابن مسعود كما ذكره المصنف رحمه الله فى هذا الباب ، قال : ورواه البخارى فى غير موضع من صحيحه ، والإمام أحمد ومسلم والترمذى والنسائى كلهم من حديث سليمان بن مهران وهو الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن ابن مسعود بنحوه .

قال الإمام أحمد : حدثنا معاوية حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله

وسائر الخلق على إصبع . فيقول : أنا الملك . فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بَدَتْ نواجذه ؛ تصديقاً لقول الحبر . ثم قرأ (وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة) » .

وفى رواية لمسلم : « والجبال والشجر على إصبع ، ثم يهزهن ، فيقول : أنا الملك ، أنا الله » .

وفى رواية للبخارى « يجعلُ السموات على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع » أخرجاه .

قال « جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا القاسم ، بلغك أن الله تعالى يحمل الخلائق على إصبع ، والسموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والثرى على إصبع ، وسائر الخلائق على إصبع ، فيقول : أنا الملك ؟ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ، قال : وأنزل الله (وما قدروا الله حق قدره) الآية » وهكذا رواه البخارى ومسلم والنسائى من طرق الأعمش به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسين بن حسن الأشقر ، حدثنا أبو كدينة عن عطاء عن أبى الضحى عن ابن عباس قال « مرّ يهودى برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فقال : كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله السموات على ذه ــ وأشار بالسبابة ــ والأرض على ذه ، والجبال على ذه ، وسائر الخلق على ذه ؟ كل ذلك يشير بأصابعه ، فأنزل الله (وما قدروا الله حق قدره) » وكذا رواه الترمذى فى التفسير بسنده عن أبى الضحى مسلم ابن صبيح به ، وقال : حسن صحيح غريب ، ولا نعرفه إلا من هذا الوجه ، ثم قال البخارى : حدثنا سعيد بن عفير حدثنا الليث حدثنى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن أبى سلمة عن عبد الرحمن : أن أبا هريرة رضى الله عنه : قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يقبض الله الأرض ، ويطوى السماء بيمينه ، فيقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ » تفرد به من هذا الوجه ، ورواه مسلم من وجه آخر .

وقال البخارى فى موضع آخر : حدثنا مقدم بن محمد حدثنا عمى القاسم بن يحيى

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعاً « يَطْوِى الله السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرضين السبع ، ثم يأخذهن بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » .

عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع ، وتكون السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك » تفرد به أيضا من هذا الوجه ، ورواه مسلم من وجه آخر .

وقد رواه الإمام أحمد من طريق آخر بلفظ أبسط من هذا السياق وأطول . فقال : حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة ، أنبأنا إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة عن عبيد الله بن مقسم عن ابن عمر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون) ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هكذا بيده يحركها ، يقبل بها ويدبر ، يمجد الرب تعالى نفسه : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم . فرجف برسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر حتى قلنا : ليخرن به » اهـ .

قوله « ولمسلم عن ابن عمر ــ الحديث » كذا فى رواية مسلم . قال الحميدى : وهى أتم ، وهى عند مسلم من حديث سالم عن أبيه : وأخرجه البخارى من حديث عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال « إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين ، وتكون السماء بيمينه » وأخرجه مسلم من حديث عبيد الله بن مقسم .

قلت وهذه الأحاديث وما فى معناها تدل على عظمة الله وعظيم قدرته وعظم مخلوقاته وقد تعرف سبحانه وتعالى إلى عباده بصفاته ، وعجائب مخلوقاته ، وكلها تعرف وتدل على كماله وأنه هو المعبود وحده ، لا شريك له فى ربوبيته وإلٰهيته ، وتدل على إثبات الصفات له على ما يليق بجلال الله وعظمته ، إثباتا بلا تمثيل ، وتنزيها بلا تعطيل ، وهذا هو الذى دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وعليه سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان ، واقتفى أثرهم على الإسلام والإيمان .

وروى عن ابن عباس قال : « ما السموات السبع والأرضون السبع في كَفِّ الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم » .

وقال ابن جرير : حدثني يونس أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد : حدثني أبي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة أُلقيت في تُرْسٍ » .

وتأمل ما في هذه الأحاديث الصحيحة من تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم ربه بذكر صفات كماله على ما يليق بعظمته وجلاله وتصديقه اليهود فيما أخبروا به عن الله من الصفات التي تدل على عظمته وتأمل ما فيها من إثبات علو الله تعالى على عرشه ، ولم يقل النبي صلى الله عليه وسلم في شيء منها : إن ظاهرها غير مراد ، وإنها تدل على تشبيه صفات الله بصفات خلقه ، فلو كان هذا حقاً بلغه أمينه أمته ، فإن الله أكمل به الدين وأتم به النعمة فبلغ البلاغ المبين . صلواتُ الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين . وتلقى الصحابة رضي الله عنهم عن نبيهم صلى الله عليه وسلم ما وصف به ربه من صفات كماله ونعوت جلاله ، فآمنوا به ، وآمنوا بكتاب الله وما تضمنه من صفات ربهم جل وعلا ، كما قال تعالى : (٣ : ٧ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) وكذلك التابعون لهم بإحسان وتابعوهم ، والأئمة من المحدثين والفقهاء كلهم وصف الله بما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يجحدوا شيئاً من الصفات ، ولا قال أحد منهم : إن ظاهرها غير مراد ، ولا إنه يلزم من إثباتها التشبيه ، بل أنكروا على من قال ذلك غاية الإنكار ، فصنفوا في رد هذه الشبهات المصنفات الكبار المعروفة الموجودة بأيدي أهل السنة والجماعة .

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى : وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وكلام الصحابة والتابعين ، وكلام سائر الأئمة مملوءة كلها بما هو نص أو ظاهر : أن الله تعالى فوق كل شيء ، وأنه فوق العرش فوق السموات مستو على عرشه مثل قوله تعالى (٣٥ : ١٠ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وقوله تعالى (٣ : ٥٥ يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليَّ) وقوله تعالى (٤ : ١٥٨ بل

قال : وقال أبو ذرّ رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما الكرسى فى العرش إلا كحلقة من حديد أُلقيت بين ظهرى فلاة من الأرض » .

وعن ابن مسعود قال « بين السماء الدنيا والتى تليها خمسمائة عام ، وبين كل سماء خمسمائة عام ، وبين السماء السابعة والكرسى خمسمائة عام ، وبين الكرسى

رفعه الله إليه) وقوله تعالى (٧٠ : ٣ ، ٤ ذى المعارج . تعرج الملائكة والروح إليه) وقوله تعالى (٣٢ : ٥ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه) وقوله تعالى (١٦ : ٥٠ يخافون ربهم من فوقهم) وقوله تعالى (٢ : ٢٩ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) وقوله تعالى (٧ : ٥٤ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) وقوله تعالى (١٠ : ٣ ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يدبر الأمر ، ما من شفيع إلا من بعد إذنه — الآية) فذكر التوحيدين فى هذه الآية . وقوله تعالى (١٣ : ٢ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش) وقوله تعالى (٢٠ : ٤ ، ٥ تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى) وقوله تعالى (٢٥ : ٥٨ : ٥٩ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً . الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً) وقوله تعالى (٣٢ : ٤ ، ٥ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون . يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) وقوله تعالى (٥٧ : ٤ هو الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) فذكر عموم علمه وعموم قدرته وعموم إحاطته وعموم رؤيته . وقوله تعالى (٦٧ : ١٦ ، ١٧ أأمنتم من

والماء خمسمائة عام ، والعرشُ فوق الماء . والله فوق العرش ، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم » أخرجه ابن مهدى عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زرّ عن عبد الله .

فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور؟ أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً؟ فستعلمون كيف نذير) وقوله تعالى (٤١ : ٤٢ تنزيل من حكيم حميد) وقوله تعالى (٤٥ :٢ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وقوله تعالى (٤٠ : ٣٦ ، ٣٧ وقال فرعون : يا هامان ابنِ لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه كاذباً) . انتهى كلامه رحمه الله .

قلت : وقد ذكر الأئمة رحمهم الله تعالى فيما صنفوه فى الرد على نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم أقوال الصحابة والتابعين . فمن ذلك ما رواه الحافظ الذهبي فى كتاب العلو وغيره بالأسانيد الصحيحة عن أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم : أنها قالت فى قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) قالت « الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإقرار به إيمان ، والجحود به كفر » رواه ابن المنذر واللالكائى وغيرهما بأسانيد صحاح . قال : وثبت عن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى : أنه قال لما سئل ربيعة بن أبى عبد الرحمن : كيف الاستواء ؟ قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق » وقال ابن وهب : « كنا عند مالك فدخل رجل فقال : يا أبا عبد الله (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى ؟ فأطرق مالك رحمه الله وأخذته الرحضاء . وقال : الرحمن على العرش استوى ، كما وصف نفسه ، ولا يقال : كيف ؟ و « كيف » عنه مرفوع ، وأنت صاحب بدعة . أخرجوه » رواه البيهقى بإسناد صحيح عن ابن وهب ، ورواه عن يحيى بن يحيى أيضاً ، ولفظه قال : « الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » .

قال الذهبي : فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء لله ، وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلى تفسير ، ونفوا عنه الكيفية . قال البخارى فى صحيحه : قال مجاهد (استوى) علا على العرش . وقال إسحاق بن راهويه : سمعت غير واحد من المفسرين يقول (الرحمن

ورواه بنحوه المسعودى عن عاصم عن أبى وائل عن عبد الله

قاله الحافظ الذهبى رحمه الله تعالى . قال : وله طرق

على العرش استوى) أى ارتفع . وقال محمد بن جرير الطبرى فى قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) أى علا وارتفع .

وشواهده فى أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم . فمن ذلك قول عبد الله بن رواحة رضى الله عنه :

شهدت بأن وعد الله حق   وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف   وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة شداد   ملائكة الإله مسومينا

وروى الدارمى والحاكم والبيهقى بأصح إسناده إلى على بن الحسين بن شقيق ، قال : سمعت عبد الله بن المبارك يقول « نعرف ربنا بأنه فوق سبع سمواته على العرش استوى ، بائن من خلقه ، ولا نقول كما قالت الجهمية » قال الدارمى : حدثنا حسن بن الصباح البزار حدثنا على بن الحسين بن شقيق عن ابن المبارك : قيل له « كيف نعرف ربنا ؟ قال : بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه » .

وقد تقدم قول الأوزاعى : كنا — والتابعون متوافرون — نقول : إن الله تعالى ذكره بائن من خلقه ، ونؤمن بما وردت به السنة .

وقال أبو عمر الطلمنكى فى كتاب الأصول : أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله استوى على عرشه بذاته . وقال فى هذا الكتاب أيضاً : أجمع أهل السنة على أن الله تعالى استوى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز ، ثم ساق بسنده عن مالك قوله : الله فى السماء وعلمه فى كل مكان ، ثم قال فى هذا الكتاب : أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى قوله (وهو معكم أينما كنتم) ونحو ذلك من القرآن : أن ذلك علمه ، وأن الله فوق السموات بذاته مستو على عرشه كيف شاء ، وهذا لفظه فى كتابه .

وهذا كثير فى كلام الصحابة والتابعين والأئمة ، أثبتوا ما أثبته الله فى كتابه على لسان رسوله على الحقيقة على ما يليق بجلال الله وعظمته ، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين ، ولم يمثلوا ولم يكيفوا كما ذكرنا ذلك عنهم فى هذا الباب .

وعن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى ا عليه وسلم « هل تدرون كم بين السماء والأرض ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : بينهما مسيرة خمسمائة سنة ، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة . وبين السماء السابعة والعرش بحر ، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ، والله تعالى فوق ذلك . وليس يخفى عليه شئ من أعمال بنى آدم » أخرجه أبو داود وغيره .

وقال الحافظ الذهبي : وأول وقت سمعت مقالة من أنكر أن الله فوق عرشه : هو الجعد بن درهم ، وكذلك أنكر جميع الصفات ، وقتله خالد بن عبد الله القسرى وقصته مشهورة ، فأخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان إمام الجهمية . فأظهرها واحتج بالشبهات وكان ذلك فى آخر عصر التابعين ، فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر . مثل الأوزاعى ، وأبى حنيفة ومالك ، والليث بن سعد ، والثورى ، وحماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وابن المبارك ، ومن بعدهم من أئمة الهدى ، فقال الأوزاعى إمام أهل الشام على رأس الخمسين ومائة عند ظهور هذه المقالة : ماأخبرنا عبد الواسع الأبهرى بسنده إلى أبى بكر البيهقى : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنى محمد بن على الجوهرى — ببغداد — حدثنا إبراهيم بن الهيثم حدثنا محمد بن كثير المصيصى سمعت الأوزاعى يقول « كنا — والتابعون متوافرون — نقول : إن الله فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته » أخرجه البيهقى فى الصفات ، ورواته أئمة ثقات .

وقال الإمام الشافعى رحمه الله تعالى : لله أسماء وصفات لا يسع أحد ردها ، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر ، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل ، ونثبت هذه الصفات وننفى عنه التشبيه ، كما نفى عن نفسه فقال (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) اهـ من فتح البارى .

قوله « عن العباس بن عبد المطلب » ساقه المصنف رحمه الله مختصراً . والذى فى سنن أبى داود : عن العباس بن عبد المطلب قال : « كنت فى البطحاء فى عصابة فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمرت بهم سحابة ، فنظر إليها ، فقال : ما تسمون هذه ؟ قالوا : السحاب ، قال : والمزن . قالوا : والمزن ، قال : والعنان . قالوا : والعنان — قال أبو داود :

فيه مسائل :

الأولى : تفسير قوله تعالى (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) .

الثانية : أن هذه العلوم وأمثالها باقيــة عند اليهود الذين فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، لم ينكروها ولم يتأولوها .

لم أتقن العنان جيداً — قال : هل تدرون ما بعد ما بين السماء والأرض ؟ قالوا : لا ندرى ، قال : إن بعد ما بينهما إما واحدة ، أو اثنتان ، أو ثلاث وسبعون سنة ، ثم السماءالتى فوقها كذلك ، حتى عد سبع سموات ، ثم فوق السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال ، بين أظلافهم وركبهم مثل مابين سماء إلى سماء ، ثم على ظهورهم العرش ، بين أسفله وأعلاه ، كما بين سماء إلى سماء ، ثم الله تعالى فوق ذلك » وأخرجه الترمذى وابن ماجة ، وقال الترمذى : حسن غريب ، وقال الحافظ الذهبى : رواه أبو داود بإسناد حسن ، وروى الترمذى نحوه من حديث أبى هريرة وفيه « مابين سماء إلى سماء خمسمائة عام » ولا منافاة بينهما ؛ لأن تقدير ذلك بخمسمائة عام ، هو على سير القافلة مثلا ، ونيف وسبعون سنة على سير البريد ؛ لأنه يصح أن يقال : بيننا وبين مصر عشرون يوماً باعتبار سير العادة ، وثلاثة أيام باعتبار سير البريد ، وروى شريك بعض هذا الحديث عن سماك فوقفه ، هذا آخر كلامه .

قلت : فيه التصريح بأن الله فوق عرشه كما تقدم فى الآيات المحكمات ، والأحاديث الصحيحة وفى كلام السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم . وهذا الحديث له شواهد فى الصحيحين وغيرهما . ولا عبرة بقول من ضعّفه ، لكثرة شواهده التى يستحيل دفعها ، وصرفها عن ظواهرها .

وهذا الحديث كأمثاله يدل على عظمة الله وكماله ، وعظم مخلوقاته ، وأنه المتصف بصفات الكمال التى وصف بها نفسه فى كتابه ، ووصفه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى كمال قدرته ، وأنه هو المعبود وحده لا شريك له ، دون كل ما سواه . وبالله التوفيق .

والحمد لله رب العالمين . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

كمل مقابلة وتصحيحاً وقراءة على يد شيخنا العلامة ، المحقق الفهامة ، بقية أهل الاستقامة ، الشيخ عبد الله بن الشيخ حسن آل الشيخ متع الله بحياته سنة ١٣٦٢ هـ .

الثالثة : أن الحبر لما ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم : صدَّقه ، ونزل القرآن بتقرير ذلك .

الرابعة : وقوع الضحك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم .

الخامسة : التصريح بذكر اليدين ، وأن السموات في اليد اليمنى والأرضين في الأخرى .

السادسة : التصريح بتسميتها الشمال .

السابعة : ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك .

الثامنة : قوله : كخردلة في كف أحدكم .

التاسعة : عظم الكرسي بالنسبة إلى السماء .

العاشرة : عظم العرش بالنسبة إلى الكرسي .

الحادية عشرة : أن العرش غير الكرسي والماء .

الثانية عشرة : كم بين كل سماء إلى سماء .

الثالثة عشرة : كم بين السماء السابعة والكرسي .

الرابعة عشرة : كم بين الكرسي والماء .

الخامسة عشرة : أن العرش فوق الماء .

السادسة عشرة : أن الله فوق العرش .

السابعة عشرة : كم بين السماء والأرض .

الثامنة عشرة : كثف كل سماء مائة سنة .

التاسعة عشرة : أن البحر الذي فوق السموات أسفله وأعلاه خمسمائة سنة والله أعلم .

والحمد لله رب العالمين . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

الفهـــــرس

صفحة		صفحة	
نبذة مختصرة	٣	بعث معاذ إلى اليمن يدعوهم إلى التوحيد	٦٨
مقدمة الشارح	٥	إعطاء على الراية يوم خيبر	٧٣
شرح البسملة	٨	لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك الخ	٧٧
معنى التوحيد	١٣	باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله	٨٠
معنى العبادة	١٦	الذين يبتغون إلى ربهم الوسيلة	٨٠
معنى (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه)	١٩	براءة إبراهيم مما يعبد قومه إلا الله	٨٤
معنى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً)	٢٠	معنى : اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً	٨٥
معنى (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم)	٢١	معنى اتخاذ الأنداد من دون الله	٨٧
وصية محمد صلى الله عليه وسلم	٢٤	من هو الذى يحرم ماله ودمه	٩٠
حديث معاذ حق الله على العباد	٢٥	باب من الشرك لبس الحلقة والخيط	٩٥
فضل التوحيد	٣١	حديث عمران بن حصين فى تعليق الحلقة وأنها لا تزيد صاحبها إلا وهناً	٩٦
حديث عبادة من شهد أن لا إله إلا الله الخ	٣٣	حديث من تعلق تميمة فلا أتم الله له الخ	٩٨
معنى لا إله إلا الله	٣٤	باب ما جاء فى الرقى والتمائم	١٠١
معنى محمد رسول الله	٣٧	حديث ابن مسعود : الرقى والتمائم والتولة شرك	١٠٢
معنى أن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته	٣٨	حديث من تعلق شيئاً وكل إليه	١٠٥
حديث عتبان بن مالك : فإن الله حرم على النار	٤٠	« رويفع : من تقلد وتراً فإن محمداً منه برىء	١٠٧
علو الله على عرشه	٤٥	باب من تترك بشجرة ونحوها	١٠٩
حديث لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا	٤٦	حديث أبى وقد الليثى فى ذات أنواط	١١١
باب من حقق التوحيد دخل الجنة	٥١	لتركبن سنن من كان قبلكم	١١٤
معنى أن إبراهيم كان أمة	٥٢	باب ما جاء فى الذبح لغير الله	١١٧
من يدخل الجنة بغير حساب	٥٣	حديث على : لعن الله من ذبح لغير الله الخ	١١٩
باب الخوف من الشرك	٦١	« من دخل رجل الجنة فى ذباب الخ	١٢١
واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام	٦٢	باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله	١٢٤
خوف النبي ﷺ على أمته من الشرك	٦٣		
باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله	٦٧		

	صفحة
حديث نذر رجل أن ينحر إبلا ببوانة	١٢٥
باب من الشرك النذر لغير الله	١٢٩
حديث : من نذر أن يطيع الله فليطعه	١٣١
باب من الشرك الاستعاذة بغير الله	١٣٣
ما يقول من نزل بمكان يخافه	١٣٣
باب من الشرك الاستغاثة بغير الله ودعاء غير الله	١٣٧
تعظيم رسول الله غير الغلو فيه	١٣٨
الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفاً	١٣٩
(ولا تدع من دون الله مالا ينفعك) الخ	١٤٢
(إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون) الخ	١٤٤
ومن أضل ممن يدعو من دون الله)الخ	١٤٤
(أمن يجيب المضطر إذا دعاه)	١٤٧
قوله ﷺ إنه لا يستغاث بى	١٤٩
باب (أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون)	١٥١
(والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير)	١٥٢
(ليس لك من الأمر شىء)	١٥٣
(وأنذر عشيرتك الأقربين)	١٥٧
باب قول الله (حتى إذا فزع عن قلوبهم)	١٦١
حديث أبى هريرة : إذا قضى الله الأمر فى السماء الخ	١٦٢
حديث: إذا أراد الله أن يوحى بالأمر الخ	١٦٥
باب الشفاعة	١٧٠
قول ابن القيم رحمه الله فى الشفاعة	١٧٢
من أسعد الناس بشفاعة رسول الله ﷺ	١٧٤
باب إنك لا تهدى من أحببت	١٧٧
حديث ابن المسيب فى وفاة أبى طالب	١٧٧

	صفحة
باب ماجاء أن سبب كفر بنى آدم الخ	١٨٣
معنى (وقالوا لا تذرن آلهتكم) الخ	١٨٤
قال ابن القيم لما ماتوا عكفوا على قبورهم	١٨٥
لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى	١٨٧
إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو	١٨٩
باب ما جاء فى التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح	١٩٢
حديث أم سلمة فى كنيسة الحبشة	١٩٢
حديث عائشة : لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد	١٩٤
حديث فى النهى عن اتخاذ القبور مساجد	١٩٨
حديث ابن مسعود : إن شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد	١٩٩
باب ما جاء أن الغلو فى قبور الصالحين يصيرها أوثانا الخ	٢٠٥
اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد	٢٠٥
وجود المسلمين دانيال فى تستر لما فتحوها	٢٠٨
(أفرأيتم اللات والعزى)	٢٠٨
لعن الله زائرات القبور الخ	٢٠٩
باب ما جاء فى حماية المصطفى ﷺ الخ	٢١٤
لا تجعلوا قبرى عيداً وصلوا على حيث كنتم	٢١٦
باب ما جاء فى أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان	٢٢٢
قول اليهود : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا	٢٢٢
معنى (عبد الطاغوت)	٢٢٤
(وقال الذين غلبوا على أمرهم) الخ	٢٢٥
لتتبعن سنن من كان قبلكم	٢٢٥

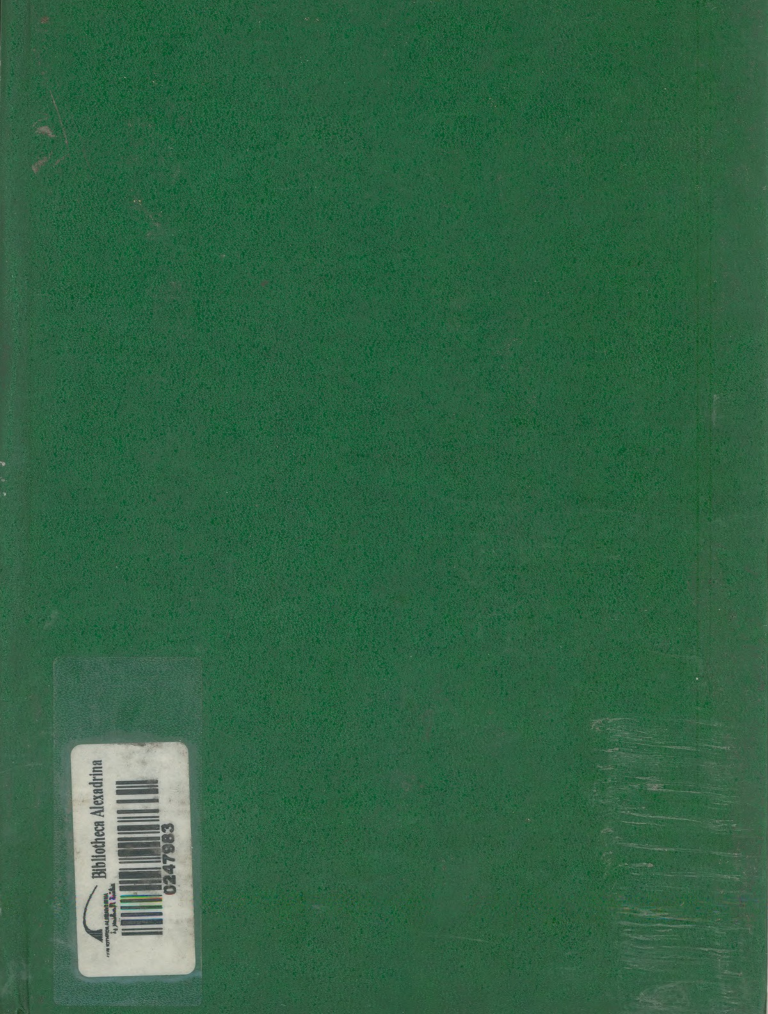
	صفحة
حديث ثوبان: إن الله زوى لى الأرض الخ	٢٢٦
إنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين	٢٢٩
سيكون فى أمتى كذابون ثلاثون	٢٣٢
الطائفة المنصورة أهل الحق	٢٣٣
باب ما جاء فى السحر	٢٣٨
ما هو الجبت والطاغوت ؟	٢٣٩
حديث : اجتنبوا السبع الموبقات	٢٤٠
« حد الساحر : ضربه بالسيف	٢٤٢
باب بيان شىء من أنواع السحر	٢٤٦
من اقتبس شعبة من النجوم	٢٤٨
ومن سحر فقد أشرك	٢٤٩
إن من البيان لسحراً	٢٥١
باب ما جاء فى الكهانة	٢٥٢
من أتى عرافاً فصدقه لا تقبل له الصلاة	٢٥٢
من أتى كاهناً فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد	٢٥٣
التحذير من الطيرة والكهانة والسحر	٢٥٤
من هو الكاهن والعراف ؟	٢٥٥
باب ما جاء فى النشرة	٢٥٩
ماهى النشرة ؟	٢٥٩
باب ما جاء فى التطير	٢٦٢
حديث : لا عدوى ولا طيرة الخ	٢٦٢
« لا نوء ولا غول	٢٦٧
« أحسنها الفأل	٢٦٩
« من ردته الطيرة فقد أشرك	٢٧١
باب ما جاء فى التنجيم	٢٧٤
ما جاء فى تعلم علم الفلك	٢٧٥
باب ما جاء فى الاستسقاء بالأنواء	٢٧٩
عقوبة النائحة إذا لم تتب	٢٨١
(لا يمسه إلا المطهرون)	٢٨٦

	صفحة
(ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا)	٢٨٩
محبة الله	٢٩٠
محبة النبى ﷺ	٢٩٤
من أحب فى الله وأبغض فى الله ووالى فى الله	٢٩٧
باب قول الله : إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه	٣٠١
أقسام الخوف	٣٠١
(إنما يعمر مساجد الله — الآية)	٣٠٢
(ومن الناس من يقول آمنا بالله ، فإذا أوذى فى الله — الآية)	٣٠٣
من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله	٣٠٥
باب قول الله تعالى : (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين	٣٠٩
(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله) الخ	٣١٠
معنى : حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين	٣١١
ما قال إبراهيم حين ألقى فى النار	٣١٣
باب قول الله (أفأمنوا مكر الله ؟)	٣١٥
اليأس من روح الله والأمن من مكر الله	٣١٧
باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله	٣١٩
معنى قول الله (ومن يؤمن بالله يهد قلبه)	٣١٩
براءة الرسول ﷺ من ضرب الخدود الخ	٣٢١
من رحمة الله بالعبد تعجيل عقوبته فى الدنيا	٣٢٢
باب ما جاء فى الرياء	٣٢٦
(قل إنما أنا بشر مثلكم) الخ	٣٢٦
الله أغنى الشركاء عن الشرك	٣٢٧
خوف النبى ﷺ على أمته من الرياء	٣٢٨

	صفحة
باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا	٣٣١
أول من تسعر بهم النار يوم القيامة	٣٣٢
أنواع الرياء	٣٣٣
باب من أطاع العلماء والأمراء فى تحريم ما أحل الله	٣٤٢
قول الإمام عجبت لقوم عرفوا الإسناد ويذهبون إلى رأى سفيان الخ	٣٤٤
اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله	٣٤٧
باب قول الله تعالى : (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا	٣٥٠
باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات	٣٦٠
ما ورد عن علماء السلف فى المتشابه	٣٦٤
باب قول الله تعالى : يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها	٣٦٨
قول الله (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون)	٣٧٠
من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك	٣٧٢
باب ماجاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله والنهى عن الحلف بالآباء	٣٧٧
باب قول : ما شاء الله وشئت	٣٧٩
باب من سب الدهر فقد آذى الله	٣٨٣
باب التسمى بقاضى القضاة	٣٨٦
باب احترام أسماء الله تعالى	٣٨٨
باب من هزل بشىء فيه ذكر الله والرسول	٣٩١
باب قول الله (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته — الآية)	٣٩٥
حديث أبرص وأقرع وأعمى	٣٩٦

	صفحة
باب قول الله (فلما آتاهما صالحاً — الآية)	٣٩٩
« باب قول الله (ولله الأسماء الحسنى)	٤٠٣
معنى (يلحدون فى أسمائه)	٤٠٤
باب لا يقال : السلام على الله	٤٠٧
« قول : الله اغفر لى إن شئت	٤١٠
« لا يقول : عبدى وأمتى	٤١٢
« لا يرد من سأل بالله	٤١٣
من صنع لكم معروفاً فكافئوه	٤١٤
باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة	٤١٦
« ما جاء فى اللو	٤١٨
ابن تيمية : كلامه على القدر	
باب النهى عن سب الريح	٤٢٤
ما يقول عند هياج الريح	٤٢٤
قول الله (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية)	٤٢٥
قول ابن القيم فى ظن السوء والذين يظنونه	٤٢٦
باب ماجاء فى منكرى القدر	٤٣٣
« ما جاء فى المصورين	٤٣٨
بعث على إلى اليمن لهدم القباب وطمس التماثيل والصور	٤٣٩
قول ابن القيم فيما ابتدعه الضالون من بدع القبور محادة لله ولرسوله	٤٣٩
باب ما جاء فى كثرة الحلف	٤٤٥
ثلاثة لا يكلمهم الله	٤٤٥
باب ما جاء فى ذمة الله وذمة نبيه	٤٥١
وصايا النبى ﷺ لقواد جيوشه بأن لايغلوا ولا يغدروا ولايقتلوا وليداً الخ	٤٥٢
باب ما جاء فى الإقسام على الله	٤٥٧

	صفحة
باب لا يستشفع بالله على خلقه	٤٥٩
« ما جاء فى حماية النبى ﷺ حمى التوحيد	٤٦٣
باب ما جاء فى قول الله (وما قدروا الله حق قدره)	٤٦٦
حديث الحبر الذى جاء يصف كيف يقبض الله السموات والأرض؟	٤٦٦
ما الكرسى فى العرش إلا كحلقة ألقيت فى فلاة من الأرض	٤٧٠
الإيمان بما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله بلا تمثيل ولا تعطيل	٤٧٠
بعد ما بين كل سماء والتى تليها ، والسابعة والكرسى ، والكرسى والعرش	٤٧٠
حديث الأوغال الذى رواه العباس	٣٧٣


Bibliotheca Alexandrina
02447983